من روائع الأدب الإيسلندي

قَلْبُ الرّجل

FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

رواية

يون كالمان ستيفنسن

دار المنى

من روائع الأدب الإيسلندي

قَلْبُ الرّجل

رواية

يون كالمان ستيفنسن

النص العربي: سكينة ابراهيم

دار المنى

يون كالمان ستيفنسن

قَلْبُ الرّجل

ثلاثية جنة وجحيم وحزن الملائكة وقلب الرجل، مهداة إلى الأخوات

برغيولوتا ك. ثرينزدوتير 1938 - 1969

ويوهانا ثرينزدوتير 1940 - 2005

وماريا كارين سيغواردوتير

Arabic edition © Bokförlaget Dar al Muna AB 2017
© Jón Kalman Stefánsson 2009

Original title in Iceland: Hjarta mannsins
Published by agreement with Copenhagen Literary Agency
Arabic text: Sukainah Ibrahim
The book has been translated with financial support from:

MIÐSTÖÐ ÍSLENSKRA BÓKMENNTA
ICELANDIC LITERATURE CENTER

This edition has been published with a subsidy
by the "Spotlight on Rights"
initiative of the Abu Dhabi International Book Fair, United Arab Emirates

Printed in Sweden

ISBN 978 91 87333 80 4

www.daralmuna.com

هذه هي الحكايات

التي يجب أن نرويها

الموت ليس نورًا ولا ظلمة ؛ هو أي شيء ما عدا الحياة . أحيانًا نلازم السهر على القوم الذين يحتضرون ونراقب حياتهم تتلاشى ؛ كل حياة كون قائم بذاته ومن المؤلم رؤيته يختفي ، رؤية كل شيء يصبح لا شيء في لحظة واحدة . طبعًا ، تختلف حياة الأشخاص ، هي مملة بالنسبة إلى بعضهم ، وبالنسبة إلى آخرين هي مغامرات هائلة ، لكن ، أي وعي ، هو على الرغم من كلِّ شيء ، عالم يمتد من الأرض إلى السماء ، وكيف لشيء بهذه العظمة أن يختفي بسهولة ، يصبح هباءً ، ولا يخلِّف وراءه ولا أثر زَبد حتى ، ولا رْجع صدى؟ مع ذلك ، مضى ردح من الزمن منذ أن انضمّ شخص جديد إلى مجموعتنا . نحن ظلال شاحبة ، بل أقل من الظلال ، وليس أسوأ من أن يكون المرء ميّتا ، وفي الوقت نفسه غير مسموح له أن يموت ، مصير كهذا لا خير فيه لأحد . في أيامنا ، لجأ بعضنا إلى سُبل مختلفة في محاولة للهروب : قذفنا أنفسنا أمام السيارات المندفعة ، أقحمنا رؤوسنا في أفواه الكلاب الضارية ، لكن صراخنا كان صامتًا ، وأنياب الكلاب غرزت خلالنا كأنها تغرز في الهواء ؛ فكيف يُعقل أن نكون أقل

من لا شيء ومع ذلك نتذكر كل شيء ، أن نكون أمواتًا وفي الوقت نفسه نشعر بالحياة بمزيد من الغزارة أكثر من أي وقت مضى؟ والآن ، مؤكد أنكم ستعثرون علينا في الأمسيات جاثمين في المقبرة ، خلف الكنيسة التي قامت هنا لقرون ، ولو أنها ليست دائمًا البناء نفسه . كنيستنا ، حيث حاول القس ثورفالدور ، بلا نتيجة ملموسة ، لسوء الحظ ، أن يجد فيها المغفرة والتغلب على ضعفه ؛ لأن قوة المرء لا تقاس إلا في فترات ضعفه ، وكيف يواجهه . الكنيسة الخشبية المكسوة بألواح المعدن المتموج اختفت منذ وقت طويل وحلّت مكانها كنيسة أخرى حجرية ، من مادة الجبال ، وهذا ملائم ؛ ففي مثل هذه المناطق ينبغي أن تُشكّل أبنية الكنائس على غرار الجبال أو السماء . الأوقات الوحيدة التي نجد فيها مسحة سلام هي هنا في المقبرة . هنا نعتقد بأننا قادرون على سماع تمتمات الموتى في باطن الأرض ، تلميحات بعيدة من محادثات جذلة . بهذه الطريقة يمكن مخاتلة اليأس . بَيد أن هذه اللحظات الهادئة ما فتئت تتضاعف ببطء ، بل يبدو أنها طالت ، تحولت شيئًا فشيئًا من أجزاء ثوانٍ إلى ثوان . نحن لا نشعر أننا على ما يرام بالضبط ، إلا أن هذه الكلمات تُبقينا دافئين ، هي أملنا ، وحيث هناك كلمات هناك حياة أيضًا . ما عليكم إلا أن ترحبوا بها ، وبالتالي يصبح لنا وجود . رحبوا بها وبالتالي يكون هناك أمل . هذه هي الحكايات التي يجب أن نرويها ، فابقوا معنا .

يقول نص عربي طبي قديم :

إن قلب الرجل يتألف من حُجرتين ،

إحداهما تدعى السعادة والأخرى تدعى اليأس ،

فأيهما علينا أن نصدّق؟

١

أين تنتهي الأحلام ، وأين يبدأ الواقع؟ تنبع الأحلام من الداخل ، تتقطر من العالم الكامن فينا ، وربما هو محرّف ، إنما ما الذي ليس محرّفًا ، ما الذي لا يقبل الطعن؟ أحبك اليوم ، وأكرهك غدًا؟ ذاك الذي لا يتغير أبدًا يكذب على العالم .

يستلقي الفتى وقتًا طويلًا مطبق العينين . غير متأكد من أنه في النهار أو في الليل ، أو أهو مستيقظ أم نائم . تدهور هو وينز واصطدما بشيء صلب . وأولًا فقدا أثر هيالتي ، عامل المزرعة الذي رافقهما من نيس ؛ وثلاثتهم سحبوا التابوت الذي تستقر فيه آستا على الجبال والمروج . ثم خرّ الفتى وينز على شيء صلب . كم مرّ من الوقت؟ وأين هو؟ يفتح عينيه بتردد ، لا يمكن أن يكون المرء متأكدًا دائمًا مما ينتظره بعد النوم ، العوالم تتغير بين عشية وضحاها ، تُطفأ حياة الناس ، تتسع المسافات بين الكواكب والظلمة ، تزداد استفحالًا ؛ يفتح عينيه على مضض ، بعصبية ، وهو مستلق في غرفة مقمرة ، مستلق تحت ضوء قمر أبيض يشبه الموت ، ووجه هيالتي مقلقٌ بشحوبه بينما يجلس على كرسي ويحدّ النظر في الفتى ، وآستا واقفة

إزاء السرير ، تنشر البرد . أنتَ تنجو دائمًا ، يقول هيالتي بفتور . نعم ، هناك دائمًا أناس جاهزون لإيقافه على قدميه ، يقول ينز الجالس في سرير يجاور سريره وقد نسج شعاع القمر قناع الموت عليه . الآن لا أحد يمكن أن يساعدك ، تقول آستا . لا ، يقول ينز موافقًا ، وهو لا يستحق . ماذا لديه ليقدّم على أي حال ، وأي حقّ يملك ليعيش؟ يتساءل هيالتي . يفتح الفتى فمه ليجيب ، يتمتم بكلام ما ، ويشعر بصدره يرزح تحت وطأة حمل ثقيل ، ثقيل جدًا بحيث لا يكاد يقدر على الكلام ، ثم يبدأ الثلاثة في التلاشي شيئًا فشيئًا ، يتلاشون ببطء وضوء القمر يتحول إلى ثلج لا نهائي ، والغرفة إلى مرج صقيعي . والسماء طبقة كثيفة من جليد يطمس كل شيء .

٢

أمِنَ الآمن لي أن أفتح عينيّ؟ ربما هو لم ينم ، ربما يستلزم موت المرء هذا الوقت المديد كله . لا يسمع عزيف الريح ولا هسيس الثلج المهتاج ، ولا يشعر بالبرد . لا بدّ من أنني استغرقت في النوم على الثلج ، يفكّر الفتى ، إنه النوم الذي يتحول إلى موت سلس ومريح . وليس بإمكاني أن أقاومه ، ولا أحد يستطيع مساعدتي الآن ، إنّ آستا على صواب ، ولماذا أقاوم ما دام الأفضل كله قد ولّى؟ لكن يُفترض أن أتلقى التعليم ، غيسلي ، مدير المدرسة بنفسه يُفترض أن يعلّمني ، أليس الموت خيانة مني ، ألا يجب أن أقاوم؟ أليس هو مستلق في السرير؟ يتهيأ له كما لو أنه مستلق في سرير طري ، وهذا غريب . لعله في غرفته في دار غيرترود ويحلم بهذا فقط ، بالرحلة مع ينز في معمعة العواصف والثلج ، أمِن المعقول أن يحلم بذلك الثلج كلّه ، بتلك الرياح كلّها ، بالعديد من الأرواح الحية والأرواح الميتة ، هل الأحلام جسيمة بما يكفي لتشتمل على ذلك كله؟ يعجز عن فتح عينيه ، هكذا ببساطة . جفناه ثقيلان مثل كتل حجارة ثقيلة . يحاول أن يستشعر ما يحيط به ، يطلق يديه في بعثة استكشافية ، لكنهما أثبتتا أنهما

بلا فائدة كعينيه ، فهو غير قادر ولا على الإحساس بهما ، إنهما ميتتان ، لقد قضم الصقيع يديه وها هما ممددتان هناك كنفايات خشب عتيقة في الثلج . أين أنتَ يا ينز؟ يفكّر أو ربما يتمتم قبل أن يغرق ثانية في النوم ، هذا إن كان نومًا حقًا ، وليس موتًا ، يغوص في السبات ، يغوص في الكوابيس .

٣

أحزمتَ أمركَ ما إذا تنوي أن تعيش أو تموت؟ تسأله ، هذه المرأة أو الصبيّة . شعرها أحمر ، الموتى لديهم شعر أحمر . لا أدري ، يقول ، لست متأكّدًا من أنني أعرف الفرق بينهما . ولست متأكّدًا أيضًا من أن هذا مهم جدًّا . سأقبّلكَ ، تقول ، وحينها ستدرك الفرق ، أنت ميت حتمًا إن لم تشعر بالقُبَل . تتقدّم نحوه وتنحني فوقه ، شعرها قاني الحمرة بحيث لا يمكن أن يكون حقيقيًا ، وشفتاها دافئتنان ، ناعمتان . ما الحياة إن لم تكن في قُبلة؟

٤

بقايا ضوء تكتنف الفتى عندما يصحو ، إنه الغسق في الواقع . وهو مضطجع في سرير طري ، تحت لحاف تشبه رائحته نسيم الربيع المنعش ، وهناك يداه ، تنتظرانه بإخلاص وصبر ، لم يقضمهما الصقيع ، وفي وسعه أن يرفعهما ويحرّك أصابعهما ، ولو بمشقة ، إنهما كرجلين هرمين مشوّشين ، لكنهما ما زالتا في مكانهما . رائع ، يتمتم . يتمكن من تمييز حدود نافذتين خلف الستائر ، ويسمع تنفسًا عميقًا على مقربة منه ، يستجمع الشجاعة والقوة ليرفع جسمه على مرفقيه وينظر من حوله . يرى أنه في غرفة لا بأس باتساعها ، وهناك سرير آخر ، ورجل راقد فيه يتنفّس ، وذاك الرجل ينز . هما ، إذًا ، على قيد الحياة . كيف يكتشف المرء أنه حيٌّ وليس ميتًا؟ الأمر ليس واضحًا دائمًا . يمعن التفكير في هذا ، ثم يرفع سبابة يده اليمنى ، يعضّ الإصبع بعزم ويشعر بالألم . بناءً على ذلك ، يجب أن تكون سبابته حيَّة ، وهذا شيء يُحتسب على أي حال . من الناحية الأخرى ، يضطر إلى بذل مجهود كبير لينهض ، وهذا يصيبه بالدوار ، يجب أن يبقى مستلقيًا حيث هو ، كان نهوض الإنسان على قدميه غلطة ، آنذاك بالضبط بدأت

لعبة شدّ الحبل بين الجنة والجحيم . الأرضية باردة ، وبخطوات عرجاء يقترب الفتى من سرير ينز ، يقف أمامه ، يراقبه يتنفّس ، ثم يجلس على طرف السرير متنفسًا الصعداء . جيد أن تُكتب الحياة لهذا الرجل الصامت والصارم ، في هذه الحالة لن يقيّد الغرباء أخته هالا ، ولن تركلها أقدامهم .

يسمع حركة وتدخل الغرفة امرأة قصيرة ، تعبير وجهها حادّ بعض الشيء ، كما لو أنها لا تتوقع شيئًا جيدًا في هذه الدنيا . أنت مستيقظ إذًا ، تقول . أيُعقل أن تكون المرأة نفسها في حلمه ، المرأة التي قبّلته ، هي في منتهى الحدّة ، وتكبره على الأقل بنحو عشرين سنة؟ ما أنا؟ يسأل . كيف لي أن أعرف ما أنتَ؟ أعني أين أنا؟ في دار الطبيب في سليتوري ، وأين يمكن أن تكون غير هنا؟

هذا الصوت ليس من حلمه ، هذه المرأة ليست حلمًا ، هي أقرب إلى وصلة حبل ، حازمة وراسخة . في سليتوري ، يكرّر ما قالته بتؤدة ، كما لو أنه يتذوق هذا الاسم الذي كان هدفهم على مدى يومين وليلتين ، السكينة والاستراحة بعد العواصف . لقد نجح في الوصول إذًا . هو وينز نجحا . لكن ماذا عن هيالتي؟ تضع يديها على وركيها ، ولا تبقى مسافة كبيرة بين عينيها ، ويظهر عليها شيء من نفاد الصبر ، لعلها تدرك أن الحياة البشرية قصيرة ، تغير السماء لونها وبالتالي يموت شخص ما . ما يعني أننا نجحنا في الوصول ، يقول الفتى كأنه يحدّث نفسه . هذا ما يبدو ، تجيب المرأة .

إنما كيف وصلنا إلى هنا؟ و . . . إلى السرير؟ أعني أنا وينز ، أنا لا أتذكر شيئًا .

أنت لا تتذكر أي شيء ، وفي الوقت نفسه أنت بلا ريب هذيت كثيرًا .

أهذيتُ؟

بدأتَ في الكلام حالما وصلت إلى الدفء ، نصفه لم يكن واضحًا ، زِد على ذلك أنك أردت أن تعود أدراجك إلى العاصفة ، بمؤخّرتك العارية ؛ واضطررنا إلى كبح جماحك . نعم ، عاري المؤخرة ، إذ كان ينبغي نزع الثياب عنكما طبعًا ، تلك المتجمدة من الصقيع ، وكان ينبغي فرك الحياة فيكما .

تمضي إلى النافذة ، تفتح الستائر بسحبة واحدة سريعة فيتدفق ضوء النهار . وأين هيالتي؟ يسأل الفتى بعد أن تكيّفت عيناه قدر الإمكان مع الضوء . هيالتي تكرّر المرأة عند مدخل الباب وهي في طريقها إلى الخروج ؛ لا فكرة لدي . بربرتك أرسلت عشرة رجال إلى الليل ، وهم بالكاد نجوا من انهيار جليدي . انتظري ، يصيح الفتى تقريبًا بينما تدير ظهرها له . كما لو أني أملك وقتًا للانتظار ، تقول وتغادر .

تترك الباب منفرجًا وراءها ، يخفت وقع خطواتها السريعة ، خطوات قصيرة ومستعجلة ، وبعد برهة قصيرة يسمع أصواتًا . ينز يتنفّس ببطء بالغ بحيث يمكن القول إنها أنفاس مسالمة ، كما لو أن هذا الرجل الضخم قد قنع أخيرًا بالحياة ؛ النوم قادر على خداعنا هكذا . ما المدة التي ناماها ، وهل كان الوقت ليلًا عندما اصطدما بالبيت؟ مرة أخرى ينهض الفتى من السرير بحذر ، تحمله قدماه ، لكنهما في حالة مزرية ، شاختا إلى حد كبير ، ويحتمل أن قدمه اليمنى قد كبرت بضعة عقود . الخارج مضيء إلى حدّ ما ، لعل الوقت يقترب من منتصف النهار ، ما يعني أنه على الأقل نام اثنتي عشرة ساعة ، ولا عجب في أنه مشوّش الذهن . الجو غائم ، وليس هناك ما يشير إلى تساقط ثلج ، رياح قوية ، وبرد ، بلا ريب ، الريح تبعثر

الثلج هنا وهناك ، كأنها تشعر بالسأم ، إلا أنها لا تحجب المشهد في أي اتجاه ، وهناك البحر ، رصاصي ، هائل الثقل ، يتلوى ويتقلب بين الجبال . ينظر إلى اليمين حيث يمتد المحيط نحو المدى ، أكثر هدوءًا في امتداده اللانهائي . الجبال بيضاء ، أكثر نأيًا من أن تشكل تهديدًا ، كلية البياض باستثناء أحزمة المنحدرات ذات السواد القاتم ، مثل الباب إلى الجحيم . يمرّر طرف إصبع على شفتيه بخفّة ، كأنما يبحث عن قبلة . أكانت حلمًا ، تلك القبلة ، والصوت والشعر الأحمر ، والدفء؟

الوقوف عند النافذة يصيبه بالبرد ، فالصقيع والثلج يتنفسان خلال الزجاج الرقيق . يلمح بضعة بيوت مطموسة بالثلج ، قواقع باردة تحتوي في طياتها الحياة . ينحني إلى الأمام ويميز حدود الكنيسة ؛ هل آستا فيها ، تنتظر أن تُوارى الثرى؟ وأين هيالتي؟ يمعن الفتى النظر كأنه يأمل أن يرى هيالتي يثب من أحد البيوت المحجوبة بالثلج إلى بيت آخر ، ربما ليبحث عن بوثيلدر . يقول كتاب مشهور : إن الحياة هي العثور على شخص آخر ليعيش المرء معه ، ثم البقاء على قيد الحياة بعد ذلك الاكتشاف ، وهذا لا بأس به إلى حدّ بعيد ، لأن نجاة المرء مع الآخرين أسهل من نجاته وحده . نحن نولد وحيدين ، ونموت وحيدين ، ومن المفجع أن نعيش وحيدين . يحاول الفتى أن يفكر في راغينهيلد ، ابنة فريديريك ، وكيل متجر تريجفي وشركته التجارية . كانت تنوي السفر لتمتطي حصانًا تحت أشعة الشمس ؛ إلا أن شخصًا يأتي صاعدًا الدرج ، وهو يخطو بتثاقل . يهمّ بالإسراع للعودة إلى السرير ، ليصبح تحت حماية الأغطية ، ثم يتراجع ، يقرّر العودة إلى النافذة ، ثم يتوقف ، وهكذا يجد نفسه بين الاثنين ، أو بالأحرى ليس في أي مكان عندما يدخل الغرفة رجل متوسط السن ، تصرّ الأرضية تحت جسمه

الثقيل ، بنيته متينة ، وهو طويل نوعًا ما ، أصلع تقريبًا مع سالفين كبيرين كثيفين ، يرتدي سترة صوفية وصدرية ، أنفه بالغ الحمرة ، عيناه الزرقاوان الفولاذيتان مستقرتان بعمق في وجهه ، وتجعلان أنفه يبدو أضخم . أنتَ مستيقظ ، هذا صحيح كما أرى ، يقول الرجل ؛ صوته جهوري يشوبه شيء من الإجهاد ، أو أجش ، وتندّ عنه تنهيدة . جيد أنك استطعت أن تنال قسطًا من الراحة ، تقول امرأة تظهر إلى جانب الرجل ، أقصر منه بما يزيد عن مسافة رأس وأصغر سنًا ، بينهما ما يمكن أن يقارب عشرين سنة ، نحيلة ، ذات شعر أشقر كثيف وطلعة بالغة الإشراق إلى درجة أن الفتى يبدأ مجددًا في التفكير في أشعة الشمس ، في الصيف ، وفي ليالي شهر حزيران الزرقاء : أترى ذلك يعود في يوم؟ المرأة التي تبدو مثل وصلة حبل تتكئ على عضادة الباب ، تصالب ذراعيها على صدرها الكبير ؛ وتعبير وجهها يبدو أنه يقول : حسنًا إذًا ، ها أنتَ ، فماذا الآن؟

لعدّة لحظات ، يقف الفتى في وسط الغرفة أعزل ، مرتديًا ثياب شخص آخر من الصوف البسيط ، واسعة عليه كثيرًا ، كأنما الحياة لا تكفّ عن السعي بإصرار لتقلّل من شأنه . يدسّ الرجل إبهاميه في بنطلونه ويقول ، جيد ، بينما تقول المرأة المشرقة : ينبغي أن ترتاح ، فيمضي إلى السرير ويستلقي . أسعفيني بالحساء ، تردف من غير أن تزيح عينيها عن الفتى ، فتفك المرأة الأخرى ذراعيها المتصالبتين وتغادر ، تصبح خطوات منحسرة . يجدر بك حقًا أن تبقى مستلقيًا ، تتابع المرأة وهي تجلس على طرف السرير ، ومع اقترابها تغدو أكبر سنًا ، ثمة خطوط تجاعيد باهتة في وجهها ، أثلام صنعتها مخالب الزمن . يريد أولافر أن يلقي نظرة عليك ، وبعد ذلك نرغب حقًا في أن نسمع عن رحلتكما وعن آستا المسكينة ، لا

شكّ عندي في أن القوم هنا بالكاد فكروا أو تحدثوا عن أي شيء آخر منذ وصولكما إلى القرية ، أنت وهذا الرجل الضخم ، تقول وترمق ينز . يلقي نظرة عليّ؟ يستفسر الفتى ، من غير أن يعرف ما الطريقة التي يجدر به أن يتخذها في اضطجاعه على السرير .

عذرًا ، أنت تجهل من نحن ، تقول المرأة ، هذا أولافر الطبيب في هذه المنطقة وزوجي ، تلوّح بإحدى يديها قليلًا ، كما لو أنها جناح ، مشيرة إلى الرجل الذي يؤدي انحناءة سريعة ويبتسم ، بينما تخترق عيناه الفتى وهما تتفحصانه . أنا شتاينان ، تضيف وتقف لتفسح المجال لزوجها الذي يجلس بتثاقل عند طرف السرير ، متنهدًا قليلًا ، كما لو أنه لا يشعر بالراحة لأن يكون في وضعية الوقوف في لعبة شدّ الحبال الأبدية والمرهقة ، ويشرع في نخز الفتى طارحًا أسئلة مقتضبة ومحددة . نعم ، يمكنني أن أحرك ساقي ، لا ، لا ، لا خدر في ذراعي ، نعم ، وجع في رقبتي ، وإعياء ، نعم وضعف . حسنًا ، تقول شتاينان ، ويقف زوجها ليسمح لها بالجلوس ثانية . إنه يافع ، يقول ، ولذلك يستطيع تحمّل أي شيء . الراحة والطعام الجيد والماء ، وتجنب البرد ، وسيستعيد عافيته جيدًا في غضون أسبوع إلى عشرة أيام . أنت في ريعان الشباب ، تقول شتاينان أو توافق على كلام زوجها . لطيف أن يكون المرء فتيًا ، يعلّق أولافر ، تغيرات مطردة ، أنت شيء اليوم ، وشيء مختلف تمامًا غدًا . يجب أن نبقى كلنا شبابًا ولا نهرم أبدًا ، لا نسمح للزمن مطلقًا أن يدركنا . لطالما رفضتَ التغيرات ، تقول زوجته وهي تهزّ رأسها الأشقر قليلًا ، أنت تمقتها .

ينز أهو بخير؟ يسأل الفتى بصوت خافت والشعور بالغثيان يعتريه فجأة .

ينز، اسمه ينز إذًا، الرجل الضخم، يقول أولافر، أوه، حسنًا، وضعه أسوأ من وضعك، لا سبيل للإنكار، لقد عانى من عضة الصقيع.

أسوأ؟ يسأل الفتى بتردّد، ما يعني أنه ليس خارج نطاق الخطر؟ ما تعني بخارج نطاق الخطر، متى يكون المرء خارج نطاق الخطر؟ يسأله أولافر، فعلتُ ما في وسعي، لكن من المحتمل أن ينتهي بمشية عرجاء. وربما أسوأ.

يصمتون كلهم. كما لو أنهم يعيدون التفكير في الكلمات الأخيرة «وربما أسوأ» . . . ما معناها؛ ما مدى سوء الأسوأ، كم يبعد الموت عن الحياة؟

يتلجلج الفتى قليلًا، ثم يسأل بتردد، أنتم لم تعثروا على هيالتي؟ وقد تجرأ أخيرًا على السؤال، لأن الناس يبقون أحياء طالما لا نأتي على ذكرهم، يبقون بمأمن في الصمت، وحالما نبدأ في الكلام يموت أحدهم. هيالتي، يقول أولافر وهو يلقي نظرة على زوجته، ثم تجاه النافذة؛ قلتَ الكثير عن هيالتي هذا، ولذلك طلبنا من الفتيان أن يخرجوا إلى العاصفة. عشرة منهم. جمعتهم ألفايدر في غمضة عين. ليل وعاصفة وانهيار جليدي، نعم، هكذا كانت الحال، ثم يعاود النظر إلى الفتى ويكرّر، هكذا كانت الحال كما أقول لك! كما لو أنه يجهل هذا، تقول زوجته بصوت خافت وهي ترنو إلى الفتى؛ عيناها جميلتان، هما مثل نجوم عريقة دافئة، إنها الليلة نفسها والعاصفة نفسها عندما انجرفا إلى هنا. يقترب أولافر من الجدار ويسحب كرسيًا خشبيًا، يجلس، يهز رأسه موافقًا، معكِ حقّ طبعًا. فهما حرفيًا قُذفا على البيت، وأفزعني ارتطامهما إلى درجة أنني أرقت كأس الشتاء الأخير من مشروب الشيري؛ وبالتالي تلاشت تلك

القطرات المتبقية ، وتلاشى ذلك المذاق . يطبّل على ركبتيه بأصابع قصيرة نسبيًا ويشرع في تصفير لحن ممطوط . أنا وأولافر ، تقول شتاينان ، كأنها تحاول الشرح ، كنا سهرانَين نكتب بعض الرسائل عندما وصلتما . . . وصلا بقرقعة مدوية ، يقاطعها أولافر ، نعم نعم ، توافقه ، بقرقعة مدوية . بووم ، يقول أولافر وهو يوجه إلى فخذه صفعة سريعة مباغتًا الفتى . إنما ، بالحكم على ما قلته ، تتابع شتاينان ، لم تكونا تسافران وحدكما ، وبناء عليه أرسلنا الرجال إلى الجبل . أخرجناهم إلى تلك العاصفة المجنونة ، يقول أولافر ، فعثروا على آستا من نيس ، وعلى زلاجة وحطام تابوت ، ولا شيء آخر ما عدا ذلك .

يغمض الفتى عينيه ، مغلوبًا بغثيان مفاجئ ، وتأتيه صورة هيالتي خارج المزرعة في نيس ، تملأ وعيه ؛ الرجل يدحرج أمامه كرة ثلج لا تكفّ عن التوسع ، يحمل الصبي الأصغر مثل كيس تحت ذراعه ، والأطفال الآخرون يطفرون على مقربة منه . أيُعقل أن يكون هذا الرجل الضخم مع مسحة الحزن التي تكسو وجهه قد مات في العراء؟ سيتدبر أمره ، كان ينز قد قال ، وينز على دراية بهذه الأمور . بل عليه أن يكون على دراية بها . لعل هيالتي عاد بكل بساطة إلى الأطفال ، إلى المكان الذي ينتمي إليه ، عند الخليج الذي وراء العالم . الأطفال يحتاجونه ، والدنيا لا يمكن أن تكون فظيعة إلى هذه الدرجة بحيث تسلبهم ذلك الرجل العتيد . حسنًا ، عليك أن تأكل الآن ، تقول شتاينان . صوتها مُطمئِن كالعناق الدافئ ؛ هناك أشخاص يجب ببساطة أن يجلسوا إلى جانب المرء ويحدثوه ، يخففون بأصواتهم إعياءه وآلامه . يفتح الفتى عينيه ، يرى أن المرأة الأخرى ، القصيرة ، وصلة الحبل ، قد عادت حاملة صينية يتصاعد منها

البخار؛ لا بدّ من أن اسمها ألفايدر، وهي التي جمعت الرجال ليبحثوا عن هيالتي وعن آستا باستثناء أنها كانت ميتة، ومن العبث البحث عن الموتى، المرء لا يبحث عما ما عاد له وجود. يتناهى إليه صوت ضحك طفل خافت من الطابق الأرضي، الحياة تستمر بالضحك رغمًا عن الموت، إنها لا تطاق ولا مذاق لها لكنها مهمة جدًا لنا، فهي مقرّنا. تساعده شتاينان على الجلوس، تدعم أسفل ظهره بوسادة، وتضع ألفايدر الصينية على حجره، صينية الحساء الساخن، تنحني فوق الفتى لتعدّل وضعية الصينية، وثمة رائحة قوية ونفاذة قليلًا تنبعث من ياقتها. يمعن الفتى النظر في طبقه لحظات طوال. كُل يا عزيزي، تقول شتاينان. فيقول وعينيه على الحساء، هيالتي، أو كان هيالتي عامل مزرعة بيارني وآستا. وجعلته صيغة زمن عبارته يتشوّش، أيجب أن يتحدث بصيغة الماضي أو الحاضر، أيموت هيالتي إذا ذكره الفتى بصيغة الماضي؟ لا أتذكّر أي هيالتي هناك، تقول شتاينان، أنا على أي حال أنسى الأسماء دائمًا، وأنسى الأشخاص كذلك. فيضيف أولافر، زِد على ذلك أن بعض الناس يصعب تذكرهم طويلًا. نعم، ثمة أشخاص قابلون لأن يتذكرهم المرء أكثر من الآخرين.

ألفايدر: عرفت رجلًا بذلك الاسم، لكنه غرق قبل عدة سنوات.

أولافر: البحر، تبًا، ذاك قاسٍ، أكانت لديه عائلة؟

ألفايدر: أربعة أطفال وزوجة.

هذا بالفعل ليس عادلًا، يعلّق أولافر وهو يتنهّد بهدوء.

ألفايدر: ثمة عدالة في هذا العالم، كان ما قالته زوجته عندما علمت عن حادثة الغرق.

أولافر: ماذا؟

وللحساء يقول الفتى بنبرة حازمة : هيالتي لم يغرق . . . هو عامل مزرعة بيارني وآستا . . . أو كان . . . أعني هي ميتة الآن طبعًا .

الحساء دسم وساخن ومغذٍ ، يتناوله من غير أن يدرك ما يفعله ، كما لو أنه في حالة ذهول .

تأخذ ألفايدر الصينية ؛ ومرة أخرى تفوح تلك الرائحة الدافئة النفّاذة . أأُحضر له القهوة أيضًا؟

أولافر : أحضري كمية كبيرة لعينة من القهوة ، يا عزيزتي ثورديس . فيرفع الفتى عينيه ؛ غريب جدًا عندما يستبدل الناس اسمًا باسم من لحظة لأخرى . وتهمس ثورديس بكلام ما لا يكاد يُسمع ، بينما يغمض الفتى عينيه ويستحضر صورة هيالتي بوضوح ، بوضوح لا يطاق ، يرى عينيه ، مخدوشتين بخيبة الأمل ، وربما بالحزن ، يسمع آخر جملة قالها هيالتي قبل أن تفلت الزلاجة مع التابوت ويفقد كل واحد منهم ، هم الثلاثة ، أثر رفيقيه . تبًا ، ألا يأتي المرء إلى هذه الحياة إلا ليموت؟ ثم يقولها ، يفتح عينيه ويقول ، أيمكن إرسالهم ثانية للبحث عن هيالتي؟

أولافر : ماذا؟ من جديد للمرّة الثالثة؟

المرّة الثالثة؟ يستفسر الفتى . نعم ، يقول الطبيب ، أتيح لهم أن يبحثوا على نحو أفضل أمس ، وهذا يعني أنهم بحثوا عنه مرتين ، لم يكن الجو بسوء المرة الأولى ، والريح لم تعصف بتلك القوة التي يمكن أن تطيح بالمرء ، إلا أنهم لم يعثروا على شيء . افترضنا أن هناك أشخاصًا آخرين يشاركونكما نقل الجثمان ؛ فنقل تابوت عبر الجبال يتطلب أكثر من شخصين .

الفتى : كنا قد أصبحنا عند الوادي .

تنظر شتاينان إلى زوجها وتقول : يمكن الآن الوقوف بثبات وإلقاء نظرة جيدة في الأنحاء . فيتحامل الطبيب على قدميه ، يخرج ويصيح بصوت هادر : ألفايدر اجمعي بعض الفتيان واطلبي منهم أن يذهبوا ويبحثوا عن هذا الهيالتي! قولي لهم أن يتتبعوا مسار الوادي! وعليهم أن يواجهوني إذا تذمروا كثيرًا! لن يسعدهم هذا أولئك الفتيان المساكين ، يردف عندما يعود . مستحيل أن يكون المرء سعيدًا طوال حياته ، تعلّق شتاينان ؛ لا ، يوافقها أولافر ، سيكون ذلك مغمًا على المدى البعيد . أتشعر أنك قادر على سرد قصة رحلتكم علينا؟ تسأل شتاينان الفتى . نعم ، يردف أولافر ، لن يكون من السيئ أن تزوّدنا بالحكاية ، ثم يضيف ، وها هي القهوة ، عندما تعود ثورديس مع قهوة لثلاثتهم ، ويدرك الفتى أنه لن يستطيع تجنُّب روي الحكاية ، فهذا إلى حدّ ما متوقّع منه . أيوجد هنا في أحد البيوت ، يقول بتأنٍ ، امرأة تحمل اسم بوثيلدر! لا ، لا يعرف الزوجان امرأة بذلك الاسم ، هي على الأرجح كانت هنا قبل ثلاث سنوات . نحن هنا منذ عشرين سنة ، يقول أولافر ، ولم نجتمع قط بأي امرأة تحمل هذا الاسم ، لماذا تسأل؟ ليس لسبب معين ، يتمتم الفتى وهو يشعر بما يشبه العقدة في معدته . ينظر إلى ساعي البريد ، يراقب الغطاء يعلو ويهبط مع أنفاسه . أولئك الذين يتنفّسون أحياء ، مهما عنى هذا . ثم يبدأ في قصّ حكايته . أصيب غودومندر ساعي البريد الاحتياطي بوعكة صحية ، هكذا بدأ كل شيء .

٥

يستيقظ ينز في المساء .

كان الفتى قد غفا منهكًا من الإعياء الذي أصابه بعد استعادة تفاصيل الرحلة . أحيانًا يستلزم استحضار الأحداث الماضية بذل الجهد ، وآنذاك نكتشف أن الحياة ليست أبدًا خيطًا غير منقطع ، ما عدا عن طريق الصدفة التي تطرأ بين فينة وأخرى ، وهذا جميل بقدر ما هو همجي . ثمة أحداث تعبرنا وتختفي من غير أن تترك وراءها أثرًا ، ثم هنالك أحداث أخرى لا نفتأ نعيشها ثانية ، لأن ما يمضي يسكننا ، يلوّن أيامنا ، ويحوّل مجرى أحلامنا . الماضي متشابك جدًا مع حاضرنا ، بحيث لا يمكن دائمًا التمييز بينهما ، الكلمات التي ينطقها المرء اليوم تعود وتجده بعد خمس سنوات ، تأتيه مثل باقة أزهار ، مثل سلوى ، مثل سكين دامية . وما يسمعه غدًا يحوّل قُبلة قديمة حميمة إلى ذكرى لدغة أفعى .

قصّ عليهم الحكاية ، عاش الأحداث مجدّدًا ، لكنه لم يفصح عن كل شيء ، لم يخن ينز ، لم يأت على ذكر تخاذل ساعي البريد في القارب ولا ما قاله عن هالا وأبيه ، لم ينحرف الفتى نحو ما هو قريب جدًا من قلب

ينز ، بيد أنه تحدّث عن البنت الصغيرة ، تلك التي تكح بشدة رهيبة في فيترارسترند ، تكح إلى درجة أن خيط حياتها يكاد تقريبًا ينقطع . أخبرهم عن القسّ في فيك ، يا لكيارتان المسكين ، تمتم أولافر . هذا بغضّ النظر عن آنا ، علّقت شتاينان ، من المؤلم أن يفقد المرء بصره . فسارع أولافر إلى القول ؛ الأسوأ أن يفقد المرء شغفه بالحياة . أأنتَ متأكد ، سارعت شتاينان إلى مواجهته ، من أن الظُّلمة المحيطة بآنا لم يسببها الحرمان من الحبّ ، وليس اعتلال النظر؟ لا تكوني سخيفة ، أجاب أولافر ، الناس لا يفقدون بصرهم من الحرمان من الحبّ ، هذا ببساطة مستحيل ، العمى حالة بيولوجية ، حالة علمية . ماذا نعرف عن هذا؟ قالت شتاينان عندئذٍ ، بل ماذا نعرف عن الناس؟ حسنًا ، ربما ليس الكثير عندما يتعلّق الأمر بهذا ، أقرّ أولافر . والفتى أخبرهم عن العاصفة وعن الثلج ، عن المرج الجبلي ، وعن مزارعٍ وصبي مراهق عند المرج ، وأنه ضلّ عن ينز ثم بدا كما لو أن آستا ظهرتْ له وقادته إلى ساعي البريد ، خلال العاصفة المظلمة ، ربما كان ذلك من نسج خيالي فقط ، أردف الفتى عندما لاحظ النظرات التي وجّهها له الزوجان ، متى ستُوارى الثرى؟ سأل مستدركًا . غدًا أو بعد غدٍ ، أجابت شتاينان ، هذا متوقّف على حالة القس غيسلي الصحية ، والوقت الذي يستغرقه حفر قبر ، فحفر أرض متجمدة صعب . ما العمق الذي يمكن أن يصلوا إليه؟ سأل الفتى بنبرة متوجسة ، وفي ذهنه فكرة مبهمة بأنها كلما سُجيت في قبر أعمق يمكنها أن تجد السلام . إنه متر ونصف إلى مترين نزولًا إلى الصخر التحتي ، أجاب أولافر ، الموتى يدفنون في أعماق ضحلة هنا ، إنما نأمل أن نواريها جيدًا في الصيف . تأملون؟ حسنًا ، الكثير يطويه النسيان في الصيف

أيها الشاب ، مع تغريد الطيور ، والذباب والسمك . عندما تكون الشمس مشرقة يستعصي على المرء تذكّر الموتى ، وهذا قد لا يكون ضروريًا أيضًا .

كانت ثورديس قد جاءت في نهاية الحكاية ، مع كيس ماء ساخن جديد لينز . لكن من أنتَ؟ سأله أولافر بعد مراقبة ثورديس تستبدل كيس الماء الساخن ، وفي حركة آلية نظرت المرأتان إلى الفتى الذي لم يقل شيئًا ؛ إذ ما المفترض أن يقول على أي حال؟ كيف يعلّل المرء وجوده ، من أنا ، وهل نحن ما نفعله ، أو ما نحلم به؟ وعندما لم يصدر أي جواب من الفتى قالت شتاينان : لقد أعطيتنا بعض الأسباب المهمة للتخمين . كنتَ تنتعل جزمة ثلج غالية الثمن وجيدة الصنع ، نرويجية على ما أعتقد ، وثيابًا سميكة ، وتقتبس الشعر ، لم نستطع تمييز كل ما قلته ، بل ربما لم نميز شيئًا منه ، ومع ذلك تهيأ لي أنني سمعت مقتطفات من شعر شكسبير ، وهذا ما لا يمكن أن يُدعى شيئًا شائعًا ، وفي الوقت نفسه تقترح يداك أنك ساهمت بنصيبك من العمل . الناس إما هم من الكادحين أو ليسوا كذلك ، تدخّلت ثورديس وهي ترفع ذقنها قليلًا . أنا أقيم عند غيرترود ، صرّح الفتى ، كما لو أن ذلك يفسر كل شيء . غيرترود؟ كرّر أولافر ، أتعني غيرترود أرملة غوديون؟ أومأ الفتى برأسه إيجابًا . حسنًا الآن ، همهمت شتاينان . أما ثورديس فانبرت تسأل ، أتبقيكَ عندها من أجل أسباب تخصيبية؟ لا ، أجاب الفتى ، قبل أن يضيف بفظاظة ، وتقريبًا قبل أن يدرك ما يقوله : أنا على أي حال أميل إلى النساء المرهفات مثلك . فتردّ ثورديس ؛ لو أنك لست طريح الفراش لصفعتك .

نام الفتى بعد أن غادروا ، إعياؤه من الرحلة أشبه بطنين مجلجل يئز عميقًا داخله ، ألم متجذر أطلّ برأسه عندما عاش ثانية أحداث قصته .

غفا ، نام ، ومع حلول المساء يبدأ في التقلقل . يرى ينز واقفًا عند النافذة يتطلع إلى الخارج ، وجهه القاسي غير المصقول بشحوب الموت . لمدة لا بأس بها لا يجرؤ الفتى على التفوه بكلمة ، لأن الكلمات يمكن أن تكشف عمن هو ميت ومن هو على قيد الحياة ، كلمة واحدة ويذوب ينز ، يصبح جثة هامدة في السرير المجاور . لكن يجب أن يعرف المرء الفرق بين من هو ميت ومن هو حي ، ولذلك يقول الفتى : نحن في سليتوري . لا يتحرك ينز كما لو أنه لا يسمع ، ما الكلمات التي يحتاج المرء إلى استخدامها مع الموتى ليكونوا قادرين على سماعه ، وبالتالي يمكن أيضًا أن يسمعها الرب؟ أعرف ، يجيب ينز أخيرًا . في بيت الطبيب ، يضيف الفتى بعد فترة عندما يصبح قادرًا على الكلام ثانية ، إذ حالما سمع صوت ينز تدفق الحزن صاعدًا إلى حنجرته على حين غرة ، كأن له إرادة خاصة به ، تدفّق صاعدًا وخضّل حباله الصوتية . أعرف ، يجيب ينز وهو يواصل تأمّل الخارج ، متطلعًا إلى الدنيا المتشحة بضوء القمر ، هذا الرجل الضخم لا يحتاج إلى مقاومة الدموع ، هو ما هو عليه . ومن الخارج تتناهى إليهما أصوات ، أصوات ذكور . إنهم على الأرجح الرجال الذين ذهبوا بحثًا عن هيالتي ، للمرة الثالثة ، يقول الفتى بعد أن يستمع للحظة محاولًا تمييز ما يقولونه . أعرف ، يجيب ينز . ارتطمنا بالبيت وأيقظنا أولئك الذين كانوا نائمين ، وباغتنا الآخرين بشكل سيئ . لا يقول ينز شيئًا . في الوقت المناسب ، يضيف الفتى ، يقول ذلك بصوت خافت . نعم ، يوافقه ينز وهو يسند ظهره على إطار النافذة ليخفّف الثقل عن ساقه ، ليساعد نفسه على الثبات ، ليدعم عظامه وعضلاته والذكريات والخيانات والتفكير في ما ينتظره . يسمعان وقع خطوات خفيفة تقترب ، يتبادلان نظرة سريعة ، وتدخل شتاينان ،

تتردد عندما ترى الرجل الضخم عند النافذة ، أنت لست صاحيًا فحسب ، بل على قدميك أيضًا ، تقول بصوتها ذاك الرائق مثل ماء دافئ . ينظر ينز إليها : لا أدري عن هذا ، يقول بنبرة جافة قليلًا قبل أن يعرج عائدًا إلى السرير : لم تعثروا على أحد؟ يردف بعد أن يستلقي ، يقول ذلك بهدوء ، يقمع ألمه ، يقمع إعياءه ، الذل في أن لا يكون قادرًا على المشي منتصب القامة ، أن لا يكاد يملك القدرة على دعم نفسه . لا ، تجيب ، كان مجال الرؤية جيدًا لكن هناك الكثير من الثلج ، وهذا يجعل تخمين ما تحته عسيرًا . ينظر الفتى إليهما تباعًا ، شتاينان تتكلم بنبرة مختلفة الآن ، كما لو أنها تمعن التفكير في كل كلمة . الناس ليسوا أبدًا الأشخاص أنفسهم ، حضور الآخرين يغيرنا ، يستدعي ميزات مختلفة فينا ، ونادرًا جدًا ما تُستثار دفعة واحدة ، ضمن كل شخص هناك عوامل مخفية ، بعضها لا يصل مطلقًا إلى السطح . احتمال نجاحه في العودة إلى نيس ضئيل ، يقول ينز . علينا أن نأمل بالأفضل ، تجيب من غير أن تنظر لا إلى ينز ولا إلى الفتى . الأمل جيد ، يقول ينز ، لكنه لا يفعل إلا القليل لمساعدة رجل أقرب إلى الموت من الحياة في عاصفة كريهة . أعرف يا بني ، تقرّ المرأة وهي تثبت عينيها على ينز الذي يسارع إلى طأطأة رأسه ، كما لو أن ذلك الرأس أصبح فجأة ثقيلًا على نحو لا يطاق .

تُقدّم لينز عصيدة مع قطعة سجق وكوب قهوة طازجة . ما حال عضة الصقيع؟ يسأل ينز أولافر الذي دخل بعد ثورديس مباشرة ، ويقف الثلاثة هناك ، أهل البيت ، يراقبون ينز ، ولا يبدو أن لذلك أدنى تأثير عليه . قبيحة ، يجيب أولافر . عضة الصقيع ليست جميلة مطلقًا ، يقول ينز بصوت عميق . أعرف هذا جيدًا ، يعلّق الطبيب . أيمكن أن تشفى؟ رأيت

ما هو أسوأ . على هذا الردّ لا يقول ينز شيئًا ، بيد أنه لا يزحزح عينيه عن أولافر . يشيح الطبيب بوجهه ، يهز كتفيه ، أيمكن أن تشفى؟ ما الذي يشفى؟ يتلقى المرء لكمة على وجهه ، قد ينسى الوجه الضربة ، إلا أن المرء لا ينساها . يباشر ينز تناول الطعام ، كما لو أنه ما عاد يريد إزعاج نفسه بالنظر إلى الطبيب . أنا على ثقة تامة من أنه لم يسأل عن الناحية الفلسفية ، تقول شتاينان ، بل ما إذا كان سيحتفظ بأطرافه سليمة . أنتِ محقة ، يوافقها أولافر ولكن بوجه عابس ؛ هناك احتمال معقول في أن يبقى كل شيء سليمًا . إنما هذا مجرد احتمال منطقي ، ثمة شك بخصوص بعض أصابع قدميك ، ربما تفقد إصبعًا أو إصبعين ، هذا يعتمد على مدى حسن تصرفك المرضي ، وهو في الحقيقة قد يكون موضع الشك الأكبر ، بل بالأحرى المشكلة الأعظم .

ثورديس : أفضل علاج لعضة الصقيع أن يخوض المرء الثلج مرتين يوميًا . لقد ثبت أنه العلاج الأنجع دائمًا . الرقة لا تجعل أحدًا يصبح أقوى .

مع ذلك يبدو عليك أنك قوية بما يكفي ، يقول الفتى .

لن أجلب لهذا الشيء مزيدًا من الطعام ، تحتج ثورديس وعيناها بزرقتهما الفاتحة تخرقان الفتى ، بينما تغمغم شتاينان بكلام ما وتقصد النافذة لتنظر إلى الخارج .

يستحق هيالتي ما هو أفضل ، يقول الفتى عندما تُرك هو وينز وحدهما ثانية ، وخارج النافذة تحمل السماء القمر مثل فانوس باهت . نعم ، يجيب ينز ، ولا شيء أكثر من هذه الكلمة ، التي لا تعتبر كلمة دائمًا ، بل نوعًا ما أقرب إلى التنهد ، أو ربما أقلّ من التنهد ، نفَس فقط . يقولها بطريقة معينة

جعلت طاقة الفتى بكاملها تتركز على محاولته مقاومة البكاء . من أحد أسوأ الأمور التي يمكن أن نسببها لشخص آخر هي البكاء أمامه أو أمامها ، لهذا نحن نبكي وحدنا ، نفضّل أن نفعل ذلك في السرّ ، كما لو أننا نشعر بالخزي ، في الوقت نفسه هناك على الأرجح أشياء أقل في هذا العالم أنقى من دموع ولّدها الحزن ، ولّدتها اللوعة ، فالحضارة تقودنا في أغلب الأحيان تجاه مسارات غريبة . كيف ستسير الأمور الآن مع الأطفال في نيس ، يقول الفتى أخيرًا ، وبيارني؟ في هذه المرة لا يصدر عن ينز أي جواب ، ولا حتى نعم ، بدا تقريبًا كأنه يقول : مم ، ربما قاصدًا بذلك أن الحياة جبل يصعب تسلقه . عينا ساعي البريد مغمضتان ، ولا يلبث أن ينام . يغرق في أغوار عالم جدّ عميق بحيث يكاد في انحداره يصل تقريبًا إلى هاوية الموت . ينام ويحاول غريزيًا أن يكوّر قبضتيه المضمدتين ، أعزل في عالم الأحلام .

٦

إنه الصباح ، صباح ساكن وصاف ، وينز ليس في الغرفة . يجلس الفتى مدة طويلة عند النافذة ويطلّ على الخارج . يراقب مجموعة من الأطفال وهم يقهقهون ويصيحون ويضحكون خلال لهوهم بين البيوت ؛ كانوا قد مهّدوا الثلج وشكّلوا حلقة كبيرة ، وثلاثة منهم ضخام البنية يحاولون دفع الآخرين في الحلقة . يراقب وقتًا طويلًا ، يفكر في ما قد ولّى ، يفرك صدره ، مكان قلبه ، القلب الذي يشيخ بوتيرة أسرع من بقية الأعضاء ، باستثناء العيون ربما . يرتفع عدد الأطفال الذين في الحلقة ، وهم يقفزون ويطلقون صيحات تحذير وتشجيع لأولئك الذين ما زالوا خارجها والملاحَقين من العمالقة الثلاثة . ذات مرة كنا كلنا أطفالًا ، وكانت فصول الصيف أدفأ ، أطول ، والعالم لا نهائي الاتساع ، غامضًا وعامرًا بالوعود . ذات مرة . أنا عشت ذات مرة . وأنت أحببتني ذات مرة . في يوم من الأيام . أهناك عبارة محزنة أكثر من هذه : مرة في يوم من الأيام؟ ذات مرة في يوم من الأيام ولكن ليس بعد ذلك . كنت طفلًا في يوم من الأيام . كانت أيامنا قصور حكايات خرافية في يوم من الأيام ، ثمّ غرقت في حنايا غابة مظلمة

وفُقدت ، سمحنا لذلك أن يحدث ، وما زلنا نسمح له أن يحدث . نسمح للحياة أن تركد ، أن تغدو أصلب . فإلى أين تذهبين يا حياة ، وأين أنت يا رأفة؟

هناك شخص ما في الغرفة . يلتفت ويجد نفسه وجهًا لوجه أمام امرأة ممشوقة القوام بلباس بنّي بالٍ ؛ سترة صوفية وثوب ، ووشاح بني يخفي شعرها كله . بدت بنّية اللون بالكامل باستثناء بشرتها الشاحبة ، باستثناء عينيها الخضراوين .

طُلب مني أن أتحقق من أنك لست ميتًا ، تقول هذه المرأة .

أين ينز؟ يسألها محاولًا أن يتحاشى النظر في عينيها الخضراوين .

في الطابق السفلي .

استطاع أن ينزل؟

لولا ذلك لما كان هناك طبعًا .

يصيح الأطفال في الخارج ويشعر الفتى أن عليه أن يقول شيئًا عن ينز ، أو عن الأطفال في الخارج ، أو أي شيء عمومي عن اليوم ، بيد أنه بدلًا من ذلك يقول : لديك عينان خضراوان .

عليكَ أن تنزل لتأكل .

أمِن المحتمل أن يكون اسمك ألفايدر؟ نعم ، تجيب ألفايدر . وثمة نمش منتشر عبر وجهها مثل مجرّة متراصّة ، على أنفها وعند خديها .

لديك نمش ، يقول ، كما لو أنه يوضح شيئًا محرجًا تقريبًا . وعندما لا ترد بشيء يضيف ، أأنت الفتاة التي قبّلتني؟

ظننتُ أنك مشرف على الموت .

وأنا لم أمت ، يقول بنبرة شبه معتذرة .

لا يهم ، تقول ، ولا يعرف على وجه التأكيد ما إذا عنت بذلك القبلة أو نجاته من الموت . يجب أن تنزل ، تردف وتقود الطريق .

ينزل الفتى ، وهناك يجد ينز ، منزويًا ومنحنيًا وأمامه فنجان قهوة فارغ . نحن في سليتوري محرومون من المواد الغذائية ، تقول شتاينان ، لكن لدينا ما يكفي طبعًا ، تضيف ، الأمر يتعلق بقلة التنوع فقط ، ولدينا وفرة في الحليب هنا ، فكُلْ بقدر ما تستطيع يا فتاي العزيز . أولافر ليس في أي مكان يمكن رؤيته ولا ثورديس ، هي في الخارج ، فمسكن الطبيب فيه مزرعة أيضًا ، تحتوي على بقرتين وثلاثين خروفًا وثماني دجاجات ، ما يعني أن هناك الكثير مما ينبغي الإشراف عليه . تُعِدّ ألفايدر الطاولة للفتى ، وعندما تدنو منه تلامس الذراعُ الذراعَ .

وهذه أخبار العالم ؛ هذا ما يرد في صفحات الجرائد الأولى :

لا فتور في التناوش الغاضب بين اليابان والصين ، واليابانيون يمتلكون قوة عسكرية عظيمة .

سكان الأرض بليون و 974 مليون و972 ألف و4 مئة أيضًا .

والأذرع تحتكّ ببعضها في سليتوري في آيسلندا .

شعرها أحمر والوشاح يغطي كامل رأسها تقريبًا ، لكن فرّت بضع خصلات من تحته حول أذنيها . قُدّم له لحم طيور مدخن ، تغادر ويتناول قضمة ، يمضغ . شعر أحمر ، عينان خضراوان ، لحم طيور مدخن ، وهيالتي ميت ، ما عاد يتنفّس ، ما عاد يفكر ، ما عاد يشعر ، وما عاد يحتاج مطلقًا إلى التبول ثانيةً ، إلى البصق ، ناهيك عن البكاء . تترك شتاينان الصحيفة ، تتنهد ،

إنها المرة العاشرة التي تقرأ فيها هذه الطبعة المعينة ، أو الحادية عشرة ، أو ربما الثانية عشرة ، الصحف تُسلّم في وقت متأخر أو لا تسلّم أبدًا ، يبطئ الشتاء الأخبار كلها ، هناك أناس كثر في هذه الدنيا ، تقول .

لا يمكن أن أفلح في الصعود بلا مساعدة ، يقول ينز حالما يصبحان وحدهما في المطبخ . ما كان ينبغي أن تنزل على الأرجح ، يعلّق الفتى . أدركتُ هذا عندما كنت في منتصف الطريق . لماذا إذًا لم تعد أدراجك؟ أنا لا أعود أدراجي ، يجيب ينز ، ثم يباشران المضي إلى السلالم ، يتثاقلان في صعود الدرج ، يحتاج الفتى إلى التوقف مرتين ، وينز متمسك به ، يتنفّس ويشتم في أذنه ، ثم يضطجع على السرير ، أما الفتى فيتكئ على إطار النافذة ، يعمل على استجماع قوته بعد ما بذله من جهد ، يخفف الضغط عن ساقيه المنهكتين . هو إذًا لم يفلح في العودة؟ يسأل الفتى ضوء الشمس . لا ، يرد ينز . ربما حفر لنفسه كهفًا ثلجيًا ، وانتظر فيه ريثما ينتهي أسوأ ما في العاصفة وبعد ذلك توجه إلى البيت . ربما . مع أن ذلك مستبعد جدًا؟ لا يرد ينز ، ويواصل الفتى تأمُّل الخارج ؛ جيد أن ينظر المرء إلى ضوء الشمس ، علينا كلنا أن نفعل هذا ، على الرغم من أنه لن يعيد إحياء أحد أبدًا . لا يتكلم أي منهما . هناك أنواع متعددة من الصمت . أحيانًا لا يتبادل الناس الكلام في ما بينهم لأن شيئًا قد حدث في حياتهم ؛ شيئًا لا تكفيه الكلمات ، يعجز اللسان عن اللهج به ، ولذلك يصمت هذان الرجلان الآن . أحدهما واقف والآخر مستلق في السرير والثالث تعرّض للعاصفة ومات في العراء ، غفا في الثلج . أصبح صمتًا . هناك الكثير مما يؤخذ منا ، وفي النهاية يؤخذ كل شيء . يبدو في بعض الأحيان أن الموت

يسيج حياتنا كما تسيج ظلمة الفضاء الأرض ؛ هذا الكوكب الأزرق ، هذا النداء الأزرق في فسحة الفضاء الواسعة ، نداء للخالق ، صرخة من أجل هدف . أشعر بالأسى على الأطفال ، يقول الفتى كاسرًا الصمت ، في نيس ، يضيف . نعم ، يجيب ينز . لا أحد هنا يعرف بوثيلدر؟ لا .

ربما اختلطت عليه الأسماء : هفوة في الذاكرة؟

بوثيلدر! صعب نسيان اسم كذاك .

ماذا إذًا؟

لا أدري .

ربّما ، يقول الفتى بتردّد وبحذر بالغ ، هي بكل بساطة لا وجود لها . ينظر خارج النافذة وهو يقول هذا ، لكن ينز لا يعلّق بشيء ، وكذلك زجاج النافذة لا يعلّق بشيء ولا ضوء النهار . عرفت مرة امرأة اسمها بوثيلدر ، وهذه المرأة قبّلتني . لماذا يكذب الناس بخصوص مثل هذه الأمور؟ ألأننا لا يمكن أن نعيش خلاف ذلك؟ أو ، عندما يتعلق الأمر بهذا السبب المعين ، أهو الواقع ما يكذب ، والشخص هو من يقول الحقيقة؟

كفّ عن التطلّع إلى الخارج ، والخارج أصبح غائمًا كما لو أن الدنيا ستثلج قريبًا . وينز يبدو نائمًا . يجلس الفتى على السرير ، سيكون من الجيد الانطلاق ، إكمال هذه الرحلة الطويلة جدًا التي امتدت من الحياة إلى الموت ، وأبعد من الموت قليلًا ، والعودة إلى البلدة ، إلى دار غيرترود ، طبعًا على الرغم من أنه لا يتجاسر على التفكير بعبارة «العودة إلى البيت» . فـ «البيت» كلمة كبيرة إلى حدٍّ بعيد ، أنقذت الكثير من الرجال في معمعة الحياة ، أولئك الذين لديهم بيت في مكان ما احتمال استسلامهم أقل . سأكتفي بالاستلقاء ، أغمض عيني وأفكر

في راغينهيلد، في طراوة شفتيها، وكيف ارتعشت. يغمض عينيه ثم يفتحهما فورًا، لأن هناك تقف ألفايدر وتبدأ في مخاطبة ينز الذي على ما يبدو لم يكن نائمًا، ما لم تكن العينان الخضراوان قد أيقظتاه، وهذا ليس مستبعدًا؛ إذ كيف يمكن النوم في حضورهما؟ لكن ذلك لا يهمه، فهو يفكر في راغينهيلد التي ارتعشت، والتي ستذهب في جولة على الحصان تحت أشعة الشمس، يستحسن أن يغمض عينيه في هذه الأثناء؛ ذاك الذي يغمض عينيه يتلاشى.

لكن، ها هو ذا يقف إزاء النافذة وهي ما زالت تخاطب ينز، الطبيب هذا والطبيب ذاك. هذه المخلوقة الشاحبة المتسربلة باللون البني تبدو أنها تمتلك شيئًا من الرصانة، نعم، ربما هي كذلك حقًا، وهذا يمكن حتى أن يكون بطريقة ما جذابًا. إنما علينا ألا ننسى أن هناك نساء رصينات في كافة أنحاء العالم، في الصين وحدها من المحتمل أن هناك عددًا هائلًا من النساء الرصينات؛ وفي وسعه بسهولة أن يتكهن أن عددهن قد يرقى إلى بضعة ملايين، لذا، أي أهمية لصبية نحيلة واحدة بملابس بالية في الطابق العلوي لبيت يتأرجح على حافة الدنيا؛ وفي حال عطس العالم يمكن أن يطيروا. يستند على إطار النافذة، يصالب ذراعيه ويتشوّف للرحيل. الطبيب في زيارة منزلية، يعود في المساء أو خلال الليل، وعلى ينز أن يرتاح. نعم، يقول ينز، ويضيف كلامًا ما، هو فجأة يعرف كيف يتكلم، أتراه أيضًا يبتسم لـ ألفايدر؟ ماذا عنكَ؟ أأنتَ على ما يرام؟ تقول مخاطبة الفتى الذي يجيب ببساطة: نعم نعم، بقدر ما يستطيع من هدوء. لكن لماذا كفّ عن مصالبة ذراعيه، وماذا يفترض أن يفعل بهما الآن؟ لا جدوى

من تركهما تتدليان بغباء على جانبيه هكذا ، على نحو ثقيل وأخرق ، أليس من الأفضل أن يفتح النافذة ويقذفهما خارجًا؟

لا يمكن فتح النافذة ، إنها متجمدة ، تقول ألفايدر لأن الفتى الآن يحاول فتحها وهو يتمتم بشيء عن الهواء الراكد ، يدفع النافذة بغضب . ليس إلا إذا أردتَ أن تكسر الزجاج ، تردف وتبتسم . يلقي عليها نظرة خاطفة ، يبدو أن لديها صف أسنان متكامل تقريبًا ، مع أن بعضها أعوج ، مثل أناس متعبين بعضهم يتكئ على بعض . يدسّ يديه تحت أبطيه ، يحتجزهما هناك بإحكام ، في هذه الأثناء لا يمكنهما أن تقوما بأي شيء غير صائب . جميع أنحاء العالم تعجّ بالناس ، يقول ، خصوصًا في روسيا والصين ، وفي بعض المناطق تنمو الأشجار . ينز في السرير ، وهي واقفة ، ينظران معًا إليه ، يراقبان فقط ، ولهذا السبب ، يضيف ، في الصين يزرعون الشاي .

وأحيانا تمطر السماء على الجبال هناك .

على الفئران أيضًا .

وعلى أيدي الناس .

لكن هذا حسن إذا كان المرء في الصين ، لأن المطر هناك دافئ في الغالب .

٧

مدهِشٌ الخروج إلى الهواء النقي الساكن ، المضي إلى الخارج من غير أن يعرّض المرء نفسه للخطر ، بيد أن الحفاظ على التوازن في مثل هذا الهدوء يكاد يكون صعبًا . يتتبع الفتى دربًا يقود إلى البيوت الأقرب ، ويناور في الالتفاف حول أكوام الثلج . يتفحّص ما حوله ، وهو ينبض بالحياة . القرية على الأغلب تتألف من أربعين إلى خمسين بيتًا ، موزعة على نحو غير متناسق في دائرة كبيرة ، والكنيسة ترتفع عنها مستقرة على هضبة واطئة في وسطها . أما دار الطبيب فتقع في مكان أعلى ، عند قدم منحدر حادّ ، المنحدر نفسه الذي هوى منه هو وينز ، وفوقه يشق الوادي سفح الجبل مثل جرح فاغر ومظلم . تُقدّر المسافة إلى البيوت الأقرب بحوالي مئتي متر ، وهي تشكل مجموعة متراصّة نوعًا ما . يتوقف الفتى قبل أن يصل إلى البيوت ، يستدير وينظر إلى الجبل . ستة أيام وست ليال منذ أن انطلق ، دفع القارب في البحر عند مشرب سدوم ، ومدير المدرسة غيسلي ومارتا يراقبان . أكانت ستة أيام فقط؟ وليس ستمئة؟

يأخذ البرد بتلابيبه وهو واقف هناك هامدًا ، لعل الخروج غير مسموح له ، يتسلل خفية ليبقى بعيدًا عن مجال الرؤية وقد سمع صوت ثورديس ، صلبًا كالصخر ، ثم صوت شتاينان اللطيف ، ربما يجب أن يرتاح ، يستجمع قواه ، يترفّق بنفسه ، لولا أن ينز نام مباشرة بعد أن غادرت ألفايدر وأخذت معها عينيها ، أخذت خضرتهما . لم يستفسر ينز عن المطر في الصين ، ما إذا يمكن أن يكون دافئًا عمومًا ، ولا سأل عن الفئران . كان الفتى يستمع إلى وقع أقدامها يخفت عندما قال ينز : هذه سفرتي البريدية الأخيرة ، وتبع قوله هذا صمت طويل ، كما لو أن الفتى لم يسمع تصريحه ، أو على الأغلب ، كما لو أنه ببساطة لم يهتم . ما يعنيه على أي حال إذا كان ينز يحمل البريد بين الجبال أو يجلس آمنًا في البيت ؛ حياة المرء ليست من شأن أي شخص آخر . أغمض ينز عينيه . كل شخص مسؤول عن حياته ولا ينبغي أن يشارك الآخرين تلك المسؤولية ، ما فائدة امتلاك المرء لساقين ما دام يعجز عن دعم جسمه بهما؟ أهذا بسبب سالفر؟ سأل الفتى من خارج الصمت الذي كان قد تراجع إليه ، وانتفض ينز كأنه تلقّى طعنة سكين . ليس من شأنك ، أجاب باقتضاب وخشونة ، وقبل يومين أو ثلاثة أيام كان هذا أكثر من كافٍ ، إنما ليس الآن ، سقط ثلج هائل ، وهبت رياح أكثر من اللازم ، وكثير من الجبال ، كثير من الموت ، من الحيرة والحياة الهشة في الأيام الأخيرة القليلة بينهما . لهذا السبب ، قال الفتى ، صحيح ربما أن لا شأن لي ، لكنني أسأل على أي حال . ولطيف منه أن يسأل . إذا لم يسأل أحد ينغلق الناس على أنفسهم في الصمت مع آلامهم كلّها التي تتحول على مرّ السنين إلى عزلة ومرارة وموت قاهر . أطلق ينز لسانه بالسباب ، قعد بصعوبة كرجل مسنّ . أنت ترى ما أصبحتُ عليه ، قال ،

كما لو أن ما قاله يكفي لتفسير ما صرّح به ، لكن الفتى عاد وسأل للمرة الثالثة كأنه لا يعرف أي كلمات أخرى ، ولم يفهم شيئًا ، أهذا بسبب سالفر؟ لم يرد ينز ، إذ ماذا يمكنه أن يقول في جميع الأحوال؟! كيف للكلمات أن تحتوي كل ذلك الذي يعتمل فيه؟ بقي الفتى واقفًا إزاء النافذة ، متكئًا على إطارها وانتظر بهدوء ، أدرك أنه ينبغي عليه الانتظار . زوجها عاقر الخمر وأساء معاملتها ، قال ينز وهو يرنو إلى يديه . إذ كيف للمرء أن يميز الأيدي التي تؤذي من تلك التي لا تسبب الأذى؟ كيف للمرء أن يميز الشخص الذي يخون عن ذاك الذي لا يخون؟

يرفع الفتى بصره نحو الوادي ، هو الوحيد في الخارج وكل شيء ساكن ، غادر الأطفال ومعهم ذهبت أصواتهم ، حيويتهم ، وربما ضوء النهار أيضًا ؛ ألا يبدو كأن السماء قد بدأت تعتم فوق الجبال؟ وأن هبّات الريح تموّج البحر وراء الميناء ، تنتشل الثلج ، تحوله إلى ملاءات سرعان ما تعاود السقوط على الأرض . أعرفكِ ، يقول بصوت جهوري للريح ، أنت أيتها الشيطانة الشفافة . يشخص ببصره فوق الجبال ، يمدّه نحو نيس ، حيث أربعة أطفال يفتقدون آستا ، يفتقدون هيالتي ، يفتقدون وينتظرون الذي لا يستطيع أن يعود . حيث بيارني يجلس على سريره ، يشغل نفسه ببعض الأعمال ، يحمِّم أمه التي فقدت الكثير جدًا ، زوجها والأصدقاء والأشقاء والشباب ، معظم حياتها ، والذكريات والأفكار ، تفتح فمها ، تلك الحفرة المظلمة ، عندما يتطلب جسمها الغذاء وتستولي عليه رعشة طفيفة عندما تتذكر شيئًا ، وعندما يهتاج الوعي تحت حمولة النسيان ترتجف بعض الشيء . لكنّها ترتجف أيضًا عندما تتغوط ، عندما تتوق إلى القهوة

فيرفعها بيارني مثل قش بائت ، ويداه قويتان ، ويمكنه أن ينقذ الأرواح في العواصف ، في البحر ، إنما هما ليستا قويتين بما يكفي لتعانقا الأطفال ، ليستا قويتين بما يكفي لتواسيا الأطفال .

يصل الفتى إلى البيوت ، مجموعة تشتمل على ثمانية منها ، متباعدة عن بعضها إلى حدّ ما ، وفي الوقت نفسه متقاربة كفاية لتؤثر على الرياح ، على كيفية تراكم الثلج في أكوام . يشرف على بيت صغير يكسوه الجليد كثيرًا بحيث يكاد يتعذر تمييز نوافذه التي تشبه مخلوقات غريبة ماتت في العراء في خضم قساوة الشتاء . في الوقت نفسه يبرز أمامه أحد تلك البيوت ، بحجم دار الطبيب وبطابقين ، والأقرب إلى الشاطئ ورقاقات الثلج متدلية مثل أنياب كبيرة على إفريزه . لا يلمح الفتى اللافتة المطلية بالأحمر إلا بعد أن يبلغ ذلك البناء وهو في طريقه إلى الشاطئ ، ولا يلبث أن يقف عندما تلتقط عيناه لمحة من اللافتة فوق الباب ، وبصعوبة يفكّ حروفها الصفراء تحت الثلج ، «متجر» . عندئذٍ يتذكر قصاصة الورق من ماريا في فيترارسترند . الوصل الذي يقول بأنه ، أي الفتى ، يمكن أن يشتري كتبًا بمبلغ ٥ كرونر من المتجر في سليتوري . يتذكر . . . طبعًا هو لم ينس ذلك . وكيف ينسى ماريا وشغفها بالكتب؟ وكذلك كيف نظرت إلى زوجها يون ، كما لو أن العالم صار جميلًا قليلًا عندما نظرت ، أيمكن أن يكون جميلًا عندما تُدفن حياة الإنسان في الثلج؟! عندما تموت طفلة ، وطفلة أخرى تكح كثيرًا ، أكثر بكثير مما ينبغي؟! أيمكن أن يكون العالم جميلًا في تلك الحالة؟! فمن أين إذًا تشتقُّ ماريا القوة كيلا تستسلم؟ لكنّه فقد الوصل ، لقد أولي ثقة عظيمة وفشل . يمشي عابرًا البيت ، يقف عند قمة الشاطئ ، يطل عليه وينظر حواليه . شاطئ حصوي ، هين لرسو

المراكب ، ويسهّل عملية سحبها ، وهناك عدد منها راسٍ ، مركبان سداسيا المجاديف ، وعدة قوارب أصغر ، وبعضها كان في البحر ليلة أمس أو باكرًا في الصباح ، وهناك بضعة نوارس تزعق وتتعارك على القليل المتبقي بين الصخور بعد نزع أحشاء الصيد ، يولّي أحد النوارس هاربًا ، يحلّق عاليًا ويصيح مرتين . بدأت هبّات الريح تخطط البحر باللون الرمادي ، ويلمح من بعيد سفينة تقترب ، من المحتمل أنها مركب شراعي بصاريين ، على الرغم من أنها أبعد من أن يكون متأكدًا ، فهناك ساعة على الأقل قبل أن تصل إلى اليابسة . يحدّق في المدى فوق البحر الذي يتنفس بصعوبة بين الجبال ، وهم ينتظرونه خلف الجبال والبحر ؛ غيرترود وهيلغا وكولبين الربان الأعمى ، وربما حتى ينتظرونه بقلق ، رحلته هو وينز استغرقت وقتًا أطول مما توقع أي شخص ، واجها عاصفة ، ضلّا الطريق وسلكا دربًا أطول لأن ينز احتاج إلى التفكير . وهيالتي مات . يزعق النورس مجدّدًا . في مكان ما مكتوب : أن من يموت في العراء لا يموت ميتة حقيقية بل يتحول إلى نورس ، يصبح صرخة في السماء . عاد الفتى إلى المتجر ، قصاصة ورق أو لا ، مؤكد أنه مسموح له أن يختار كتابًا أو كتابين لماريا ، ثم يعمل على إرسال ما يشتريه لها في أول فرصة ، حالما يتسنى له أن يفعل . وهكذا يدفع الباب .

الباب متجمد ، عليه أن يضغطه بكتفه ، بل حتى أن يدفعه بقوة ، يستلزم الدخول عزيمة ، ما يعني أن من يدخل لن يغيب دخوله عن ملاحظة أحد . سيحدقون فيَّ الآن ، يفكر بعد أن يفلح في دفع الباب ويدخل المتجر ، وبمجرد أن يفعل يُغلق الباب خلفه بسهولة غريبة . هذا المتجر ليس كبيرًا بالنسبة إلى مَن هو معتاد على متجر تريجفي ، بل حتى

على من كان سيبدأ العمل في متجر ليو في الصيف ، قبل أن ينسى باردور معطفه الواقي من الماء وقبل أن يتغير العالم إلى الأبد . نحن لا نعرف أبدًا أي درب ستسلكه الحياة ، لا نعرف من سيعيش ومن سيموت ، لا نعرف أتكون التحية التالية قُبلة أو كلمات مرّة أو نظرة موجعة ؛ شخص ما لا يلتزم جانب الحذر ، ينسى أن ينظر إلى اليمين ويصبح في عداد الأموات ، وبعدئذٍ يفوت الأوان لاسترداد الكلمات الفظّة ، يفوت الأوان ليقول المرء معذرةً ، يفوت الأوان ليفصح عن ما يهمّ ، أو ما أراد البوح به ولكن لم يستطع بسبب الانزعاج ، وإجهاد الحياة اليومي ، وقيود الزمن ؛ نسيت أن تنظر إلى اليمين وأنا لن أراك ثانية وكلماتك التي وجهتها لي ستدوي في داخلي في أيامي ولياليّ كلها ، والقُبلة التي كان ينبغي أن تتلقاها تجفّ على شفتي ، تصبح جرحًا يتمزق كلما قبّلني شخص آخر . يشهق الفتى كما لو أنه يحاول كسر الصمت . المتجر لا تكاد تعدو مساحته ثلاثة أمتار من الباب إلى منضدة البيع ، الرفوف تبدو عارية . إلى يمين الفتى في زاوية مضاءة جزئيًا هناك طاولة صغيرة مع أربعة كراسي ؛ وعلى أحدها يجلس رجل لا يزحزح عينيه عن الفتى ، مباغتًا إياه بشدة ، بعد أن رأى من طرف عينه طاولة فقط وكراسي شاغرة . يجلس الرجل هناك في منتهى السكون ، ظهر كرسيه مستند على الحائط ، وأرجل الكرسي الأمامية مرتفعة في الهواء ؛ يلبس ثيابًا بنّية اللون وشعره بنّي ، كالحائط خلفه . طاب يومك ، يقول الفتى بعد أن تجاوز الصدمة وقبل أن يكرر ما قاله حينما لا يرد الرجل ، طاب يومك . عينا الرجل مفتوحتان ، وشعره الخفيف مفروق بعناية في المنتصف ، ولديه شارب كثٌّ متدلٍّ ومشذّب جيدًا . يبدو أنه طويل ونحيل ، مع أنه ليس من السهل الجزم من خلال وضعية جلوسه ،

أما رقبته فطويلة على نحو استثنائي ، كأنما رأسه ، بتقاسيم وجهه التي كما يبدو حادة ومنحوتة ، يطفو على جذع . طاب يومك ، يحاول الفتى للمرة الثالثة ، ولا جواب ، أيحتمل أن الرجل قد مات مؤخرًا؟ لا يتجاسر الفتى على الاقتراب ، ويكتفي بالانحناء أكثر قليلًا ، العينان ليس فيهما تحجّر عينَي رجل ميت ، بيد أنهما تبدوان كأنهما ثابتتان . أنتَ ، يقول الفتى ، أعني ، لديك حسب ما أظن كتبًا للبيع؟ ألم يرفّ أحد جفنيه؟ يزداد الفتى اقترابًا ، لا إراديًا ، تصرّ الأرضية تحته ؛ بعض الأرضيات فضفاضة أكثر من غيرها وتفضح أيَّ حركة . تختلج زاويتا فم الرجل ، إنما لا أكثر من ذلك ، ويبقى بلا حياة كالسابق تمامًا . يبتلع الفتى ريقه ويبدأ عرقه بالتصبّب ، كان قد ارتدى ثيابًا مناسبة للجوّ وليس من المريح أن تحدِّق فيه عينا الرجل البنّيتان الكبيرتان ، عينان شاخصتان بلا حياة ومع ذلك ليستا متحجرتين ، ولا فكرة لديه عما يمكن أن يفعله ، أيجب أن يهرع إلى دار الطبيب ويجلب النجدة ،لعل الرجل في خطر ،لعل الموت يطبق عليه بينما يسأله الفتى ما إذا هو يبيع الكتب! أترغب في أن أجلب لك المساعدة؟ يقول وهو ينحني بحيث يصبح الآن ينظر مباشرة في عيني الرجل ، أكلُّ شيء على ما يرام؟ يقول أخيرًا ، بصراحة مباشرة ، مثل أحمق ، لأنه من الواضح أن لا شيء على ما يرام ، والادّعاء بهذا سيكون مغالطة ، خصوصًا عندما يجيبه صوت امرأة ، لا .

هي تقف في مدخل باب وراء منضدة البيع ، الممرُّ خلفها كالح الظلام بحيث بدا كأنها قد خرجت من مملكة الموت بحدِّ ذاتها . معذرة ، يقول الفتى وهو ما زال مذهولًا من ظهورها ، طاب يومكِ ، يضيف . أأنتَ متأكد من أنه يوم طيّب فعلًا؟ تقول المرأة وهي تتقدم خارجة من وراء منضدة

البيع ؛ طويلة وضخمة ، وجهها أكثر خشونة من أن يُقال عنه جميل ، شيء ما قاس في محيّاها . لا يقول الفتى شيئًا ، بل في واقع الأمر لا يعرف شيئًا . لا بدّ من أنك أحد اللذيَن جاءا لتسليم البريد . يهز رأسه إيجابًا . وأنت تسأل عن الكتب . نعم ، يقول الفتى إنما بنبرة معتذرة ، لأن التخلص من الموت بشقّ النفس قد لا يكون أمرًا حسنًا ، أن يفقد أحد رفيقي السفر ، ورفيقه الثالث طريح الفراش ، ثم يسأل عن الكتب ، إلا إذا كان الآن بالضبط الوقت المناسب ليسأل عنها؟ إنه مخمور ، تقول وهي تصالب ذراعيها الطويلتين . أوه ، نعم ، مخمور ، يهمهم الفتى ، كما لو أن ذلك يوضح كل شيء ، كما لو أن كل شيء يصبح جليًا ، كل التساؤلات أجيبت ، ينظر إلى الرجل الذي بدأ يبتسم تحت شاربه الكثّ بينما عيناه ، مثل وجهه تمامًا ، ما زالتا نائيتين كالسابق ، كأن الابتسامة التي ارتسمت على وجهه مجرد زخرفة ساخرة . مخمور ، نعم ، تقول المرأة ، مع أن عبارة ثمل حتى الموت تناسبه أكثر ، ساورته الخشية من أن ينفد المشروب قبل وصول الشحنة الربيعية الأولى ، فقضى على ما تبقى في المتجر ؛ أحتاجُ إلى وضعه في السرير ، تضيف ، وبالتالي ينزع الفتى قبعته وقفازيه ويستعد .

يستغرق نقل الرجل إلى الأعلى قدرًا كبيرًا من الوقت . تضيء المرأة مصباحًا في الرواق ، فيشعُّ وهج خافت ، ويصبح الظلام رصاصيًا ، فضاءً كامد اللون ؛ يلاحظ الفتى أن الدرج شاهق نوعًا ما ، والدرجات الأعلى في شبه ظلام . الرجل ليس في الواقع ثقيلًا ، بيد أن انعدام قوته يجعله أثقل مما هو عليه ، أولئك الذين لا يفعلون شيئًا هم دائمًا عبء ثقيل ، وإضافة إلى أنه طويل ، لم ينفك يترنح ويصدم ساقيه بالجدار والدرابزين ، وفي منتصف الطريق إلى الأعلى يتمتم بكلام ما . اِنتظر ، تقول المرأة ، أو بالأحرى

تلهث ، فيوقف الفتى صعوده البطيء المجهد ، قابضًا على الرجل من تحت إبطيه بينما تمسك المرأة ساقيه ، وبعد لحظات قليلة يتمعج الرجل ، جسمه الطويل يتقلص كأنه يتألم ، كأنه يريد أن يتقيأ ، إلا أن شيئًا لا يحدث ما عدا أنَّةٍ عميقة . أنا عادة أجرّه إلى الأعلى وحدي ، تقول المرأة بعد أن أضجعاه في السرير ، لكن أعتقد أن الحصول على مساعدة أفضل ، فشكرًا لك . تعدِّل وضعية أطراف الرجل ، تنزع حذاءه ، وتخلع سترته بعد أن ترفعه قليلًا ليتسنى لها فعل ذلك ، وحينها يفتح عينيه ، مجرد شقّ ، ويهمس بكلمة واحدة . أقال هراء؟ يستفسر الفتى . سمعته يقول هيلدر ، تجيب . ومن هي هيلدر؟ يسأل الفتى بلا تفكير ، ويندم على ذلك فورًا ، طبعًا هذه الـ هيلدر قد تكون امرأة يجب ألا ينطق باسمها في هذا البيت ، امرأة يحبها ولا يستطيع الفوز بها ، امرأة ميتة ، رحلت إلى السماء ، ويعاقر الخمر لأنه يفتقدها بمرارة ، يكابد الشوق والخواء اللذين يجعلاننا هشّين . إنها أنا ، تجيب المرأة ، وهي تعتدل في وقفتها والسترة في إحدى يديها ، أنا هيلدر ، مع أنه لطالما دعاني بأسماء مختلفة ، وليست دائمًا جيدة ؛ ولذلك يحتمل أنه قال هراء . تضع السترة جانبًا ، تغطي الرجل بملاءة ، تمسِّد رأسه مثل شخص يمرّر يديه على شيء مولع به ، فيشيح الفتى بوجهه . تفتح هيلدر درجًا في صوان مقفل بمفتاح وتُخرج حبلًا تربط أحد طرفيه حول ساق الرجل ، وتربط الطرف الآخر حول أرجل الصوان الضخمة . تلك عقدة يصعب فكّها ، يقول الفتى بعد أن تنهي ربطها بسرعة وإحكام . سيغردر أخرق في حلّ العُقَد ، تقول بينما تعتدل ، ثم تنظر إليه وهو نائم ومقيَّد . أتستغرب اضطراري إلى تقييده؟ نعم ، صحيح ، يجيب الفتى ؛ ومعًا ينظران إلى الرجل النائم ، المخمور حتى الثمالة . ومع ذلك أنتَ لا

تسألني عن السبب؟ ألا تشعر بالفضول؟ تسأل المرأة عندما لا ينبس الفتى ببنت شفة ، أو هل الناس عمومًا يُقيّدون من حيث أتيتَ؟ لا ، على الأقل ليس بالحبال على أي حال ، باستثناء الكلاب والبلهاء . تعاين المرأة الفتى بنظرة شك وارتياب ؛ هما بالطول نفسه ، وزاويتا فمها ما عادتا مقوّستين ، وهذا منح وجهها مسحة من الجمال على الرغم من خطوطه المتعبة . عندما يصحو ، يطلب سيغردر المشروب ، وسيقوم بأي شيء يمكنه القيام به ليحصل عليه ، في الوقت الحاضر لا أحد هنا في الخليج لديه مشروب ما عدا النرويجيين في محطة صيد الحيتان ، وبالتالي سيهرع إلى هناك مباشرة ، في النهار أو الليل ، بغضّ النظر عن الجوّ ، وأولئك النرويجيون يبدو أن لديهم دائمًا كميات لا نهائية من أنواع مختلفة من الخمور المهرّبة ، ويستمتعون بصبِّها في جوفه عندما يكون في تلك الحالة التي لا يبالي خلالها كيف يُعامَل ، آخر مرّة زحف إلى البيت تحت وابل المطر ، إنها خمسة كيلومترات ، وعندما وصل لم يكن قد تبقى على ركبتيه كثير من الجلد ، وقد رسموا على كلّ من طرفي مؤخرته أنف كلب ، وكثير من الناس رأوا هذا مضحكًا . أعرف رجالًا كانوا سيضحكون ، يقول الفتى وهو يفكر في إينار من كوخ الصيد ، ولحيته بسوادها القاتم ، كراهية الفتى له تجعل صوته يرتعد . نعم ، تردّ وهي تعاود النظر إليه ، ثم معًا ينظران إلى سيغردر ، الذي أشاح بوجهه كما لو أن الخزي يعتمل فيه . أشعر ، يقول الفتى ، بعد إمعانه النظر واستجماعه الشجاعة ليسأل ، أشعر أنني أميِّز وجهه ، وجه سيغردر أعني ، أشعر أنني قد رأيته من قبل ، كأنني أعرفه ، وهذا على الأغلب غير صحيح ، ويتابع مستنتجًا وهو يعضّ شفته ، بل غير صحيح مطلقًا . توجِّه إليه هيلدر نظرة شك ، أتعني أنك لا تعرف من هو؟ لا ، فقط

أعرف أنه زوجك ، وعلى الأرجح مدير المتجر هنا . إذًا أنت تريد كتبًا فعلًا؟ نعم ، يهتف متفاجئًا . تحدق فيه ، تزيح خصلة شعر بعيدًا عن وجهها ، شعر بدأ الشيب يغزوه ، ظننت أنك تحاول مجاملة سيغردر ، الناس يفعلون هذا دائمًا ، في محاولة منهم لتملقه بالتظاهر أنهم يهتمون بالكتب ، وهذا يؤتي مفعوله جيدًا ، يؤتي مفعوله إلى درجة أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يسرّح ، لأن فريدريك لا يتعامل مع مثل هذه الأمور بخفّة ، إذًا أنتَ ما جئت إلا للحصول على كتب؟ يهز رأسه إيجابًا ، والأفضل أن تكون حديثة النشر ، أعني مؤخرًا ، وتكون كتب شِعر . ثمّة القليل من هذه الكتب ، الطبيب وزوجته هما الوحيدان اللذان يشتريان هذه الأشياء ؛ هناك مجلد واحد نشره شقيق سيغردر ، أعتقد أنه تبقى لدينا نسخة واحدة فقط . عندئذ يتبادر إلى ذهن الفتى السبب ، الوجه ، لماذا يميز الوجه ؛ بولسون ، يصيح لا إراديًا وبحماسة ، أدركُ السبب الآن! يحملق في الرجل الثمل كالمفتون ، يتشرّب حضوره ، شقيق غيستر بولسون ؛ ما سبق له قط أن دنا هكذا من شاعر . يغمغم سيغردر بكلام مبهم وينتفض ، تسرع هيلدر إلى السرير وبيدها وعاء وتنجح في توجيه القيء نحوه ، معظمه على أي حال . يتقيأ سيغردر وعيناه مفتوحتان على وسعهما ؛ هيلدر ، يقول بصوت واهٍ ، أو ينشج . نعم ، تجيب ، أحالتكَ سيئة؟ نعم تقريبًا في وسعي أن أقول ، ويعاود الاستلقاء ؛ هل قيّدتِني؟ نعم يا سيغردر . هذا ليس ضروريًا . أتمنّى لو أن ما تقوله صحيح . يتنهّد . حلمت بشاب يافع ، يقول عندئذ وهو يغمض عينيه ، كان فتيًا ، يضيف فاتحًا عينيه باحثًا عن هيلدر ولكن من الواضح أنه لا يرى شيئًا ، ويعاود إطباقهما ، يتمتم بكلام ما عن المكان الذي يأتي الظلام منه ، ثم يفتح عينيه مجدّدًا ، كنت مرة فتيًا ، أتتذكرين يا هيلدر؟

نعم على نحو مبهم . لا أعرف ما حدث ، يقول ، يقول قبل أن يغفو ، غارقًا من جديد في الملجأ الذي تؤمّنه الخمور .

ترافق هيلدر الفتى إلى الطابق السفلي ، تتناول مجلدًا هزيلًا ، أعطيكَ هذا امتنانًا لك على مدّ يد العون لي ، وهو ، يمسّد الغلاف برفق ، غيستر بولسون ، ثلاث حكايات . أحتاج إلى الصعود ثانية ، تقول وهي تقريبًا تدفع الفتى خارجًا ، بحيث لم يكد يجد الوقت ليدسَّ المجلد الصغير تحت معطفه ويأخذ قبعته وقفازيه . عليَّ أن أستمر في مراقبته ، فهو سيتقيأ ثانية وليس من اللطيف أن يختنق المرء بقيئه . أتحتاجين حقًا أن تقيّديه الآن؟ يقول الفتى بنبرة شكّ ، بل حتى بنبرة توسُّل . تبتسم ، مسببة بذلك ظهور غمازة عند خدها الأيمن ، تبتسم ابتسامة مقتضبة ، وسرعان ما تنطفئ تلك الابتسامة ، وتصبح الغمازة ضحلة وتختفي . هو بخير الآن ، لكن لن يكون كذلك بعد بضع ساعات ، عندما يصيح ويشتمني ، ويدعوني بأقذع النعوت ، وكلماته سيتصاعد منها الدخان ، ثم سيبكي ويناشدني مثل طفل صغير ، ما عدا أن لا طفل يبكي من أجل الكحول ، إنما أشكرك على مساعدتك لي وحاول أن تعيش بطريقة لا تحتاج فيها المرأة إلى تقييدك بالسرير ، هذا معيب جدًا ، تختتم وهي تقفل الباب خلفه .

٨

لا يهدر الفتى أي وقت ويحثّ الخطى متجهًا صعودًا إلى الكنيسة ؛ يسلك أقصر درب بعد أن فقد اهتمامه بالقرية ، وبقية تجمهرات بيوتها المتناثرة ، بيوت الثلج ، تلال يكسوها الجليد ، فيها حياة لن يعرف أبدًا عنها شيئًا . في البداية يقتفي أثر مسار شبه مطروق ، والأرض ترتفع بليونة نحو الكنيسة التي تجثم على تلة منخفضة تعلو القرية والمقبرة المكتظة بالأرواح الفانية ؛ عظام ولحم نتن ، نحن نخزّن الموت تحت الأرض وهو يتحول ببطء إلى تربة ، إلى مسكن لديدان الأرض ، وإلى نباتات . الحشيش في مواسم الصيف أغنية خضراء ، ولعل تلك أغنية خلود الإنسان . لا يفكر الفتى إلا في أشياء قليلة ، ولكن يستعجل كأنما هو متأخّر على موعد ، مع أن لا أحد ينتظره سوى امرأة ميتة في الكنيسة ، والموتى يعرفون كيف ينتظرون ، بل عليهم أن يعرفوا كيف ، فلا عرض آخر غير هذا متاح لهم . بين حين وآخر يحيد عن المسار ويشق طريقه خلال الثلج ، ما يبذله من جهد يحرّره من صورة مدير المتجر سيغردر المقيد إلى سريره ، شقيق الشاعر ، يتحسس الفتى المجلد تحت معطفه ، يعقد النية على قراءته عدة مرات قبل أن يرسله

إلى ماريا . أين السعادة ، أين الاكتفاء ، إن لم نجد ذلك في الكتب والشعر والمعرفة؟ أولًا ناظر المدرسة غيسلي ، ثم القس كيارتان في فيك ، والآن سيغردر ؛ من أين ينبع حزنهم ، إحباطهم ، ولماذا ليست المعرفة راحة ، ماذا يستلزم العثور على السعادة؟ يفكّر ، ويشعر بالقلق ينتشر فيه ، بالخوف أمام مواجهة الحياة .

السماء مكفهرة قليلًا ، والغيوم تزداد قتامة ، ثمّة عاصفة ثلجية تلوح في الأفق ، لكن البرد ليس قارسًا كما في الأيام السابقة ، غدًا أو بعد غدٍ يمكن أن يتبدل الثلج إلى مطر فالربيع يقترب ، الربيع المبارك ، يأتي إلينا مع ضوء الشمس ، وطيور صغيرة وألوان وأزهار صفراء وزقزقة ، يصل مع ذوبان ثلج سريع ، يحوِّل كتل الثلج إلى عدة أيام من سيل طيني لا يُطاق ؛ والمزارع العشبية التي يغطي الثلج بعضها ، بل حتى يدفنها تحته تصبح مثيرة للشفقة بلزوجتها ، تصبح الأسِرّة رطبة ، ويبرد المرء في نومه ، ويبرد في يقظته ، وتُعمل الرطوبة طريقها نحو عظامه ، في هذه الحالة كيف ستسير الأمور بالنسبة إلى طفلة في فيترارسترند ، طفلة تكحُّ وتكحُّ؟ يتوقف الفتى أسفل الكنيسة ، يفكّر في الطفلة ، يطلّ على البيوت المكسوة بالثلج ، والبحر المضطرب من الرياح ، والسفينة الداكنة التي تقترب ، والجبال ببياضها الناصع مع أحزمة منحدراتها الحادة ذات السواد القاتم . كيف يمكن البقاء على قيد الحياة في بلاد يقتل فيها الربيع المنقذ الضعفاء؟ حيث الشتاء المظلم الطويل يكمن مثل حِمل ثقيل رابض في أذهان الناس ، والصيف الرائع غالبًا ما يجلب خيبة الأمل ؛ من ينجو من مثل هذه الأمور؟ أهُم الأشخاص الأقوياء ، المثابرون ، متساهلون أحيانًا إزاء رثاء الذات ، نزّاعون إلى الأنانية ، ولكن أيضًا إلى الأحلام القوية؟

الكنيسة حديثة العهد ، معتدلة الاتساع ومبنية من الخشب . هناك كلبان ضامران يحومان بقلق عند الباب ، يئنان بصوت خافت ، ولا يلتفتان ليتفحصا الفتى مع أنهما بلا شك سمعاه ، هذا غير عادي ، ربما هما متدينان ، يفكّر ، إلا أن أنينهما لا يلبث أن يتوقف ، يرفعان آذانهما ، يثبتان عيونهما على مقبض الباب ويحاولان أن يتسللا إلى الداخل حالما يُفتح الباب . إنه الكاهن بنفسه من يخرج ، رجل مسن يشتم الكلبين ويشرع في طردهما ، وعندما لا يباليا به ولا مراد لهما إلا دخول بيت الرب ، يوجه الكاهن بقدمه اليمنى ركلة للكلب الأكثر اندفاعًا . وغدان ملعونان ، يقول بصوت غاضب ، إلا أن جرس صوته واهن ولا يكاد يظهر فيه أي عزم ، بل تقريبًا يتفكك . ليأت الأطفال إلي ، يفكّر الفتى بينما يغلق الكاهن الباب بإحكام خلفه ، ولكن اتركوا الكلاب البغيضة في الخارج . يلتفت الكاهن مُسرحًا نظره من غير أن يبصر الفتى . أأصبحت جاهزة للدفن؟ يسأل رجلين يُقبلان من زاوية الكنيسة ، أحدهما يحمل مجرفة والآخر يحمل معولًا ، بينما يدلف الكلبان نحو الفتى ، أولئك الذين لا يسمح لهم دخول الكنيسة أقلّ ما يتوافر لديهم للقيام به هو تحرّي الروائح الجديدة . يرفع الكلب الذي رفسه الكاهن نظره نحو الفتى ، يبصبص ذيله بمرح ، وقد نسي على ما يبدو ما حدث ؛ هل القدرة على نسيان الإذلال بسرعة كبيرة نعمة أم نقمة؟ يجيب الرجلان الكاهن بكلام هامس وعيونهما على الفتى ، عندئذٍ يلتفت الكاهن لينظر ، يدهش في البداية ، بل حتى يرتبك ، بالحكم على تعبير وجهه ، إلا أنه سرعان ما يتخلص من ارتباكه ، نعم ، يقول ، لا بد من أنك أحد اللذَين يحملان البريد ، الشاب الأصغر ، فيهز الفتى رأسه ، ينزع أحد قفازيه ليحك الكلب وراء أذنه ، ويبدأ الثلج

بالتساقط . تطفو رقاقات كبيرة ناعمة الملمس وتحط أرضًا بطريقة حالمة ، تسد ثغرات السماء بأحلام بيضاء ، ويكتسي رداء الكاهن الداكن بالبياض . كانا يحفران قبرًا للمباركة أستا ، يقول الكاهن الهرم وهو يشير برأسه نحو الرجلين الآخرين . رجلان بوجهين عريضين وملامح متجهمة ، ومعًا يحملقان في الفتى ، ولا يلبث الكاهن أن يقترب منه ، يضع يده على كتفه ، فيشم الفتى رائحة الشيخوخة الممتزجة برائحة التبغ ؛ عينا الكاهن الزرقاوان لامعتان بشكل غريب ، بعض العيون المُسنة تصطبغ بمثل هذه الزرقة البرّاقة ، ربما لأن اقترابها من الموت أكثر بكثير من اقترابها من الحياة ، وبالتالي تتشرب ضوء الدنيا قبل أن يدخل أصحابها إلى الليل الذي خلف الحياة . يمعن الكاهن النظر في وجه الفتى ، بمودة وتعاطف . أجئت لتصلي من أجلها؟ يسأل ، فيهز الفتى رأسه إيجابًا ، شاعرًا أنه من الأسلم أن يكذب . هذا لطف كبير منك ، يقول الكاهن ويربت كتف الفتى بمشقة . سندفنها غدًا صباحًا ، ربما كان من المستحسن تأخير دفنها إلى أن يذوب الثلج ، إلى أن يليّن الربيع الأرض المتجمدة ، إلا أن آستا متلهفة للنزول إلى قبرها ، وقد حلمت بها مرتين ، مرتين يا ولدي ، يتابع الكاهن ويده ما زالت على كتف الفتى ، ربما لأن تلك اليد أُسعفت بمكان ترتاح عليه . رأيتها أولًا ليلة هبطتما أنت ورفيقك ، عندما ما كنت أعرف شيئًا عنها ، ثم ليلة أمس . أحيانًا يخاطبنا الرب عن طريق الأحلام ، والإنسان يعيش ليطيع القدير . زِد على ذلك أنه من المستحيل بمكان أن تبقى في الكنيسة مدة أطول ، وخذ حذرك لئلا تدخل الكلاب ، الرائحة الآن ليست قوية كثيرًا ، لكنها كافية لتحريضهما ، لماذا لا يلقي شخص ما بعض الفتات لهذين المخلوقين؟ ارفسهما بعيدًا إذا عدمت أي وسيلة أخرى . يرفع

الكاهن يده ، ثم يتركها تسقط ثانية على كتف الفتى ، يكرِّر مرتين ما قاله عن الكلبين ، يقول ، نعم نعم ، ما على الفتى إلا أن يرفسهما بعيدًا ، ثم ينطلق ماشيًا بتؤدة بين الرجلين اللذين كدحا ليومين وهما يحفران قبرًا في الأرض الصلبة . يراقب الفتى الحفّارَين ، المجرفة والمعول على كتفيهما مثل البنادق ، يمشيان قريبين من الكاهن ، ربما ليدعماه أو ليحولا بينه وبين أن يطير في الهواء ويختفي وسط الثلوج المتساقطة ، والشيخ الذي تكلل بالبياض تمامًا وهو بينهما ، يبدو أكثر فأكثر مثل ملاك طاعن في السن كلما أمعنوا في الابتعاد ، على الرغم من أن حذاءه الأسود يصبح باديًا للعيان عندما يحرك قدمه اليمنى . يحملق الكلبان بترقب في الفتى وهو يمسك مقبض الباب ، يبتسم لهما ، يفتح الباب بسرعة كومضة برق ويتسلل إلى الداخل ، وفي الخارج يئنان ويخدشان الباب .

الكنيسة مرتّبة ، لكن النوافذ في منتهى التعتيم بسبب الجليد المتجمد عليها بحيث لا يكاد ضوء الشمس يتغربل خلالها . ستة صفوف من المقاعد على الجانبين ، مساحة تتسع لستين شخصًا ، أيُقام القداس أبدًا لهذا العدد بأكمله؟ ربما عندما يأتي النرويجيون من محطة صيد الحيتان إلى هنا متعطشين للمثول أمام القدير . التابوت إلى جانب المذبح ، صندوق خشبي جيد النوعية ، ورائحة اللحم المدخن المعششة في آستا معتدلة إنما ظاهرة . مرحبًا ثانية ، يقول الفتى بصوت خافت وهو يجلس على مقعد ، إنهما مجرد يومين منذ أن كانوا معها في العاصفة . ثلاثتهم ، هو وهيالتي وينز ، يقطرون الموت خلفهم ، وأحيانًا يتحدثون عن حياتهم ، يتشاركون الذكريات مثل لُقيمات الخبز ، وينز أقلُّهم فضفضة ، هو عمليًا لم يقل

شيئًا ، والآن لم يبق سواهما ، وهيالتي منبطح في مكان ما في الثلج ولم يعد قادرًا على الكلام . يخيّم صمت غير مريح في الكنيسة بعد أن توقّف الكلبان عن خدش الباب ؛ لماذا جاء إلى هنا؟ يتلفت الفتى ناظرًا حواليه ، إنها كنيسة جميلة ومتواضعة ، مع القليل الذي يأسر العين ، وهذا ، حسب ما يُقال في مكان ما ، ما يجب أن تكون عليه بيوت العبادة في الدنيا ، متواضعة جدًا بحيث لا تجذب أي انتباه ، وبالتالي لا تعترض الطريق بين القدير والإنسان : «يسكن القدير في كل مكان ما عدا الأبهة المادية والأبنية الفخمة التي ترتفع لتمجيد الإنسان ، وبالتالي تحرف الذهن عن السماء .»

يستنشق الفتى الهواء البارد ، ورائحة الدخان الواهية ، ويتقدم نحو التابوت ، يشعر أن عليه أن يقول أو على الأقل يفكر في شيء مناسب ، لكن ما هو المناسب؟ ماتت وهجرت أربعة أطفال صغار وزوج ، والأطفال يبكون إلى أن يداهمهم النوم . ينفعل قليلًا فيمدُّ يده ليرسم علامة الصليب على التابوت ، ثم يُحجم عن ذلك ، ويرسم في الهواء رمزًا مبهمًا بدلًا من الصليب ، ثم يتلفت ناظرًا من حوله والحيرة تعصف به كأنه يتوقع العثور على جواب ، وفي النهاية تستقر عيناه على لوحة خلف المذبح فيقترب ليتفحص تفاصيلها . المسيح يمشي على الماء ، الحواري بيتر يغرق ويمدُّ يديه نحو المخلّص ، وستة رجال يراقبون من المركب ، وجوههم الملتحية ترتسم عليها المفاجأة والخوف والأمل . يتأمل الفتى هذه اللوحة مدة طويلة ، في البداية بذهن شارد ثم باهتمام متزايد ؛ لأن هناك شيئًا غير عادي فيها . يدنو أكثر ، وعندئذٍ يتضح ما التبس عليه ؛ يميِّز المحيط . يميِّز المركب ، والرجال الستة الذين يقودونه . والبحر . إنها ليست لجة المياه التي في الجنوب البعيد ، بل مياه البحر القطبي ، إنها هنا ، ما بعد الميناء تمامًا ،

ويميز الجبال أيضًا ، بيضاء وغامضة في خلفية اللوحة . المركب أكبر قليلًا من أن يكون مركبًا سداسي المجاديف ، بيد أنه آيسلندي الشكل والبنية ، والصيادون يلبسون معاطف واقية من الماء وقفازات صوفية ، كلهم ما عدا بيتر الذي نزع أحد قفازيه ومدّ يدًا كبيرة وخشنة نحو المسيح غير الملتحي ، وجهه أليف وودود ، ويده الرقيقة توشك أن تصل إلى يد بيتر . المخلّص يضع رداء فاتح اللون وحذاء مهلهلًا ، وقدماه مزرقتان ، بسبب البرد على الأرجح ؛ والرجال الستة يكسو الجليد لحاهم .

يسمع الكلبين مجدّدًا ، يئنان بصوت خافت فيه شيء من المرارة ، كما لو أنهما ينوحان ، أترون كيف يعاملنا العالم ، أولئك الأقرب إلى القدير يرفسوننا ، ومع ذلك تزعمون أننا أفضل الأصدقاء للإنسان ؛ كيف إذًا تعاملون الأعداء؟ ثمّ يصمتان ، ويتصاعد صوت امرأة بكلام ما . يُفتح الباب ويتسلل الكلبان بلهفة ، وهي خلفهما مع عينيها الخضراوين .

لا يتمهّل الكلبان ليتشمما الفتى ، وفي الوقت نفسه يقتربان منه كثيرًا بحيث أن أحدهما يحتك به ، إنه التابوت ما يجذبهما ، رائحة اللحم المدخن المعششة في آستا ، يتبعان أنفيهما ويتبعان جوعهما ، يضعان قوائمهما الأمامية على التابوت ، يرتفعان ويقفان هناك عموديًا تقريبًا ، مثل رسوم رجال هزلية ، يتشممان ويبصبصان . تتقدم ألفايدر نحو الفتى ، ومعًا يحدقان في الكلبين . لا أعرف إن كان هذا صائبًا ، يتمتم . نحن نادرًا ما نعرف ، تجيب قبل أن تستدعي الكلبين بهدوء ، فيطيعان ويقتربان منها فورًا ، ينظران إليها وعيونهما مفعمة بالولاء الساذج ، وكما هو متوقع تمدّ يدها إلى جيب معطفها وتخرج قطعتين جيدتين من السجق ، تقذفهما في الممر وينقضّ الكلبان عليهما ، يلتهمان اللحم بنهم عظيم يكاد يقترب

من اليأس ، ويزمجران قليلًا وهما يفعلان ذلك ، ثم ينظران إليها ويهزان ذيليهما . إنهما يتضوران جوعًا ، يقول . نعم ، لا يسمح لهما أرنار الهرم بالدخول إلى البيت . من يكون أرنار؟ سيدهما ؛ لم يدخلهما منذ يومين ، ولذلك غالبًا ما تراهما يتسكعان هنا قرب الكنيسة أملًا بأن يلقي لهما القدير بعض الفتات . لماذا يسيء معاملتهما هكذا؟ يسألها الفتى . القدير ليس صديقًا للكلاب ، وربما ليس صديقًا للإنسان كذلك . عنيتُ أرنار ، يردف الفتى بعد برهةِ صمْت ؛ ويحاول اختلاس النظر إليها من غير أن تلاحظ ، إلا أنها ما كانت مهتمة إلا بالكلبين . نعم ، حسنًا ، هما يتعاركان على الدوام ، فينتهي الأمر بأرنار بطردهما خارجًا مهما كانت حال الجو ، يقول إنهما كلبان ساذجان ملعونان وغير عقلانيين لا يفكران إلا في مؤخرتيهما . ثم ينظران معًا إلى الكلبين . هما يألفانك ، يقول الفتى . أنا أعطيهما شيئًا في أغلب الأحيان ، مصادقة الكلاب سهلة ، تعطيهم شيئًا يأكلونه ولا تطردهم ، لا يقتضي الأمر أكثر من هذا ، ومع ذلك ، هو بالنسبة إلى معظمنا يعتبر كثيرًا جدًا . تخلع قفازيها وقبعتها ووشاحها ، وشعرها أحمر ، أحمر بلا أدنى شك . كان يجب أن يكون بتلك الحمرة النارية ، بدلًا من أي لون آخر مألوف ؛ شيء وقور ، كالأشقر الرمادي على سبيل المثال ، أو الأشقر الفاتح ؛ كان يجب أن يصطبغ بالحمرة النارية طبعًا ، وعلى الرغم من أنه قصير ، ومتموج في الحقيقة ، هو أحمر بشكل لا يقبل النقاش ، ولعله من الأفضل أن تضع الوشاح ثانية بأسرع ما يمكنها ، وإلا قد تشعل النار في الكنيسة ، وربما تشعل شيئًا آخر أيضًا . تتقدم ألفايدر نحو التابوت ، تخطو بخفة ، بخفة متناهية ، كما لو أنها تفعل ذلك بلا مجهود ، مثل الثلج وهو يتساقط على الأرض في الهواء الساكن ،

ويتبعها الكلبان . لماذا أتيتِ؟ يسألها الفتى مع أنه نوى أن يقول شيئًا آخر، شيئًا عن الكلبين مثلًا، وأنهما من فصيلة كلاب مفترسة معينة، بيد أنه يسألها عن سبب قدومها، سؤال مريب جدًا يمكن أن يستحث جوابًا خطرًا . تبعتكَ، تجيب وهي تمرّر يدها على التابوت، آمرةً الكلبين بإشارة لطيفة أن يجلسا ؛ ويطيعان، يرنوان إليها ولسانيهما الناعمين العريضين متدليان من بين أنياب واضحة المعالم وحادّة، أنت وسيم جدًا، وتعتقد أن الأموات قادرون على الخروج في العواصف الثلجية بحثًا عن الأحياء، وأنهم يفعلون ذلك، أم تراك لا تعتقد بهذا؟ لا أدري، أهذا ما قلته؟ نعم، في هذيانك، وبشكل متقطع . ما يراه المرء أو يسمعه قد لا يكون له وجود، يقول . حسنًا ثمة عزاء في هذا . تبعتِني؟ يستفسر وبينهما عدة أمتار، مع ذلك بدا كما لو أنها تقف إلى جانبه تمامًا، على مقربة عظيمة منه، كقرب راغينهيلد منه في الفندق تقريبًا . أيّ نوع من الرجال هو رفيقك الضخم؟ تسأله . ينز! يهتف متفاجئًا، ما تعنين؟ أهو صالح، تسأل وقد أصبحت فجأة شخصًا مختلفًا ؛ بل حتى تغضّ بصرها . ماذا تريدين منه؟ يسألها الفتى بحدّة . ألا يمكنكَ أن تجيب؟ ينظر الفتى إليها وتتلاحق أنفاسه، إنه سؤال بسيط ؛ هل المطر ندي، أيّ نوع من الرجال رفيقك الضخم؟ يضع يديه وراء ظهره ليستطيع أن يكوِّر قبضتيه إذا أراد، لينفّس عن مشاعره خِفية، وقد أصبح وعيه كله وإدراكه ميدان قتال حيث المودة والولاء والخيبة والكراهية متورطة في صراع حياة أو موت . ماذا إذًا لو أن هذه الفتاة الصهباء مهتمة بينز، النساء كلهن مهتمات به ؛ هو متين البنية، وشديد البأس، وصوته عميق بعمق البحر، ويبدو في لا مبالاته بالغ القوة . نعم، يقول الفتى بروية، هو رجل صالح . يقول

هذا رغمًا عن إرادته ، تنتصر مودته وولاؤه ، لكن بشقّ النفس ، بشقّ نفس عظيم . تتحول قبضتاه إلى راحتين تنضحان عرقًا ، تحززهما أظافره . أيضرب النساء؟ تسأله الفتاة . وأي ضير هناك لو أنها تريد الصعود إلى السرير مع ينز؟ لا ، إنها حتمًا يجب ألا تُقدِم على ذلك ، يجب ألا يخون ينز سالفر ، سلكا معًا هذا الدرب كله ، وسط الثلج والموت ، فقط وفقط قطعًا ليتمكن ينز من الذهاب إليها ، يمتلك الشجاعة ليذهب ، يعثر على الكلمات التي تقوده إليها . لا يضرب ينز أحدًا ، يقول الفتى ، إن يديه صالحتان ، ولديه أخت أفضل منّا بكثير ، وفكره مشغول بامرأة أخرى ، في الواقع ، ما قطعنا هذه المسافة كلها ، في درب العواصف والموت ، وفقدنا هيالتي إلا ليتاح لينز أن يفكر فيها ، نعم ، لهذا السبب فقط .

هناك تقف ، عند التابوت الذي يضمّ آستا ، ليت آستا تقول له شيئًا الآن ، كيف شعرت ، ما الحال في أن يكون المرء ميتًا ، ما إذا يمكنها أو لا أن ترتحل قاطعة أرضًا وعرة لتداعب رؤوس أطفالها الأربعة بأيدٍ شفافة ، أن تخبره ما إذا كانت وحيدة تمامًا في الموت ، لا أحد تراه ، لا أحد تسمعه ، لا يصلها أي خبر ، وما إذا للقدير وجود ، لكن هذه الفتاة تقف هناك مستقيمة كالسهم وتحدق فيه وكذلك يحدق فيه الكلبان ، وتبدو على حافة قول شيء ، لولا أن الباب يُفتح ويدخل رجل ، والثلج يندفع إلى الداخل خلفه ، هبّة ريح بيضاء يسارع إلى إغلاق الباب في وجهها ، يمشي قدمًا بخطوات واسعة يقترب منهما وهو يلوح بأحد أصابع يديه العاريتين ، ويقول بصوت غاضب ، عرفتُ هذا ، عرفت أنكِ ستُدخلين الكلبين . أنتِ لا تحترمين أي شيء! يجب أن يتبرع أحد ويأخذ على عاتقه تلقينك درسًا لائقًا!

جلب الرجل الثلج معه ، هو نفسه مجلّل بالبياض ، ولو أنه نفض معظمه عن جسمه ، كاشفًا عن هيئته الداكنة تحت البياض ، وببطء يذوب الثلج على الأرضية . مستحيل أن يهزم المرء الشتاء ، في وسعه فقط أن ينجو منه ، أو يتعايش معه . اختبأ الكلبان غريزيًا وراء ألفايدر التي تقول ، نعم ، صدف فقط أنك تمرُّ من هنا يا فيغفس . مرحبًا يقول فيغفس للفتى ، أنا فيغفس وأسكن هنا فوق الكنيسة ، أأنتَ أحدهما؟ نعم ، يقول الفتى ، مقرًا بهويته للمرة الثالثة في هذا اليوم . سأطرد الكلبين ، يقول فيغفس الذي دنا من الفتى . هو طويل ونحيل ، وجهه مخدش ومسطر بعواصف الزمن ، وجه عريض معبِّر جدًا وعينان أقرب إلى الاتساع وبزرقة انفراجات في سماء الصيف . لا حاجة لأن تفعل ، يقول الفتى . إنها ليست حاجة ، بل ضرورة ، يجيب فيغفس وهو يقترب من ألفايدر والكلبين ، رأيتكِ تتجهين إلى هنا وعرفت أنك ستدخلين الكلبين معكِ إلى بيت الرب ، وتزعجين هذا الفتى هنا في صلواته ، بعضنا ما زال يُكِنّ الاحترام لهذا البيت ، وهذا لا يشملكِ . أتدري ، تقول ألفايدر ، أنت في منتهى الوسامة عندما تغضب . سأطرد المخلوقين إلى الخارج! وسأجعلهما يتقيأن عليك . يتلجلج فيغفس ، ويتذبذب رأسه قليلًا . *رجل سيئ* ، تقول للكلبين اللذَين يبادران فورًا إلى الزمجرة . إياكِ أن تتجاسري أيتها الوقحة! بل أنا قاسية وبلا ضمير ، وأنت لا تسأم أبدًا من إخباري بهذا ، ولذلك لا أستطيع أن أتصرّف بطريقة مختلفة ، كما أن الكلبين لا يحبّانك كذلك . لماذا تعاملينني هكذا؟ يقول وقد زال عنه الغضب فجأة ، تلاشى ببساطة ، ليحلَّ محلَّه نوع من نظرة توسل ارتسمت على وجهه الخشن المحزز ، ماذا فعلتُ لكِ؟ هيا ، هيا الآن ، تقول له أو للكلبين اللذين يستكينان ويكفّان

عن الزمجرة ، بل حتى يجثم أحدهما أرضًا ويتثاءب ، والآخر يمدّ أنفه تجاه التابوت ، يتشممه ويئن أنينًا خافتًا . لا ، هذا غير مسموح ، يقول فيغفوس وهو ينظر بقلّة حيلة إلى الفتى قبل أن يجلس على المقعد الأمامي ويحدق في لوحة المذبح . كنتُ هنا عندما رسم بيارني هذه . وأنتَ في المركب أيضًا ، تقول ألفايدر ، عندئذ يلاحظ الفتى أن أحد الصيادين هو صورة طبق الأصل من فيغفوس ، اللحية فقط هي ما ضلله ، فالوجه المحزز نفسه والعينان الزرقاوان نفسهما . أنت أحد الحواريين ، يقول ، فتندّ عن ألفايدر ضحكة خافتة . يبتسم فيغفوس ابتسامة تبريرية حيية ويقول للفتى بتأنٍّ ، عندما أنام ، أراني في مركب أراقب المخلّص ينتشل بيتر من البحر ، أتَرَى ، أبصره في الحلم غارقًا حتى ركبتيه ويكاد يواصل الغرق إلى إبطيه لكن المخلّص ينتشله بمنتهى الخفة ، ومعًا يأتيان إلينا ، وحينذاك ونحن نسحب سمك القد السمين والممتاز ، يروي لنا حكايات بديعة عن الإحسان والتضحية . أي حكايات ، تسأله الفتاة ، تلك القديمة؟ لا ، حكايات ما حدث قط أن سمعت كاهنًا يرويها ، إلا أنني أنساها حالما أفتح عيني . أليس في وسعك أن تشرع في استرجاعها قبل أن تفتح عينيك ، ولو حتى مطلع واحدة منها؟ أنا ، كما تعلمين ، أستيقظ وحدي دائمًا ، وليس لدي من أتحدث إليه ؛ أأنتِ غاضبة لأنني قلت لكِ أنه ما كان ينبغي أن تُدخلي المخلوقين؟ تثاءب الكلب الذي ربض وبدأ يشم مؤخرة الكلب الآخر الذي لا ريب في أنه أنثى ، في بادئ الأمر أخذ يشم عشوائيًا وبسأم ، ثم لا تلبث الرائحة أن تثيره ، فيئن ، ويحاول أن يعتلي الكلبة وفمه فاغر حماسةً ، فتستدير الكلبة المنهمكة في تشمم التابوت . هذه كنيسة ، يقول فيغفوس وهو يراقب ،

وهذه امرأة ميتة! لكن يا فيغفوس، إنها الطريقة الوحيدة الناجعة لإلحاق الهزيمة بالموت، تقول ألفايدر وتبتسم. إني أشعر بالأسف عليكِ، يقول فيغفوس عندما يرى الابتسامة، أنتِ في الظلام، وهذا الفتى هنا خاطر بحياته ليحضر المرأة إلى هذا المكان وأنت تسمحين للكلاب أن تتعاشر تحت التابوت. اللعنة عليكما! يصيح فيغفوس على الحيوانين اللذَين يتوقفان فجأة؛ تجثم الكلبة أرضًا، والكلب يلفّ في دوائر قبل أن يجثم هو الآخر، موجهًا إلى البشر ما بدا أشبه بنظرة اعتذار، كما لو أنه يريد أن يقول، لكن هذا بالغ الروعة. ثم تجلس ألفايدر على المقعد إلى جانب الفتى، جاعلة إياه بينها وبين فيغفوس. ينبغي الانتقال للسكن معي، يقول فيغفوس، فيفتح الفتى فمه ليجيب من غير أن تكون لديه أدنى فكرة عما قد يقوله، لماذا بحقّ السماء ينبغي أن ينتقل ليسكن مع هذا الرجل؟ أنتَ متزوج، تقول ألفايدر. ليس ذنبي. أتزوجتَ في الحلم إذًا؟ خدعَتني، يجيب فيغفوس. ما زلتما تعيشان معًا في البيت نفسه، أيُفترض بي أن أنام بينكما؟

نحن لا ننام في فراش واحد، أنت تعرفين هذا.

لماذا إذًا ما زلت تعيش معها؟

سيئ أن يبقى المرء وحده؛ أشياء كثيرة جدًّا تسكن في الظلام.

اقتنِ كلبًا.

أنت لا تفهمين تعاليم الرب، ولا تريدين الإبحار مع السيد المسيح.

ومع ذلك ما زلت تريدني.

عيناكِ هاتان، يقول فيغفوس بنبرة يائسة وهو يحدق في لوحة المذبح. عينا الشيطان خضراوان، تقول. أعرف، يتنهد فيغفوس، أنا فقط عاجز

عن ردع نفسي . تتقوقع الكلبة على نفسها وتحاول أن تنام ، ينقّل الكلب النظر بين الكلبة والأشخاص ، يقف ، ثم يجلس ويئن بصوت خافت محزن ، يقول أنينه يا لي من مسكين ، هذا صعب للغاية ، ثم يشرع من جديد في تشمم مؤخرة الأنثى ، ممعنًا في حشر أنفه فيها بقدر ما يستطيع .

فيغفوس : هذا ليس جيدًا .

الفتى بصوت خافت : الكلب يعتقد أنه كذلك .

فيغفوس : المسيح معنا ، إنه يرانا ، ويحكم علينا ، لا يمكن أن نسمح بهذا . أجئت لتصلي أو لتراقب الكلاب تتعاشر؟

الفتى : لم أدخل إلى هنا لأصلي ، أردت فقط أن أتحدث إلى آستا .

فيغفوس : هي ميتة يا فتاي .

وكذلك المسيح ، يقول الفتى بلا تفكير كما لو أن الشيطان كامن فيه ، يبصق شيئًا في دمه . رباه ، يقول فيغفوس ، ليكن القدير في عونك وأنت تتلفظ بمثل هذه الكلمات . فتنبري ألفايدر إلى القول وهي تراقب الكلب الذي بدأ يلعق الأنثى ، كل شيء سيصبح مختلفًا وأفضل لو أن المسيح كان امرأة . أرسل الرب ابنه ، يقاطعها فيغفوس بحزم ، لكنه يراقب أيضًا . يلتفت الفتى خلسة ليحظى بنظرة أفضل إلى وجهها ، إلى طوق النمش ، إلى الشفة السفلى الريانة كأنما هي تحمل العليا . لا ، اِنزل ، يصيح فيغفوس بيأس عندما يعاود الكلب اعتلاء الكلبة التي تتقبّله ببساطة كأنها ما عادت قادرة على تجشم عناء المقاومة . يئن الكلب ابتهاجًا وتبدأ مؤخرته في الاهتزاز بجنون ، كأنها عضو مستقل في جسمه ، وفكّاه فاغران . لو شاء القدير أن يغيّر العالم فعلًا ، تقول ألفايدر ، لأرسل لنا ابنته وليس ابنه . كانت بنت الرب ستُظهر إلى العلن مساوئ البشر كلها ؛ وكان يمكن أن

تتعرض للضرب والخزي والإهانة ، وكان الرومان سيغتصبونها قبل صلبها . كانت ستكشف عن أسوأ ما فينا ، وربما ينجح هذا في تغييرنا . وأنتم الرجال لن تتجنبوا حينها محاولة استيعاب ما معنى أن يكون المرء امرأة ، وما علينا أن نتحمل ، ما معنى أن نبقى دائمًا مستضعفات ، ما معنى أن نُصنَّف من الدرجة الثانية . لكن القدير لا يفهم النساء ولذلك أرسل ابنه .

هذا ما تقوله ، والفتى جالس بينها وبين فيغفوس ، والكلبان منحنيان يتعاشران تحت التابوت . وأخيرًا ينتهيان . لا أشعر أنني بخير ، يقول فيغفوس خارج الكنيسة والكلبان يقفزان حولهم بسعادة ، ألن تأتي معي؟ سأطلب من كريستن أن تغادر ؛ إنها تنام في المطبخ على أي حال ولن تعترض طريقنا . أنتَ لا تشتهيني ، بل تشتهي الخطيئة فقط ، تقول وهي تربِّت خدَّ هذا الرجل الطويل ، تربِّت خده بأصابع نحيلة ومتورمة من الكدح ، فتسري في فيغفوس رعشة ، يشعر بشيء إلا أنه ليس واضحًا ما هو ، وشعرها بحمرته النارية يجعل الفتى لا يتجاسر على النظر ، ثم تضع وشاحها وقبعتها ويمضيان معًا إلى دار الطبيب في حين يشق فيغفوس طريقه إلى بيته ، يبقى الكلبان وراء الكنيسة ، دافئان من المعاشرة والركض . وفي دار الطبيب يستلقي ينز ، هو متين البُنية وهي تفكر فيه . هناك نصّ عربي طبي قديم يقول : إن قلب الرجل يتألف من حجرتين ، إحداهما تدعى السعادة والأخرى تدعى اليأس ، فأيهما علينا أن نصدّق؟

٩

عندما يعود الفتى يجد ينز نائمًا ورعدة خفيفة تسري في أوصاله ، كما لو أنه يحلم بالعزلة . ليس هناك جحيم ، إنما عزلة فقط ، وما عداها يبهت بالمقارنة معها ، حشائش الحياة تذبل ونرتعد من الفكرة . يجلس الفتى على سريره ويراقب هذا الرجل الجسيم يرتعد . مشيا جنبًا إلى جنب بصمت هو وهي ، ومشَتْ مثل المرأة التي يحلم بها المرء ، إلا أنها كانت تفكر في رجل آخر طبعًا ، لحسن الحظ . هي عاملة معدمة مع طفلة ، وهو لا يملك شيئًا ، وقد يخون والديه ، يخون حياتهما ، أحلامهما ، إذا ذهب وعاش مع عينين خضراوين وشعر أحمر وطفلة ، رقيق الحال ، وأيامه كلّها كدح شاقّ في اليابسة وفي البحر ، يسحب خيوط الصيد في الصقيع والمطر ، يراقب يديه تشيخان ، تتورمان ، تتشققان ، تتحولان إلى أحجار قديمة ، لا علم ولا معرفة ، كدّ وضنك فقط ، الكدّ الذي لطالما ضيّق الآفاق وقصّر الأبعاد . كما أن ذهنها إضافة إلى ذلك مع ينز وليس معي ، يفكّر الفتى ، مع أن هذا أيضًا غير جيد بوجه خاص ، ولا يسبب سوى الألم ، الكثير من الألم في الواقع . يشعر أنه ما عاد يطيق البقاء بين الجدران أكثر مما

فعل ، فيعود ويخرج إلى الثلج ، يختفي وسط ندفه التي تحمل الصمت والبرد في حناياها . لا يأخذ بعين الاعتبار إلى أين يمضي ، أو في أي اتجاه ، ولا يكون قد ابتعد كثيرًا عندما يبدأ الثلج في التحول إلى بَرَد ، يصبح الجو أدفأ بينما يذوي الثلج ويذوب ، يغدو رماديًا كَلَون اليأس ، ويجد الفتى نفسه عند سفح الجبل على مستوى أعلى من الدار . هكذا يطلّ الربيع . ما كان أبيض وناعمًا يصبح رماديًا ومشبعًا بالماء . إذا كان تساقط الثلج حزن الملائكة ، فالبَرَد ليس إلا بصاق الشيطان ؛ يصبح كل شيء رطبًا وثقيلًا ، والثلج يتحول إلى وَحْل بغيض . يقف الفتى عند سفح الجبل ، رأسه مطأطأ كرأس حصان ، يسترجع رحلته مع ينز ، من لحظة أن أُعلِم بها في صالة غيرترود ؛ وعَدوه بتحصيل العلم وخوض المغامرات ثم إذا بهم يرسلونه في رحلة طويلة مع رجل لا يعرف كيف يتكلم . يقف هناك ويتعرّض للبلل . والبياض من حوله يبهت شيئًا فشيئًا ، الربيع قادم وهو يسترجع في ذهنه الرحلة بأكملها . يقف مدة طويلة عند سفح الجبل ، لقد حدث الكثير جدًا ومع ذلك ما زال على وجه التحديد هناك عند المنحدر الشخص نفسه الذي باشر الرحلة ، ما زال كما كان عند المنحدر كما بدأ . وما زال عدم اليقين يجري في عروقه بدلًا من الدم . لا شيء حدث ، ما عدا أن طفلة كحّت بشدة في فيترارسترند ؛ وتسنى له أن يلقي نظرة خاطفة غير متوقعة على أحلام أمّ تلك الطفلة ، ماريا ، والكتاب الذي جلبه لها ، قصص غيستر بولسن القصيرة في دار الطبيب قرب سريره ، لكن ماذا يواكب الكتب إلى جانب الموت والغمّ ، ماذا تفعل الكتب ما عدا تذكيرنا بما لا نملكه؟ باردور في باطن الأرض في الريف حيث ترعرع ، ذاك الذي كان كل شيء ما عاد شيئًا غير اسم على صليب ، لم يبق من ذلك العالم

سوى الأسف والذكريات ، والقس كيارتان يخرج إلى الليل ويسمع صوتًا مستهجنًا ، كما لو أن شيئًا من الجحيم قد جاء في طلبه ، ما لم يكن القدير يستدعيه من مسافة عظيمة . وآنا زوجته ، شبه عمياء ، ولعل ذلك هو سبب عزوفه عن لمسها ، وأحلامهما كلها مطفأة وميتة . تنير الأحلام درب الإنسان ، إنها البريق المحيط به ، من دونها تسود الظلمة ، وإذا توقَّف المرء عن الحلم ، يعرف ما ينجم عن ذلك ، يعرف من أين يأتي ظلام الإنسان . يهاجم البَرَد الفتى الذي لا يفعل الكثير ما خلا التفكير في الشعر الأحمر والعينين الخضراوين ، كيف مشت ، لا أحد يستطيع أن يمشي مثلها ، تلك التي لديها طفلة خارج رباط الزوجية ، إلى جانب أنها تفكر في ينز ؛ ينز العتيد ومع ذلك يرتعد في نومه . ينظر الفتى عاليًا إلى البَرَد وصوب الوادي ، يركز ذهنه على هيالتي الذي عايشه نهارين وليلتين ، بالكاد عرفه حق المعرفة ومع ذلك هو ربما يعرفه أفضل من كثيرين ، وهيالتي الآن راقد ميتًا في مكان ما تحت البَرَد ، سيذيب الربيع الجليد عن جثته المتجمدة ، وستجذب الرائحة الغربان والثعالب ، وهناك كمية وافرة من القوت في ذلك الرجل الضخم . يغمض الفتى عينيه ولا يحضره شيء ما عدا ما قالته عن اختلاف العالم لو أن المسيح كان امرأة ، امرأة يهتك الرجال عرضها قبل أن تصعد إلى النور ، ربّاه ، كم يتوق إلى أن يحب شخصًا يفكر على هذا النحو . يفتح عينيه ويذرف بعض الدموع . إنها تمطر حبات بَرَدٍ ، كل شيء يصبح رماديًا ومبللًا ، البحر يرغي ويزبد والغرقى يتحدثون عن الربيع ، عن الليالي عندما يكون كل شيء وهّاجًا ، والعالم يتغير إلى أبدية زرقاء ، وفي مكان ما ، بعمق سبعين مترًا ، يقبع أبوه ويسمح للسمك أن يقضمه ، يغمض عينيه ويتخيل أنه ما زال حيًا وليس غارقًا ، ليس في قاع البحر ،

وأنها تقبّله ، قبلات باردة على عمق سبعين مترًا ، وجمجمته تطقطق تحت وطأة ثقل البحر ، الوزن نفسه الذي يبقيه في القاع في عزلة الموت ، على مدى الأبدية ، على مدار الأبدية السوداء إلا إذا بدأ الفتى ينشد الحياة .

١٠

من غير المحتمل أن يعود أولافر قبل هبوط الليل ، تقول شتاينان للفتى عندما يفرغ من تناول الطعام ، على الرغم من أنه لم يأكل شيئًا تقريبًا ، اكتفى بالتقاط نتف من طعامه مثل فرخ عصفور ، ونتيجة لذلك واجه توبيخ ثورديس ، من يأكل كمية ضئيلة هو أقلّ من رجل ، وذاك الذي يثبّت نظره دائمًا على حجره يفتقر إلى العزم . أراد الصعود إلى الطابق العلوي ، ليضطجع وينام ، يفرّ إلى أحلامه ، أن ينام المرء يعني أن يهرب ، إلا أن شتاينان تقول إنه من غير المحتمل أن يعود أولافر قبل هبوط الليل ، وتسأل إن كان الفتى يحب مرافقتها والجلوس معها في غرفة العائلة ، لأنه من المملّ أن يبقى المرء وحده ، فيرافقها ، يشعر أنه من الوقاحة ألا يفعل ، لا يتجاسر على الرفض ، على الرغم من أن الانكماش في باطنه أزيز لا ينقطع ، إذ ما الذي يمكن أن يتحدثا عنه؟

هنا حيث كنا نجلس عندما ارتطمتما بالبيت ؛ تشير إلى كنبة وأريكة واسعة ، كأنها تقريبًا ترشده إلى مقعد ليجلس ، لكنه ينجذب إلى خزانة الكتب ، خزانة ضخمة مقسّمة إلى أجزاء تضمّ حوالي مئة كتاب . أغلبها

خطايا قديمة من حياتنا في كوبنهاغن ، تقول ، عشنا هناك ثمانية أعوام ، من حين لآخر أفتقد الضوضاء التي تصاحب الحشود ، أفتقد القباب المدبَّبة والمسارح والحفلات الموسيقية . تتأمل الفتى مليًا ثم تسأله عن غيرترود ، وإن بحذر ، كما لو أنها لا تعرف تمامًا كيف تطرح السؤال . كيف هي الحياة هناك؟ تحاول صياغة سؤالها . لطيفة ، هو كل ما يقوله ، والشوق المجنون يلهبه ليتحسَّس الكتب ، وفي الوقت نفسه يشعر بعدم الارتياح للإقدام على تحسُّسها بينما هي تتأمّله على ذلك النحو . إنما ما شأني أنا بهذا؟ تقول ، بعد طرح سؤالها الثالث أو الرابع ، مستمعة إلى الأجوبة التي لا تكاد تكون أجوبة ، بقدر ما يتعلق الأمر بي يمكن أن تحظى تلك المرأة بحياتها وفق هواها ، لولا أن المرء يشعر غريزيًا بالفضول ليعرف عنها ، عن أولئك الذين يختلفون عنّا ، تقدَّم وتفحَّص الكتب ، تضيف في النهاية ، وهذا ما يفعله ، يتفحّص تلك الخطايا القديمة من مدينة كوبنهاغن التي تفتقدها شتاينان ، وبدلًا من أن تطرح مزيدًا من الأسئلة عن غيرترود تبدأ في إخبار الفتى عن حياتها مع زوجها في تلك المدينة ، قبل ثلاثين سنة . تجلس على كرسي وظهرها إلى الأُرغن ، مسترسلة في الحديث عن زمن ماض تتذكّره هي وزوجها في كثير من المناسبات عندما يكون الشتاء الأطول بين الفصول ، والظلمة الحالكة تجعل الدخان يتصاعد من المصابيح كأنها على شفير الاختناق ، حينها يأتيان على ذكر الحقبة الغابرة ، يعيشان اللحظات مجددًا ، يعيشان بعضها مرارًا وتكرارًا ، وفي أحيان كثيرة تصبح من تكرار استحضارها جرداء ، مثل لباس يوم الأحد الذي يفرط المرء كثيرًا في ارتدائه فيفقد رونقه ، لكن الآن معها أذنان جديدتان وهذا يغيِّر كل شيء ، كما لو أنها تقريبًا لم تسترجع قط في ذهنها بعضًا منها ؛ فقط

ليت أولافر هنا ليعيش معها تلك اللحظات ثانية . تتحدث وهو يستمع ، ثم تعزف على الأُرغن .

تستدير ، تشغّل الدواسات ، تعزف ألحانًا تبدو أنها تنحدر من ليل ناءٍ ، من غسق دافئ ، الموسيقى تخلق في صدورنا مزيدًا من المساحة ، يمكنها أن تبتدع سماوات جديدة ، أملًا جديدًا ، من دونها البشر بائسون . أوه ، إنه حطام حلّت عليه اللعنة الآن ، تقول شتاينان بعد مرور الوقت والفتى غارق في قصة روسية باللغة الدانمركية ، لا يكاد يستوعب نصف كلماتها ولكنه عاجز عن التوقف ، حطام ملعون ، تكرر ، وهي تربت الأُرغن بمودة ، يجب أن يؤخذ إلى الكنيسة من وقت لآخر في مختلف الأحوال الجوية ، ومثل هذه الرحلات ليست جيدة للآلات الموسيقية . سأعزف قليلًا غدًا من أجل آستا ؛ هذا حتمًا سينفع في تخفيف التوتر قليلًا ، تقول قبل أن تعزف المزيد ، بينما يتابع هو القراءة عن شاب مصاب بالعُصاب على أشد ما يكون ، وربما هما نظراء ، لكن هذا الشاب يتضور جوعًا على ما يبدو ، هزيل وفقير . الناس في مناطق أخرى من العالم يعانون أيضًا كغيرهم . هم معدمون وجائعون ؛ وحياتهم طريق طويل ووعر . في الخارج يتحول البَرَد شيئًا فشيئًا إلى مطر فقط ، مطر غزير . أمسية شهر أيار شبه معتمة والوقت متأخر . آمل ألا يصاب أولافر بالزكام في هذا الجو الماطر ، تقول وتتوقف عن العزف ، تُغلق الأُرغن فيصبح مجرد صندوق في محيط أبدية صامتة . يغادران الغرفة العائلية وهناك تجلس ، على الدرجة الأوطأ من السلالم مع طفلة نائمة ، طفلة بعمر ثلاث سنوات مستكينة في حضنها تتنفس بفم مفتوح ، لديها شعر ناعم فاتح اللون وأصابع صغيرة متمسكة بثوب ألفايدر البنّي ، لا تفلته حتى وهي تحلم . أنتِ تجلسين هنا يا فتاة ، تقول شتاينان

بدهشة ، لماذا؟ بدا لي أنها قد تنام أسرع على صوت الموسيقى ، تجيب ألفايدر وهي تنهض برشاقة وخفة بالغين كي لا توقظ الطفلة ، مرهقةً بليونتها الفتى بعذاب لا يطاق جعله يواجه صعوبة كبيرة في النوم ، حيث أخذ يتقلب ويستدير في فراشه . وقفت بليونة هائلة ، ألقت عليه نظرة بعينيها الخضراوين ، يحدوني الأمل في أن أغادر غدًا ، يهمس لوسادته ، يغادر السرير ، ينظر خارجًا إلى المطر الذي يمعن في تعتيم المساء ، بمشقة يميز حدود السفينة الراسية في الميناء ، ثم يطبق الليل .ليل ،ليل ،ليل .

١١

يتخلل الربيع وضوؤه المطر ويوقظان الفتى . يقف إزاء النافذة مدة طويلة حافيًا وخشب الأرضية البارد تحت قدميه ، يطيل تأمّل الضوء الرمادي الماطر ، تأمّل القطرات الشفافة التي تخترق الثلج الأبيض .

ينز ليس في أي مكان يمكن رؤيته ، وشخص ما رتب فراشه ، ثورديس ، أو ألفايدر . خلاصي ، يفكر الفتى ، لأنني بت أعرف ما أريد . ثمّ ينزل ويجد ينز جالسًا هناك وجاهزًا للرحيل . مهما كانت الحال ، يقول أولافر ، كل شيء يعارض رحيلك ، المنطق السليم بحذافيره . ولا يردّ ينز بشيء ، يكتفي بشرب قهوته التي تحضرها له ثورديس وهي تتحسس به كأنما يحدث ذلك صدفة ، تتحسس بهذا الرجل الضخم الصامت . لكن بالطبع نادرًا ما رأى الناس في هذه البلاد أنه من المفيد مراعاة المنطق السليم ، يردف أولافر بنبرة حادة على غير المعتاد ، وهذا لا يضايق ينز ، أما ثورديس فتقول ، ثمة أشياء ، كمواقف الرجولة هذه ، لم تختفِ بالكامل إلى حدّ الآن ، وفي غضون ذلك لن نموت . وتتحسس بينز ثانية لأنه من الجيد لمس ما هو جسيم وصلب ؛ تلاحظ شتاينان ذلك وتشيح بوجهها . كم

كنت أتمنى لو أن الرجولة قد قضت على ما يكفي من الناس ، يقول أولافر متبرمًا وهو يسند رأسه على الحائط ، لقد نجم عنها الكثير . هذا صحيح ، يهتف الفتى فجأة وبحماسة عالية إلى درجة أنه يقف مع أنه ما جلس إلا توًا ، يقف كما لو أنه يهمُّ بإلقاء خطاب ، فينظر الجميع إليه بدهشة ؛ أولئك الأشخاص الأربعة ، الطبيب وزوجته وثورديس وينز ، ينز الذي تندُّ عنه ابتسامة فاترة . أنا راحل اليوم إذا استطعت أن أفعل ، يقول ينز بعد أن يجلس الفتى ثانية ، ثم يضيف ، الأمر ملحّ ، وتحاول ثورديس الاقتراب منه ولكن لا تجرؤ على لمسه مجدّدًا بلا مبرر ؛ فتبعد يدها ، تلمح نظرة شتاينان ، ويتصلب وجه الخادمة ، يتحول إلى حجر . يتنهّد أولافر الذي عاد إلى البيت الآن بعد تلبية نداء منزلي لشابة في حالة مخاض . ذهب شمالًا مع زوج المرأة ، على طول مسار الوادي بأكمله عبر مسالك وعرة ، تسلقا عاليًا ، والبَرَد في الأعالي تحول إلى ثلج ، والثلج عاد وتحول إلى بَرَد ، قطعا مروجًا عالية في ظلام ليل الربيع المتردد ، وفي نزولهما من الأعالي سمعا تغريد طائر الزقزاق ، بل سمعا تغريد زقزاقين ، وهذا كان غير متوقع أبدًا ، بحيث اضطر أولافر إلى التوقف والجلوس ، وقد تغلبت عليه الدموع . أبقى رأسه مطأطَأ ليخفي دموعه عن المُزارع الذي حدَّق مضطربًا تجاه بيته من بين البَرَد ، كما لو أنه يرسل بصره ، يكنس به النافذة الصغيرة فوق رأس زوجته ، فتح يديه وضمَّهما داخل قفازيه ، بمشقة قاوم الصياح على الطبيب الذي يمكنه أن يستريح لاحقًا ، فتلك الاستراحة هنا على الجبل قد تعني موت زوجته ، وبالتالي يصبح طفلاه بلا أم ، والمولود الجديد الذي يحتمل أنه الثالث ، يُترك وحده مع أمه المريضة ، أحدَّ النظر من بين البَرَد ومن جديد سمعا تغريد الزقزاقين . انحنى أولافر كأنه يجثم على أربعته ،

ونشج بصوت خافت ؛ إنها أغنية الزقزاق الأولى لهذه السنة ، وهي على غير المعتاد متأخرة ، حتى هنا في هذه البقاع ، بضع نغمات لامعة مشوبة بالسوداوية تخترق البَرَد والثلج ، لعل الحياة لا تستسلم أبدًا ولعلها لا تتبدى بهذه القوة في أي مكان آخر كما تتبدى في تغريدة طائر مع مطلع الربيع البارد . يفتح أولافر عينيه في المطبخ ، نجح في إنقاذ المرأة والمولود ، بيد أنه اضطر بعد ذلك إلى عيادة مزرعة أخرى ، قضى أربع ساعات هناك ، حيث كان أهل البيت ، كلهم في الواقع ، طريحي الفراش ، يعانون من سوء التغذية ، والمُزراع أزرق الوجه تقريبًا ، ولا طعام تبقى لديهم سوى لحم طيور بحرية فاسد ، ولم يتناولوا شيئًا غيره هناك في الأسابيع القليلة الماضية ، وحالما عاد أرسل رجالًا ، سبعة رجال ، ومعهم زلاجة كبيرة لنقل العائلة إلى القرية . وعلى رجل واحد أن يتخلّف ليهتم بالماشية ، يذبح الحيوانات التي في أواخر أيامها ، والستة الآخرون يصطحبون تلك العائلة ، ومن المستبعد أن يعتريهم السأم على طول الطريق ، فالمُزارع وزوجته يحفظان مجموعات من الأشعار والقصص والأغاني الشعبية ويستمتعان بمشاركتها مع غيرهما ، فالرفقة تزوِّد الناس بالطاقة .

أنحن راحلان اليوم؟ يسأل الفتى . نعم ، أظننا فاعلان ، على متن السفينة التي جاءت إلى هنا لتحمّل بعض الأشياء .

قبل رحيلهما تستدعي الظروف الاستعانة بالفتى ليساعدهم في رفع الأُرغن فوق منصّة نقالة مصنوعة بطريقة خاصة ثم نقله إلى الكنيسة . نقله خلال المطر والثلج والوحل ، إنها ثماني درجات في الخارج ، تقول شتاينان بعد أن أدخلت الرقم في سجل حالة الجو الذي تحتفظ به منذ ثماني عشرة سنة ، تكتب فيه عن اتجاه الرياح وسرعتها والحرارة وتلبُّد

السحب وحالة البحر . هذه الحقائق التي نحتاجها بشدة ، لنستخدمها في تفسير العالم ، في تحمّل الحياة ، هي تقريبًا حقائق جوفاء لا توضح شيئًا . شأنها شأن سجلات شتاينان التي اقتصرت على حالة الجو خلال أول سنتين أو ثلاث سنين ، قبل أن تستسلم شيئًا فشيئًا للرغبة الملحّة في خربشة بضعة أحداث يومية ، وأحيانًا كما لو أن ذلك من قبيل الصدفة ، تسجِّل أيضًا كيف كان قلبها يخفق . في الغد ستكتب عن الفتى ، تكتب شيئًا عن طريقة وقوفه أمام رفوف الكتب ، شيئًا عن عينيه ، وأنه قد يكون من الصعب نسيانهما ، عن ثورديس التي كان لا بد من أن تراقب ينز يغادر من غير أن يتاح لها لمسه ثانية ، عن كيف حُرمت ثورديس من الكثير في الحياة بحيث قسا قلبها ، ربما من المرارة ، وربما من أجل أن تبقى حيَّة . وهذا أحيانًا لا يطاق إلى درجة أنني يجب أن أشعر بالأسف عليها لعجزي عن إخلاء سبيلها ، تكتب شتاينان ، قبل أن تضيف شيئًا عن تغريد طائر على جبل ، وماذا يمكن أن يفعله بالمرء ، تكتب ، ملأَت ما مجموعه تسعة دفاتر ، وسيكون هناك المزيد ، ستة عشر ، ولن تُفقد ، الكلمات التي تُصان فيها الحياة ستجد طريقها إلينا .

في إخراج الأُرغن استنزاف للوقت والجهد ، فالمساحة ضيقة جدًّا ولا يكاد يكون هناك متسع إلا لشخصين لحمله ؛ الفتى ورجل استُدعي من البيت المجاور ، وينسى الفتى اسمه بمجرد أن يُذكر أمامه . رجل صامت يبقي رأسه مطأطأ ، ربما ليخفي نظرته الساخرة ، يركل الأُرغن مرتين ، ويفعل ذلك خلسة ، كما لو أنه يعبِّر عن استيائه . وعلى ينز أن يكتفي بالمراقبة ، وهذا شاق عليه ، شاق أن يكون بلا فائدة مطلقًا ؛ فهو لا يكاد يكون قادرًا على ما هو أكثر من الوقوف على قدميه . يسمع الفتى ثورديس

تقول شيئًا عنه ، لا يخمّن ما قالته ولكن نبرتها لا تفوته ، فيجتاحه الغضب ، يشحنه باللعنات والطاقة ، ومع أنه ينضح عرقًا يتنفّس الصعداء عندما استطاعوا أخيرًا التحايل على الأرغن لإخراجه . نعم نعم ، يقول أولافر للهواء ، بينما تسارع شتاينان إلى تغطية الآلة الموسيقية . لعله يجدر بنا أن نحضر رجلين آخرين لمساعدتنا ، يقترح أولافر وهو يمسك أسفل ظهره العريض ، خُذ الزاوية الأخف ، تقول شتاينان ، وانتبه إلى ظهرك . يتخذون أماكنهم عند الزوايا ، الفتى والرجل الصامت وأولافر وثورديس التي يرتسم على وجهها تعبير منفّر . إنها مسافة طويلة إلى الكنيسة ، على الثلج الرخو . ينحنون ليرفعوا المنصة ثم يلاحظون رجلًا ضخمًا يدبّ متجهًا نحو بيت الطبيب ، حاسر الرأس ، أشيب الشعر ، وبلحية بيضاء كثّة وعينين مائلتين إلى السواد ، يصيح بكلام ما ، وجرس صوته ينبئ عن سعادة عارمة لسبب مبهم . تتلفت ثورديس ناظرة من حولها ، ربما لتحدّد مصدر سعادته ، لكنها تفتقر إلى العينين المناسبتين لرؤية ذلك . يا للهول ، يهتف الفتى بدهشة ، لأن الرجل ليس إلا برينيولفر ربان سفينة الأمل ، السفينة التي يملكها التاجر سنوري ، ولا تفوح من برينيولفر رائحة الكحول بينما يمسك الفتى ويرفعه بخفة مثل كيس فارغ .

سيكون الحمل الآن أسهل ، يأخذ الربان مكان أولافر الذي يعود ويضع يده أسفل ظهره كأنما هو يجد لنفسه عذرًا ، وتمرِّر شتاينان يدها على كتفه ، لا بأس ، تقول يدها ، ليست العضلات ما تجعل منك رجلًا ، وهي ما فعلت ذلك قطّ . لكن الأُرغن والمنصة ثقيلان ، وهذا لا يخفى على أي منهما ؛ الفتى والرجل الصامت الذي يبصق بانتظام ويتنفس بصعوبة ، ينظر برينيولفر حواليه كما لو أنه يقتل الوقت ، لا يشعر بثقل الوزن ،

وثورديس تقف مستقيمة الظهر ، ولا تغيير هناك في ملامحها ، يتبعهم ينز على مسافة قريبة ويشعر بالمهانة مع كل خطوة ، بالألم والضعف . يقطعون مسافة جيدة عندما تقع عينا الفتى على ألفايدر وبصحبتها رجل يحمل طفلتها على كتفيه ، قوته ظاهرة حتى من هذه المسافة بينهما ، وكلما اقترب بدا أكثر وسامة ، وهو يدردش ويبتسم ، وهذا جيد طبعًا ، أن شخصًا ما زال يعرف كيف يبتسم في هذه الدنيا ، الابتسامة يمكن أن تمزق الظلام ، وتنير العالم ، إلا أن قلب الفتى يتقلص إلى حصاة ، لاحقًا ، سيذهب إلى الشاطئ ويقذف قلبه نحو سطح البحر ، يراقبه يطفر على السطح عدة مرات قبل أن يغرق ، وعند ذاك سيتحرر من ذلك العضو الغبي والمزعج .

الرجل نرويجي من محطة صيد الحيتان ، وأحد الأصوات الرئيسة في الجوقة ؛ أرسلت ألفايدر في طلبه ولم تمانع فعل ذلك مطلقًا . الصغيرة مسرورة وهي على كتفي الرجل ، تبتسم ابتسامة عريضة وتتمسك بإحكام برأسه ذي الشعر الكثيف ، ثم تبهت ابتسامتها وتختفي عندما ينزلها أمام الكنيسة ، يصبح كل شيء كبيرًا بشكل غير معقول والناس يتغيرون إلى عمالقة ، تحني رأسها ، وتبدو أشد حياء من أن ترفعه وتميط اللثام عن عينيها ، وهذا مؤسف ، لأنه إذا كان هناك أي شيء يمكن أن ينقذنا فهو عيون أطفال بعمر ثلاث سنوات . أثمن ما لدى الجنس البشري ، وأكثره رقة وأقواه يمكن العثور عليه في نظراتهم ، ونحن يجب ألا نتخذ أي قرارات مهمة من غير أن ننظر إلى مثل تلك العيون . أمُّها ، من الناحية الأخرى ، لا تخفي عينيها الخضراوين ، بل تفضل أن تبددهما على هذا النرويجي الذي يبدو في آن طويلًا وعتيدًا ومرنًا ، بعينين صافيتي الزرقة وشعر أسود كثيف ، أسنانه متراصّة وفي حالة جيدة وهو يستعرضها بسخاء ، وصوته

عميق على نحو متناغم. أنا على الأرجح لطالما كرهت النرويجيين، يفكّر الفتى. يحملون الأُرغن إلى داخل الكنيسة ويخلّفون وراءهم المطر والكلبين.

آستا مسجاة في نعشها، هي ميتة وتفتقد أطفالها، ويجلس الفتى بسرعة ويركز تفكيره على كرهه للنرويجيين كافة وعلى كل ما هو نرويجي، الجبال والغابات والحيوانات والإصبع الذي يحمله مدير المدرسة غيسلي أحيانًا، محطة صيد الحيتان وقوارب صيدها المبعثرة حول الخليج هنا، وجثث الحيتان وأحشاؤها المتحللة على الشواطئ. ثمّ تبدأ شتاينان في ضخ دواسات الأُرغن، لأخرجَ صقيع البرد منه، تقول بينما يحكّ الكاهن رأسه، مندهشًا من غياب عديد من أعضاء الجوقة. نعم، يقول أولافر، إنهم يجلبون أناسًا يخصونني، وسيغردر لا يستطيع الذهاب إلى أي مكان حاليًا. ماذا! لماذا؟ يسأل الكاهن بنبرة اتهامية، لأن غياب سيغردر مزعج، فهو المنشد الرئيس، وأهم صوت في الجوقة، صوت جميل كجمال الغسق أو الفضة في الظل. ذاك الصعلوك مخمور، تقول ثورديس. أخشى أن هذا صحيح، يؤكد أولافر. صعلوك، تكرِّر ثورديس، وبالكاد أنجز في حياته يوم عمل محترم. أيمكن أن نتوقع شيئًا آخر منه؟ تضيف، بينما تعزف شتاينان لتحلحل الأُرغن، لتخلصه من عدم استقراره. العمل يشرِّف الإنسان. الحكم والأمثال تحتوي حكمة الدهور، نتاج حياة أجيال عديدة، خليط رسائل من الماضي إلى الحاضر، منحوتة ومصقولة بكلمات مناسبة لئلا يطويها النسيان، لئلا تُفقد، لئلا تنزلق بعيدًا مع مرور الزمن، وأين يمكن أن نكون من غير خبرة الماضي. العمل يشرِّف الإنسان، صحيح جدًا، بيْد أن هذا هراء مشبوه أيضًا. العمل أبقانا على قيد الحياة، لكن التضحية

هي ما يشرفنا ، أن نكون قادرين على التغلب على الأنا ، ما يشرفنا أن نكون هناك من أجل شخص آخر ، نمسك يدًا ممتدة . ما نحن بلا ترانيم؟ يقول الكاهن ، بعد أن استمعوا بضع لحظات ، ويحدق في الفراغ كما لو أنه فجأة تذكّر كل ما حُرم منه ، تذكّر أن الحياة تمضي ، وأنه قد وُهب الحياة ، غير أنها مالت عن وجهتها إلى ما مالت إليه . أين الجمال ، أين العظمة ، والمغامرة؟ لعله يفكّر في زوجته ، مستلقية في البيت ، عاجزة من الهرم ، في بعض الأيام ، الأيام الأسوأ ، يتراءى له أنها تنفث رائحة عفونة طفيفة ، مستلقية هناك نهارًا وليلًا ، تدندن مرددة أشعارًا قديمة عرفتها على مدى سبعين سنة أو أكثر . أشعار أنشدتها وهي في الثانية من عمرها وهي تعيش بخير وسلام مع أمها ، في عالم الطفولة الذي لا ينتهي أبدًا . أحبها في يوم من الأيام ، هذا صحيح ، إنما لفترة قصيرة ، لسنة أو سنتين فقط ، أحبَّ شعرها الأشقر الطويل الذي يشبه أشعة الشمس ، يشبه ضوء الربيع ، أحبَّ شفتيها المكتنزتين ، الناعمتين جدًا عند التقبيل . أحبَّ عينيها المبتسمتين ، نهديها الصغيرين المناسبين تمامًا ليديه ، وكيف تنتفخ حلمتاها لحظة يلمسهما ، وهذا غالبًا ما فعله ، شاعرًا كما لو أنه ما كان ليكتفي قط من القيام بذلك ، ومع ذلك حدث الأمر ، حصل على ما يكفي ، بل حصل على أكثر مما يكفي . من سرق الحُبّ؟ يفكر ، ولماذا بهذه السرعة؟ عدة شهور فقط ، سنة أو سنتين ، وعاد ينظر إلى نساء أخريات ، حياته صراع طويل مع ردعه عينيه ، وهو أكثر جبنًا من أن يفعل ما يزيد عن النظر ، أو ربما لديه ضمير قوي جدًا ، نحن أحيانًا نخلط بين هذين الاثنين ، الضمير والجبن ، وهذا ليس شيئًا جيدًا . تركتُ الحياة تمرُّ ، لم أقبض عليها قط ، إلا فترة قصيرة منذ زمن بعيد ؛ جبن ألا يجرؤ

المرء على أن يحيا ، ضالّة ، ماذا سيقول الرب عني؟ أثمّة من يستدعيني؟ يفكّر وينظر عاليًا بتلجلج ، وقد فقد مسار الزمان والمكان ، يجلس على المقعد الأمامي ، إلى جانب التابوت ، يستنشق رائحة اللحم المدخن ، وثورديس تقف أمامه تقول شيئًا ، هي مفعمة بالحيوية ، هذا مؤكد . نهداها أخّاذان ، ولا شيء ينقص هناك ، إلا النظر في عينيها ، يوبّخ نفسه ، إنها من الأبرشية وتحتاج إلى توجيه ، يجب ألّا أخذل الآخرين على الرغم من أنني خذلت نفسي . يرفع رأسه الهرم ، عيناه الغائمتان تنظران من تحت حاجبيه الكَثّين الشائبين . نعم عزيزتي ثورديس هل أستطيع مساعدتك؟ يسأل وفي تلك اللحظة نفسها ينجلي رأسه ، تنفتح بيئته المحيطة به ويتذكر كل شيء ، ينهض بتثاقل ويقول ، نستطيع الاستمرار بلا ترانيم ، محاولًا جعل صوته واضحًا ، متظاهرًا أنه لا يلاحظ نظرات الآخرين . يمكنني أن أُغنّي ، لدي حنجرة قوية ، يقول برينيولفر بصوت عالٍ ، بينما يتراجع ينز إلى الوراء غريزيًا .

مراسم التأبين ليست طويلة ، مجرد كلمات قليلة عن الحياة والموت ،كلمات قليلة قديمة ومألوفة ، مألوفة إلى حدّ بعيد ، لا شيء يحدث إذا استخدمنا دائمًا الكلمات نفسها ، إذا سلكنا الطريق نفسه ، لن تكبر الفجوة بين الحياة والموت ، ولا نشقّ الظلمة على نحو أفضل ، لا نعثر على حلول ، بل بالأحرى نتسمر حيث نحن ، وشيئًا فشيئًا نتغير إلى ظلال باهتة . تستحق آستا شيئًا أفضل بكثير ، يفكّر الفتى ، أكثر من كلمات قديمة مستهلكة ، وأفكار فجّة . ثم ولسوء الحظ لا يعود قادرًا على التفكير ، لأنها تجلس إلى جانبه ، هي وعينيها وشعرها المُهلِك الذي ما زال قصيرًا كما كان أمس ، تجلس إلى جانبه مع ابنتها على الرغم من

وجود مجال واسع للجلوس في مكان آخر، يجلس ينز في مقعد آخر عند طرف الكنيسة، والرجل الصامت بوجهه الساخر يجلس في المقعد الأخير قرب ممر الكنيسة الجانبي، يغمض الفتى عينيه، يحاول أن يغفو، كما لو أنه يريد أن يبين أن شيئًا لا يعنيه، لا الناس، الأحياء منهم والأموات، ولا الكلمات، ولا شعرها القصير، وبدرجة أقل شحمة أذنها التي يراها عندما يلقي نظرة جانبية خاطفة عليها. يختلس نظرة سريعة ثم يغضّ بصره متأملًا أصابعه التي ترتعش ويهمس بعضها إلى بعض، ما سبق قط أن واجهنا شيئًا مثل هذا. تبذل الجوقة جهدها لتواكب اللحن، لكن الأرغن يستغرق وقتًا طويلًا ليستعيد توازنه قبل أن يرافق الجوقة بمتابعة محمومة إلى أن يصبح إيقاعه نشازًا، ما يستدعي من الجوقة أن تتوقف، وبعد ذلك لا تُسمع سوى نغمات منفلتة، تلك الأصوات المنبعثة بينما شتاينان تضخ دواسات الأُرغن بتركيز. ولفترة، على أي حال، يبدو أن الآلة تتخلى عن الموسيقى، غير قادرة إلا على التذمر من سوء وضعها، من كونها أبعد ما يكون عن إصدار نغمة أصيلة. تميل ألفايدر على الفتى الذي لسبب ما تتشكل كتلة في حنجرته؛ يا لها من أصوات، تهمس بصوت خافت عندما يصبح تذمُّر الأُرغن على أشُدِّه، هذا ما سنكون عليه لو أن القدير استخدمنا كآلات موسيقية.

أكان هذا سبب الكتلة في حنجرته، أن الإنسان هو آلة موسيقية معيبة، أُرغن سيئ الضبط، وبالتالي نادرًا ما يُحرز نغمة أصيلة في الحياة؟

برينيولفر من ناحية أخرى لا ينفك يبتسم طوال الوقت. سعيدًا بغنائه، بالعمق العظيم لصوته الجهوري، مكرّسًا نفسه بالكامل، غير مكترث إلا بالصوت الذي يطلقه هو وبالتالي يدعم اللحن، عيناه مثبتتان

على شتاينان كما لو أنها أفضل ما وقع نظره عليه في حياته . إنه يُحسن الغناء ، تقول ألفايدر . النرويجي؟ يسأل الفتى بنبرة عدائية تقريبًا . فتبتسم ، لا ، ونعم ، يان يُحسن الغناء لكنني عنيت الربان ، ذلك الرجل الضخم . اسمه برينيولفر ، يقول الفتى ، وسأغادر على متن سفينته لاحقًا اليوم . نعم ، أنت راحل ، تقول وتنظر إلى الفتى ، إنما لا شيء أكثر . ثم ، بعد أن تتوصل طفلتها إلى الاستنتاج بأنه لا داعي لأن تشعر بالحياء منه وقد بقيت تراقبه فترة ، تقول ، اسمي سالفر ، أأنتَ راحل بعيدًا؟ أعندكَ بيت في مكان ما؟ وهو ، الذي كانت لديه في أحد الأيام أخت صغيرة تضحك وتبكي أحيانًا في أحلامه يقول ؛ سالفر ، يا له من اسم جميل ، إلا أنني لست واثقًا من أن عندي بيت في أي مكان . ولا أنا ، تردُّ الطفلة همسًا بينما يتوقف الغناء . والكاهن أيضًا يتوقف عن الكلام ، يضع جانبًا الكلمات القديمة ، الأدوات القديمة ، المجارف بأسنانها المتباعدة التي تجرف على نحو سيئ ، فتبدأ شتاينان المضمَّخة بالعرق في ضخ دواسات الأُرغن مرة أخرى ، تعزف لحن أغنية عمرها مئتي سنة ، تنسى كل شيء في اتقادها لعزف لحن جليل بما يكفي للمرأة المسجاة في نعشها ، المرأة التي ماتت وغادرت أطفالها وزوجها ، ماتت وغادرت الحياة ، أقلُّ ما يمكن أن يفعله الأحياء للأموات هو أن يقدِّموا لهم لحنًا أصيلًا مقبولًا ، أقلُّ وأكثر ما يمكنهم فعله . تلقي ألفايدر نظرة خاطفة على الفتى ، نظرة سريعة ، لكن نظرة واحدة تقدر بسهولة على إحداث فرق بين السعادة واليأس ، هكذا هي الحال ، هذا ما تعلَّمناه : ما يحدِّد الفرق بين لا شيء وكل شيء ، هو أولًا وقبل كل شيء الأحداث البسيطة التي تكون تقريبًا خَفية في سياق الزمن .

مؤسفٌ أن لا أحد بكى ، يقول الكاهن عندما تنتهي مراسم التأبين ، والتابوت في قبره الضيق والضحل ، بلا كثير من الهيبة ، إذ توجّب نهر الكلبين عندما حُمل النعش إلى الخارج ، وآستا تزحزحت في التابوت الذي كان عريضًا جدًا وطويلًا جدًا . لكن لا أحد من أولئك الحاضرين سينساها في يوم ،ليس بسبب الحزن الذي خلّفته وراءها ؛ لا الأطفال ، ولا ومضات الضوء في حياتها ، وليس بسبب بذلها ما في وسعها ،لكن بسبب رائحة اللحم المدخن المنبعثة منها ، والكلبين المهتاجين ، ولأنها تزحزحت في تابوتها وهم ينزلونه إلى القبر ، ولأن النرويجي همهم بمرح لحن عيد الميلاد بينه وبين نفسه من غير أن يدرك ما هو فاعله . سأتذكّركِ بشكل مختلف ، فكّر الفتى . وذاك النرويجي يبلغ طوله على الأقل 190 سنتمترًا ، ومع ذلك يقف منتصبًا بحيث يكاد الآيسلنديون كلهم يضمحلون قربه . يلاحظ الفتى أن ألفايدر تعبث بخصلة من شعرها ، ثم تدفعها خلف أذنها . من الأفضل دائمًا أن يبكي الناس في الجنائز ، يقول الكاهن ،لكن لا أحد بكى . سيبكونها في مكان آخر ، وربما لوقت طويل ، تقول شتاينان ، وبعد ذلك يُحمل الأُرغن إلى البيت ، وشخص ما يرافق الكاهن المسن إلى بيته . كيف جرت المراسم؟ تسأله زوجته وهي تتقلب في السرير بأمل عقيم في أن يخفف تقلّبها من الألم والوهن . أوه ، فاحت منها رائحة لحم مدخّن قوية بحيث أن لا أحد بكى ، يقول . يراودني شعور بأننا كلنا جنح تفكيرنا إلى الضأن المدخّن ، ولم نكن في ذلك أفضل من الكلاب ، ثم يجلس بتثاقل إلى جانب زوجته ويربّت ظاهر يدها ، لا لأنه بالضرورة يريد أن يفعل ، بل لأنه ببساطة ليس لديه مكان آخر في العالم .

١٢

إنّ الجسم البشري وحش غبي نسحله عبر الزمن مثل ذكرى ثقيلة .

منذ أن جلسَت إلى جانبه في الكنيسة ، ما عاد قلب الفتى يخفق إلا بصعوبة ، مع أن عديدًا من الدقائق قد مرّت . هو قابض على زاوية المنصة داعمًا الأرغن ، والسماء تمطر ، أما هي فتمشي مبتعدة مع النرويجي وطفلتها ؛ واقترابهم بالمنصة من دار الطبيب يزداد . إنها لحقيقة أن في قلب المرء حجرتين ، وهذا يفسر لماذا يمكن أن يحبّ المرء شخصين في الوقت نفسه . وقد يقول بعض الناس إن علم الأحياء يجعل هذا ممكنًا ، بل يستلزمه ، إلا أن ضمائرنا ووعينا يخبراننا قصة أخرى ، قصة يمكن أن تجعل الحياة العادية صعبة الاحتمال إلى درجة لا تطاق . وبينما يودّعون الطبيب وزوجته يفكّر الفتى في أن يطلب من أولافر بندقية ليطلق النار على نفسه مصوبًا على الحجرة التي شُغلت فجأة وبلا رحمة بالفتاة ذات العينين الخضراوين والشعر القصير جدًا جدًا . ألن يصبح حينها كلًا متكاملًا ، وألا يجدر بالآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه ، ليتخلصوا من إحدى حجرتي قلوبهم ، ليقتلعوها؟

تودّع ثورديس ينز وتصافحه بحرارة، تضغط راحتها بقوة في راحته، كأنها تسعى إلى اقتطاع جزء منه، من حياته، تضغط بشدة، كن معي، لعل راحتها تقول، لا تتركني وترحل، وينز بدوره يضغط راحتها، لكن ليس بتلك الشدة نفسها. تعانق شتاينان الفتى، مستحيل ألا يُعانَق هذا الفتى، ولاحقًا في ذلك المساء ستكتب، بعد وصفٍ مختزل للمطر والريح ودرجة الحرارة، ومنظر البحر وكيف تتغير الغيوم وكيف كان إيقاع الأُرغن، كيف غنّت الجوقة، ستكتب أنه من المستحيل ألا أعانقه وأضمّه بقوة وأحميه؛ لأنه أحيانًا مثل رضيع لا يحسن النطق بعد، وأحيانًا أخرى يبدو شيئًا مختلفًا كل الاختلاف أعجز عن فهمه. اللعنة على كل شيء، إنني لا أعرف ما إذا كان مثل هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى هذه البلاد في المقام الأول. لا أعرف ما إذا كانوا غلطة أو محاولة تصحيح. تذكّري أن تناقشي هذا مع أولي.

وها هو الفتى يذهب، جسمه الأخرق بين عملاقين، برينيولفر وينز. الربان مبتهج، فالصيف في طريقه إلى القدوم، وسيبحر والبحر صديقه، البحر لا يخون أبدًا، هو على حدّ سواء متكامل وأصيل في الأحوال الجوية الهادئة والساكنة أو خلال العواصف والموت. كلّ ما يلقي الظلال عليه كان عدم قدرته على تأمين المشروب الكحولي. سيغردر مشغول ولا يستطيع موافاتك، كانت زوجته قد قالت عندما سأل برينيولفر عن مدير المتجر الذي زود الربان سابقًا ورجالًا شرفاء آخرين بالخمر عندما نضب من بقية الأمكنة. خمر، كرّرت المرأة محاكية ما قاله برينيولفر، كأنها تقريبًا لم تستوعب ما عناه واحتاجت إلى تكرار الكلمة بصوت عالٍ، مرتين على الأقل، لتفهم مراده؛ حسنًا، لا، نفد الخمر من عندنا منذ دهور، أنت

ذاهب إلى البحر على أي حال ، وبالكاد تحتاج إلى خمر في هذه الأثناء ، كما أعتقد . نعم ، أنتِ محقة قطعًا ، قال برينيولفر ، مع أنه جاء إلى هنا من أجل الخمر فقط ، وقرّر أن يبحر مباشرة إلى محطة صيد الحيتان ، من المحتمل أن يكون لدى النرويجيين بعض المُسكرات المقطَّرة ، ثم توقّف فجأة ، تملَّكه شعور بأنها تقف إزاء النافذة وتراقبه . سأتحمل بضعة أيام ، فكر ، أي شيء آخر سيكون تافهًا . غيَّر مسارَه وفي الحال شعر أنه حقق نصرًا ، اتجه نحو بيت الطبيب ، شاهد حشدًا من الناس هناك وشيئًا يشبه الأُرغن ، بقدر ما بدا له ذلك غريبًا تحت السماء المكشوفة .

يتابع الثلاثة الآن انحدارهم نحو الشاطئ ، بسرعة أكثر مما يطيق ينز ، على الرغم من أنه تدبر أمر مجاراة رفيقيه ، بل حتى يحاول أن يتجاوز الفتى ، لكن كل خطوة آلمته ، ويبدأ في الترنح تقريبًا ، إلا أن الفتى سرعان ما يدرك أنه يتقدّم بسرعة فيتباطأ ، يكحُّ ليعيد تشغيل قلبه ، ليجعله يدق بصورة طبيعية بدلًا من الارتعاش مثل حيوان صغير غريب الأطوار . يذهب برينيولفر ليبحث عمن يجدف بهم إلى السفينة ، وحينها ، من يصادف أن يكون عند الشاطئ سواها هي وطفلتها ، ولا أثر للنرويجي ، هما تبحثان عن الأصداف ، ولا تلبثا أن تأتيا إليهم . تتعذّر رؤية الجبال بوضوح كبير في المطر ، معالمها مبرغلة في بعض الأماكن ، وهي أيضًا ترتعش ، تناغمًا مع ارتعاش الوحش الصغير في صدره ، عليه أن يقاوم الدوار والغثيان ، لا يسمع إلا القليل ، لا يعي إلا القليل ، ما عدا أن خمستهم في قارب صغير ، ثلاثتهم وهي وطفلتها ، وألفايدر تجدف . تبتسمان معًا ؛ الأم تبتسم في وجه الجهد ، والطفلة في وجه الحياة . الأم تخاطب برينيولفر ، ومن المستحيل سماع أي كلمة وراء الهياج في الجبال . الفتى هو آخر من

يصعد إلى السفينة ، يبتسم للطفلة الصغيرة وتبادله الابتسام ، جميلة جدًا ونقية ، مع ما يشبه الغمازات ، وينحسر عنه الدوار قليلًا . يسمع البحر مرة أخرى ، تَدافعه ، يلاحظ أن ألفايدر تعطي ينز رسالة وهي تقول كلامًا ما ، بصوت خافت ، ويتردد ينز ، لا ، بل يذهل ، وهذا مفهوم ، لا شيء هناك مفرح ، بطبيعة الحال ، في أن يُحبَّ المرء من قِبَل عينين خضراوين وشعر أحمر قصير ، بصرف النظر عن أنه يجب ألا يفكر إلا في امرأة تنتظره وراء الجبال والمروج .

الرجال وحوش ، كانت قد قالت لينز وهي تبكي ، أيمكن أن أثق بك؟ سألته . وينز أجاب ، نعم ، بتيقن راسخ ، لكن قلب الإنسان مشطور إلى حجرتين ، غير متّحدٍ .

بصعوبة ينجح ينز في الصعود إلى السفينة ، وعلى الفتى أن يساعده بحذر ، لئلا ينقلب القارب ، ثم يتبعه إلى الأعلى ، لكنها تقول شيئًا ما فينظر إليها . أنا لا أستطيع سماع أي شيء بسبب الجبال ، يقول أو يفكر ، قد لا يكون هناك فرق ، ثم يضيف في فكره أو بالكلمات ، الجبال ترتعش وتفعم الهواء بأنينها .

يصعد إلى سطح السفينة ، وهي تجدف بعيدًا ، بسرعة .

١٣

سفينة تبحر في رياح معتدلة هي مثل الموسيقى . الأضلاع تصرّ ، الخشب مشبع بالملح ، والأشرعة منتفخة من الريح ، هذا الهواء الذي يتحرك تحت النجوم والشمس ، والمطر توقف . تبحر «الأمل» ، تُخلِّف سليتوري وراءها ، هناك قارب عند الشاطئ وهي من جدفه . اليدان اللتان كان يمكن أن تكونا بدايته ثم تليها نهاية عنيفة حملتنا المجاديف . وُلد الإنسان ليحب ؛ إنّ أساس الحياة بهذه البساطة . لذلك يخفق القلب ، تلك البوصلة العجيبة ، وبسببه نحن قادرون على شقّ طريقنا بسهولة خلال أكثف ضباب ، والخطر محدق في شتى النواحي ، وبسببه نتيه وغوت من التعرض لظروف عراء قاسية تحت شمس مشرقة .

راقبها تمشي إلى دار الطبيب مع ابنتها ، سارتا متشابكتي الأيدي ، وكان ذلك جميلًا . ثمّ اختفتا في البيت . هي التي تفكر في ينز ، وفي شاب نرويجي وسيم . سأنساها ، غمغم الفتى للريح التي تلقّفت كلماته وبعثرتها في كافة أنحاء الهواء الأزرق ، ذاك الذي تشقه «الأمل» كالموسيقى . يخلِّفون سليتوري وراءهم ، تلك القرية بأطرافها المتناثرة ، مجرد بيوت معدودة مهزومة

بالثلج الذي بدأ الربيع يذيبه ، ولا يلبث أن ينزل إلى ينز . يوني ، الطاهي الأصلع أخذ على عاتقه مهمة رعاية ساعي البريد ؛ رجل مرح هذا الـ يوني ، في منتهى الحيوية والانفتاح بحيث نادرًا ما يمكن أن يخفي عواطفه ، خلافًا لزملائه في الملّاحة الذين لا يفصحون أبدًا عنها ، ولا يعرفون كيف يفعلون ذلك ، ولا يتجاسرون ، إلا وهم سكارى ، حينما تُكشط جلودهم الصلبة ، فتظهر عواطفهم إلى العلن ، تتعرى على نحو مخزٍ . كان واضحًا أن يوني لم ينشرح كثيرًا من حالة ينز الذي أُنزل إلى سلوقيةِ السفينة ، ولُفّ ببطانية وأعطي شرابًا دافئًا ؛ أحد اختراعات يوني المقززة . مقرف للغاية ، أقرّ الطاهي ، لكنه يفي بالغرض ، انتشلت جدتي جدي من بين الأموات ثلاث مرات بهذا الشراب ، وندمت على ذلك في كل مرة . وهكذا يفرغ ينز القدح في جوفه ، وهو يرتجف من البرد ومن هول المذاق ، ثم يستلقي . أتشعر بالبرد؟ يسأله الفتى . إحدى حُجرتي قلبه تكره ينز ، والحُجرة الأخرى مولعة به كثيرًا إلى درجة أن الفتى يشعر برغبة في البكاء ، سافرا معًا خلال الجحيم إلى نهاية الدنيا ، شاهدا الحياة ، وعثرا على الموت ، الوثاق الذي يربطهما لن ينقطع أبدًا ، القدر ربطهما معًا ولا أحد يمكن أن يفك تلك العقدة ، لا البشر ولا الشياطين . أشعر كأنني مستلق في أخدود جليدي ، يهسهس ينز ، مضطرًا إلى الهسهسة ليجعل الكلمات تخرج مترابطة . لن تموت ، يقول الفتى ، تقول إحدى حجرتي قلبه ؛ هذا غير مسموح . أتظنني أبلهًا؟ يجيب ينز ، ثم لا يقول المزيد ، فهُما لا يحتاجان إلى الكلمات بينما السفينة موسيقى . أتعتقدين أنني ذلك الأبله الكبير لأموت وأتركِكِ؟ فهناك ، ما بعد المروج الثلجية حيث تمطر السماء الآن تنتظره تلك التي سألته ، ماذا ستفعل عندما تعود؟ تلك التي ودّعتْ ينز بهذه الكلمات ، والآن يدرك ، وهو مضطجع في أخدود جليدي ، أنها

كانت في الواقع تسأله عن بداية أو عن نهاية ، كانت تقول أنه ما عاد هناك ما هو بينهما . أقبّلكِ ، أجاب آنذاك ، مثل أبله ، وثمة احتمال في أنه نوى أن يضيف ، كما يرى اللحظةَ وهو يزداد غرقًا في الأخدود ، أُقبلكِ وأموت . يموت ويخلِّفها وراءه ، وحدها ، بل حتى على مسافة أبعد ، بعد مزيد من المروج ، ينتظر أبوه ، كبير السن ومنهك بعينين شبه ضبابيتين ، يترقرق فيهما الدمع بلا انقطاع ، وبلا سابق إنذار ، وبلا سبب ظاهر ، ربما بسبب ذكرى بدأت ترتعش ، وأخته هالا ، بأسئلتها الصافية ، متى يأتي ينز؟ لماذا لم يأت؟ وأبوه يئنُّ في نومه ، يئنُّ خوفًا وقلقًا ؛ لأنه كان ينبغي أن يعود ينز منذ وقت طويل ، من غيره هما ضائعان ، معدمان ، العالم الإنساني مجحف بحق أولئك الضعفاء ، مُفسَد بالوحشية والطمع . ينز متمدد في أخدود جليدي ، يضم معًا كلمات لعنات لأنه ينوي أن يحيا .

باردور أيضًا نوى أن يحيا ؛ كان سيذهب إلى كوبنهاغن مع سيغريدور ذات الشعر الأسود والضحكة الدافئة ، تضحك مثل ليلة في شهر حزيران ، أو ضحكت هكذا ، هذا قبل أن يجعل الصقيع والبحر كل شيء باردًا . باردور الآن تحت التراب ، وضعت سيغريدور المعطف الواقي من المطر الذي نسيه في الكفن معه ، في حال كانت بانتظاره رحلة بحرية أخرى في الطرف الآخر . غادر ، مبتهجًا وقويًا في الشتاء ، وعاد ميتًا وبائسًا في الربيع . يصعد الفتى إلى سطح السفينة ، يستقر في مكان ظليل ، ينظر ، يفكر ، بينما تطلّ الشمس وتبدأ السماء في تنظيف نفسها ، ليست شمس شتاء بيضاء وباردة لكن شمس ربيع ذهبية . إن الشتاء الآن يرجع القهقرى ، مخلفًا وراءه كميات هائلة من الثلج الذائب ، ينظر الفتى شمالًا ، في مكان ما هناك ، وراء الأفق ، يتمدّد الجليد بشكل لا نهائي ، إلى هناك ينسحب الشتاء ، وينتظر بصبر عبور الصيف القصير .

رابط الإنسان السماوي؟

هناك أشياء قليلة جدًّا يحتاجها الإنسان: أن يحب، أن يسعد، وأن يأكل، وفي النهاية يموت. مع ذلك ثمة ما يزيد عن ستة آلاف لغة منطوقة في العالم. تُرى ما يستدعي وجودها بهذه الكثرة الكبيرة لنجعل مثل هذه الاحتياجات البسيطة مفهومة؟ ولماذا لا نستطيع إلا نادرًا جدًّا تدبُّرها، ولماذا يبهت النور في الكلمات حالما نكتبها؟ لمسة واحدة قادرة على البوح أكثر من لغات العالم كلّها، تلك حقيقة، إلا أن اللمسة تخبو مع السنين، فنحتاج بعد ذلك إلى الكلمات ثانية، هي سلاحنا في وجه الزمن، في وجه الموت، والنسيان، والأسى. عندما نطق الإنسان كلمته الأولى أصبح الخيط الذي يختلج إلى الأبد بين الشر والخير، بين الجنة والجحيم. كانت الكلمات ما بتر الجذر بين الإنسان والطبيعة، كانت الثعبان والتفاحة، ما نقلَنا من بربرية الوحوش الجميلة إلى عالم ما زلنا لا نستوعبه. يقول التاريخ إن مرة، قرب مطلع الزمن، كان الاختلاف بين الكلمة ومعناها يكاد يتعذر إخضاعه للقياس، لكن الكلمات وهنت على طول رحلة الإنسان، والمسافة بين الكلمات ومعناها اتسعت كثيرًا

إلى درجة أن لا الحياة ولا الموت يبدوان قادرين على رأب الصدع وخلق جسر بينهما أكثر مما فعلا .

بيد أن الكلمات هي ببساطة كل ما نملكه .

هنا هِمنا على وجوهنا ، أطيافًا شاحبة ، على مدى قرن كامل تقريبًا ، موتى ، غير مرئيين ، ومنعزلين . الآخرون الذين ماتوا دُفنوا في الأرض ولم يخرجوا ثانية . هذا يمكن أن يكون مؤلمًا . الشفاه التي قبلناها ، الشّعر الذي داعبناه ، الأيدي التي حميناها ، كل ذلك غاب في الأرض ، لم يرجع ، تحول إلى لا شيء . أما نحن ، فلم نغرق في الأرض ولا صعدنا إلى السماء . وأنتم لن تروا أنه من المستساغ أن تلمحونا الآن . حشد من مخلوقات شاحبة ومشوهة . لردح من الزمن كان اليأس الجزء الإنساني الوحيد فينا ، ثم عثرنا على عِلّية مهجورة في دار كبيرة ، مكان منسي ، فبقينا هنا يحدونا أمل عقيم بأن الزمن سيمحونا ، نحن زبد العالم ، المعذبون بالذكريات ، بالأسف ورثاء الذات . بالكاد كنا على وعي بالزمن ، على وعي بالخارج حيث العالم يغلي بالحرب والموت ، بالسلام والشؤون الدنيوية . سنوات عديدة مرت علينا في حالة ركود مُفرغ من الأحداث ، عقود ، ثم في أحد الأيام زحفت قطة سوداء نحو الزاوية الأحلك ظلمة حيث كنا نختبئ وأنجبت خمس هريرات . أحيانًا كانت تخرج في المساء بحثًا عن الطعام ، وفي إحدى تلك الجولات حدث شيء ما ، خرجت القطة ولم تعد ، ولعلها تعرّضت للدهس ، وهكذا بقيت الهريرات العمي اليتيمات اللاتي خلفتهن وراءها المخلوقات الحية الوحيدة التي شعرت بوجودنا . خمس مخلوقات زحفت نحونا وهي ترتعد من الخوف والجوع والوحدة ، أملًا بالدفء والعون اللذَين ليس في وسعنا أن نزودها بأي

منهما . كانت إحدى تلك الهريرات فاحمة السواد بكف أمامي أبيض كالثلج ، تشبه على نحو غير مريح هريرة أحضرها مرة قبطان أجنبي إلى هنا . ماتت في نهاية المطاف ، نشجت مثل رضيع ليلة كاملة ، وحيدة في العالم ، من غير أن تستوعب لماذا لم تؤنس وحشتها هذه المخلوقات التي شعرت بها . حاولنا ؛ ذلك كان الأكثر إيلامًا من أي شيء آخر ، كان بينها وبيننا ذاك الذي تصعب تسميته ، الذي لا نستطيع التغلب عليه ، لا نستطيع العبور من خلاله . هريرة عمياء بكفٍّ أمامي أبيض ماتت ، ولذلك تسللنا إليكم من جديد ، زحفنا خارج مخبئنا المظلم ، لأننا عجزنا عن تفريج هَمّ هريرة تنازع ، أهذه هي الطريقة التي يدبر بها القدير الأمور ، أم تراها كانت مجرد صدفة أن أنجبت قطة عندنا وبعد ذلك اختفت ؛ هل الرأفة هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ المرء ، أهي رابط الإنسان السماوي؟ زحفنا خارجًا إليكم لأن هذا يهمّنا ، ولأننا نتوق إلى الانعتاق والاستيعاب . هل الفردوس هي المكان الذي لا يكون فيه الاستيعاب ضروريًا ، أم أن هذا ربما وصف الجحيم؟ إنها على أي حال محاولتنا النهائية ؛ فُتح شقّ بيننا وبينكم ، وها قد ولج الموتى إلى وجودكم ، نحن تلك العواصف المنسية ، العيون الزائلة ، نهمس لكم حكايات مدججة بالفضة ، بالأسف ، بالابتسامات والقسوة ، كي تتذكروا . هذه حرب تُشنّ في وجه النسيان ، على أمل أن ما هو مخفي ضمن الحكايات كلمات تحرّرنا جميعًا من أغلالنا . وتحرّركم أنتم أيضًا .

الحياة ، تلك الآلة
الموسيقية العظيمة ، ليست
جهيرة ولا مضبوطة الأنغام
من قِبَل القدير .

١

فصول الصيف الآيسلندية قصيرة للغاية ومتقلّبة جدًا ، بحيث يبدو أحيانًا كما لو أنه لا وجود لها . هنا ، يمكن أن يصل الثلج المتساقط إلى أنصاف الجبال السفلية في حزيران ، بل حتى يتساقط في المستوطنات ، ويمكن أن تتجمد الطيور بين كتل الأعشاب في ليالي آب . مع ذلك لا شيء في العالم يضاهي بإشراقه وصفائه شهر حزيران ، فيه تتحد الأيام والليالي ، وتختفي الظلال كلّها ، وتصطبغ السماء في منتصف الليل بزرقة كزرقة الأبدية . تُرى ، هل يبدو الزمن لا نهائيًا في الصيف بسبب الضوء ، وبالتالي يبدو الصيف أطول بكثير مما يشير إليه التقويم؟ بحيث يمكن أن نقول إن اليوم هو واحد بعد المئة من شهر حزيران ، بينما يشير التقويم إلى اليوم الخامس عشر منه . الواحد بعد المئة والضوء يوسّعان نطاق حياتنا .

لكن الوقت ما زال شهر أيار فقط .

تُغير طيور الشنقب على الحقول والأراضي السبخة محدِثة أصواتًا صيفية بريش ذيولها ومفعِمة قلوبنا بالتفاؤل . الشمس تمعن في الاقتراب مع

مرور كل يوم ، لكن هناك ثلج على سفوح الجبال ، أكوام هائلة منه ، بقايا الشتاء النازف ، الأرض في جميع الأنحاء رطبة وموحلة من الثلج ، وكتله في قاع الزقاق البحري تنكمش بسرعة . يمارس الفتى الجري هناك عدة مرات في الأسبوع ، يندفع بانطلاقة واحدة من دار غيرترود إلى تلك الأكوام عند أسفل الزقاق البحري . يقوم بهذه الدورة بلا سبب ظاهر ، بتدفق واحد لا ينقطع ، من غير أن يقف ، بعينين شاخصتين ، مباغتًا الخيول والخِراف ، خصوصًا الخراف ؛ فمشهد رجل يجري لا بدّ من أن يعني جمع الماشية وسوقها ، فتبدأ في التدافع حالما يصبح الفتى في مجال بصرها . تطلب منه هيلغا أن يختار وقتًا لا يتجول خلاله في الخارج إلا عدد قليل من الناس ، باكرًا في الصباح أو في فترة متأخرة من اليوم ، هذا إن كان يشعر حقًا بأنه يحتاج إلى القيام بذلك . في كثير من الأحيان يختار المساء ، قبل أن يباشر القراءة ، عندما يبهت الضوء بعض الشيء عن الأرض ، ويكون التعب قد حلّ على الحيوانات والبشر بعد نهارهم الطويل . يجري إلى نهاية الزقاق البحري ، عشرة كيلومترات ، ثم يعود أدراجه ، إنما ليس مباشرة إلى الدار ، بل يشقّ طريقه من وراء المقبرة وينحدر نزولًا إلى الشاطئ ، إلى المضيق ، يجلس على الصخرة نفسها ويمد نظره إلى البحر ، بيد أنه لا يرى إلا القليل في بادئ الأمر ، بسبب تلاحق أنفاسه وخفقان قلبه ، لكنه يستعيد تماسكه بسرعة . حافة الشاطئ هناك لطيفة ، سلسة ، شريط من الرمل الأسود يبرز للعيان مع تصاعد المد وانخفاض الجزر ، وذروة الشاطئ وراء الفتى تحجب عنه البلدة ؛ البيت الوحيد الذي في وسعه أن يراه هو تلك الكومة الماثلة التي تسكنها ميلدريد وابنها سيمي . في أغلب الأوقات يخرج سيمي ويلوِّح للفتى بيده بسعادة ، كما لو أن الحياة كلها جيدة ، والوجود وادٍ من

النعمة ، والفتى يلوِّح له بيده ، وما عدا ذلك لا ينظر إلا إلى البحر بينما يستعيد تماسكه بعد الجري ، بينما ينحسر مذاق الدم المحتقن من فمه ، يسرح بصره تجاه البحر الذي كفّ نهائيًا تقريبًا عن إضمار الكراهية له ، فهذا لا جدوى منه على أي حال ، إنه مثل إضمار الكراهية للسماء بسبب الصقيع . يرى فيترارسترند ، تلك البقعة الجليدية المديدة ، البقعة الجليدية الوحيدة في الدنيا التي تحتوي حقولًا عشبية وخرافًا ترعى . هناك ، في العديد من الأماكن ، ما زال الثلج يصل إلى الشاطئ ، على الرغم من أنه بدأ بالتقهقر ، كاشفًا عن الحشيش الأخضر تحت بياضه . ما مِن ربيع هنا ، وما كان هناك ربيع على مدى سبعمئة سنة ؛ فالصيف يتسلم الزمام مباشرة من الشتاء . يجلس الفتى على صخرة ، يفكر في حياة الأشخاص الذين تواصل معهم على طول الساحل الأبيض ؛ أما زالت البنت تكحّ؟ أتلقي من حين إلى حين نظرة على الورقة التي استغنى عنها ينز ، والتي بلا ريب سوّدتها هي وأشقاؤها بالرسوم والكلمات؟ أتكِحُّ الآن أم أن الأسوأ قد حدث ، وهي مستلقية هناك بصبر بينما والدها ، الخائف جدًا من الكلمات ، يجهز لها نعشها ، يُحكم تثبيت الألواح الخشبية مع بعضها بالمسامير واليأس ، يسجي بصندوق صغير أعظم وأرق شيء رآه العالم أبدًا؟ عِش حياتك ، يقول الفتى الجالس على الصخرة ، يقولها دائمًا ، في كل مرة ، عِش حياتك ، يقولها للموج الذي يهمس بها للسمك ، والسمك يردّدها لقاع البحر ، وقاع البحر يكررها للرجال الغرقى ، عِيشي حياتك ، يرددها للسماء التي هي أبعد بكثير من أن تسمع كلمات الإنسان . تحجب فيترارسترند النظر عن سليتوري . وما لا نراه ينزع غالبًا إلى التلاشي ، يذوب وينحسر بعيدًا عمّا نألفه بحيث لا يعود يلامس وجودنا . لكن في

بعض الأحيان يحدث العكس تمامًا ، لا يختفي ذاك الذي لا نراه ، بل يتفاقم وتصبح السيطرة عليه صعبة ؛ لأن ما نألفه على وجه التحديد لا يطاله ، لأن شيئًا لا يُفقده بريقه . بوجيز العبارة : شعرها ناري الحمرة إلى درجة أنه مرئي بوضوح خلال الجبال . هذه الجبال ، طبعًا ، ليست مجرد واجهة ، بل هي عتيدة وصلبة ، ومع ذلك ينزلق لون شعرها خلالها بلا أي جهد ، يأتيه ويغير كل شيء . يغير الأرض والسماء ؛ تصبحان بحمرة الدم . البحر ، السماء ، الغيوم ، إذا كان هناك غيوم ، وطائر الشنقب يصبح قطرة دم في الفضاء ، سيمي يصطبغ بالحمرة بينما يقف هناك عند كومة البيت الريفي المائلة ويلوِّح بيده ، شأنه شأن المزرعة والدخان المتصاعد منها ، أصابع الفتى ، الكلمات التي يقولها للسماء ، ينهض ليتبول ، وقضيبه ناري الحمرة وبوله كذلك . لماذا اصطبغ كل شيء بتلك الحمرة النارية؟ يغمغم الرجال الغرقى في قاع البحر ، بينما يئن الفتى مثل حيوان جريح ويحدق في بطة عيدر وراء الميناء ، يحدق في الطائر المتمايل إلى أن يبدأ الأحمر بالذبول والتلاشي ، ويعود كل شيء إلى طبيعته ولكن أكثر بؤسًا . يجلس ثانية ويحدّق في العيدر ، يعرف أن عليه أن يسرع في العودة إلى الدار من أجل القراءة ، ومن المؤكد أن صبر كولبين قد نفد ، وهو يشتم الجري ، ويشتم الفتى ، إنه كما يبدو يشعر بالحاجة إلى الجري ، تقول هيلغا ، فهو في ريعان الشباب ، تحاول تهدئة الربّان وتدافع عن الفتى ، يشعر بالحاجة إلى الجري ، يهدر كولبين ، هذه ليست إلا فورة الشباب ، يحتاج إلى أن يحصل لنفسه على فتاة ، اللعنة على الجري واللعنة على العناد . في هذه الآونة ، هناك أمام البحر ، غير بعيد عن اليابسة ، لا يلبث العيدر أن يستعيد لونه الطبيعي ، ويبدأ في الثرثرة بلا توقف ، كدأب بط العيدر

بقدر ما يمكن أن يتذكر المرء ، وهو ليس بالوقت القصير مقارنة مع الحياة الإنسانية ، لماذا لدى بط العيدر الكثير مما يشغل ذهنه؟ أتراه يلقي قصيدة عن الحياة الأبدية التي تخطو بخفة فوق الموت ، أتراه يسترجع الحكمة من أعماق الزمن؟ أيجب علينا ، قبل أن نتمادى في التقدم أكثر مما فعلنا نحو النهاية ، النهاية التي قد لا تكون نهاية مطلقًا ، لأن شيئًا لا ينتهي ما دامت السماء تخيم على الأرض ، تحوم مثل مذكرة زرقاء في الفضاء الأسود ، أيجب علينا أن نتعلم لغة الطيور ، ونستغني عن الكلمات الممجوجة ، تلك الأدوات الريفية التالفة ، ونبدأ في الزقزقة والتغريد والغناء كالطيور ؛ أيّ حكمة تتعلق بنطاق الحياة الفسيح يحشرج بها بط العيدر؟ أم تراه يعزف باستمرار بيتًا واحدًا من الشعر نظمه على مدى آلاف السنين؟ بيت شعر بسيط ، أنشودة صادقة للحياة : الأكل ممتع! الأكل ممتع! يصمت العيدر عندما يغوص في الماء بحثًا عن القوت ، ثم يظهر على السطح بعد نصف دقيقة مثل قطعة فلين ، يظهر سعيدًا ويمضغ ؛ يبتلع ، ينظر برضا إلى الفتى الذي نهض عن صخرته ، ثم يبدأ في الإنشاد من جديد : الأكل ممتع! الأكل ممتع!

٢

شهر أيار!

هرج ومرج بالغين جدًا بحيث لا يبدو أي يوم طويلًا بما يكفي ، ليست هناك أيادٍ كافية أبدًا ، ليست هناك لحظة واحدة شاغرة أو بقعة صمت ، والناس المرهقون الذين يذهبون إلى أسرّتهم أسفل الجبال الشاهقة ، هم الذين يستيقظون في الضوء وينامون في الضوء . هناك في كل مكان صياح وحركة دائبة ، ضحك وطاقة! ثمة قلة من الذين يتسكعون بلا عمل ، ويتبصرون مليًا في المسافة بين القدير والإنسان ، في الهدف السامي ، مبررات وجود الإنسان . ذاك الذي يتسكع على غير هدى أثناء هذه الأسابيع الناشطة المتخمة بالضوء ، هو ببساطة ضحية هذه الجلبة ، إنسان مدحور ، منبوذ ، إذ لا متسع لأمثاله في هذا المكان . وهذه الحياة المنتفخة ، هذه الحمية غير المقيدة للعمل لا تنفك تجذب أفكاره وتشدها هنا وهناك .

أغلقت المدرسة أبوابها ، وجميع الأطفال انغمسوا في معمعة النشاط ، لا وقت هناك للأفعال الدانمركية ، وبالتأكيد لا وقت للشعر اللاتيني القديم ، الهواء المخيم على البلدة يرتعش ، هذا أشبه بكون المرء في الجحيم . وناظر

المدرسة غيسلي ، المنتمي إلى إحدى العائلات البارزة ، أشد اضطرابًا من أن يبقى بين الجدران ؛ فالضجيج يمتد على طول الطريق إلى الحي القديم ، متغلغلًا بعمق فيه ، وصولًا إلى البيت الخشبي المتواضع الذي تسكن في قبوه عاملة سمك قدّ بسيطة ، تدفع لقاء السكن مبلغًا زهيدًا بحيث يبدو من المتعذر تدوين مثل هذا الرقم الضئيل ، وذلك مقابل التنظيف لغيسلي ، وإعداد الطعام له من حين إلى حين . يمتد الضجيج على طول الطريق ليبلغ الصالة بمنضدتها الثقيلة وما تحتويه من مئات الكتب ، بحيث لا يعود في وسع أحد أن يبقيه في البيت ، ولا حتى أي شاعر من الشعراء الفرنسيين شبه المخبولين ، أو الأبطال اليونانيين . تشويش الضوء والصخب يدفعانه إلى الخارج حيث يستقبله الجرش والسحن ، وحماسة الناس ، والعمل ، وسمك القدّ ، والسماء اللانهائية . وثمة شك في أن لدى أي شخص متسعًا من الوقت للدردشة ، وأولئك الذين يتوقفون عن العمل لفترة قصيرة ليتسنى لهم أن يتمططوا ، ليفركوا أسفل ظهورهم الموجعة ، لا يعنيهم كثيرًا أن يهدروا الوقت في محادثة مدير مدرسة ليس لديه ما يشغله ، ما لم يتخير الحديث عن سمك القدّ المملح . سمك القدّ المبارك والملعون ، نبني حياتنا عليه ، ما اخترعه الشيطان إلا ليصمنا بالغباء المطلق . كما لو أنني أبالي أي سفينة أو أي زورق صغير تعيس يلتقط الكمية الأكبر من السمك ، يفكّر غيسلي وهو يدخل فندق آخر الدنيا ، غير راغب في البقاء عند أوغست ومارتا في مقهى سدوم ، المشرب الذي يشغله الآن البحارة فقط ، أولئك الذين لا يتطرقون في حديثهم عن أي شيء تقريبًا ما عدا السمك وفروج النساء ، والذين يوجهون لمارتا ملاحظات فاحشة ، وهي أحيانًا ترد بفظاظة لاذعة

جدًا إلى درجة أن سماء أيار الزرقاء توسم بندوب حروق . مارتا ، التي عانقت ناظر المدرسة ثلاث مرات هذا الشتاء عندما أحضر لها كتبًا عن علم الأساطير وتاريخ البشرية ، عن جرائم القتل كلها ، وعن الملوك والثورات ، عانقت غيسلي ، مانحة إياه فرصة ضمّها وتحسُّس نهديها الكبيرين جيدًا ، ما جعله يبالغ أكثر في عصرها . لكن مشرب سدوم يعج الآن بصيادي السمك ولا تملك مارتا أي وقت لغيسلي أو التاريخ . الضوء يسوقني إلى آخر الدنيا ، يقول لتيتور ، مالك الفندق الذي ينجح دائمًا في الابتسام بكياسة لا تفتر على الرغم من أنه قد سمع سابقًا من غيسلي عن الضوء وعن فندق آخر الدنيا مرات لا تحصى . داخل الفندق ، يمكن نسيان حياة البلدة المرتعشة ، أشياء كثيرة يمكن أن تُنسى وسط الأثاث الثقيل حيث يقيم الأجانب ، وبين فترة وأخرى يؤم هذا الجحر البائس مسافر أو اثنان ، ولا أحد يعرف لماذا ، ويقصده أيضًا ربابنة سفن سياحية ضخمة تبحر بين العالم وبيننا ، وربابنة سفن بخارية ، وقادة سفن خفر سواحل الملك الدانمركي ، وفيه تجري محادثات عرضية مفعمة بالحيوية ، بل ربما حتى نوبات ضحك صاخب وعارم تجعل هولدا بنت تيتور تنأى بنفسها ما دام في وسعها أن تفعل . لكن الجعة باهظة الثمن في فندق آخر الدنيا الذي يكلف فيه كل شيء أكثر ؛ الويسكي والكونياك والطعام ، فالمرء يجب أن يدفع مقابل المأوى والرفاهية ، وإذا تطور هذا الصيف كما تطورت فصول الصيف القليلة الماضية ، وهذا ما سيحدث ، طبعًا ، لأن الحياة هنا كالجحيم ، يخنقها التكرار ، فعلى غيسلي أن ينشد المساعدة من أخيه ، فريدريك ، ربما حتى في مطلع شهر تموز ، ويستدين منه المال كي يستطيع الاستمرار ، إلى أن تبدأ السماء في التعتيم مرة أخرى ويزرق

التوت على التلال وعند سفوح الجبال . إنه لخزي لعين أن يضطر إلى الانحناء أمام فردريك في مكتبه ، إنما أي وسيلة أخرى يملك بينما الضوء يحوم فوق المرء مصوِّبًا فوهات بنادقه إليه؟

٣

لو أنه كان الشتاء فحسب ، ففيه تتوالى الأيام مجرجرة أذيالها كوحش مصاب بجروح مميتة ، والظلام حالك جدًا بحيث لا يستطيع الناس إلا بشقّ النفس أن يتلمسوا طريقهم من بيت إلى بيت ، والليالي داجية السواد إلى درجة أن المرء يمكن أن يفقد أثر يده إذا مدّها وهو شارد الذهن ، ولا يعثر عليها ثانية إلا بعد عدة ساعات من البحث . مبهج الظلام ، هو ملجأ ليخلد فيه المرء إلى التفكير ، كهف ليزحف داخله ، سرير ليقرأ فيه ، على الرغم من أنه يمكن أن يكون طبعًا في منتهى الثقل بحيث تتحطم فيه بعض الأشياء بطريقة يكاد يتعذر معها إعادة تجميع ذلك الحطام ثانية . مع ذلك ، ما زال الظلام أفضل ألف مرة من الضوء الذي لا يزن إلا قليلًا جدًا بحيث لا يزوِّد المرء بأي دعم ، وبالتالي لا الأفكار ولا الأحلام يمكن أن تأتمنه وتتكئ عليه . ينتشر الضوء على امتداد السماء ، صاخبًا كصخب نورس ضخم أسود الظهر ، ويبدو كما لو أن كل شيء حي محكوم بإنشاد هتافات الثناء للحياة ؛ وأولئك الذين بلا أصوات يبحثون عبثًا عن مخبأ . ويبددون الصيف وهم يترقبون عودة الظلام .

٤

كانت أندريا زوجة بيتور، المشرفة على أكواخ صيد السمك، وصديقة الفتى وباردور، بانتظار الفتى عندما عاد من آخر العالم، من دمبسفيردر، عاد مِزقًا من العاصفة والذكريات والشعر الأحمر والعينين الخضراوين، لكن أيضا مع مسودة ذهنية لرسالة كان قد وعد أودور، عامل جرف الثلج، أن يكتبها له، قبل أن يشدّ الرحال هو وينز ويباشرا الانطلاق في سفرتهما الملحمية. رسالة تتضمن تقدُّم أودور بطلب الزواج من راكيل التي تعمل ساعات طوال في تمليح السمك وتجفيفه، والتي يرى أنها أفضل وأروع امرأة وُلدت هنا في الأرض، أو على الأقل في آيسلندا، قال أودور أن ليس لديه معلومات قيمة عن البلدان الأجنبية، بل حتى بالكاد يعرف شيئًا حقًا، وربما أيضًا ليس الكثير عن آيسلندا، إلا أنه مرة قطع الطريق كلها جنوبًا إلى دالير. والهدف من الرسالة أن تكون صرخة حياة، حياة بسيطة وصافية، والفتى ألّف مسودتها في ذهنه، وهو على سطح سفينة الأمل، في أيار ببرده المعتدل، والشمس تحطّ عليه، الأكبر في واقع الأمر من أي شيء آخر يمكن أن يصادف الإنسان، هي عين الرب، كما وُصفت في إحدى

قصائد الشعر ، وهذا ملائم ، فالرب بعين واحدة ، وهذا يفسر الكثير جدًا ، فمَن هم بعين واحدة لا يرون الأشياء بالوضوح الذي نراه ، هم يفتقرون إلى المقارنات التي نستمدها من عينين اثنتين .

كان الفتى مسرورًا بالمسودة الذهنية ، وتحرَّق شوقًا بانتظار الوصول إلى اليابسة ، والمضي إلى دار الثالوث ؛ غيرترود وهيلغا وكولبين ، ليمسك ورقة وقلمًا . أما ينز فلازم سلوقية السفينة ، كامنًا في أخدود جليدي ، يعاني من نوبات الحمى والقشعريرة ، يكحّ ، وفي بعض الفترات يشعر بالعجز التام ، ذاك الرجل العتيد . في الوقت نفسه رفض أن يسمع عن تقديم يد المساعدة له للصعود إلى السطح ، دافعًا جسمه إلى الأعلى بيديه عندما تهدّده ساقاه الممتلئتان بالخيانة ، ثم لا يلبث هو والفتى أن يقفا معًا ، يراقبان البلدة تزداد اقترابًا ، والجبال تزداد ارتفاعًا ملقية ظلالها على العالم ، والفتى يشعر بالرضا عن نفسه بسبب الرسالة ، على الرغم من أنها كانت مجرد كلمات في دمه في تلك اللحظة ، لكن على أمل ، أنها قد تحقق لاحقًا ما هو أكثر أهمية من كل شيء ، لمّ شمل روحين معًا ، المؤالفة بين نغمتين ودمجهما في مخطط لحن أولي يمكننا في ما بعد أن نرنمه بسعادة ، وبالقيام بذلك نجعل الدنيا مكانًا أفضل بقليل . ماذا تنوي أن تفعل؟ سأل ينز ، بعد أن اكتفى من الاستمتاع باللحظة بينه وبين نفسه ، تذهب إلى بيتك مباشرة؟ نعم ، إلى البيت مباشرة . من غير أن تتوقف؟ الرجل يتوقف عندما يحتاج إلى ذلك ثم يتابع مضيّه . ترنح ينز بطريقة خرقاء مع الأمواج ، وجهه شاحب ، عيناه الرماديتان كرتان صلبتان . أنت تعرف ما أعني ، قال الفتى . صار في وسعهما تبيُّن الأبنية ، لمحا مقهى سدوم وذكّرهما معًا بالقارب الذي استعاراه من الزوجين في الأسبوع الماضي ، قبل مئة واثنتي عشرة سنة

مضت . علينا أن نستعيد القارب ، قال ينز ، أتظن أنك تستطيع الاهتمام بهذا؟ نعم ، أجاب الفتى . استكانا إلى الصمت والجبال ازدادت ارتفاعًا أمامهما . تقدمت «الأمل» ببطء نحو القناة ، المضيق الضيق بين الجزر والجبال ، ولا حركة ظاهرة في محيط سدوم ، وإذا بينز يلتفت مواجهًا الفتى فجأة ، يده ممدودة وكفّه مفتوحة ، ولعدة لحظات علقت تلك الكف هناك مثل سوء فهم ، إلى أن أدرك الفتى مغزى ما يحدث ، فابتسم ومدّ يده ، واختفت راحته المرهفة مؤقتًا في كف ساعي البريد .

يظهر بوضوح أن المشي استلزم من ينز بذل جهد عظيم ؛ وبالنسبة إليه ما عاد وَضْع قدم أمام أخرى مسألة مضمونة . في البداية ذهبا لاسترجاع حصانَي ينز ، كرومي وبليكر من عند يوهان محاسب غيرترود ، وينز ينفّس عن غضبه بإطلاق رشاش من الشتائم على طول الطريق ، كما لو أنه كان يبصق حجارة سوداء . تفاداها الفتى وسأل ثانية ، ماذا تنوي أن تفعل؟ ظننت أنني سبق وأجبت ذلك السؤال ، قال ينز . لا . أنت إضافة إلى ذلك تطرح الكثير من الأسئلة . أتتذكر ما قال هيالتي؟ قال الكثير من الأشياء . نعم ، قال : إذا لم تبادر إلى الإقدام على فعل شيء فأنت تخون جميع الناس . عندئذٍ رمق ينز الفتى وقال بحدّة تقريبًا ، أتذكّر ذلك . وفي دار غيرترود رفض أن يضطجع ليرتاح إلا أنه لم يرفض تناول شيء من الطعام ، ثم كتب رسالة موجزة لسيغورد الطبيب ومدير مكتب البريد ، مضمنًا فيها استقالته ، ومستخدمًا حروفًا كبيرة وضخمة ، كما لو أنه بطريقة ما يخربش على الرمل بعصا طويلة . خذ شيئًا لسعالك ، قالت هيلغا ، زد على ذلك أنني لا أستحسن ارتعاشك هذا . أنا أفضّل الموت على أن أتناول أيًا من أدوية سيغورد . لأكون صادقة معك أنا لم أعتقد

أنك على هذه الدرجة من الغباء . هذا ليس غباء ، أنا ببساطة لم أبلغ الحدّ الذي يجعلني أطلب أي شيء منه . ثمّ لا يلبث أن يمتطي ينز حصانه بظهر مستقيم ويرنو إلى الفتى . وهكذا حصلنا على مبتغانا ، قال وهو يقبض على اللجام . فرفع الحصان كرومي رأسه . لا أعرف شيئًا عما حصلنا عليه ، ردّ الفتى ، باستثناء الحياة طبعًا . لم يعلّق ينز بشيء ، لكنه أبقى عينيه على الفتى ، ما دفع الأخير إلى أن يضيف ، والآن ما عادت لدينا رفقتنا ، ولا أدري إن كان في وسعك أن تتعامل مع هذا . ابتسم ينز وانطلق ؛ والليل قاد الموت وهو يمسك بعنانه .

ثم حلّ المساء .

جلس أربعتهم في الصالة إلى الساعة الحادية عشرة . سنسمع الآن الحكاية ، قالت غيرترود ، وهذا ما حصلوا عليه ، على جزء من الحكاية ؛ يجب أن نعاود إرسالك في رحلة أخرى قريبًا ، قال كولبين عندما توقّف الفتى عن الكلام ، إذ غدا أكثر تعبًا من أن يتابع ، بلغ بالحكاية لحظة وصولهما إلى فيك ، وسيتابع في مساء الغد . لكن قبل أن يجلسوا في الصالة ، وقبل أن يُقدّم للفتى ما يأكله ، ذهب إلى بيت سيغورد ، وأرجع حقائب البريد ، واحدة منها يحتوي نصفها رسائل من سليتوري ، معظمها حسابات جامدة تتعلق بالمال والبضاعة والأعمال ، تلك الأمور التي يتجه إليها العالم الإنساني من غير أن تساعد المرء في شيء مطلقًا ؛ لا تشفي أي جروح ، ولا تخفف الشعور بالوحدة ولا الأسف . تسلّم سيغورد بنفسه رسالة استقالة ينز . أيتعين عليّ أن أكون قادرًا على فهم هذا؟ قال ، أهذا ما يفترض أنه يدعى كتابة بخط اليد؟ مع ذلك فهم ما أراد أن يفهمه ، غمغم بكلام ما عن كونها ليست الطريقة الصحيحة ، وفي الوقت نفسه

ابتسم ، وإن فعل ذلك خفية تقريبًا ، وعيناه تنظران خلال الفتى كما لو أنه لا يكاد يكون أمامه ، ثم أشار بيده إلى امرأة في منتصف العمر عندما قال الفتى ، اعذرني ، أعرف أننا في المساء الآن ، لكنني أتساءل عن إمكانية شراء ثلاثة كتب ، ثم أخرج بعض المال كبرهان على صدق نيته ، شاعرًا أن تصرُّفه هذا أسلم لسبب ما .

كُتب ، قالت المرأة ذات الوجه العريض بجفاء ، وهي ترجع رأسها إلى الخلف كأنها شعرت أن وجود الفتى على مقربة منها يسبب الإزعاج ، تريد كتبًا ، الآن ، في هذا الوقت المتأخر؟ نعم ، أجاب وهو يريها النقود غريزيًا . ليس لديك ما تفعله بهذه النقود سوى شراء الكتب؟ قالت ، إلا أنها على أي حال أخذت المال ، وسرعان ما انحنى الفتى على رفّ الكتب ، مضطرًا إلى حشر جسمه جانبيًا بين رفوف الأدوية كي يقترب بما يكفي ؛ داعب ظهور الكتب ببطء ورقة ، حرّك شفتيه وهو يقرأ العناوين . لدي أشياء أخرى أصرف فيها وقتي أكثر من الوقوف هنا ومراقبتك ، قالت المرأة ، وفي هذا الوقت المتأخر ، إنه ليس أمرًا طبيعيًا . لم يقل الفتى شيئًا واستنشق رائحة المستحضرات الدوائية المركزة وهو يفكر ، الرائحة وحدها ستحميني من الزكام على مدى السنوات العشر التالية ، قبل أن يقع اختياره أخيرًا على ثلاثة كتب ، هاملت أمير الدانمارك : مأساة ترجمها ماثياس يوكامسون ، كتاب عن الموت والشك ، أوديسة هوميروس الذي كان على ما يبدو أعمى مثل ميلتون عندما كتب الفردوس المفقود ، شاعران بحثا عن الكلمات ليستعيضا بها عن عيونهما ، ليستعيضا عن النور الذي فُقد منهما . الكتاب الثالث كان بياض البجع ، مجموعة قصائد أجنبية ترجمها إلى الآيسلندية ماثايس يوكامسون وستينغريمر

ثورستينسون. كان ثمن الكتب أغلى قليلًا من المبلغ المخصص في وصل ماريا المفقود، لكن الفتى توقّع ذلك وحصل على مال من هيلغا، موضحًا بعجالة سبب احتياجه له، كيف بدت ماريا وهي تأتي على ذكر الكتب، على ذكر الشِّعر، أخبرها ماذا رأى في عينيها وأنه قد فقد إشعار الدين على الحساب. وهيلغا اكتفت بالقول، حسنًا فليأخذ الفتى ما يحتاجه. وهكذا ستتسلم ماريا أربعة كتب، الرابع هو ذلك المجلد الذي يضم قصصًا قصيرة من تأليف غيستر بولسن، الشاعر الذي يُقيِّد شقيقه ما بين حين وآخر في الطابق العلوي لبيت يقع على مسافة ما من هنا. ما فائدة هذه؟ قالت المرأة وهي تمسك، كما لو أنها تفعل ذلك عشوائيًا، ترجمات الشعر. ما فائدة الحياة؟ ردّ الفتى بالمقابل. لا أحد يخسر النوم على حساب الكتب، قالت المرأة بنبرة غاضبة، كما لو أن الشعر سبب لها الأذى في وقت ما، لكن طبعًا كانت مخطئة، فالفتى بقي صاحيًا إلى ما بعد منتصف الليل وهو ينسخ القصائد، إلا أنه كان ما زال بحاجة إلى النوم، ما زال منهكًا، شبه مشلول من الإعياء، أطفأ الضوء حوالي الساعة الثالثة، وغاص على الفور في النوم، هبط إليه مثل طير مصاب بطلق ناري، وحلم بهيالتي مستلقيًا متجمدًا في الثلج والطقس المهلِك. اللعنة على كل شيء، قال الرجل الضخم، كان لا بدّ من أن أذهب وأموت، وبالتالي انتهى كل شيء، كنت أتمنى معاشرة امرأة قبل هذا، ولو مرة، فذلك دافئ جدًا، أدفأ بكثير وأرق من الموت، لكن، هل رأيت كلبي؟ لا، أجاب الفتى، وإذ فعل، أصبح كل شيء حوله قاحلًا ومقفرًا. ثم بدأت حزم الحشيش تنمو. أكوام واطئة انبثقت من الأرض، وهي ذات العينين الخضراوين تتسكع بين هذه البسط الخضراء ملتفتة ترنو جانبًا كأنها غير مهتمة بأي شيء، لكن الأخرى

كانت هناك أيضًا ، تلك ذات العينين الرماديتين المائلتين إلى الزرقة ، سأذهب في جولة على حصان هذا الصيف ، تحت أشعة الشمس ، قالت . نعم ، غمغم ، أنا فقط أبحث عن كلب هيالتي ، ولذلك أنا هنا وليس لأي سبب آخر . وفي الصباح التالي بعد أن نزل أخيرًا إلى الطابق الأرضي ، ولأنه بقي مستلقيًا في السرير إلى وقت متأخر ، والساعة قد تجاوزت الثامنة عندما ظهر ، بادرته هيلغا بقولها ، لم نشأ إعلامك الليلة الماضية ، شعرنا أن لا داعي لإيقاظك ، لكن ثمة امرأة هنا تريد أن تلقاك ، امرأة لبثت تنتظرك .

٥

تزامن وصول أندريا إلى البلدة تقريبًا مع ذلك الوقت الذي فقد فيه الفتى وينز أثر هيالتي في العاصفة فوق سليتوري ؛ كان سهلًا على العاصفة أن تبتلع مثل ذلك الرجل الصلب ، تمحوه من على وجه الأرض ، من غير أن تخلف منه شيئًا سوى انطباعات في ذهنَي الفتى وينز ، وأسف وذكريات في كوخ صغير متهالك وراء جبال الدنيا ، بعيدًا إلى ما وراء البحر القطبي الثقيل . لكن ما المرء على أي حال بمعزل عن الذكريات؟

بحثت أندريا عن دار غيرترود وعثرت عليها ، هذا لم يكن صعبًا على وجه التحديد ، إلا أنها من ناحية أخرى كانت عمليًا غريبة عن البلدة ، إضافة إلى أن مشغلها هي وبيتور يقع في قرية مختلفة أصغر وأبعد إلى الجنوب . دخلت المقهى وطلبت القهوة بصوت خافت ، ثم جلست وصرّتها في حضنها ، متلفتة حواليها في البداية كأنها تبحث عن شيء ، وبدا عليها مرتان كما لو أنها على وشك أن تسأل أولافيا شيئًا ما ، ثم لا تلبث أن تعدل . بيد أنها في آخر المطاف كفّت عن التلفّت ، وجلست ببساطة هناك بينما بردت قهوتها أمامها ، أصبحت ببرودة الثلج ، مستقرة في الفنجان

سوداء وهامدة كأن أحدهم سكب قطرة موت فيها . وفي النهاية نهضت ؛ كان هناك عدد كبير نسبيًا من الرواد في المقهى الذي ضجّ حيوية أيضًا . نهضت بوجه ممتقع وشاحب ، وفي طريقها إلى الخارج اصطدمت ببحارين ، كأنها فقدت القدرة على الرؤية ، كأنها بدأت تفقد بصرها . تعالي إلى هنا ، صاح أحدهما ، عندي شيء قد يسرّي عنك ، لكنها سارعت إلى الابتعاد ، وكانت قد بلغت آخر درجة من درجات المدخل عندما نادتها هيلغا ، إذ ما انفكتا تراقبان أندريا ، هي وأولافيا ، فمن النادر أن تأتي النساء بلا رفقة إلى هنا ، وزيادة على ذلك قبعت في مكانها كما لو أن العالم قد نسيها تمامًا ، مؤلم أن ينسى الجميع المرءَ ، مؤلم حقًا ؛ تتقوس كتفاه ، تعتم عيناه ، وتتسرب العزلة إلى جسمه وتبدأ في الفتك بخلاياه ، على هذا النحو كانت أندريا تجلس . وهذا ما دفع هيلغا إلى التقدم نحو المدخل حيث سألت ، هل أستطيع مساعدتك؟ مباغتة أندريا التي أحكمت الإمساك بصرّتها ، وفي البداية قالت : لا ، ثم تراجعت وسألت عن الفتى .

أتيح لها الحصول على غرفة قبو في البيت الكبير المجاور للمدرسة . كانت غيرترود قد اشترته قبل بضع سنوات وأجّرته للعائلات ؛ وكانت غرفة القبو الصغيرة شاغرة ، غرفة آوت عجوزًا ماتت مؤخرًا من العزلة والإنفلونزا .

ذهبت أندريا إلى بيتها في القبو قبل أن يعود الفتى من رحلته ، طبعًا بغضّ النظر عن أن تلك الغرفة ليست البيت ، إنما مجرد ملجأ ومأوى وإحباط . أنتِ ، كبداية ، ستعملين عندنا ، قالت هيلغا ، عندما أفصحت أندريا عمن تكون ولماذا جاءت ، لتقابل الفتى ، لتستهل حياة جديدة إذا كان ذلك ممكنًا ، في حال أن هناك حياة أخرى لها . إنني لا أدري ما أنا فاعلة ، همهمت .

ثمة امرأة هنا تريد مقابلتك ، قالت هيلغا ، قبل أن تمضي هي والفتى الوسنان إلى المقهى ، ولا زبائن هناك ، لا أحد سوى ثلاثتهم ، أولافيا وكولبين وأندريا . جلست هيلغا وبدأت فورًا في الدردشة مع كولبين وأولافيا ، بينما وقف الفتى وأندريا وجهًا لوجه . لا تنساني يا فتى ، قالت له في كوخ صيد السمك قبل شهر مضى ، ودّعته بقبلة ، وباردور مسجى إلى جانبهما تمامًا ، ولن يُقبّل ثانية مطلقًا . تسلمت رسالتك ، قالت أندريا . هجرت بيتور ، قالت أندريا ، لكن الفتى بقي صامتًا ، ابتلع خزيه ، لم يشعر بالبهجة لرؤية أندريا ، بل على العكس اعتراه الغضب فجأة ؛ ثم شعر بقذارة رهيبة تكتسح باطنه . فهناك وقفت ، في منتهى البلادة ، تختلف كليًا عن المرأة التي احتفظ بها في ذاكرته ، والتي كتب لها الرسالة ، مظهرها عادي جدًا وبسيط . ماذا فعلتُ؟ فكر ، محاولًا مواراة الحقارة ، القذارة المعتملة فيه ، ونجح في فعل ذلك إنما ليس كليًا ربما ، أشاحت أندريا بوجهها ، بدا ذلك كما لو أن أحدًا دفعها جانبًا . تلاشت القذارة ، خطا الفتى بضع خطوات متكلّفة وعانق هذه المرأة التي انتزعتها كلماته من حياة آمنة وعقيمة ، عانق المرأة التي أضفت على حياته نذرًا بسيطًا من الدفء ، نذرًا بسيطًا من الرِّقة ، وزنخ كوخ صيد السمك اللاذع ما زال يفوح منها ، وعندما وضع ذراعيه حولها ارتعشت قليلًا .

كانت قد قصّت شعرها . هيلغا هي التي قصّت شعر أندريا وجعلته قصيرًا كشعر صبي ، فبدت أصغر بعدة سنوات ؛ ربما أنتِ لست كبيرة السن جدًا ، قال الفتى عندما تفحّصها عن قرب ، فضحكت . قليل بالنسبة إلى المرء ما هو أكثر أهمية من الضحك والبكاء ؛ أهم بكثير من الجنس ، ناهيك عن القوة ، ناهيك عن المال ، بصاق الشيطان ذاك في دم

الناس. أولئك الذين لا يضحكون أبدًا يتحولون شيئًا فشيئًا إلى حجارة. ضحكت، والهوة التي تصنعها الحياة بقسوتها التي لا يسبر غورها والتي انشقت بينهما أُغلقت واختفت تقريبًا، إنما ليس كليًا. تتولى أندريا القيام بعمل شخصين في المقهى، وأحيانًا يحتاج المكان إلى ذلك بالتأكيد، ففي بعض الأيام هناك سيل لا ينقطع من الزبائن، والبحارة يتلهفون على تلقي الخدمة من أندريا، معجبون بسرعتها، وتنقلها بسهولة خالية من التقاعس، وقصة شعرها الصبيانية، ومنجذبون إلى الدفء الذي يجعل البشر فاتنين، العديد منهم يجلسون هناك بلا حراك، ويأملون بسماع كلمة منها، بنظرة، وكولبين يصبح تقريبًا منشرحًا. يجدر بك أن تنتقلي إلى هنا وتتزوجيني، يقول، إذ ما الغاية من التسكع في غرفة سفلية؟ فتبتسم، على الرغم من أنه لا يرى ابتسامتها، وتدلّل الذئب الهرم صاحب العينين اللتين لا فائدة منهما، لا يرى ابتسامتها، أو الظلال التي تجتاح وجهها عندما تطبق عليها شراك الحياة في اللحظات الخاملة، بكل أسئلتها الملحّة والقاسية.

أنا راحلة، قالت لبيتور. راحلة! أنت لن ترحلي إلى أي مكان! أنا أمنعك من الرحيل. القرار يعود لي، قالت، متفاجئة بعض الشيء من نفسها، غير مدركة من أين أتت الكلمات، كما لو أن شخصًا آخر تكلم نيابة عنها في الواقع، واستحال قلب بيتور إلى حجر. لن تذهبي إلى أي مكان يا امرأة، ثم، إلى أين تخططين الذهاب، ماذا دهاكِ، ألا نملك كل شيء، ألا أقوم بكل ما يتطلب الإنجاز؟ قلة مَن يصطادون سمكًا أكثر مما أصطاد، بل حتى قريبًا هذا الصيف، سأرمّم المزرعة، وأنتِ ما كنت على علم بذلك! لا. أنا لم أشأ المجيء على ذكر هذا قبل الأوان، طبعًا يجب

ألا يتشدق المرء بالحديث عما ينوي القيام به بل يقوم به . على الرغم من هذا يا بيتور أنا راحلة ، سأرحل غدًا ، في الصباح بينما أنت في البحر . كانا في سقيفة التمليح ، وكومة سمك القد المملح علت كثيرًا جدًا بحيث اضطر إلى الوقوف على أطراف أصابع قدميه ليدفع جسمه كما ينبغي ، والمضاجعة وقوفًا رائعة جدًا ، بل هي في منتهى الروعة ، وتلفظ باسمها عندما دنت اللحظة ، تلفظ باسمها بينما هو يحاول الاستعجال من غير أن يفقد توازنه ، تلفظ باسمها مرتين ، بحرارة ، فاغرورقت عيناها ببضع قطرات من الدمع لأنه ما سبق قط أن فعل هذا من قبل ، ليس أثناء ممارستهما الجنس ، اكتفى باللهاث فقط ، ثم تأتّى له أن يتلفظ باسمها الآن ، متأخرًا في ذلك كثيرًا ، كما لو أنه يجعل الأمر أصعب بكثير ، بغضّ النظر عن أن الوضع الحالي صعب بما يكفي . بعد أن انتهى التفت فورًا إلى ترتيب كومة السمك ، كأنه يشعر بالخجل من ثرثرته ، من الهراء العاطفي ، أما أندريا فانهمكت في تجفيف نفسها وهندمة لباسها بعناية ، وبعد ذلك قالت إن ما بينهما انتهى . أنا راحلة ، وأدرك فورًا ما عنته ، لكن من الأسهل أن يتظاهر المرء بأنه لا يفهم شيئًا بينما الحياة تتفتت إلى آلاف القطع من حوله . ماذا يفترض بنا أن نأكل عندما نعود من البحر؟ تجرأ أخيرًا على السؤال ، بشيء من الدناءة ، لا أظنكِ تتوقعي منّا أن نجوع؟ كبداية ، يمكن أن تعتني بكم غودرون ؛ سأفاتحها بالأمر . غودرون ، هل جننتِ؟ إنها ابنة أخيك كما تعلم ، من دمك . لا ، لن تأتي إلى كوخي ، أُفضِّل الموت في أسرع وقت على أن أسلِّم غودومندر ذلك السلاح . إذًا تنوي أن تموت جوعًا؟ سألته ، غير قادرة على كبح تهكمها ، بيد أنك مضطر إلى ذلك ، أردفت عندما لم تسمع منه ردًا ، إذ واصل خبط كومة السمك المملح كأن

تركيزه منصب على ترتيبها بطريقة أفضل ، في هذه الحالة ستطهو طعامك بنفسك ، هنا ، توقف بيتور عن العبث بكومة السمك وحدج أندريا كما لو أنها أخيرًا فقدت عقلها ، ربما يكون من الأسلم تقييدها خلال نوبتها اللعينة هذه . ماذا فعلت لكَ تلك الفتاة المسكينة في يوم؟ أنا على يقين تام من أنك أنت وشقيقك غودومندور ما عادت لديكما مطلق فكرة عما تخاصمتا بسببه . أعرف ما أعرفه ، أجاب ، إضافة إلى أن نظرة واحدة إليه كفيلة بجعلي أعرف سبب خلافنا ، وأن أعرف أفضل من أن أتذكر . عليكَ إذًا أن تهتم أنتَ بأمر طعامك غدًا ، لا سبيل آخر غير هذا . ماذا أبدو لكِ ، امرأة؟ يمكنك أن تضع جانبًا بعض السمك حالما تعود إلى اليابسة ، وستأخذ غودرون السمك وتطهوه وتعود إلى كوخها قبل أن تكون قد أخرجت أحشاء بقية الصيد . ماذا يفترض بي أن أخبر طاقمي؟ ستدمدم بشيء ما لهم ، أعرفكَ حق المعرفة ، قالت من غير أن تنوي قول ذلك ، لم تنو أن تتكلم على ذلك النحو ، إلا أنها أصبحت فجأة غاضبة جدًا ، شرسة جدًا ، وهذا الشجار برمّته صعق بيتور وقطع أنفاسه . لا يمكنكِ أن تغادري هكذا ، كان كل ما استطاع قوله . ولا أنتَ يمكنك أن تعيش هكذا ، أجابته وقد زالت الشراسة من نبرتها ، بل حتى شبه مضيفة : يا عزيزي بيتور ، رغبة منها في الواقع أن تخفّف عنه . إلا أن بيتور اعتدل في وقفته وقال بسخرية ، اذهبي إذًا ، لكنك ستعودين زاحفة قبل أن ينقضي الربيع ، أي خطب طرأ على الناس في هذه الأيام؟ وهذا لم ترد عليه بكلمة ، إذ ما كان يفترض بها أن ترد على ذلك؟ وفي الصباح التالي شدت رحالها ، ووصلت إلى البلدة بحلول الساعة التاسعة ، والفتى لم يكن هناك .

عينا الفتى ليستا عديمتي الفائدة ، لاحظ الظلال التي تعكّر وجه أندريا ، رآها وهي تستند على شيء ما ، تحملق في المدى ، وتلوح أقرب إلى امرأة هرمة . اتركيه ، كان قد كتب ، ارحلي إذا أردت أن تعيشي ، إذا أردت أن تشعري بالحياة . أي حق كان لديه ليكتب مثل تلك الأشياء ، أي حق يملكه ليدمج كلمات يمكن أن تغير حياة شخص ما ، وما ستكون مسؤوليته في هذه الحالة؟ أولئك الذين يطلقون النار مسؤولون عن الرصاص ، وعن الألم الذي قد يسببونه ؛ أليست الحال نفسها مع الكلمات؟ يجب أن أسألها ، يفكر ، يجب أن أكلمها عن شيء يختلف عن الأشياء العادية ، الأشياء التي تتحدث عن نفسها . يجب أن أكلمها طبعًا ، يغمغم بينه وبين نفسه خلال اليوم ، يردد ذلك لنفسه قبل أن ينام ، ثم يتراجع بجبن كلما سنحت الفرصة ، وأحيانًا تنظر إليه أندريا ، كما لو أنها تنتظر منه أن يقول شيئًا ؛ هو الذي لا يعرف أي شيء ، هو الذي لا شيء ، هو الذي يفقد حتى النزر اليسير الذي يعرفه ، ثم يستوعب حالما ينظر في وجه شخص ما .

مع ذلك ، إنه لن يلبث أن يكتب رسالة أخرى . رسالة نيابة عن أودور . مرة أخرى يجمع الكلمات معًا ليغير الحياة . يقوم بجولة ، أكثر من مرة ، قاصدًا اللسان الساحلي ، حيث راكيل تنظف سمك القد ، من الصباح إلى المساء ، بعناية ، بفرشاة فولاذية ، تشطف ، تشذب ، تجرف الدم ، تنزع الأغشية ، تعمل بهمة ، شعرها الأشقر الرمادي يظهر من تحت وشاحها ، وهي قصيرة ، ومكتنزة وقوية الذراعين ، في الثلاثين من العمر على الأرجح ، ومع ذلك تقرقر وهي تضحك مثل صبية ، وتقرقر كثيرًا ، لا تجتاحها الكآبة مطلقًا . يراقب الفتى راكيل ويفكر ، الحياة في الغالب

ليست معقدة أو مرهقة ، أنا فقط من هو في منتهى الغباء . خمس مرات خلال عدد مماثل من الأيام اختلق مهمة ، في المطر ، في الريح القارسة ، في الأيام المشمسة والساكنة ، النساء الواقفات هناك ينقلن أقدامهن تحت السماء العاصفة المكشوفة ، في اللسان البحري المفتوح ، والثلج ما زال على الجبال ، وأحيانًا يحتجن إلى تكسير الجليد عن أحواض الشطف ، ويرشش الماء البارد طوال اليوم ، من السادسة صباحًا ، في النسيم البارد ، في البَرَد وربما المطر ، وهذا قد يُخمد بهجة أغلب الناس ، لكن ليس راكيل ، تقرقر وتشتغل ، تقفز كبنت صغيرة لتبعث الدفء في جسمها ، أيمكن أن يشتري المرء مثل هذا المزاج الباهر ، أيمكن أن يزرعه ، أن ينميه في الأشخاص ، أهو نعمة من القدير أم مجرد حماقة لا تُحتمل؟ واضح أنكِ ما فقدت قط طفلًا ، تقول إحدى النساء لراكيل ، بعد أن توقفت عن القفز الطفولي وبدأت تغني ، البَرَد يتساقط والجليد الذي كسّرنه في الصباح ما زال مستقرًا هناك على الأرض ، فالجو ليس دافئًا بما يكفي ليذيبه ؛ واضح أنك ما فقدت طفلًا قطّ ، أنت تجهلين ما معنى ذلك ، لست على دراية بالحياة ، ولا تعرفين شظف العيش ، فتطأطئ راكيل رأسها وتتوقف عن الغناء ، يلاحظ الفتى أنها تحمرُّ خجلًا . أليس لديك شيء آخر تفعلينه باستثناء إزعاج القوم في عملهم؟ يقول رئيس العمال الذي يظهر إلى جانب الفتى ، والفتى بدوره يعود إلى الدار ويكتب الرسالة التي ألّفها في رأسه باستثناء عدة جمل لا يلبث أن يدوّنها . يكتب الرسالة بسرعة ، يضعها في مغلف ، ويأخذها إلى راكيل التي تسكن في الحي القديم ، في قبو يتألف من غرفتين صغيرتين ، وهو قبو بيت ناظر المدرسة غيسلي ، الباب مفتوح ، يضع الفتى الرسالة في الداخل ، وها قد فعلها ثانية ، بعث الكلمات التي من المقدّر أن تغير حياة إنسان .

٦

عندما ينزل الفتى إلى المطبخ ، غالبًا ما تكون أندريا جالسة إلى الطاولة ، ويداها المستنزفتان من العمل تمسكان إبريق القهوة ، تستمدان الدفء منه . لطيف أن تشعر بحرارة القهوة تنتشر في راحتيها ، لطيف جدًا جدًا ، وفي الوقت نفسه من المؤلم أن لا يجد المرء يدًا يمسكها ، ولا يتوافر لديه إلا قدح قهوة فقط . بيتور ، طبعًا ، لم يكن يميل كثيرًا إلى مسك الأيادي ، وقطعًا لا يفعل أبدًا إذا كان هناك احتمال في أن يراه الآخرون ، على الرغم من أنها أحيانًا تكمن تحت الأغطية ، في الليالي المظلمة ، والشعور بالوحدة الثقيلة التي يبدو أنها تأتي من الظلام في الخارج يطغى عليها ، وحدة باردة مبهمة ، فتحاول يدها بالغريزة الوصول إلى يده ، تحاول راحتها الوصول إلى راحته ، وتضغط . وهو يتصرّف كما لو أن لا شيء غير عادي هناك ، أو ربما يضغط بلطف في المقابل ، بشكل غير ملحوظ تقريبًا ، إلا أنه يضغط ، وهذه الـ «إلا أنه» ليست بالأمر الصغير ، بل هي تستتبع الشيء الكثير . ففي معظم الأحيان يتشنج كأنه غير مرتاح ، عندئذٍ تسارع إلى سحب يدها . ألا يطوقكِ بذراعيه مطلقًا؟ لا يفعل أبدًا من تلقاء نفسه ، تقول أندريا ، لكنه يفعل عندما أطلب منه ، في

ساعة متأخّرة من الليل ، عندما أكون متأكدة من أن الآخرين نيام . حينها أطلب منه أن يعانقني .

هيلغا : وهل يفعل؟

أندريا : ليس دائمًا ، طبعًا ، إذ يكون أحيانًا نصف نائم عندما ألمسه ، وعندئذٍ يغضب .

إنما ، بين حين وآخر يضع بيتور ذراعيه الثقيلتين الدافئتين حولها ؛ فهو قوي جدًا . وهل هذا لطيف؟

أندريا : نعم ، ذاك لطيف ، وأحيانًا أقول ، لنخلد إلى النوم هكذا ، والنوم وأنا ملتصقة به في منتهى الروعة ، فهو دافئ جدًا ، أترين ، إلا أنه لا يستطيع دائمًا تحمُّل شعوره بقربي على هذه الدرجة وبالتالي يتهيج ، ولا يتوقف إلا بعد أن يُشبع حاجته . ثمّ يغطّ في نوم عميق ، وغالبًا ما أبقى مستلقية هناك مدة طويلة ، عاجزة عن النوم . حسنًا ، ذاك يمكن أن يكون جميلًا أحيانًا ، طبعًا ، كما تعلمين ، إنما في أوقات أخرى لا أكون مستعدة تمام الاستعداد ؛ أحيانًا لا أريد إلا أن يعانقني . وبعد ذلك اضطر إلى الاستماع للهاث إينار .

إينار ، ذاك النكد صاحب اللحية السوداء؟

نعم .

أي لهاث ، لا أظنكِ تعنين . . .

نعم ، يبدو دائمًا أنه يصحو إذا كنا نفعل شيئًا ، كأنه في حالة تأهب ، ثم ينتظر إلى أن يغفو بيتور قبل أن يبدأ ، تفهمين ما أعني ، وبالتالي علي أن أستمع إلى لهاثه بينما يقضي حاجته ، يا له من حشرة ذلك الرجل .

يصبح مزاج كولين أشد سوءًا كلما ازدادت كثافة ضوء الربيع ؛ فهو كما قال لطالما كان كارهًا للضوء ، وقال ، لهذا السبب سُلب منه بصره . في أغلب

الأوقات ينزل الفتى صباحًا قبله ، يدخل المطبخ على وقع تهامس هيلغا وأندريا اللتين كانتا تتوقفان تلقائيًا عن الكلام في الفترات الأولى ، ثم ما عادتا تفعلان ذلك ، كأنما بدا لهما أن إخفاء الأشياء عنه لا مبرر له . يأكل ، يقرأ في الكتاب الذي يجلبه معه إلى الطابق الأرضي ، أو يطالع الصفحات التي نسخ فيها قصائد من ديوان بياض البجع ، يستغرق كل الاستغراق في الشعر ، ويصغي ما بين فينة وأخرى ويسمع هذا عن بيتور ، يسمعه من البداية في الحقيقة ، وعن إينار ، كيف يتربّص في سريره بعد أن ينام بيتور ، يلهث وإحدى يديه تحت الأغطية ، أي فاسد لعين ذاك الرجل ، الوحوش وحدها هي التي تُقدِم على فعل مثل هذه الأشياء ، يفكر وهو ينظر إلى يديه ، يديه اللتين ربما ترتكزان على الطاولة كما لو أنهما اقترفتا جريمة ما .

الرسالة التي خطّتها يداه قُرئت مساءً في قبو بيت غيسلي ، قُرئت بتأنٍ بالغ ، لأن راكيل شبه أميَّة ، استغرقت ساعتين لتنهي قراءة الصفحتين ، ثم كان عليها أن تبدأ من جديد ، مقتنعة أنها أساءت فهم كل ما ورد فيها . لم تنم جيدًا في تلك الليلة ، وذهبت إلى العمل صامتة وبعينين حمراوين . أين ذهب مرحكِ؟ يسألها أحدهم ، إذ بدا كما لو أن مزاج راكيل الكئيب يحجب الضوء عن الأحواض ، لكنها لا تجيب بشيء ، تكسر طبقة الجليد المتراكمة على الماء وتبدأ في تنظيف السمك .

في هذه الأثناء ، ينكبُّ أودور مع لولي على إفراغ حمولة ثلاث سفن وصلت من العالم الخارجي على فترات تتراوح بين عدة أيام ، وصلت من الخارج ، من منافذ الدنيا ، حيث تجري الأحداث بمختلف أشكالها ، وراء البحر والأفق . سفن محملة بالسلع من القاع إلى السطح ، بالملح والفحم

وأكياس الحبوب ، وبراميل الكيروسين ، وأخشاب خام وأخشاب مسحوجة كي تُستعمل للمراكب والأبنية وأدوات الزراعة والتوابيت ؛ ومحملة كذلك بالقطران وملاط الأسمنت والويسكي والجعة والتين والأقمشة الكتانية والمواقد والأحذية ، وتنويعات متعددة من الصابون اليدوي ، والحلوى المطبوخة والنبيذ الأحمر والسيجار والبن والشوكولاتة ، فنحن نحتاج إلى كميات هائلة من الأشياء لنعيش ، وكلها ينبغي أن تُفرَغ من السفن بسرعة ، خلال الليل في الحقيقة ، وأولئك الذين لا يستسيغون هذا يمكنهم العودة إلى الخمول في بيوتهم ، فهناك أيدٍ كثيرة متشوقة للعمل ، ولا حاجة إلى أخذ فترة استراحة للأكل . المتزوجون منهم يتزودون بالطعام من بيوتهم ، فالزوجة تضع جانبًا فرشاتها الفولاذية وتتجاهل السمك لنصف ساعة ، تسرع إلى البيت ، تطعم الأطفال ، ثم تذهب إلى زوجها أو ترسل إليه واحدًا من الأطفال يكون في سن مناسبة ليضطلع بالمهمة ، لكنه أصغر بكثير من أن يخوض غمار العمل . هي المرأة دائمًا التي يتحتم عليها أن تسعى هنا وهناك لتهتم بعديد من الأمور دفعة واحدة ، بينما الرجال يجرفون الطعام في أفواههم ، يقفون حيث هم متكئين على شيء ما ، وتناول الطعام بسرعة يعتبر مزية ، وأكثرهم رجولة أسرعهم في الأكل ، فالهدف من الأكل أن يُلتهم بسرعة وليس للتلذذ به .

جلب لولي وأودور زوادتهما معهما ، هما يسكنان معًا ، بلا نساء ، ونحن لم نرَ مثل هذه الصداقة الجميلة بين رجلين منذ أن كان الشقيقان نولي ويون على قيد الحياة . يجلس لولي وأودور ليأكلا ، يمضغان ببطء ، وفي جلوسهما هناك يبدوان غريبي الشكل ، مثل شيخين بسيقان مرهقة أو مثل الأجانب ، وما يستدعي العجب أن رئيس العمال يُحجم عن إثارة

بلبلة ، على الرغم من أنه أحيانًا يريد باستماتة أن يفعل ، فدمه يغلي من مجرد رؤية هذين اللقيطين ، وأكثر ما يريده في الواقع أن يطلق عليهما النار عندما يكون معكّر المزاج جدًّا . بيد أن جارفَي الثلج هذين من صنف مميز خاص ، والتجار يسعون إلى الاستفادة من طاقتهما عندما يتعلق الأمر بإفراغ حمولة السفن ، عندما يعملان معًا كأنهما رجل واحد ، باهتمام وكفاءة ، لا يتذمران أبدًا ، ولا يتوقفان مطلقًا إلا بعدما ينتهي العمل ، ولهذا السبب يُسمحُ لهما بالمراوغة . مع ذلك ، ما زال من الجيد أن أطلق عليهما النار ، أو حتى على أحدهما ، مرة أو مرتين ، يغمغم رئيس العمال بينه وبين نفسه ، اسمه كيارتان وينتمي إلى إحدى العائلات المرموقة ، ولو أنه ليس من دائرتها الداخلية ، لكنه على صلة قرابة بفريدريك ، ويمضغ الكثير من التبغ ، خصوصًا في الربيع عندما يتوافر الكثير منه بعد الشتاء الأعجف ، بحيث يبدو فمه غالبًا كما لو أنه ينزف ، وهذا يضفي عليه مظهرًا مسعورًا ويجعل العمال يشعرون أنهم سيكونون أكثر أمانًا إذا حسبوا له حسابًا مضاعفًا ، وعلى وجه الخصوص قبل أن يفتح فمه ليصدر أمرًا . يحدّق كيارتان بغضب في لولي وأودور وهما يمضغان طعامهما بهدوء مثل المجترات اللعينات ، ويجلسان هناك كأنهما عضوا برلمان معتوهان . لتحل لعنة الجحيم على كل شيء ، يقول بصوت عالٍ ، ويضطر إلى الاستدارة ليتجنب الانفجار .

*

قُرئت الرسالة ، ويمرّ يوم ، ثم يوم آخر ، ويحلّ المساء . لا يكاد الغسق يهبط بين الجبال ، مع ذلك يخفت الضوء بما يكفي ليشعل فتيل عطارد في السماء ، فوق فيترارسترند فقط ، ذلك الكوكب الصغير الذي يلذعه حضور الشمس ، وهذا أمر يمكن أن لا يستسيغه أولئك الغارقون في الحب .

يمشي الفتى وأندريا ميممين الحيّ القديم . لا يقولان الكثير ، بالكاد أي شيء ، وعطارد المسفوع بالشمس فوقهما والأرض ما زالت ندية من الصقيع المتجمد . الجو ينحو إلى الدفء ، بيد أنه ليس دافئًا ، حوالي ٧ إلى ٨ درجات في الظهيرة ، وقد تكون أعلى ، ولا ريب في أن الشمس ستقابَل بالترحيب إذا دنت أكثر وأرسلت أنفاسها على الجراح التي خلّفها الشتاء وراءه ، على الآمال المحطمة ، تتنفس على عضة صقيع الحياة . يأتي الفتى وأندريا من بيت لولي وأودور ويتجهان إلى مسكن راكيل ، هذه أول مرة ينفردان بها منذ أن ودّع أحدهما الآخر في كوخ الصيد ، وباردور متجمد على طاولة تحضير الطعوم ، والريح تعوي عند البحر ، والجبال متلاشية خلف الثلج المتساقط ، عانقته وقبّلته وبكى ، لعلهما تقاربا كثيرًا آنذاك ، والتعافي من مثل هذه المشاعر يستغرق وقتًا . السكون مخيم بين البيوت ، معظم الناس في العمل ، ينظفون سمك القد ، يفرغون الحمولات ، يصطادون ، والأطفال أولئك الذي ما زالوا أصغر من أن يعملوا يلهون هنا وهناك بحثًا عن مغامرة . يسمعان نقنقة دجاج في حديقة خلفية . أكتبتَ رسائل كثيرة؟ تسأله أندريا ، محاولة أن تتظاهر باللامبالاة ، لكن صوتها حادّ . أما الفتى فيسرّه سؤالها لأن الرسالة عثرت على مكانها بينهما مرة أخرى ، وما عادت هاجعة في الصمت . كان لولي قد جاء قبيل المساء ليرى الفتى ، قلقًا ، مرتبكًا لأن راكيل ، كما قال ، على ما يبدو لم تذهب

إلى العمل اليوم ، وأمس لم تكن على سجيتها ، وأودور تحول إلى حطام ، لعلها أخذت الرسالة على محمل سيئ؟ ربما كانت لهجة الفتى متحمسة جدًّا؟ يجب ألا يسيء الفهم ، الرسالة كانت في غاية الروعة وكان أودور فخورًا بتوقيعها ، لكن لعل حماستها مبالغ فيها؟ أو أي شيء من هذا القبيل؟ أيمكن أن يفكر الفتى في تفقُّدها ، أن يقوم بزيارة قصيرة لها ، ها؟ يزداد خفقان قلبه ، أتراه فعلها ثانية ، أفسد الحياة وقذفها بعيدًا عن نطاقها بالكلمات التي كتبها؟ إن صحّ هذا ، سيكون التراجع مرة أخرى جبنًا وخيانة . اصطحب أندريا معه ، فقد سمعت معظم حواره مع لولي ، ثم إن المقهى في الوقت الحاضر ليس فيه إلا القليل مما يتطلب العمل الملحّ قبل أن يستعدوا لإقفال أبوابه . كانت تقف إلى جانب الفتى بينما جلس مواجهًا لولي المرتبك ، وكانت تداعب شعره كما درجت أن تفعل أحيانًا في كوخ صيد السمك ، إلا أنها سارعت إلى سحب يدها عندما سمعت عن الرسالة .

وها هي تسأل الآن ما إذا كان قد كتب رسائل كثيرة . لكِ فقط ، يجيب الفتى ، بصوت أعلى مما أراد ، ولراكيل نيابة عن أودور . طلب مني أن أفعل . أهذا هو؟ تستفسر وهي تقف أمام منزل مدير المدرسة غيسلي . نعم ، يغمغم الفتى متفاجئًا عندما يرى غيسلي عند النافذة . وراكيل هذه تسكن في القبو؟ نعم . أيعرف أحدكما الآخر؟ لا . أسبق أن تبادلتما الحديث؟ لا . ماذا كتبتَ؟ أتراك أخبرتها ، كما كتبت لي ، بأن عليها أن تُخضع الحياة للمساءلة ، أأخبرتها أنها ستخون الحياة إذا لم تتزوج أودور؟ أقلتَ لها أن الدرب إلى حياة آمنة ، إلى بلادة الحس هي ألا يُخضع المرء وضعه للاستجواب؟ ينأى بنظره عنها ، يكوِّر قبضتيه داخل قفازيه ، ثم

تقول أندريا بلطف، أخبرني فقط ماذا كتبت في الرسالة. يخشخش الفتى مرددًا محتويات الرسالة لأندريا، بلهفةٍ، كما لو أنه كان ينتظر الفرصة ليفعل، فهو يحفظ الرسالة عن ظهر قلب، من أولها إلى آخر فاصلة ونقطة فيها. وينتهي أخيرًا. أوَتظن أنك تملك الحق لتكتب مثل هذه الأشياء؟ تسأله من غير أن تزيح عينيها عن البيت، والفتى أيضًا يثبت عينيه على البيت: لا غضاضة طبعًا في فعل ذلك للحظة.

قام غيسلي بطلي البيت باللون الأحمر عندما انتقل إليه قبل ما يزيد عن عشر سنوات، وحرص على تجديد الدهان من حين إلى آخر، سكن في وسط الحي القديم مع ما سبب هذا من انزعاج كبير لأخيه فريدريك، فريديريك الذي أرسل كلمة إلى غيسلي في كوبنهاغن ليعود ويتولى إدارة المدرسة الابتدائية المؤسسة حديثًا. ووجد خبر عودة غيسلي إلى الديار طريقه إلى صحيفة إرادة الشعب، وإلى جانب الإعلان نشرت الصحيفة صورة له مع عبارة «مدير مدرستنا المثقف جدًا» شعره الكثيف مملّس ومصفَّف إلى الخلف، وتعبير وجهه يقترح أنه مشرف على التفكير في أمر جلل. مع خبرة ست سنوات من التحصيل العلمي، لا بدّ حتمًا من أن الرجل ملمٌّ بكل شيء. ستّ سنوات من علم الطبيعة والشعر، أحبَّ غيسلي أن يقول، وبدرجات عالية، وبعض الناس يقولون اصطادها من البالوعة، استخرجها من أسرّة العاهرات الموبوءة بالقمل، عاد بلا شروى نقير، مفلسًا وغارقًا في الديون، بعد أن باع كل ما يمتلكه بينما هو في الخارج. كان في نية فريدريك أن يقيم شقيقه فوق المدرسة، لكن أمهما، كارولينا، حاكمة الأسرة التي ما زالت على قيد الحياة، خلاف زوجها، ذاك النذل الجلف الذي ابتلعه الشيطان بلقمة واحدة قبل عدة

سنوات ، أعلنت أن «غيسليها» يمكن إذا شاء ، أن يشتري لنفسه بيتًا من اختياره . وعلى الرغم من أن العجوز كارولينا مقوسة الظهر بفعل التقدم في السن ، ولم تقدر على نصب قامتها لسنوات ، لا أحد يخالفها ، ولا حتى فريدريك ، وغيسلي عبّر عن امتنانه لها بشراء هذا البيت ، هذا العشّ في وسط الحي القديم بين عامة الناس وصراخ الأطفال ونقنقة الدجاج . أنتَ تتحداني يا أخي العزيز ، من تحت جناح أُمِّنا ، كان فريديريك قد قال ببرود رهيب إلى درجة أن الجليد التصق بكلماته . هذا أيضًا المفعول الفظيع الذي نجم عن الثورة الفرنسية ، أجاب غيسلي ، وطلى البيت باللون الأحمر لينفخ الحياة في المنطقة ، وما فعله اعتُبر أيضًا خبرًا مهمًا بما يكفي ليجد طريقه إلى صحيفة إرادة الشعب . لعدّة سنوات كان البيت الوحيد المطلي بالدهان في البلدة ، ينتصب هناك بلونه الأحمر بين البيوت السوداء الكئيبة ، أحمر كالياقوت ، كصرخة يأس ، كقلب نازف .

أردت مساعدة أودور ، يقول الفتى أخيرًا ، بصوت خافت مشيحًا بوجهه عن البيت .

لا بأس بهذا ، إلا أنك لم تأخذ بعين الاعتبار كيف قد تتقبّل راكيل الرسالة ؛ الكلمات يمكن أن تؤثر على الناس ، يجب أن تدرك ذلك ، لا سيما الكلمات المكتوبة ، فهي تقتحمك بطريقة ما ولا تدعك وشأنك ، هذا ليس سهلًا ، وفي هذه الأثناء لا بدّ من أن تُقبِل على الحياة كما لو أن لا شيء خارج المألوف .

أندريا محقّة . هذا إضافة إلى أن الكلمات تتذكر كل شيء ولا تُغفل شيئًا ، قد تتوارى في موضع ما بين النسيان والظُّلمة ، بيد أنها تبدأ في الوميض حالما ينظر شخص ما في اتجاهها .

لماذا بعثتَ لي الرسالة ، مع سيمي ، لماذا كتبت لي ما كتبته ، من أعطاك الحق لتفعل؟

لا يتجاسر الفتى على النظر إلى أندريا ، لكنه يفعل على أي حال . شفتاها خطان نحيلان ؛ أين اختفت الرحمة التي تضفي عليها الجمال ، التي تلين العالم ، التي تجعل الناس يسعون إليها ، العمي والمبصرين على حدٍّ سواء؟ أنتِ أفضل من بيتور بكثير ، يقول . من أعطاك الحق لتكتب ما كتبت؟ لا أدري ، رأيت أن علي أن أفعل فقط . هذا ليس جوابًا . أنا أعبأ . تعبأ بماذا؟ أعبأ بكِ . هذا ليس جوابًا كذلك . لكنه الشيء الوحيد الذي يبدو أنني أحسن القيام به أكثر من الآخرين ، أن أكتب مثل تلك الأشياء أعني ، إنه عمليًا الشيء الوحيد الذي أُحسن القيام به في الحياة ، وأمركِ يهمني ، أنت كثيرة جدًا على بيتور ، هو لا يوجّه لك أبدًا كلامًا لطيفًا وهذا يجعلك حزينة ، الحياة قصيرة جدًا ليقضيها المرء بالحزن . ربّاه يا فتى ، ماذا تعرف عن السعادة والتعاسة بين الرجل وامرأته؟ لا شئ على الأرجح ، يعترف . مع ذلك كنت شاهد عيان على السعادة ، يقول ، وها قد هجرتِه ، أأنتِ نادمة؟ ما عدت أعرف شيئًا عن أي شيء ، تقول وقد انحسر غضبها على ما يبدو جنبًا إلى جنب مع احتدادها .

أكان يجدر بي ألا أبعث لكِ تلك الرسالة؟

لربما كانت الحياة أسهل لو لم أقابلك وأقابل باردور ، أربكتماني ، ثم يموت باردور ، وبعد ذلك تصلني هذه الرسالة وتجعلني أشعر كما لو أن لي أهمية ، والآن ها أنا أقف هنا ولا أعرف شيئًا .

مع ذلك تركتِه ، وهذا شيء يُحتسب .

أهو كما تقول؟ وهل رحلتُ فعلًا ، أيمكن أن يرحل المرء عن حياته ، ألست أزور البلدة فقط ، ما الفائدة التي أجنيها من الحلم ، أنا متزوجة ، وأنا امرأة ، سيقول الناس أنني قد فشلت ، وماذ أفعل عندئذٍ؟ لا يمكن أن أبقى مع هيلغا وغيرترود إلى الأبد ، ليس أكثر مما ينبغي ، في مرحلة ما يجب علينا أن نتخذ قرارًا ما ، أو ما يشبه القرار ، أذاك مدير المدرسة هناك عند النافذة؟

ينظر الفتى إلى الأعلى ويرى غيسلي إزاء النافذة ، ويظهر عليه أنه لا يلاحظهما ، يرفع كأسًا إلى شفتيه ويعبّ . إنه مخمور ، يهمس الفتى ، منذ أن أقفلت المدرسة أبوابها وهو على وجه التقريب هكذا . الكحول جداره البحري ، تقول أندريا . رباه كم أفتقد باردور ، تقول أندريا ، لو لم تكتب لي تلك الرسالة لكانت الحياة أسهل ، تقول أندريا ، مع أنني أشكرك عليها ، أعتقد أن لا أحد مطلقًا سيرسل لي شيئًا يضاهيها جمالًا . ثم يتقدمان نحو المنزل . يقرعان باب القبو ، يقرعان مرتين ، ثلاث مرات ، أربع مرات . أأنت متأكد من أنها في البيت؟ تسأله أندريا ، لكن الفتى لا يجيب ، إذ يسمع أحدهم يتحسس الباب ، ثم يُفتح ، تنظر راكيل إليهما ، ولا يلوح عليها أنها بشكل خاص على ما يرام .

•

السقف واطئ . سيضطر ينز إلى الانحناء هناك ، وكذلك هيالتي طبعًا ، يفكر الفتى . استعادة ذكرى هذين الرجلين تجعله غير قادر على الكلام ، غير قادر على وضع الأمور في نصابها . أين يرقد هيالتي بجسمه الضخم الغارق في العزلة . أتراهم عثروا عليه ، أين هو مع ذكرياته الحزينة وحنينه لكلبه الشرس ، وربما حنينه لامرأة أحبت نرويجيًا ، هذا إن كان لتلك المرأة

في الحقيقة وجود؟ مؤلم أن يحب المرء شخصًا لا وجود له ، هذا سوء حظّ عظيم ؛ وينز ، أهو على قيد الحياة؟ أنَجَح في الوصول إلى بيته مع حصانيه أم أنهما تبادلا حمل رجل ميت إلى مزرعته ، بحيث يصبح ذلك نهاية الحياة بالنسبة إلى هالا وأبيهما؟ نهاية تلهفهما إلى رجوع الرجل الصامت ، رجل متذمر وغير اجتماعي ولكن لا يستغنيان عنه بطريقة ما مستغلقة على الفهم ، كلما أطبقت عليهما الحياة بتشابكاتها ، هذا كله يملأ عروق الفتى ، وينسيه تقريبًا مرارته الناجمة عن طريقة تفكير صاحبة العينين الخضراوين في ينز ، وأنها أقدمت على إعطاء ينز رسالة ما ، هي على الأرجح إعلان حب ؛ عُد ، يا رجلي القوي العتيد ، عُد وابحث عني . يستند على الجدار ، في وسعه بسهولة أن يلمس السقف بأصابعه ويتحسس وقع خطوات غيسلي وهو يذرع الأرضية في الأعلى ، وصوته ينجرف إليهم ، يعلو ويخفت . لا ، لا أحد معه ، تقول راكيل ، هو يكلم نفسه في أغلب الأحيان . المكان هنا في منتهى الترتيب ، تقول أندريا التي بدأت تعدّ القهوة ، لأن كل شيء يبدو أسلس على مقربة من ذلك الشراب الأسود ، يصبح الثقل الرازح على الكلمات أخف ، تصبح كتلة الصخور أصغر حجمًا ، القهوة وتيار الخليج يصنعان هذه الأرض ، هذه الجزيرة النائية ، المكتوية بالنيران البركانية ، والمنسوفة بالرياح ، وبالكاد تصلح للسكنى ، ولكن أيضًا ذات وديان خضراء كالأحلام تتخلل الصخور . تجلس راكيل على سريرها ، ويداها المتورمتان كأنهما حيوانان محتضران في حجرها . نامت نومًا مضطربًا ليومين وليلتين ، لم تأكل إلا القليل ، نسيت اليوم أن تذهب إلى العمل . بل كذلك أمس في الواقع . نسيتي أن تذهبي إلى العمل؟ نعم ، تجيب وهي تعقد حاجبيها كما لو

أنها متفاجئة . الشقة في منتهى النظافة والأناقة ، رائعة الترتيب ، لا تبدو راكيل المؤرقة والمضطربة أنها تنتمي إلى هنا ، بل أقرب إلى مخلوقة زائرة في حياتها الخاصة ، تراقب بذهول بينما تحضّر أندريا القهوة وتخرج بعض الكعك . لا تسألها أندريا ، لماذا لا تجيبي أودور؟ لماذا تجلسين هنا بدلًا من الذهاب إلى العمل؟ انظري إلى حالك فقط ، أي نوع من التصرفات هو هذا؟ لا ، بل تقول : المكان هنا رائع الترتيب . وأوه من أين حصلت على مفرش المائدة هذا؟ ما سبق لي أن رأيت هذا الطراز من قبل ، تقول . أأنت من هذه البلدة؟ أنا هنا بسبب الإهمال فقط ، تقول . أنا حقًا أجهل ما أفعله بنفسي ، غريب جدًا أن يضطر المرء إلى اتخاذ قرار بخصوص هذا ، أعني بخصوص كيف يجب أن يقضي حياته ، تقول . لطالما اعتقدت أن الزوجة ينبغي أن تجعل زوجها فخورًا ، أن يكون لديها أطفال وبيت جيد ، نعم ، إنجاب أطفال والامتناع عن التساؤل عن الأمور الواضحة ، ولا أكون مثل الخراف الناشزة . تبًا ، تقول ، ها نحن ، القهوة جاهزة .

ثمّ تشربان قهوتهما . امرأتان ضائعتان بلا هدف . لا يتحرك الفتى . لقد كتب رسالتين ، ولهذا السبب تجلس هاتان المرأتان هنا الآن ، إلا أنه لا ينتمي إلى ذلك المكان ، هو مصدر إلهاء ، ويستحسن ألا يتحرك ، ألا يلفت الانتباه . في الأعلى ينقل غيسلي قدميه على بعد 40 سنتمترًا من رأس الفتى .

لم يحدث قط أن تغيبتُ يومًا واحدًا عن العمل ، تهتف راكيل بعد أن شربت نصف قدحها ، قصدتُ العمل وأنا مريضة ، وأنا خائرة القوى ، قصدته دائمًا وما فوّتُّ يومًا واحدًا . يمكنني أن أتخيل هذا فعلًا ، تعلّق

أندريا . أشعر أنني مريضة إذا لم أعمل ، أشعر أنني لست على ما يرام ، مع ذلك ها قد مضى عليَّ يومان وأنا أجلس هنا مثل مخلوقة بائسة .

هذا غريب .

صباح اليوم ما كنت حتى واثقة من أنني أريد أن أعيش .

يجب ألا يزدري أحد الحياة ، إنها هبة من القدير .

تتوقفان عن الكلام . لا شيء يُسمع سوى وقع خطوات غيسلي ، كأنما هو يقطر قدميه خلفه ، وصوته الذي يتهدج عاليًا وخافتًا ؛ إنه وحده في الأعلى ، تقول راكيل ، ومع ذلك يتكلم كثيرًا . هو عادة وحده . ذلك ليس جيدًا كثيرًا . لا ، على الأرجح ليس كذلك ، تجيب راكيل . أنا أنظف له البيت ، في أغلب الأحيان عندما لا يكون هناك ، إنه واسع المعرفة جدًا . جئنا توًا من عند أودور ، تقول أندريا وهي تصبّ مزيدًا من القهوة في قدح راكيل . وهو ليس في حالة جيدة ، وهذا تعبير أقلّ من الواقع . أتعنين أنه تعرّض إلى حادث؟ تستفسر راكيل بتؤدة ، بعد أن اعتدلت في جلستها وراحت تحدق في الفراغ كما لو أنها تتوقع رؤية شيء مهم ؛ جيدها طويل وذقنها صغير جدًا بحيث لا يمكن أن يتسع إلا بصعوبة لإضافة شيء إليه ، ما عدا قبلة واحدة ربما . حادث ، نعم يمكن أن يسمى حادثًا . عساه ليس مهلكًا ، تقول راكيل وهي ما زالت تنظر من حولها بحثًا عن أي شيء قد يبدو مثيرًا للاهتمام . حسنًا ، أشعر أنه يمكن أن يكون مهلكًا . ذلك سيئ جدًا ، لكن ينبغي على الناس أن يلتزموا جانب الحذر طبعًا ؛ دورستين لم يتوخَّ الحذر مطلقًا في السنة الفائتة ، كان منكبًا على العمل بجنون وسقط في مخزن سفينة إنجليزية نصف مكتظ بالفحم . هل تأذى كثيرًا؟ انتهى به المطاف عالة على الأبرشية هو وعائلته . أودور لم يسقط في مخزن سفينة

إنجليزية . حسنًا ، آمل فقط أن لا ينتهي مآله إلى الأبرشية ، تقول راكيل التي اكتفت من تسريح نظرها في المكان ، متخلية عن محاولة العثور على أي شيء مثير للاهتمام ، وربما ما عاد هناك ما يسترعي الاهتمام لتراه في هذا العالم ، لعل مثل تلك الأشياء كلها فنيت ، كحياة دورستين وحظّه . يرتعش فمها قليلًا ، ليس بشكل ملحوظ إطلاقًا ، لكن عين الفتى ثاقبة ، تنتأ شفتاها نتوءًا طفيفًا ، كأنهما تطلبان قبلة من العالم ، الجسد يفعل ما يحلو له ، وهذه ثروة المرء ومصيبته . لم تسعفه الجرأة ليأتي إلى هنا بنفسه ، تقول أندريا . وما يستوجب حضوره إلى هنا؟ تسأل راكيل التي تنهض على حين غرّة وتردف ، يستحسن أن أقصد العمل الآن ، ثم تعاود الجلوس وتبدأ في النشيج . تجلس هناك إلى طاولة مطبخها الصغيرة ، مقوسة الكتفين ، مطأطئة الرأس ، يداها المتورمتان شبه المكورتين ترتفعان إلى وجهها ويختلج جسدها ، فيتذكر الفتى خمس هريرات طُلِبَ منه أن يغرقها عندما كان في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر ، كانت الهريرات عمياء ، أخذها بعيدًا عن أمها ، انتزعها من أثدائها ، وضعها بعناية في كيس خيش ، حملها إلى الساقية ، ممسكًا الكيس طوال الوقت بإحكام ، كما لو أنه يريد إبقاء الهريرات دافئات قبل أن يبتلعها الظلام ، شعر بها ترتجف ، سمعها تئن قبل أن يقحم الكيس في الساقية ، ساقية لاسعة البرد كالربيع ، ولبث يحمله إلى أن تخدرت يداه وامتقعتا من البرد ، والآن ها هي راكيل تنشج وترتعش كما لو أنها تتوقع أن يدخل عليها مصيرها ، يضعها في كيس خيش ويغرقها .

أندريا : طلب مني أن أخبرك أنه عنى كل كلمة في الرسالة .

راكيل : لم أتسلم قطّ من قبل مثل هذه الرسالة .

أندريا : أعرف .

راكيل : أحب أن أبقى في حالة فرح ، هذا يسهّل علي وجودي .

أندريا : الفرح هبة من القدير ، وهو يوزّع علينا باقتصاد .

راكيل : بعض الناس يجدون صعوبة في البدء بتنظيف السمك خلال الجو البارد . نشرع في تكسير الجليد عن سطح الأحواض ، ثم نبقي أيدينا في الماء البارد طوال النهار . في بعض الأحيان هناك ثلج على الجبال أو أن السماء تمطر ، أو هناك بَرَد ، بل حتى ربما رياح أيضًا ، مع ذلك أبقى سعيدة . لا أستطيع مقاومة ذلك .

أندريا : ليتني كنت مثلك فقط .

راكيل : إنهن لا يستسغن هذا دائمًا .

أندريا : مَن؟ وماذا؟ المرح؟

إنهما امرأتان على وجه التحديد ، تقول راكيل وهي تمسد يديها المتورمتين كأنما تحاول تهدئة نفسها ، وهما أحيانًا تغضبان مني . تقولان إني ما اختبرت شيئًا قط ، أنني أعيش وحدي وليس علي أن أعاني من أي شيء . في بعض الأوقات تقولان إنني ما سبق أن تعرضت للضرب ، وأنني ما فقدت طفلًا ، ولهذا السبب أنا مبتهجة دائمًا ، ولهذا السبب أيضًا أنا في منتهى الحمق . إنه أمر حقيقي على الأرجح أن يكون المرء أحمق قليلًا ليشعر بالانشراح عندما يبدأ يومه بتكسير الجليد عن أسطح أحواض السمك ، عندما يكون هناك ثلج على الجبال ذات الارتفاع الفظيع ، والريح يمكن أن تكون قارسة البرودة بحيث تتجمد عظامنا ، بل حتى تتجمد أدمغتنا . في عديد من الأوقات أيضًا ، توجّه لي هاتان المرأتان كلامًا نابيًا . لا ، لا تفعلان ذلك غالبًا ، يجب ألا أكون ظالمة ،

لكن أحيانًا . بعض الناس لا تُرجى أي فائدة منهم ، تعلّق أندريا ، لا تستمعي لأحد ، ثمة الكثير جدًا من الضغينة والحقد في نفوس الناس . هذا ليس صائبًا ، تقول راكيل . طبعًا لا ، تجيب أندريا . أنا أيضًا واجهت الكثير ، تضيف راكيل .

أندريا : لا تعيري أمثال تلك العجائز الثرثارات اهتمامك ،لو أنهن فقط عرفن بأمر الرسالة التي وصلتك!

راكيل : كانت يدا أبي باطشتين جدًا ؛ لم أخبر أحدًا قط بهذا . لا ، تقول أندريا بتردد وهي تمد يدها إلى القهوة وتدفع الكعك نحو راكيل التي تأخذ قطعة ترفعها ببطء إلى شفتيها ، ثم تتوقف قبل أن تأخذ قضمة ، تترك يدها تتهاوى وتغطي راحتاها قطعة الكعك ، تحميانها . أنا شبه متأكدة من أن الشيطان كان يتلبّس شقيقَي كلما ثمل أبي ، وقد رحلا حالما استطاعا أن يفعلا ، استقر بيوسي في وينيبيغ ، أو في مكان ما على مقربة منها كما أعتقد ، حيث تنمو أشجار كثيرة . وألوغي يمّم البحر ، وعندما غرق ألوغي قلت لأبي إنه ما عاد هناك من سبيل للوصول إليه . وأمي لم تفعل شيئًا حيال ذلك ، ربما شعرت بالارتياح لحصولها على شيء من السكينة بينما جرى ذلك كله ، كانت يداه شديدتا البطش ، وكان قويًا جدًا وفعل دائمًا ما يريده و . . . طلب مني بيوسي أن أرافقه وقد رغبت في ذلك لأنني واثقة من أنه من الرائع تأمل الأشجار تتطاول نحو السماء ومشاهدة الطيور تستقر عليها ، إلا أنني ما استطعت أن أخون أمي ، وعندما ماتت لم أجرؤ على الرحيل ، نويت أن أغادر بيد أن أبي منعني ، وشعرت كما لو أن في وسعه أن يفعل ، أعني ، ما قاله بدا لي أقوى مما كنت عليه . ثم في يوم ما ، خلال عاصفة شتوية رهيبة ، شرد بعيدًا جدًا عن البيت

ولم يُعثر عليه لعدة أيام . عندئذ جئت إلى هنا . بعت الماشية وجئت وما استطعت المضي أبعد من هنا . وفي جميع الأحوال أعتقد أن أميركا كبيرة جدًا على مخلوقة مثلي ، تقول قبل أن تصمت وتجلس هامدة تمامًا بعد أن فتتت الكعكة وهي تتحدث ، طامرة حضنها بالفتات .

يا صغيرتي ، تقول أندريا وتصبّ مزيدًا من القهوة في فنجان راكيل ، ثم تنظف حجرها من الفتات ، يا صغيرتي ، تقول وتربت خدها مرة بلطف . هما تقريبًا في العمر نفسه ، مع ذلك هي تبدو أصغر بكثير جدًا ، بل تبدو أصغر مني في الواقع ، يفكر الفتى وعيناه على راكيل التي تأخذ كعكة أخرى ، تقسمها إلى نصفين ، تغمس أحد النصفين في قهوتها . نعم ، تقول ، رأسها يختلج قليلًا ، وكذلك شفتاها . فكرتُ ، تقول ، بصوت جدّ خافت ما اضطر الاثنين الآخرين إلى أن يميلا آليًا تجاهها ليسمعا بوضوح ، وخطوات غيسلي وتمتمته تطغيان على صوت راكيل الرقيق ، ظننت أنهما كلّفتا شخصًا بكتابة الرسالة لإزعاجي ، وجعلتا أودور يوافق عليها تماشيًا معهما ، وهذا رأيت أنه فظيع لأنني أعرف تمامًا كيف هو أودور . إنه يراقبني أحيانًا ، لكن على نحو جميل ، ويجعلني أحلم ، لعلي أكثر من حمقاء ، ومع ذلك أعتقد أن الحمقى لديهم أحلام أيضًا . هي فقط أكثر حمقًا من غيرها .

أنا كتبت الرسالة ، يقول الفتى . وفي الأعلى يرفع غيسلي صوته ، يخبط قدمه ، ويرتج السقف مثل سماء منذرة بالوعيد . هو طلب مني ، أعني أودور ، ولا أحد آخر يعلم شيئًا عنها أو له شأن بها ، ما عدا لولي طبعًا . كل ما كُتب في الرسالة حقيقي ، أنا فقط حاولت أن أقول . . . أن أصف كيف يخفق قلبه عندما يفكر فيكِ ، عندما . . . ينظر إليك وعندما

يحلم بك، عندما . . . ألستَ الفتى الذي يقيم عند غيرترود؟ تقاطعه راكيل . نعم . خطك رقيق جدًا، الحروف في منتهى الدقة بيد أنها تتضمن فحوى عظيمة، كيف يحدث ذلك؟ لا أدري، يغمغم الفتى وعيناه تنظران عبر راكيل، وإلى الكعكة تذوب في قهوتها . ألم يمت صديقك بسبب قصيدة أجنبية؟

الفتى : لا، مات لأن السمك أهمّ من الحياة هنا .

يا للشاب المسكين، تقول راكيل وهي تشهق، والفتى ليس متأكّدًا أعَنَتْهُ هو أم عَنَتْ باردور . كان اسمه باردور، تقول أندريا، نسي معطفه الواقي من الماء، تقول أندريا، معطفه ذاك بقي إلى جانب الكتاب الذي كان يطالعه، تقول أندريا، نسي معطفه الواقي لأن فكره كان مشغولًا كثيرًا بالكتاب . يدوي السقف فوقهم؛ وذاك كما لو أن غيسلي شرع يرقص . غيسلي يقرأ كثيرًا، تقول راكيل؛ وعيناها حمراوتان . الحياة تتسع عندما تقرأين، وليس هذا كل شيء، إنه يشبه اكتسابك ما لا يمكن لأي أحد أن يأخذه منك . أبدًا . يوضح الفتى، وهذا يجعلك أكثر سعادة . غيسلي ليس سعيدًا في أغلب الأحيان، تقول راكيل . مرة قال لي، كتبي كلها مقابل مرحك، ما عدا ذلك لا يخاطبني إلا قليلًا، وما يستدعي منه أن يفعل؟ إنه المسؤول عن المدرسة وشقيق فريدريك والقس ثورفالدر الموقر .

تقف أندريا، وتفرغ كوب راكيل من القهوة والكعك الذائب، ثم تملأه ثانية إلى منتصفه، تضعه على الطاولة أمام راكيل، أنت تعلمين الآن أن أودور هو من خصّك بهذه الرسالة، وليست من أي ثرثارات كريهات من فسحة تهيئة السمك، وأنها عَرْض زواج . ما يمكنني قوله لك

هو أن أودور رجل وسيم وروح خلوقة . ولديه عمل شتوي ثابت . ولا أظن أنه يمكن العثور على رجل أفضل ؛ اشربي قهوتك الآن .

لكنّك لا تجهلين ما يستطيع الناس أن يفعلوه بنا ، تقول راكيل بصوت عالٍ جدًّا باغتهما ، وترتعش شفتاها مجدّدًا ، ويداها المتورمتان تتلمسان الهواء ، كأنهما تبحثان عن شيء تتمسّكان به ، إنما أحيانًا يبدو أن لا شيء هناك يمكن التمسّك به في هذه الدنيا . ترنو أندريا إلى الفتى كما لو أنها لا تعرفه ، كما لو أنها تراه للمرة الأولى ، وهذا غير مريح كثيرًا . كيف ، كان ينز قد قال قبل بضعة أسابيع ، وهما على جبل ، في خضم عاصفة ، مستتران بظلّ تابوت لا يعوّل عليه ، كيف يميز المرء الأيدي التي تؤذي من تلك التي لا تؤذي؟ نعم ، تقول أندريا أخيرًا ، أعرف ما يستطيعون فعله . الأفضل أن يبقى المرء وحده ، تقول راكيل وهي تشهق ، لعل هذا مرهق نوعًا ما ، لأن المرء يشعر عندئذ بالوحشة ، لكن في الوقت نفسه ، لا أحد يستطيع أن يفعل بي شيئًا ، ولا أحد يستطيع منعي من أي شيء . وأنا وحدي لا أضطر إلى الخوف من شيء مطلقًا باستثناء الظلام .

٧

بين الفينة والفينة يتسكع ناظر المدرسة غيسلي نزولًا نحو المضيق البحري ، ليهرب من البيوت ، من الناس ، ليهرب من الحياة أو من أي ما يدعى ذاك الذي يدوي من حوله ونادرًا ما يمنحه أي سلام . إنه الصيف ، والخضرة تنبثق من الأرض حيث يعيش الدود الأعمى ويبقي التربة حية ، يحرص على ألّا تختنق ، وهذا الدود هو مَن علينا أن نشكره على الخضرة وعلى وفرة الأزهار . يبدأ غيسلي تسكعه في وقت مبكر ، ولا يكون بالضرورة قد نال قسطًا كافيًا من الراحة ، وربما ما زال يعاني من صداع الكحول ، ذهنه متبلد وعقيم ، ولا ديدان عمياء تحافظ على الحياة فيه بجهدها الدؤوب ، وفي الوقت نفسه بلا أمل في أي تعويض آخر غير ذلك المنصوص عليه في الحياة نفسها . يمتلك غيسلي عصا مشي اشتراها أثناء رحلته البحرية الأخيرة إلى الأراضي الأجنبية ، عندما سافر عبر ألمانيا قبل سنوات عديدة ، ولكن من أين يحصل على المال الآن ليسافر إلى الخارج ثانية؟ إن هذا المال مستتر بعمق استتار الهدف من الحياة ، لكن في وسعه أن يصرف لحظات مديدة وهو يفكر في سفرته الأخيرة ، يعيشها مجدّدًا ، وعصاه ممتازة

النوعية ، مصنوعة من خشب البلوط الذي نما في الضوء والظلام في الجنوب الأوروبي ، يطلق عليها غيسلي اسم هاين ، وهاين كان شاعرًا ألمانيا ميالًا إلى خطايا الجسد . أنتِ وأنا معًا ، يقول غيسلي لعصاه ، والشعور بالتحسن يكتنفه لتمكنه من مخاطبة أحد ، ويتابع المضي مبتعدًا عن البلدة نحو ضوء الصيف المشرق ، ولا حاجز يحجب عنه الرؤية في أي مكان ، لا ظلمة للغوص فيها ، ولا أطفال ليصرفوا انتباهه . خلال الأيام الأخيرة المعدودة حاول غيسلي أن يضبط نفسه بالامتناع عن معاقرة الكحول بعد الحادية عشرة ليلًا ، وبالتالي يشعر أنه أفضل حالًا عندما ينطلق ليمشي متألقًا وصامتًا في الرابعة صباحًا . يرى أنه من الضروري أن يباشر الانطلاق باكرًا ليتجنب مصادفة الناس ، تلك المخلوقات التافهة والمزعجة ، عشاق سمك القدّ . هذه الأمة لن ترقى إلى أي شيء ، يقول بصوت عالٍ ، يقول لنفسه ، للضوء ، لعصاه ، إنها لن تفضل المعرفة على السمك أبدًا ، لن تثق مطلقًا بقوة العقل ، لقد سحقت آلاف السنين من العيش في هذه الجزيرة الأمة ، إنها تؤمن بالأيدي وليس بالعقل ، بالعمل وليس بالفكر ، ولن تكتسب أبدًا الصبر لتنجز أي شيء عظيم .

يصل إلى المقبرة ، يسند عصاه على سورها ، يفك أزرار معطفه ، فالمشي جعل الدفء يسري فيه ، الجو رائق وهادئ إلى درجة أنه يستطيع سماع الأمواج الصغيرة اللطيفة وهي تتثنى على رمل الشاطئ حيث يحب الفتى الجلوس على صخرته ، ليستعيد طاقته بعد جريه المفعم بالحيوية . هذه الأمة ، يقول غيسلي - ليس هناك ما هو أظرف من أن يحاور المرء نفسه ، فهو عندئذٍ على صواب دائمًا - هذه الأمة لن تفلح أبدًا في تحقيق شيء إلا بشق النفس ربما ، تكتفي بإلصاق ألواح الخشب ببعضها لتطفو عليها ، ولن

تمتلك مطلقًا سفنًا لتجوب العالم . ينظر إلى عصاه كأنه يتوقع منها تعليقًا ، لكن العصي نادرًا ما تقول شيئًا . يطلق غيسلي تنهيدة خافتة ، يغمغم ، يجب أن أكتب مقالة عن هذا ، وستُبهج سكولي حتمًا ، ذاك اللقيط . يتنهد ثانية ، يجلس على السور ، يمد يده إلى جيبه ليخرج كتابًا فرنسيًا مصورًا ، طبعة جيدة تحتوي على أربع وعشرين صورة لنساء لا يرتدين إلا القليل من الثياب ، نساء يافعات ومبتسمات في وجه مدير المدرسة الذي يمعن النظر فيهن ، مستغرقًا في خياله ، ثم يرفع رأسه كما لو أنه يحاول استعادة رباطة جأشه ويلمح أناسًا يمشون على مقربة ، مع أن الوقت لا يكاد يتجاوز الرابعة صباحًا . لا سلام ولا سكينة أبدًا ، يفكر وهو يضيّق عينيه ليرى أفضل ، يضطر إلى تضييق عينيه لأن كل شيء يتراجع ، كل شيء يتضاءل ، الرغبة الجنسية والأحلام والنوم والبصر . يستشف هيئة رجل وامرأة ، وكلاهما مطرق ينظر إلى الأرض ، وهناك فرجة بينهما ، وأربع أذرع تتنازعها الحيرة متدلية على جانبيهما . ياه ، أغلب ظنّي أنه ناظر المدرسة ، يقول أودور ، فترفع راكيل رأسها . الرجل يقرأ دائمًا ، يردف أودور ، فتهز راكيل رأسها إيجابًا ، ثم يقفان غير واثقين مما سيفعلانه تاليًا . أوه ، هذا أنتما ، يهتف غيسلي ، وهو يعاود دسّ الكتاب في معطفه . ينهض ، يتلمّس عصاه . نعم ، تقول راكيل بصوت خافت نوعًا ما . خرجنا للتنزه فقط ، يضيف أودور بنبرة معتذرة . أنتما متعارفان إذًا ، يقول غيسلي . حسنًا ، يهتف أودور بتردد ، ملقيًا نظرة على راكيل التي شابكت ذراعيها وراء ظهرها ما أضفى عليها جمالًا لا يوصف . حسنًا ، قليلًا ، يقول أودور ، قليلًا فقط ، وقبل أن يدرك ما يفعل يجد نفسه ينحني لغيسلي . رائع ، يهتف غيسلي وهو يهز رأسه ، رائع حقًا ، أتنويان المضي في المشي أبعد من هنا؟

أنا متجه إلى تلك الناحية ، يتابع وهو يشير بعصاه نحو المضيق البحري . لا ، لا أعتقد ، يجيب أودور ، بصوت أعلى مما ينبغي ، وتهز راكيل رأسها نفيًا ، تستدير وتهمُّ بالرجوع إلى البلدة ، ينحني أودور ثانية لناظر المدرسة ، ثم يبتعدان ، جنبًا إلى جنب ، أربع أذرع خرقاء . لستُ بارعًا في الكلام مع مثل هؤلاء الناس المميزين ، يقول أودور وشيء من العرق يندي جبينه . لا أظن أنه بصحة جيدة ، تقول وهي تطرق ناظرة إلى الأرض ، فتتدلى خصلة من شعرها الأشقر الرمادي على عينيها ، وهذا أيضًا يجعلها تبدو جميلة جدًا . يتنهّد أودور بهدوء ، صعب أن يمتلك هاتين اليدين ويتحرق شوقًا إلى لمسها ، لكن لا يخفى عليه كيف تقفز فزعًا ، كيف تتكدر عيناها ويعكرهما الخوف عندما تلمسها يداه ، وها هي الآن ترخي عينيها إلى الأرض ، وهذا تصرف حكيم بلا أدنى شك ، فالبلدة فيها حوالي ثلاثين بقرة ، وهي تُطلَق لترعى صباحًا ومساءً على طول هذا الدرب ، ذهابًا وإيابًا ، وروث البقر يمكن أن يكون ضخمًا في حين أن القدم البشرية صغيرة بالمقارنة معه ، وقدما راكيل ، على سبيل المثال ، منمنمتان ، وطبعًا ليست هناك أي طرافة إذا وطئت إحداهما الروث المتخلف من المساء السابق ، أو حتى غاصت فيه واختفت .

لا بدّ من أنهما سئمين من بعضهما ، يتمتم غيسلي وهو لا يكاد يميزهما في المدى ، ومع ذلك يلاحظ أنهما يمشيان مطرقين ينظران أرضًا ، وأن هناك فرجة بينهما . ثمّ يمضي منحدرًا نحو المضيق البحري ، يمر بأبقار البلدة المضطجعة وقد انهمكت في اجترار طعامها ، عيونها الكبيرة الودودة والخاوية مغمضة ، تهز رؤوسها بين تارة وأخرى لتطرد الذباب ، وما عدا ذلك لا تأتي بحركة ، حتى عندما يتقدم ناظر المدرسة ، هذا الرجل المنتمي

إلى عائلة رفيعة المستوى ، الظمآن لجرعة حليب ، يتقدم ويجثم إلى جانب إحدى البقرات ، يمسك حلمة من حلماتها ويعصر في فمه عدة جرعات من الحليب الدافئ . هذه هي الأثداء الوحيدة التي يتاح لي لمسها في هذه الأيام ، يقول غيسلي بصوت عالٍ ، وهو يختلس النظر من فوق كتفه ، مع أنه مضى على رحيل أودور وراكيل وقت طويل . هما بلا أدنى شك يمارسان الجنس الآن في مكان ما ، ربما في قبو بيت ناظر المدرسة . تبًا ، إنه يستمتع ، جارف الثلج التافه الأخرق ذاك ، فقط لو يتوافر معي المال لأهرب من هنا . لكن ، ربما يجدر بي أن أتزوج راكيل ، يغمغم غيسلي وقد عاد إلى الانطلاق مجدّدًا وهو يحاور نفسه أو يحاور عصاه . اِغتنِم الفرصة وأقدِم قبل أن يحصل عليها ذلك الأبله ، تكفيه مجرفة الثلج التي لديه . فليساعدني القدير لأحصل على فرصة الاضطجاع إلى جانب جسد أنثوي دافئ ، القول بأن الناس يحتاجون إلى الحب ما هو إلا محض هراء ، الحب مبالغ في تقديره . كم مرة سمعنا بأن الحب لا يدوم أبدًا؟ إنه بكل صدق ليس إلا زوبعة في فنجان .

الطيور مستيقظة . يندفع أمام غيسلي طائرا زقزاق ويقفزان على كتل الأعشاب النامية ، يغردان لحنًا أو لحنين ، يطلقان نغمًا في منتهى النقاء ولكنه في الوقت نفسه يثير الأشجان ؛ لأن الصيف قصير والشمس تبالغ أحيانًا في ابتعادها ، والغربان تقبع على المنحدرات السوداء بانتظار رحيل الناس ؛ لأنه من الجيد التهام البيض ، من الجيد التهام الفراخ الدافئة . ويتسلق طائر الشنقب إلى الضوء ، ثم يغطس ، وينشر النوتات فوق المستنقعات . يمكنني دائمًا أن أزور القس كيارتان هذا الصيف ، يفكر غيسلي ، أمكث هناك عدة أيام ، هذا سيكون مفيدًا لروحي . يصل إلى

أسفل المضيق البحري الذي يشق الأرض مثل خنجر ، وخلفه تمامًا امتداد لا بأس به من اليابسة والمستنقعات والحقول والمروج ونهر مشاكس ، ثم ترتفع الجبال ، أعلى من الحياة ، الجبال اللعينة ، يفكر غيسلي بينما يمر أمام بيتين ريفيين ، أحدهما كوخ ، مجرد كومة أعشاب لها باب ، والآخر أكثر متانة ، مبني جزئيًا من الخشب . أهل الكوخ مستيقظون ، وليتجنب غيسلي بقعة أرض سبخية يمشي على مقربة كبيرة منه بحيث تتناهى إليه همهمة امرأة . الجو هنا عند أسفل المضيق البحري أرطب ، وكل شيء يقطر بالندى ، لكن غيسلي من عائلة بارزة وينتعل حذاءً جيدًا ، بخلاف أناس المزارع الذين تبقى أقدامهم رطبة منذ أن يغادر الصقيع الأرض إلى أن يعود إليها . في الوقت الحالي كل شيء ندي جدًا ما يجعل من المستحيل الجلوس في غور طري وتسريح النظر في المضيق البحري ، والتفكير في الخلود والهدف من الحياة ، وربما إلقاء نظرة على الكتاب المصور . فهو منذ أن جلس على سور المقبرة وتصفح الكتاب استعرت فيه رغبة جسدية لعينة ، إن حياة المرء صراع منهك طويل مع تهيُّج الجسد .

يجد غيسلي لنفسه صخرة كبيرة مسطحة بعيدة عن الأنظار ، يمسحها ، يطالع الصور في كتابه ويفعل ما يحتاج إلى فعله ، والمضيق البحري مصقول كأنه مرآة في هذا الصباح الهادئ ، هادئ جدًا بحيث يضفي الجمال على كل شيء . يخرج من الكوخ مزارع وبصحبته كلب ، يتثاءبان معًا ، ينفضان عنهما النوم ، يتبولان ، ثم تخرج امرأة تحمل دلو غائط الليل وترى زوجها ، تضع الدلو أرضًا ، تتسلل خلف زوجها ، تضع ذراعيها حوله ، وتقول : اسمح لي أن أصوبه ، ويضحك الرجل بصوت خافت . راحتها قاسية وخشنة ، تطوق عضوه وتوجّه الدفق . مضى على زواجهما ما يزيد عن عشرين سنة ،

والحياة أنهكتهما ، مع ذلك ما زال ممتعًا أن يكونا حيين ، يقهقهان معًا أمام الكوخ ، تبدأ في تحريك يدها بسرعة وهو بدوره يباعد ساقيه عن بعضهما أكثر لأن الوضع كذلك أفضل . بعد ذلك يقبّل شعرها الأجعد ويقول شيئًا لا أحد باستثنائهما يشعر أنه يستحق أن يُدوّن ويُحتفظ به ، مع أنه قد يكون أهم من أسطول السفن بأكمله الذي يعود إلى متجر تريجفي وشركته التجارية . هذه طبعًا إفادة وقحة . يمتلك تريجفي سفنًا عديدة ، تسعة عشر في مجموعها ، إمبراطورية عظيمة . ويمتلك فريدريك سهمًا في أربعة منها ، كارولينا ، الأم المسيطرة المحدودبة التي ما زال فيها رمق لتخوض المعارك على الرغم من أن الزمن حناها نصفين ، تمتلك حصة مهمة في ثلاثة منها ، وهذه سيرثها غيسلي بعد أن ينجح الزمن في مهمته ، أو على الأقل هذا ما يأمله ناظر المدرسة وما يخشاه فريدريك . حرية ؛ يفكّر غيسلي . هَدر ، يفكّر فريدريك . كل فرد يرى الحياة من خلال عينيه ، ولهذا السبب لا يمكن مطلقًا التحدث عن حياة واحدة ، عن عالم واحد .

يعود غيسلي أدراجه . يطلّ على المضيق البحري شبه الأبيض بهدوئه وسكونه ، ولا غيمة في السماء ، وشمس الصباح ترفع نفسها عاليًا بما يكفي لتسطع على الجبال التي لا تلبث أن تشع كالموسيقى . يخوض غيسلي طريقه خلال الندى ، خلال السكينة ، متحررًا من التهيج الجسدي ، يعود أدراجه تجاه الكوخ ، تجاه حزمة الأعشاب المفرطة في نموها تلك . داخل الكوخ معتم ، وأهله يستيقظون وينامون في الهواء الثقيل ، في العزلة . تبًا ، يتمتم غيسلي . الكلب في الخارج ، يروم باستماتة أن يتشمم هذا الرجل ، وربما يقتنص منه تربيتة رأس أو تربيتتين ، ممتع أن يُحكّ ما وراء أذنه ، هذا تقريبًا بروعة الحصول على قطعة لحم غير متوقعة ، إلا أنه لا

يجرؤ على الاقتراب من الرجل ، يشعر بالخوف من عصا المشي ، فالتعرّض للضرب مؤلم . يتقدم غيسلي إلى البقعة التى وقف عندها الزوجان لكنه مشتت الذهن وفي حيرة من أمره ؛ ففي رأسه يعتمل الكثير من الأفكار المميزة عن الحياة والشِّعر ؛ قلة هم من يفكرون بمثل هذا العمق تحت هذه الجبال الشاهقة كما يفعل المسؤول عن مدرستنا ، وهو أيضًا يعرف الكثير جدًا عن البشر ، كيف هم ، من أين جاءوا ، وما هي رغباتهم . في بعض الأحيان يخيّل إلى المرء أن عينيه تريان أكثر مما يراه الآخرون ، هذا يبدو كما لو أنه يتأملنا من الأعلى ويرى حياتنا في سياقات لا تخطر على بال ، حتى فريدريك يتجنب خوض نقاش مع أخيه ، إلا إذا كان الموضوع يتعلّق بقوانين سجلات الحسابات ، قوانين السلطة الكائنة . ولسوء الحظ ، هناك فجوة هائلة بين التفكير وبين الأمور الحياتية . ممكن أن يعرف المرء أكثر من أي أحد آخر ، أن يفهم الحياة ، أن يكون قادرًا على وصفها بكلمات مؤثرة ، أن يميز بين العلة والمعلول ، وفي الوقت نفسه لا يملك أدنى فكرة كيف يعيش حياة عادية ، حياة كل يوم . هذا يشبه قليلًا أن يعرف المرء نوتات الموسيقى كلها ولا يكون قادرًا على أن يصفر نغمًا بسيطًا .

على الرغم من ذلك جعلت سكينة الصباح والمشي وتلك اللحظة على الصخرة المستوية مزاج غيسلي طيبًا ، وبالتالي يقرر المرور على المطبعة ، إذ لطالما أخفى مدير المطبعة آسغير شيئًا مفاجئًا في جعبته ، ومن الجيد أيضًا استنشاق رائحة الحبر ، والاستماع إلى صوت آلة الطباعة التي يشغّلها أصغر عامل طباعة بقدميه وهو يجلس على عتبة النافذة ، يشغّلها ويطبع الكلمات ، الكلمات المباركة ، الكلمات الملعونة . على جدول الطباعة اليوم قصائد الشاعر الأيسلندي الكندي يوهان ماغنوس بيارناسون ،

قصائد قد لا تنتشل أحدًا من الكرب لكنها مرهفة بما يكفي . يبتسم غيسلي ويعبّ رائحة الأعشاب والصباح ، يلتف حول تل ويرى الفتى يتقدم نحوه بسرعة عظيمة ، عيناه جاحظتان ، ويجري بخفة هائلة كما لو أنه لا يلامس الأرض ، كما لو أنه يطفو ، ويتجاوز ناظر المدرسة بطاقة لا مثيل لها بحيث يئز الهواء من حوله . عندما يمرّ الفتى بغيسلي ، وليس بينهما سوى بضعة أمتار تفصلهما ، يلتفت برأسه تجاهه . ولعدة لحظات يتراءى لناظر المدرسة أن الحياة هي مَن ألقى عليه نظرة ، الحياة ، صِبا الدنيا بنفسه ، الربيع الأبدي ، وجميعها ترتعش بالطاقة الكامنة ، بالقوة المطلقة والإمكانيات والاندفاع . يتجاوز الفتى غيسلي ويختفي فيهمد كل شيء على نحو غير مريح ، لا يُسمع طنين ذبابة ، ناهيك عن أي شيء أكبر من الذباب ، لأن الزمن بنفسه هو من مر جريًا ، متنكرًا بهيئة فتى ، جرى عابرًا قرب ناظر المدرسة وخلّفه وراءه ، خلّفه كهلًا وعديم الفائدة ، مسكنًا للأحلام المهشمة .

يتثاقل غيسلي بجهد ميممًا البلدة الواقعة على مستوى أعلى من مستوى الشاطئ ، يعثر أخيرًا على ملاذ بين بسط الحشيش ، ويجلس . أشقّ شيء في هذه الحياة هو ألا يستطيع المرء أبدًا أن يهرب من ذاته ، من وجوده ، ينغلق داخل مقصورة ، في عالم لا يمنحه مطلقًا أي متسع ، ما عدا ربما في أحلام خصوصية ، ثم يعاوده كل شيء حالما يفتح عينيه ؛ فكيف يمكن تحمّل ذلك؟ أشق شيء ليس أن يجهل المرء كيف يحيا ، بل أن يعرف النوتات ويعجز عن ترنيمها . يجلس غيسلي متوسطًا الأعشاب الطرية والرطبة ، يراقب النوارس تنزلق عن وجوه المنحدرات ممتطية التيار الهوائي ، هي تعرف كيف تترك أجسامها تنزلق ، تريح أجنحتها ، تعرف كيف تحيا ،

ومع ذلك ما فكرت قط في أي شيء . وها هي هناك تنزلق . الشمس تحط على الجبال الشرقية والنوارس تلمع في الضوء ، الشمس تنيرها ، ويمكن أن تُرى من مسافة عظيمة ، حتى غيسلي يراها على الرغم من شحّ بصره . يجلس ويراقب . ثم تجلل غيمة الشمس ، وبدا ذلك كما لو أن ضوءًا انطفأ داخل الطيور ، فما عادت العين تراها . أما غيسلي فيبقى جالسًا هناك ولا يختفي لسوء الحظ ؛ وما عليه إلا أن يتقبل ما هو عليه .

٨

أنت تركض ، يقول غيسلي . نعم ، يجيب الفتى ، أنا أركض .

لماذا؟

لماذا أركض؟

لا يرد غيسلي ؛ هذا الرجل المثقف يقف هناك متأملًا الضوء المنساب خلال النافذة الكبيرة ويربكه . يحكّ الفتى رأسه ، لأنني ببساطة أشعر بالحاجة إلى أن أفعل ، يقول ، لكن غيسلي ينتظر وينتظر . يعجبني الركض . ويواصل غيسلي الانتظار . أشعر أنني حرّ عندما أركض ، يضيف الفتى . حرّ ، يكرر غيسلي ، هراء وكلام فارغ ، ويعاود النظر خارجًا . أُكتُب هذا ، يقول عندئذٍ للضوء ، مادة الدستور الثانية عشرة ، ضع علامة اقتباس ، يعفو الملك عن الرجال ويمنح إرجاء تنفيذ عقوبة عام ، نقطة ، أغلق علامة الاقتباس . يكتب الفتى بسرعة إلا أنه لم يقم بعد بإغلاق الجملة بعلامة الاقتباس عندما يتصاعد قرع على الباب الأمامي ، وبما أن هيلغا ليست في المقهى ، يذهب الفتى ليفتح للطارق . يسمع دمدمة خفيفة من المقهى بينما يمضي نحو المدخل ، هناك عدد لا بأس به نوعًا ما من رواد

المقهى الآن، العالم ظمآن للجعة، الشمس تفترش السماء مثل أهازيج الطيور، وسفينتان أجنبيتان وصلتا في وقت متأخر من المساء السابق، إحداهما سفينة شراعية ضخمة انزلقت بهدوء كبير عبر المضيق البحري نحو البحيرة، بحيث أن لا أحد لاحظها، لكن في أعقابها تصاعدت هسهسة أزيز محركها البخاري، هسهسة المستقبل اللجوج.

سمعتُ صوت باخرة في الليل، كانت هيلغا قد قالت عند طاولة الفطور، ما يعني أن اليوم يمكن أن يكون حافلًا بالعمل؛ وبالفعل تبين أن الحالة كما قالت، بحّارة من الباخرة، من السفينة الضخمة الصامتة، جمْع كبير من الناس يحتاجون إلى قتل الوقت، يحتاجون إلى شيء ليشربوه، بحّارة إنجليز ودانماركيون، وأندريا تشعر بشيء من عدم الأمان والهشاشة بينما تراقب هيلغا تتعامل مع الأجانب. جلبت معها من محطة صيد السمك كتابًا واحدًا، كتاب تعليم اللغة الإنجليزية لـ يون أولافسون، وتقرأه في الأمسيات، في قبوها، وحدها، وحدها تمامًا، وأقرب شخص إليها يبعد عنها تقريبًا أربعمئة ألف ميل، كالقمر الذي محاه ضوء الربيع من السماء. صعب أن ينشد المرء مكانًا قد اختفى، وصعب الوصول إلى أولئك الذين ما عاد لهم وجود. ماذا تريدان من هذا؟ كانت قد سألت الفتى وباردور عندما أحضرا الكتاب التعليمي إلى محطة صيد السمك قبل ما يتجاوز الشهرين بقليل فقط. كي نتعلم أن نقول أحبك وأريدك باللغة الإنجليزية، أجاب باردور يومها، ما جعل قلبها يفوّت نبضة، يفوّتها بمنتهى الغباء، والآن هي تعرف كيف تقول أحبك باللغة الإنجليزية. لكن طبعًا من السخف بعض الشيء أن تقضي أمسياتها مع كتاب، تحفظ تلك الكلمات عن

ظهر قلب ، فهذه العبارة القصيرة ليس لها أي علاقة بها ، لا باللغة الآيسلندية ولا الإنجليزية ، ولا بأي لغة أخرى ، مهما عنى ذلك .

مزيد من القرع على الباب ، طرقات عميقة مصمِّمة . إلا أنها ليست وقحة ، بل أبعد ما يكون عن الوقاحة ، هذه الطرقات لا تقول تبًا ، لماذا تستغرقون وقتًا طويلًا؟ افتحوا فورًا ، الوقت ثمين! هذا ليس أبدًا ما تقوله ، ما يعني أنه من غير المحتمل أن يكون الطارق فريدريك ، جالبًا معه تهديدات جديدة ، ولو أنه يدعوها عروضًا ، عقودًا ، فأولئك الذين في السلطة يستخدمون اللغة بشكل مختلف . هذا القرع يقول ، مهم جدًا بالنسبة لي أن تسمعوني . يقول أيضًا ، كما يتهيأ للفتى وهو يفتح الباب ، سافرت مسافات ومسافات لأصل إلى هذا البيت ، اجتزت محيطًا أكبر من الحياة ، أبحرت على متن سفينتي أيامًا طوالًا لا لشيء إلا ليُسمع قرعي على الباب ، أبحرت على جناح السرعة ، والريح التي نفخت الأشرعة تسمى الرغبة ، بل حتى الحب . يفتح الفتى الباب ويحيِّي ذاك الذي يقرع بهذه الطريقة ، يحيي قبطان السفينة الذي رآه أول مرة في بداية شهر نيسان ، بعد موت باردور مباشرة . حيًا الفتى الرجلَ بإيماءة من رأسه ، بينما طالعه الأجنبي بنظرة فيها شيء من الدفء ، بنظرة ودِّيَّة . هذا القبطان الذي وصل قبل يوم وليلة ، وقضى أغلب يوم أمس في الدار ، يرد على تحية الفتى بابتسامة وكلمات إنجليزية بينما الضوء ينساب عليهما ويتسلل إلى الرواق ليعانق غيرترود التي نزلت من الأعلى ، عليها كنزة خضراء سميكة وشعرها الأسود يتهدل على تلك الخضرة ، وتبتسم ، لا تبتسم ابتسامة عريضة لكنها لا تخفى على الأعين ، وأسنانها المعوجة قليلًا تذكِّرنا بالقصور عن الكمال . تقول شيئًا بالإنجليزية للقبطان ، وهو

بالمقابل يجيب بكلام ما ، واضعًا يدًا ثخينة على قلبه قبل أن يرفع يديه الاثنتين مبتسمًا ابتسامة عريضة . هو وسيم وفي عينيه الزرقاوين جاذب مغناطيسي خاص . يأتي غيسلي من صالة الاستقبال ، يظهر خلفها ، ويقف يمعن النظر فيهم .

تخطو غيرترود نحو الفتى ، تختار أن تقف هناك وتقوم بتعريف الرجلين إلى بعضهما ، غيسلي والقبطان ، ثم تقول غيرترود للفتى بصوت خافت بينما يتبادل الرجلان الحديث ، نحن سنـ . . . تقول برقة ، بشيء من الحماسة ، سنجلب الحصانين من عند يوهان ونمتطيهما في جولة ، وأنا على الأرجح لن أعود قبل المساء ، لكن انتظرني لتباشر القراءة ، وكيف أبدو؟ المقطع الأخير من كلامها ، السؤال ، تقوله بطريقة كما لو أن للإجابة عليه أهمية . أنتِ جميلة ، يقول ، قبل أن يضيف ، لأن على المرء أن يقول الحقيقة دائمًا ، الرجال في البلدان الأجنبية يمكن أن يعلنوا الحرب من أجلك ، والشعراء يمكن أن يؤلفوا لك القصائد . تمنحه قبلة ، شفاه ريانة ، ونفَسها الدافئ على خده ، قلت لكَ أنك ستكون خطِرًا ، توشوشه من خلال ضحكة خفية ، كضحكة صبية نوعًا ما ، إذا فقدتَ براءتك . فحاول أن تتمسك بها مدة أطول قليلًا .

لا ريب في أن الحصول على فرصة التحدث بأسلوب الأشخاص المثقفين يتيح للمرء متنفَّسًا غير مُنتَظَر ، فهو يسمح له بالهروب ، يسمح له بالتقاط نفَسه للحظة ويغمره بالشعور المحفز ، وهذا القبطان يتكلم تقريبًا كما يتكلم الرجال المتعلمون ، متزوج طبعًا ، وليس واضحًا ما قد تقوله زوجته إزاء هذا ، إزاء وجود زوجها هنا ، عند حافة نهاية الأرض ، وفي نيته أن يقصد مكانًا ما مع امرأة يقول بعض الناس إنها موسومة بالخطيئة والفجور ،

ثم إن رؤية امرأة ترتدي البنطلون مشهد منعش نوعًا ما . يرفع غيسلي كوب القهوة إلى شفتيه ، وترتعش يده ، فهو لم يعاقر الكحول منذ ما قبل يوم أمس ، ولعل هذا هو السبب . ولا يلبث أن يقول ، بنبرة سريعة ، أنت تركض ، ويتناول رشفة أخرى من قهوته ، يقف إزاء النافذة ، ينظر خارجًا ، ثم يلقي نظرة خاطفة على الفتى ، تركض كما لو أن الشيطان بنفسه في أعقابك ، لماذا تركض على ذلك النحو؟ يتأرجح الفتى في مقعده ، كأنما سُئل عن شيء مزعج ، لكن كولبين يدخل ، كما يفعل دائمًا عندما يباشر غيسلي تعليم الفتى ، يجلس على الصوفا ، يتكئ على عكازه ، ينتظر ، يستمع ، يدير نحوهما أذنه الأفضل . حسنًا ، يكمل غيسلي ما كان يمليه على الفتى وهو يحدق في الربان الأعمى للحظة بذهن مشتت ، يمنح إرجاء تنفيذ عقوبة إعدام عام ، نقطة ، أغلق علامة الاقتباس ، أكتبت هذا؟ نعم ، يجيب الفتى . أين ستذهب غيرترود مع القبطان ، وماذا سيفعلان؟ كأنني لا أعرف ، يفكر الفتى وهو يتأمل علامة الاقتباس التي تختتم الجملة ، ذلك الرمز الأخرق . حسنًا الآن ، يتابع غيسلي ، ومن أين يستمدّ الملك هذه السلطة الكبيرة ليعفو عن المجرمين ؛ ارتكبتَ جريمة ، قتلتَ شخصًا ، سرقتَ أشياءً ثمينة ، ومع ذلك أعفو عنك ، كيف يمكنه أن يقول ذلك ، من أين يستمدّ سلطته؟ أنا لا أدري . هذا ليس جوابًا ، عليك أن تحاول ، لا تستسلم أبدًا ، حاول! مِن القدير؟ من الشيطان؟ رائع ، يقول غيسلي ، رائع فحسب ، ما رأيك في هذا يا كولبين؟ أنا لستُ هنا ، يزمجر الربان باقتضاب ، أنا لا أراكما . رائع ، يكرر غيسلي مرة أخرى ، رائع فحسب ، لكن أيمكنك أن تسمي شخصًا ، إنسانًا حيًا ، يتمتع بسلطة تفوق سلطة الملك؟ لا . حسنًا ، إليك سؤال تتصارع معه : إذا كان ثمة ملك يمتلك هذه

السلطة التي لا يسبر غورها ، أيمكنه أن يعفو عن شخص يخون ثقته؟ أيمكنه أن يعفو عن شخص يتراجع في كلمته؟ أيستطيع ملك أن يعفو عن شخص يخون نفسه؟ أهذا ما تسميه تعليم؟ يقاطعه كولبين ، وعلى الرغم من أنه ليس هناك ، يضرب الأرضية بعكازه ، فقد كان يأمل في متابعة الاستماع للدرس السابق عن العالم اليوناني ، إذ حاضَر غيسلي عن أثينا ، عن الدولة اليونانية ، إمبراطورية الثقافة ، إمبراطورية الفكر . كان هناك حوالي 115,000 عبد في اليونان ، وتولوا إنجاز أي مهمة يمكن تخيلها ، مفسحين المجال لليونانيين ليفكروا بأذهان صافية ، غير مرهقين ، لا يحتاجون مطلقًا أن يثبوا ويطوقوا الإيجيين في المراكب ،لم يموتوا من التعرض للعوامل الجوية أثناء تنقلهم بين البيوت ،لم يكدحوا في القيظ والغبار ،لم توهنهم المشقة ، واقتربوا من السماء بالوقوف على أكتاف العبيد . الإنسان قاسٍ ، ويجب ألا نحترم أولئك الذين نراهم أعلى من غيرهم قبل أن نعرف ما يقفون عليه ، أيقفون على أقدامهم أم على حياة الآخرين . أهذا تعليم ، أهذه ثقافة؟ يكرر كولبين السؤال ، أهذا ما حصلتَ عليه من كوبنهاغن؟ أنت حتمًا تتكلم كثيرًا بالنسبة إلى شخص ليس هنا ، يقول غيسلي ، لكن أفترض أنك أردت السماع عن اليونانيين مجدّدًا ، تريد الحقائق ، ما عليك إلا أن تنتظر ، إنها آتية ، أعرف جيدًا ما ذاك الذي يدعوه الناس تعليمًا ، أعرف ما يعتبره الناس صحيحًا ، وسأعلّمه ، لن أخيب الظن ، فأنا أكثر جبنًا من أفعل خلاف هذا . إلا أنني أحب فقط أن أفسد الفتى قليلًا ، فهو تربة خصبة مناسبة لذلك . سأعود إلى اليونانيين ، كن متأكدًا ، والآن ما معنى أن يخون المرء نفسه؟ يسأل غيسلي الفتى من غير أن يتريث ليلتقط أنفاسه ، يسأل الفتى الذي يجاهد ليتابع ما يقوله غيسلي ، بينما في الوقت نفسه

يحاول أن ينحي جانبًا أفكاره عن غيرترود ، هذه المرأة المسنّة التي ليست في أي حال من الأحوال مسنّة ، هي الآن تمتطي حصان يوهان وحدها منفرجة الساقين ، بعيدًا عن البلدة . اِسمع هذا ، كان آرني قد قال في كوخ صيد السمك هذا الشتاء ، وهو يقرأ مقالًا من صحيفة إرادة الشعب : السيدات في باريس ولندن ونيويورك توقفن عن ركوب الأحصنة وهن جالسات جانبيًا على السرج ، الآن يمتطينها كالرجال ، وسيقانهن منفرجة! وآنذاك صاح إينار بهياج متقد ، وما الخطوة التالية ، ها ، ما الخطوة التالية ، إلى أين يتجه هذا العالم اللعين؟

يطبق الفتى جفنيه كأنما يحاول استنتاج مخرج سريع : أن يخون المرء نفسه يعني أنه لا يملك الجرأة .

غيسلي : ماذا ، أوه ، حسنًا ، لكن الجرأة على ماذا؟

الفتى : على أن يحيا . ألّا يجرؤ على البوح . ألّا يجرؤ على أن يشعر بالخوف . أن لا يحاول التغلب على . . . العاصفة المظلمة داخله . إذا لم يفعل المرء شيئًا ، يخون جميع أولئك الذين يهمه أمرهم . أعني ، هذا في حال بقي هناك أي شخص يهمه على قيد الحياة . إنما ربما هذا لا يهم ، أعني ، سواء كان الناس أحياءً أو أمواتًا . إذ يجب كذلك ألا نخون أولئك الذين ماتوا ؛ ينبغي أن نعيش لهم أيضًا ، يجب ألا نتركهم في الظلام والصقيع ، ويجب ألا يغيّبهم النسيان في قاع البحر . اِسمع ، يهتف غيسلي ، من أي كتاب اقتبست هذا؟ يخفض الفتى بصره ولا يجيب ، من السخيف جدًا أن يتباهى المرء بمجيئه على ذكر ما له أهمية . ما رأيك في هذا يا صياد السمك الهرم؟ يقول غيسلي وهو ينظر إلى كولبين الذي لا يرد ؛ لا ، أنتَ لست هنا طبعًا ، يغمغم غيسلي ؛ يتغلب على العاصفة

المظلمة داخله ، أمم ، نعم ، أكان هذا في مادة الدستور الثانية عشرة؟ هيالتي من قال هذا الكلام ، عن العاصفة المظلمة . أي هيالتي هذا؟ ساعدني أنا وينز لنقل التابوت من نيس ، كان عامل المزرعة هناك ، ولم ينجح في تجاوز الدرب كلها بسبب الجو العاصف . قلّة من الناس من ينجحون في ذلك ، يقول غيسلي وهو ينظر خارج النافذة .

٩

سمك القدّ الذي سبح في أعماق البحر طوال الشتاء ، بعيدًا عن عالم الرجال ، سعيدًا بقدر ما يسمح له دمه البارد ، هو الآن ملقى مسطحًا ، بلا عمود فقري ولا أحشاء في موقع التجفيف في البلدة ، حيث سيحوّل إلى قُدٍّ مملح . هناك سمك مملح أينما نظر المرء ، والرائحة تشق طريقها بالقوة نحو البيوت كلها ، الغرف كلها ، يُعدّ السمك المملح على أشكال تشبه أجنحة الملائكة ، ويغطي الموقع بأكمله . وإن نظر إليه المرء من الأعلى ، يبدو أشبه بمقبرة ملائكة .

يمضي غيسلي خارج دار غيرترود ، بعد أن أنهى التدريس .

ما يعني أن يخون المرء نفسه ، ما هي الخيانة الأعظم ، الجريمة التي في منتهى الشناعة ، في منتهى الشناعة إلى درجة أنه ليس في وسع الملك أن يعفو عنها؟ ألّا يجرؤ على أن يحيا ، كان الفتى قد أجاب .

الفتى الملعون ، يفكر غيسلي قبل أن يلتقي نسيبه سيغورد الطبيب ومدير مكتب البريد خارج المطبعة ، حيث كان يتفقّد الطبعة الثانية من

الكتيب عن «الرضاعة الطبيعية واستخدام قناني زجاجية ذات حلمات مطاطية» ، الكتيب الذي أصدره قبل ثلاثة أو أربعة أعوام ، والذي كتبه غيسلي وفقًا لما أملاه عليه سيغورد . وذلك الكتيب أنقذ حياة رُضَّع عديدين ، والآن يقف النسيبان هناك ، سيغورد نحيل ومتأنق في ملبسه ، وغيسلي على الرغم من أنه أطول قليلًا يبدو مع تقوس كتفيه البالغ وخموله أقصر منه ، وبنطلونه مبقع . من أين جئتَ؟ يسأله الطبيب . من الجحيم ، يجيب ناظر المدرسة ، أكنت تدقّق في الكتيب؟ سيجهز غدًا ، يرد سيغورد ، لا بدّ من أن تتعشى الليلة معنا . أفي إمكان الملك أن يعفو عن أولئك الذين يخونون أنفسهم؟ يقول غيسلي . أنتَ ، كما تعلم ، مرحب بك دائمًا ، يقول الطبيب ، لكن من الأفضل ألا تأتي مخمورًا . يهز غيسلي كتفيه ، وهذا قد يعني العديد من الأشياء . أمم ، يهمهم سيغورد ، أمم ، يكرر ، ربما ، حسنًا ، ربما يستحسن أن تعرف ، ذكر فريديريك شيئًا عن نيته إرسالك بعيدًا عن هنا هذا الصيف . أهذا لأنني أسأل ما إذا يستطيع الملك أن يعفو عن أولئك الذين يخونون أنفسهم؟ ليس من المستساغ ولا من الملائم لفرد منا أن يترنح مخمورًا في الطرقات ، مبدّدًا ساعة تلو الساعة في سدوم أو في صالة استقبال غيرترود . وإلى أين سيرسلني؟ لديكم قريب حميم في إيافيورير . أليس لدينا أي قريب في باريس؟ لا داعي لأن يكون أولئك الأقرباء جيدين بالضرورة . مُرّ علينا هذا المساء ، حوالي الساعة السادسة ، إذا كنت في حالة مقبولة ، يقول سيغورد وهو يربت كتف نسيبه بمودة وينصرف . ثم يدخل غيسلي المطبعة ، وأصغر عامل فيها يجلس على حافة النافذة ، وقدمه تضخ الجهاز الذي يطبع الكتيب . لماذا أنا هنا؟ يسأل غيسلي آسغير مدير المطبعة وهما يقفان عند مكتب آسغير ، حيث كل

شيء فيه غير مرتب ، كل شيء فيه فوضوي ، لكن ناظر المدرسة يشعر بالتحرّر من الضوء مؤقتًا ، بالتحرّر من نسيبه ، لماذا أنا هنا ، بينما هناك أماكن تحمل أسماء أخرى ، كاسم باريس على سبيل المثال؟

حقًا ، لماذا؟ في الوقت نفسه لا ريب في أن التجول على الجبل لا يمكن إنكار روعته ، لا يمكن إنكار روعة الإطلال من هناك على موقع التجفيف الذي كساه السمك المملح بالبياض ، ببياض ملائكة ميتة ، ورؤية السفن كلها التي تمخر العباب نحو المضيق البحري ، محملة بالسمك ، بالقد ، تأتي ، تفرغ حمولة السمك ، تأخذ ما تحتاجه من زاد ، تأخذ الماء ، ثم تبحر عائدة ، وبعضها يبلغ وزنه تقريبًا سبعين طنًا . وتلك السفن المزودة بمعدات من متجر تريجفي وشركته التجارية يعمل فيها ما يزيد بكثير عن مئتي بحار ، فالصيف كذلك يعج بالنشاط المحموم ، أيام عمل طويلة لمحاسبي الشركة التابعين لفريدريك ، وقريبًا يأتي تريجفي ، يغادر قصره في كوبنهاغن ، وحياة المدينة الصاخبة ، ويقيم هنا معنا على مدى ستة أو ثمانية أسابيع ، يأتي على متن سفينته المحملة بالسلع ، إلا إذا كان قد اشترى باخرة ، مخالفًا بهذا نصيحة فريدريك الذي يفضل التعقل في كل شيء ، واستقبال التطورات الجديدة ببطء ، مع ذلك ، ثمة أخبار غير مؤكدة تنتشر عن اقتناء تريجفي لباخرة ، وهذه مادة دسمة للتساؤل والتحدث عنها . تتدفق المراكب الشراعية من البلدة وإليها ، ويقصد فريدريك مواقع معالجة السمك ثلاث أو أربع مرات يوميًا ليتفقد بقع التجفيف التي تملك الشركة حصة فيها ، يهبط إلى مراسي السفن ، يتفحص الصيد ، يحدّد ما إذا أُفرغ بطريقة صحيحة ، ولم يقذف إلى اليابسة بإهمال ؛ مهم أن يكون السمك سليمًا عندما يجري تسطيحه ، فالملح عندئذٍ يلتصق به على نحو

أفضل ، وبالتالي تغدو نوعية المنتَج أرفع وقيمته أعلى . يدقق فريدريك في كل شيء ، لا يولي أحدًا ثقته التامة ما عدا نفسه ، يتمشّى في الأرجاء ، يجلس في مكتبه ويجتمع بالعمال وصيادي السمك الذين يزودونه بتقارير ويأخذون بالمقابل قليلًا من الرضا عنهم ، من المؤن للمستقبل ، هم الأفراد الذين وقع اختيار فريدريك عليهم ليكونوا عينيه وأذنيه في فسحة التجفيف ، على سطح السفن في البحر ، في الحجرات ، ما يجري الحديث عنه ، كيف يتصرف الرجال ، مَن الذين يراوغون ؛ لديه عيون وآذان في كل مكان ، فهو يريد الاطلاع على كل صغيرة وكبيرة ، لا شيء في نظره تافه أو لا قيمة له . في الصيف لدى الشركة ما هو أدنى بقليل من خمسمئة شخص يعملون فيها ، وطاقم العمال يجب متابعته باستمرار ، ولا بدّ من استنزاف أكبر جهد منه ، التقاعس ممنوع وإلا تسير الأمور بشكل سيئ ، وهذا سينتج عنه خلل في الانضباط ، وهدر للوقت ، والاكتفاء بجريان الأمور كما هي ، وبالتالي تتردى النوعية ، وتتدنى الأسعار ، وتعاني الشركة من الخسائر ، ومعها البلدة ، وكذلك نحن ، وستُظلم الدنيا بأسرها ، ولا يعود يفصلنا عن الحرمان إلا القليل ، بل حتى عن الموت ، إنه حمل هائل يرزح على كتفي فريدريك ، ولذلك يقوم بما يجب عليه القيام به . أولئك الذين تقع المسؤولية على عاتقهم لا يستطيعون أن يسمحوا لأنفسهم بالحذلقة ، برقة الإحساس ، فهذه بلاد قاسية ، الرضا بما هو كائن يقتل ، التنازل يقتل ، والأحلام أيضًا يمكن أن تقتل . فقط أقل بقليل من خمسمئة شخص في البحر ، وهنا على اليابسة . موظفو متاجر ، ورجال ونساء لمعالجة سمك القد ، وكثير من العمال الجوّابين من سنفلسنس ، من مقاطعة هونافاثن ، ومن مناطق أبعد . يأتون في مجموعات على متن

السفن الساحلية ، ينزلون إلى اليابسة ، بعضهم يمشي مترنحًا ، فالإبحار ليس دائمًا لطيفًا ، يتلفتون ناظرين من حولهم ، يعاينون الجبال ، شاهقة وحادة الانحدار كأنها صرخة ، والأرض المستوية لا يكاد يكون لها وجود ، وهؤلاء الناس يسألون بدهشة ، أين المروج الخضراء؟

١٠

الكلمات ليست صخرًا بلا حياة ، أو رميم عظام بيَّضته الرياح في أعالي الجبال . حتى أكثرها إغراقًا في الدنيوية يمكن أن تتطور شيئًا فشيئًا مع مرور الزمن وتنتقل إلى المتاحف التي تؤوي الماضي ، ذاك الذي يولّي ولا يعود مطلقًا . المروج الخضراء ، حقول الحشيش المسمَّدة ، هذه الكلمات تبكينا ، تجعل شيئًا ما ينهش فينا ، تمامًا كما يحدث عندما نصادف صورًا قديمة ونرى وجوهًا فُقدت منذ زمن بعيد في الأرض أو في البحر . أين الأراضي الخضراء؟ نسترجع في ذاكرتنا صباحات الصيف الهادئة ، بالغة السكون والعمق حتى لنكاد تقريبًا نسمع صوت الرب ، بيد أننا أيضًا نسترجع في ذاكرتنا الكدح والأقدام الرطبة والعشب الندي المقصوص حديثًا ، نتذكر الإعياء الرهيب ، نتذكّر ما اختفى ولن يعود أبدًا ، نتذكر بألم بالغ أننا مرة كنا أحياءً ، أننا كنا نستطيع مرة أن نمسك أيدي بعضنا ، أنه كانت هناك مرة تساؤلات طفولية . مرة كنا أحياءً ، وكانت لدينا أسماء ، وفي بعض الأحيان كانت هذه الأسماء تنطق بطريقة تجعل صحراء الحياة تبدأ في الازدهار والتلون بالخضرة . مرة كنا أحياءً ، إنما ليس بعد ، ما يطوقنا الآن يدعى الموت . أين المروج الخضراء؟

١١

أما زال قلبكَ ينبض؟

وكيف ينبض؟

اللعنة على كل شيء . يتسلم الفتى رسالة يُسأل فيها عن نبض قلبه . كما لو أن كونه على قيد الحياة ليس كافيًا لإخضاعه للمساءلة .

يستيقظ كل صباح قبل الساعة السادسة بقليل ، يمد يده ويمسك كتابًا ، قصائد ليقرأها بينما هو ينبثق من أحلامه نحو الصباح الهشّ ، عاقدًا الصلة بين الليل والنهار والأحلام واليقظة بالقصائد ، وربما ليست هناك طريقة أفضل من هذه ليستيقظ بها المرء . مع ذلك لا تذهب تساؤلاته إلى أي مكان ، ماذا يفترض به أن يفعل بحياته؟ وهل تراه يحب راغينهيلد ، راغينهيلد التي قابلها مرتين بعد عودته من الرحلة مع ينز ، رحلة قادته على طول الطريق إلى تخوم آخر العالم ، خلال جو كئيب ، خلال الحياة والموت؟ في المرة الأولى ، التقيا في الطريق ونظرت إلى الفتى كأنه ليس شيئًا ، بل حتى ربما أقلّ من ذلك . ثم في اليوم التالي كان يهمّ بدخول المخبز الألماني عندما خرجت منه راغينهيلد حاملة المعجنات الدانمركية لأبيها فريدريك ،

فالمعجنات الساخنة هي عمليًا الترف الوحيد الذي أباحه لنفسه، ووحدها راغينهيلد مَن يُسمح لها بشرائها. عند ذاك تكرمت واعترفت بوجود الفتى. سمعتُ أنك كدت تقريبًا تهلك أثناء رحلتك مع السكّير، كيف تبيح لنفسك في يوم التفكير في أن تموت قبل أن أغادر إلى كوبنهاغن؟ ينز ليس سكّيرًا، اعترضَ وهو يشعر بقليل من التشوش، عيناها واسعتان جدًّا، عيناها الرماديتان اللتان يمكن أن تكونا باردتين كالصقيع، كدم سمك القد. بينهما يقبع مصيري، فكر، لم يستطع تفادي هذه الفكرة. هذه السترة جديدة، قالت. نعم، أجاب. إنها جميلة، وهم يعرفون كيف يكسونك. هناك نسالة كتان على كتفك، قالت راغينهيلد وهي تمسح كتفه اليمنى.

أما زال قلبكَ ينبض؟ ولماذا؟

الحياة عجيبة؛ فهو بقدر ما يمكن أن ترجع به الذاكرة إلى الوراء، كان تلقي العلم الأرض الموعودة التي تردد صدى ذكرها في ظاهر وباطن رسائل أمه، تعليمه الوحيد إلى الآن اقتصر على تهيئته للتعميد، إضافة إلى شهر واحد من الدروس مع معلم متجول وهو في سن العاشرة أو الثانية عشرة. ومع ذلك كان في وسعه القراءة والكتابة بطلاقة مع حلول الوقت الذي طالب فيه البحر بأبيه، ومارس الكتابة كلما أتيح له بلا أي ضوابط في بادئ الأمر. نقش الحروف على الجليد، على العوارض الخشبية المتفسخة في سقف حظيرة الأبقار، وعلى الثلج. وأهمل بذلك المهمات الرتيبة الموكلة إليه، والعوارض الخشبية بالكاد صمدت أمام وزن الكلمات، وذات صباح عندما خرج الناس من بيوتهم الريفية كان تقريبًا من المستحيل عليهم وطء الثلج بسبب كمية الكلمات الهائلة. في الليلة السابقة حال

ضوء القمر دون أن ينام ، فخرج والليل ما زال مخيمًا وانكب يكتب على الثلج . ولم يُعِده إلى رشده سوى الحرمان من وجبات الطعام واثنتا عشرة جلدة بالسوط على مدى ثلاثة أيام متعاقبة . لم يُجلد بدافع تعمُّد الأذى ولكن بدافع الضرورة ، ففي المقام الأول يعتبر نقش الكلمات على الثلج أو التراب جالبًا للحظ السيئ ، وثانيًا لأنه أهمل مهماته اليومية في هذه الأثناء ، وكيف يفترض أن يعيش الناس في هذه الأرض إذا تقاعسوا عن واجباتهم؟ وماذا سيحدث لك ، قالت أمه آنذاك ، مَن يستخدمك إذا شاع الخبر بأنك كتبت على الثلج بدلًا من الانصراف إلى العمل؟ في هذه الحالة سرعان ما ينتهي مآلك إلى الأبرشية ، وستُركل كما تُركل الكلاب ، لذا تقبّل هذه الجلدات الاثنتي عشرة ، اجعلها تلقنك درسًا ، أنت لا تنالها بدافع تعمُّد الأذى ولكن بدافع الضرورة ، بل حتى بدافع الحرص عليك . الآن ، ينهض ، ينجز مهامًا خفيفة ، يتلقى الدروس مرتين في الأسبوع من غيسلي ، ناظر المدرسة بنفسه ، أوسع الرجال ثقافة في البلدة ، في المقاطعة ، وحتى في هذا الربع من البلاد . وتعطيه هولدا دروسًا في اللغة الإنجليزية ، ومن حين لآخر يتلقى دروسًا في الحساب مع هولدا أيضًا . يستيقظ في الصباح ، يعقد الصلة بين الأحلام والواقع بقصائد الشعر ، الواقع الذي يُشجَع فيه على تحصيل العلم ، ما كان بعيدًا عنه سعى إليه ، ومع ذلك هو يسأل : لماذا أنا حي؟ إلى أين تمضي الحياة؟ ثم ، يتسلم هذا الفتى رسالة .

أما زال قلبكَ ينبض؟

إن كان ينبض فلماذا؟

إنه ينبض كقلب رجل غريق ، كطائر بلا جناحين ، كيف بحق الجحيم ينبغي أن يجيب على هذا؟ من المهم طبعًا أن يتسلم المرء رسالة ، أن يكون

لديه شخص يعتبر أن الجلوس ونظم الكلمات له يستحق الجهد المبذول بينما هو يفكر فيه طوال الوقت الذي يستغرقه في كتابة الرسالة ، تسلُّم رسالة يدل على أن للمرء وجود ، أنه أقرب إلى النور منه إلى الظلام . إنما لا بد من الاعتراف بأن ليست الرسائل كلها جيدة ، وبعضها يجب ربما ألّا تُرسل أبدًا ، ألّا تُفتح أبدًا ، ألّا تُقرأ ، بعضها مدجج بالكراهية ، بالاتهامات ، هي سمّ يجرِّد المرء من قوّته ، وتجلب الظلام والإحباط .

هناك رسالة لك ، قالت أندريا وعلى وجهها تعبير شبه ماكر . رسالة ، هتف بنبرة متفاجئة ، إذ مَن قد يكتب له رسالة ، كتبت له أمه إحدى عشرة رسالة ، وهو يحتفظ بها كلها ، الرسالة الثانية عشرة لم تصل مطلقًا . لعلها من القس كيارتان ، قال بلا مبالاة ، وبحماقة ؛ إذ طبعًا ليس هناك من سبب يجعل القس كيارتان يبعث له رسالة ، ما الذي قد يدفع مثل ذلك الرجل الذكي المتعلم ، مالك تلك الأعداد الكبيرة من الكتب ، إلى إبداء أي اهتمام بوجوده؟ قد تكون من القس كيارتان ، قال وقد دخل لتوِّه إلى المقهى بعد درس اللغة الإنجليزية مع هولدا ، مدعومًا بدرسين سابقين ، المفرد ، الجمع ، المعلوم والمجهول ، طاولة ، طاولات ، تفاحة ، تفاح . أَسَبق أن تذوقتِ تفاحة؟ سألها الفتى بينما هو يكتب الكلمة التي تشير إلى هذه الفاكهة الكروية الغريبة ، والبعيدة عن حياتنا اليومية كبُعد كوكب المشتري . لا ، أجابت هولدا باقتضاب ، مجاهرة بكذبة . فبين فينة وفينة يحصل أبوها تيتور على التفاح من البحارة الأجانب الذين يأتون إلى هنا في أغلب الأحيان ويمكن أن يُدعوا معارف ، لكن قول «لا» أسهل ، أكثر أمانًا ، لا ، هي الحصن الذي يحميها . تقول لا ، ولا يستطيع المرء أن يقترب

منها أكثر . لا ، أجابت هولدا وهي تلقي نظرة على الفتى من خلال شرفات حصنها ، فما كان منه إلا أن قال وقد عجز عن منع نفسه ، أهناك صيغة جمع لكلمة حبّ في اللغات كلها؟ حبّ ، قالت ، محبة . أتُكتبُ هكذا ، نعم ، لكن يجب ألا تكتبها ، فهي ليست من ضمن المنهج . الحبّ ليس في المنهج؟ لا ، فقط تفاح ، أجابت وهي تُطرق برأسها لتُخفي ابتسامتها .

مِن القسّ كيارتان؟ استفسرت أندريا . نعم هو في فيك ، ألا تذكرين ، أنا وينز بتنا عنده في ليلتنا الثانية ، اسم زوجته آنا ، وهي شبه عمياء . حسنًا ، لا ، صعب أن تكون الرسالة منه ، إنها من امرأة ، أو في أدنى الأحوال امرأة ما عنونت المغلف . امرأة؟ هتف بنبرة متفاجئة ، أمم ، أوه إنها إذًا قد تكون من ماريا في فيترارسترند . أخذ المغلف ، ألقى عليه نظرة سريعة وذهل عندما رأى الحروف ، عندما رأى تدافعها ، كما لو أن كانت تتعثر ببعضها . إنها تتعارك ، قال . ثم أضاف موضحًا عندما سألته أندريا ، ماذا؟ أعني الحروف . ما يدل على أنها متلهفة جدًا ، أليس كذلك؟ أردفت وهي تبتسم للفتى الذي طغى وجيب اضطراب قلبه على أي صوت آخر وبالكاد سمع أي شيء . ماريا لن تكتب مطلقًا بهذه الطريقة ؛ هي طبعًا مشبوبة العاطفة ، النيران تشتعل في داخلها ، وأحيانًا تبكي بسبب شيء تتوق إليه من غير أن تدرك ما هو ، تشعر فقط أنها تفتقد شيئًا ، وحينذاك يضمّها يون ، عناقه دافئ وقوي ، بيد أنه لا يطوّق الأفق . لا ، ماريا حتمًا ستكون أكثر دقة ، فهي لا تُظهر إلا الأفضل ، وكانت ستجعل الحروف أصغر لتوفر المساحة ؛ ولا تعرف أي طريقة أخرى غير ذلك . عاين المغلف . نعم ، قال ، يبدو أنها تتقد حماسة ، فكيف ينبض قلبها يا ترى؟ باندفاع بالغ

بحيث تُرغم آكلات العشب في إفريقيا على رفع رؤوسها ، أو بتهور طاغ إلى درجة أنه يجعل الطيور المحلقة تخرّ أرضًا . حسنًا ، يمكننا أن نراجع درسَي الإنجليزي فترة من الوقت ، قال الفتى لأندريا ، التي واجهته بابتسامة عريضة ، باعثة الدفء في الفتى بتلك الابتسامة ، باعثة فيه الكثير من الدفء بحيث وجد نفسه قادرًا على الجلوس إلى الطاولة ، ومراجعة المفرد والجمع في اللغة الإنجليزية من غير أن يجنّ جنونه من نفاد الصبر ، جلس بسكينة ، وما بين حين وآخر انحنى مائلًا أكثر قليلًا نحو أندريا ، فمنها تنبعث تلك الرائحة الدافئة والممتزجة برائحة عفونة طفيفة من غرفتها التي في القبو ، مسدت خده مرتين بأصابعها المرهقة . فهذان المخلوقان هما معًا موغلان بعيدًا جدًا في بحر الحياة المريب ، ومطوّقان بتيارات جسيمة . استنشق رائحة أندريا والرسالة ارتعشت عندما لامست جسده .

والآن ها هو جالس في غرفته . أينبض قلبكَ؟

١٢

«أما زال قلبك ينبض؟ وإن كان ما زال ينبض فكيف؟ أنا جالسة إزاء جدار البيت ، البيت الذي ارتطمتَ به ، أنت والرجل العتيد ؛ ينز . الدنيا مشمسة وكل شيء رطب جدًا . الأقدام تتبلل من مجرد النظر إلى الخارج . لكن الآن الشمس دافئة . يمكن أن نقرّ لها بذلك . الجليد يذوب متغلغلًا في الأرض ، وهذا سبب تخضلها بالماء ، كما لو أنها تبكي . أنا جالسة على كرسي صغير ، وأحضرت كتابًا لأقرأ ، وما كنت أنوي الكتابة لك ، الكتاب طويل جدًا . اسمه الأوديسة ، وهو بالغ القِدم . قالت شتاينان إنه كتاب كلاسيكي ، وأتوقع أنك مطّلع عليه . فهذا ما أنت عليه . لاحظت ذلك فورًا . ما يعني أنك لا تجهل أنه عن رجل يحاول العودة إلى دياره ، لكن المآل ينتهي به إلى مختلف أنواع المغامرات والكوارث . وفي هذه الأثناء على زوجته أن تكابد انتظاره وحيدة ، ولو أنها في قصر ولديها ما يكفي لتقتات به ، الجو دافئ هناك ولا أحد يُدفن تحت الثلج . مع ذلك ، قد لا تكون الحياة في ذلك المكان أيسر ، لعله ليس من السهل الترقّب والانتظار بلا تيقن ، حتى وإن كان الجو لطيفًا والبيت لا يرشح . لا يجدر بي التفكير

أنه في أي حال أسهل . عليها فقط أن تنتظر من غير أن تعرف أهو ميت أم أنه غير مخلص لها . هي تنتظر فحسب ، رابطة الجأش وصابرة ومخلصة ، بينما هو يواجه المغامرات . وبعد ذلك أُلف كتاب عنه . ولا داعي لأن تخبرني عن النساء . لا داعي لأن تخبرني عن الرجال . ثم خطر في ذهني أن أكتب لك رسالة . أظن أنني فكرت فيك ، لا بد من أنني قد فعلت ، وهذا لا يوجب بالضرورة تضمينه أي مغزى . فأنا على سبيل المثال أفكر أيضًا في الجليد الذي يذوب متغلغلًا في الأرض ويجعل كل شيء رطبًا ، يُغرق أقدامنا بالماء . لكن ليس قدميك ، أنت الذي تقتني حذاء في منتهى الجودة ، والناس هنا ما زالوا يأتون على ذكره ، ثم هناك أيضًا تلك الجزمات الأمريكية التي من الواضح أنها تبقي الأقدام جافة إلى الأبد ، مع أن الكثير من الناس هنا لا يصدقون ذلك . لكن ، حتى وإن كنتُ أفكر فيك ، فهذا حتمًا لا يعني شيئًا . كثيرة هي الأفكار التي تدور في أذهان الخلق في آيسلندا ، منذ أن ترسخت قواعدها قبل ألف سنة . مع ذلك ثمة أشخاص لا يبدو أنهم يفكرون في أي شيء أبدًا ، أبدًا بكل بساطة . هل لاحظت؟ تعابير مثل أولئك الأشخاص تذكرني بقش متعفن لا نفع فيه . يستحسن أن أكفّ عن الخوض في هذا الآن . أحيانًا أفكّر أيضًا في عربة حصان ، في الهررة وكوكب المشتري ، هذا الكوكب الهائل في حجمه إلا أنه ما زال مجرد نقطة ضوء صغيرة في السماء . أفكر أحيانًا أيضًا في المطر في الصين الذي أفترض أنك على دراية به . أفكر في مختلف أنواع الأمور . لذلك حتى لو كنت أفكر فيك ، فهذا ليس شيئًا مميزًا . أنا جالسة على مقعد صغير ، لا ، سبق أن ذكرتُ ذلك . الثلج يذوب عن الجبال التي ترتفع أمامي . أترى كم هو ضئيل ما يحدث هنا . الحياة هنا ليست إلا ثلوجًا

تذوب وصقيعًا . أثمة عجب إذًا أن يخطر في ذهني أن أكتب لك رسالة؟ علمًا بأنني أكذب . فالحياة هنا ليست فقط مجرد ثلج يذوب وصقيع . إذ على سبيل المثال ، يكون مدير المتجر سيغردر مخمورًا جدًّا في بعض الأيام أكثر من أيام أخرى . أمس عجز عن الوقوف على قدميه . وما قبل الأمس كان في منتهى الحيوية ما اضطر زوجته إلى حبسه في البيت . يبدو أن لديها حيلة ما أو أخرى لتبقيه في الداخل عندما يصبح هذا ضروريًا . وهيالتي ذاك الذي كان يرافقكما لم يُعثر عليه بعد . أرسل الطبيب وزوجته بعض الرجال إلى نيس . أي مكان يفترض أن يكون ذاك ، هذا ما قاله الرجال عندما وصلوا إلى هناك ، وهم لم يعثروا على أي هيالتي لكن قالوا أيضًا إن أهل البيت على ما يرام . يمكن أن يكون الناس في منتهى الغباء ، إذ ربما رأوهم يقفون منتصبي القامات ولكن طبعًا ليسوا على ما يرام . لعله يجدر بي أن أذهب إلى هناك ولا أعود أبدًا؟ أتراك تعافيت؟ أنتما الاثنان لم تبدوا في صحة جيدة عندما غادرتما . فالبرد كان ما يزال متغلغلًا فيكما ، وخصوصًا في الرجل الكبير ، ينز . لقد نجح في عبور الطريق كلها إلى البيت . وسُرّت أخته بطريقة لا يمكن أن توصف . هي أفضل منّا إلى حد كبير ، استنادًا على ما سمعته عنها . ترى الآن أنني وصلت إلى نهاية الورقة ، وما عاد فيها أي متسع . ولا يمكن أيضًا أن أصرف مزيدًا من الوقت على الرسالة . أعرف أنني لا أُحسن الكتابة ، لا حاجة لأن تخبرني بهذا . حروفي قبيحة ومخلخلة مثل دجاج عجوز .»

١٣

أُفكّر فيكَ أحيانًا . الانطلاق مشيًا من البلدة إلى بُسط الحشيش الطرية لطيف ، يستلقي المرء بينها ويشعر كما لو أنها تعانقه . والفتى مستلق عليها ، يتأمّل السماء . أفكر فيكَ أحيانًا . ثم خطر في ذهني أن أكتب لك رسالة . أظن أنني فكرت فيك . يستلقي هناك فترة طويلة جدًّا إلى درجة أن الطيور ألِفَته ؛ وحتى طائر الطيطوى هدأ . لكن أحيانًا أفكر أيضًا في عربة حصان ، في الهريرات وكوكب المشتري ، هذا الكوكب الهائل في حجمه إلا أنه ما زال مع ذلك مجرد نقطة ضوء صغيرة في السماء . أفكر أحيانًا أيضًا في المطر في الصين الذي أفترض أنك على دراية به .

تتصدى له هيلغا بخشونة عندما يعود ؛ ما معنى اختفاءك هكذا ، ثمة أعمال يجب إنجازها هنا . يجيب الفتى بتمتمة مطلسمة ، شاحبًا وفي منتهى الارتباك بحيث تكتفي هيلغا بقول حسنًا ، وترسله إلى المقهى . بدا الأمر كأنها تدرك كيف يشعر ، كأنها تفهم رهافته . الرهافة هي حلمي الأصدق ، تقول قصيدة قديمة ، بيت شعر يشرق عبر الزمن ، وهذا صحيح ، فالرهافة جوهر الإنسان ، وتعتمل فينا بقوة عظيمة في الربيع عندما يكون

الوجود عند رأس إبرة الحياة والموت . تغريد طائر الزقزاق ، ذلك الصوت المحزن يذكرنا بها ، وما بين حين وآخر نباغت بسماعه ، وهذا ما دفع أولافر إلى أن يجلس وهو في الجبل ، في البَرَد ، ويبكي . كان لا بدّ من أن يبكي ، فقد استشعر حلم الإنسان الأصدق ، واعيًا في الوقت نفسه بالمسافة بين حلمه وبين العالم الذي أنشأه . ويحلُّ المساء .

إنه المساء ، والطقس متقلب . أولئك القادرون على ملازمة بيوتهم هم في البيوت ، يستمعون إلى الريح ، يطالعون صحيفة إرادة الشعب ؛ الآيسلنديون ، تقول الصحيفة ، يظهر أنهم أقسموا يمينًا عظيمة بأن يعيشوا في مستوى يفوق حدود مواردهم المادية ، وسيطرة التجار تتحكم بهم ، وبالتالي يموتون وهم يرزحون تحت وطأة الديون . يتحكم التجار بأيامنا أينما نسمح لهم بذلك . وإذ يعتقد الناس أنه قانون ثابت لا يتآزرون ، بل يعيش كل فرد من أجل نفسه فقط . وتبعًا لهذا ، نحن على الدوام تقريبًا نصطاد السمك مستخدمين صناراتهم بدلًا من استخدام تلك التي تعود لنا .

يمتلك سكولي سهمًا في إحدى السفن الشراعية ، وحماه مزارع غني في منطقة خصبة إلى جنوب الجبال ، وفي وسع سكولي أن يثير حفيظتنا بقلمه ، بما أن ما يمكن أن يخسره قليل ، وهذا مختلف عن وضعنا ، فنحن نعتمد اعتمادًا كليًا على التجار ونواياهم الحسنة . مع ذلك ، ممتعة قراءة مثل هذه الأشياء ؛ فهي تدغدغ ، تثير ، تشبه قليلًا انطلاق الأطفال إلى مكان ما ليتلفظوا بكلمات نابية . جيد أن أحدًا يوجه للناس التبكيت ، جاعلًا إياهم يرتعشون قليلًا .

يجب أن تحصل الكلاب على فرصة لتنبح بين حين وآخر ، يقول فريدريك ؛ وبالتالي تصبح فرصة هجومها لتعضّ أحدًا أقلّ . إنه المساء ،

مساء شديد الريح، مع رشقات من المطر، فتْح النوافذ أمر مستبعد، ودخان السيجار يفعم بكثافة غرفة نوم فريدريك الرئيسة، غرفة فسيحة جدًا تبدو أقرب إلى صالة استقبال. هناك ستّة منهم: فريدريك والقس ثورفالدر والدكتور سيغورد، ويون وكيل متجر ليو وشركته التجارية، والقاضي ليريس وكذلك هوغني رئيس المحاسبين في متجر تريجفي وشركته التجارية ومدير مصرف التوفير الذي أُسس قبل ثلاث سنوات؛ ويفتح ساعة يوميًا لتصريف الأعمال، خمسة أيام في الأسبوع. استهل ليريس الحديث عن إحدى مقالات سكولي. إنه يصبح أكثر فأكثر عدوانية، قال القاضي قبل أن يأتي على ذكر مقالات أخرى مختلفة، وببساطة تركهم فريدريك يتكلمون، سمح لهم أن يعربوا عن قلقهم. لقد أصبح مصدر خطر، قال سيغورد الذي يجلس دائمًا مستقيمًا جدًا. صحيح، يوافقه يون بحماسة وهو يأخذ نفسًا من سيجاره، إن سكولي هو ما يسمونه باللغة الدانمركية الطائر المؤذي، المخلوق الفظّ، فيبتسم الآخرون مستظرفين ما قاله، إذ بدا لهم كما لو أن زوجته توفّه كانت تتكلم من خلاله. ثم يُفتح الباب وتدخل خادمة جالبة مزيدًا من القهوة، تعيد ملء فناجينهم، وتزيد كمية الكونياك في أقداحهم؛ هي يافعة، تتحرك بليونة مثل عشبة في الماء، لا ترفع عينيها أبدًا، ولا يتسنى لهم إلقاء نظرة جيدة على عينيها، هذين الحجرين الأزرقين، وهي لا ترتبك من تحديقهم وهم يراقبونها بينما تشق النار بفحيح خفيف طريقها إلى رؤوس سيجاراتهم الغليظة التي يدخنونها، لكنها مسرورة لخروجها من هناك. إنها على أقل تقدير قطعة فنية رفيعة المستوى، يغمغم ليريس، ويوافقه سيغورد بينما لا يقول ثورفالدر شيئًا، لقد راقبها هو الآخر، وتلك كانت خطيئته. عندئذ يقول فريدريك وهو

يلوح بيده كأنه يزيح الصبية جانبًا ، يزيح شبابها ، والهياج الذي شعروا به كلهم ، يجب أن يُسمح للكلاب بالنباح ، وبالتالي تصبح فرصة هجومها لتعضّ أحدًا أقلّ . لكن سكولي أصاب كبد الحقيقة ، وإن كان ما أصابه عكس ما نريد ؛ معظم الناس ينفقون فوق حدود مواردهم ، كما هو مشهود من سجلات حسابات الشركات ، وعدد كبير جدًّا من الناس يموتون وهم غارقون في الدين ، ولهذا السبب ينبغي علينا أن نبقي يدًا حازمة على الأشياء ، وإلا سيشبه المجتمع سجلات حسابات أهله ، لا شيء فيه سوى الديون . لكن لا تقلقوا من سكولي ، هو ليس مشكلة ، إنها غيرترود التي علينا أن نقلق منها . سكولي لا يخفي شيئًا ، فهو مكشوف ، أما هي فباطنية ، وأكثر فطنة ، تثير الضوضاء ، وفاسدة أخلاقيًا بكل بساطة . ألا تتذكرون كيف وضعت يدها على حصة كولبين عندما فقد بصره ، وكسبت ملكية كبيرة في إحدى أفضل سفن البلدة بدعوتها له ليقيم عندها؟ إن إطعام بائس أعمى لديه مال وافر لا يكلف كثيرًا ؛ ثم أين يفترض أن يذهب هذا المال عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ إنها ذكية وتُحسن استغلال الفرص . وقد وضعت يدها على سهم سنوري في مخزن التبريد بسعر التصفية قبل سنتين ، قذفت له مبلغًا زهيدًا ، وكان وما زال من الرجال الذين لا يُملون شروطهم ، وقد ابتهج كثيرًا بالتأكيد لحصوله في أدنى الأحوال على شيء مقابله ، بينما عملت على إحكام الخناق حول رقبة اللقيط المنحوس ، وهو الآن على الأرجح قابع ينتظر عودة سفينته الأمل ، إذا لم تكن قد ضمنت الاستيلاء عليها بعد . طبعًا ، وفق ما يمليه عليها هواها ، يختتم فريدريك . أيضع تريجفي عينه على أملاك سنوري؟ يسأل يون ؛ لأن عليه أن يسأل ، طُلِب منه أن

يسأل . ينظر إليه فريدريك ، يدخّن ، والمطر يقرع البيت ، إنها أمسية من أمسيات حزيران .

هو مطلع شهر حزيران ، إلا أن الفضاء ما زال قاتمًا بين الجبال . الجو كئيب . والريح تزداد نشاطًا ، وأكوام السمك المملّح مربوطة بإحكام . لا يكاد يكون هناك أحد يسعى خارجًا في هذه العاصفة ، بالمقارنة مع روعة بداية النهار ، السماء مترعة بالشمس والوعود الزرقاء ، بالسكينة والراحة ، وتغريد الطيور مسموع من شتى الأرجاء ، لا شيء يعكر صفوه في الفضاء الساكن الشفاف . والذباب يطنُّ ويحوم بين الأزهار والعشب ، السمك المملح مغطى في البقعة الخاصة بالتجفيف ، والكثير قد تحول أخضر وجميلًا في الجبال . بل في البلدة نفسها ، كل شيء كان في هرج ومرج ، وبطبيعة الحال لم يخل الأمر من الصياح والنداء والضحك والشتائم وأيادٍ تعمل . كان لولي وأودور في مخزن سفينة يفرغان حمولتها ، وقبطانها مضى ممتطيًا حصانًا مع غيرترود . أنا قد أقع في غرام هذه البلاد ، قال . وانطلقا ميمِّمين مرجًا ، انحدرا نزولًا نحو مضيق صغير آخر ، إلى وادٍ معشوشب خالٍ من الناس .

ثمة موضع مستتر جيد هنا ، قالت غيرترود ، فألقى عليها نظرة طويلة قبل أن يقول أنه قد يقع في غرام هذه البلاد . كان كل شيء يتحول إلى أخضر ، وخلال بساط الأعشاب كل شيء ساكن وهادئ ، بين أنصال الحشيش ، بين الجبال التي استقطبت أشعة الشمس وأشرقت . في أيام كهذه يبدو كما لو أن تغريد الطيور قادر على شفاء الجروح في أعماقنا . يستلقيان على العشب مدة طويلة ، عثرا على بقعة غائرة ، أولئك الذين يعثرون على بقعة غائرة جيدة خلال الصيف الآيسلندي لا يمكن أن

يتذمروا ، يعرفون أن النعيم بانتظارهم ، هذا إذا تركهم الذباب بسلام . تمايلت أنصال الحشيش بخفة لا تُلحظ تقريبًا ، مثل صفوف رجال دولة موقرين ، وزقزقة الطيور شفت الجراح . من المحتمل أن أقع في غرام هذه البلاد ، قال القبطان ، قبل أن يضيف ، ويمكن أن أقع في غرامك بسهولة . يقول الرجال أروع الأشياء قبل أن يُشبعوا رغباتهم ، أو بينما هم يشبعونها ، كل ما يُهمس به ، العبارات اللاهثة ، الوعود العميقة ، يثبت أنها ضحلة ولا تساوي إلا القليل عندما يقال كل شيء وينتهي كل شيء ، تبلغ هزة الجماع ذروتها وتنتهي ، ولا يعود القضيب منتصبًا ومرتعشًا بالحماسة والتعطش إلى الحياة ، بل يغدو متراخيًا ، مجرد خرقة جلدية متدلية بين السيقان . وتلك اللحظة مرت ، لحظة قال إنه يمكن أن يقع في غرامها . استلقيا ونزعا أي ثياب أعاقتهما ، كان شغفًا عصيًا على القيد ، كان احتدامًا ، والسماء شهدت عليه ، وأنصال الحشيش شعرت به ، الجبال سمعته ، والطيور القريبة منهما بوغتت . كانا مثل حيوانين بريّين ، كانا جميلين ، لكن الآن انتهى كل شيء . دخّنا ، رشفا الكحول من قارورة ، تأمّلا أنصال الحشيش ، والسماء والجبال والطيور ، والقبطان قال إنه يمكن أن يقع في غرامها .

استكان مستلقيًا ورأسه في حضنها ، وهي داعبت شعره ونحّته بعيدًا عن جبهته ، عن عينيه ، هاتين العينين الصافيتين ، نحّته عن ذلك الوجه الجميل والمتناسق ، داعبت الشفتين اللتين تتقنان التقبيل جيدًا ، وتعرفان كيف تنطقان بكلمات من المبهج سماعها . أعرف ، قالت . وأنتِ يمكن أن تقعي في غرامي ، قال ، سأل ، توسّل . المرأة العاشقة امرأة بلا سلاح ، أجابت ، وأنا لا أستطيع المجازفة ، ثم إنك متزوج وتحب زوجتك ؛ وستظل

تحبها . أيمكن أن تكوني ذات طبيعة قاسية؟ لا ، لكن ليس أسهل على الحياة من أن تكون كذلك . عندئذٍ تملّكه الحزن ، أشبه نوعًا ما بحزن طفل ، هذا الأجنبي الصنديد ، قبطان سفينة مهمة ، تلك التي يعمل لولي وأودور على إفراغ حمولتها بينما هو مضطجع على بساط العشب مع غيرترود ، تحت السماء الزرقاء . هل تسنى لك أن تلفّ ذراعيك حولها؟ كرّر لولي ، مضطرًا إلى تشديد الضغط على رفيقه ليحصل على جواب ، وأخيرًا أجاب أودور ؛ ابتسم .

أيمكن أن يحبّ الرجل امرأتين؟ قال القبطان . أتوقّع ذلك ، أجابت وأصابعها الطويلة متغلغلة في شعره الكثيف ، وربما بدرجة أكبر إذا كان هناك محيط بينهما . لكنك لا تعرفني يا جون ، أنا مجرد ترويح عن النفس ، مغامرة صغيرة في رحلة بحرية طويلة ، مغامرة قاتمة قليلًا تنتظرك هنا عند آخر العالم ، بين هذه الجبال الشاهقة ذات الانحدار الشديد التي تحجبنا عن الأعين . أنت لا يمكن أن تحبني ، ليس إن عرفتني جيدًا ، ولازمتني يوميًا ، قلبي عضو يخفق لأن هذا ما يستوعبه فقط . أنا بحر يا جون ، وكما يضمن لك البحر الحرية فترة وجيزة ، أمنحك المغامرة ، لمسة خطيئة ، في الوقت نفسه ، أولئك الذين يتمادون في المجازفة ويخترقون مثل هذه البحار ، ولمدة طويلة ، لا يعثرون إلا على الغربة والموت .

أنَّ طائر شنقب على مقربة منهما ، وردّ عليه زقزاق بنداء محزن . أأنتِ في منتهى التعاسة؟ سألها برقة ، سألها بحنان . تحتاج إلى اختبار السعادة يا جون لتفهم التعاسة ، ولا تنظر إلي هكذا ، لا داعي لأن يواسيني أحد ، ليس هناك ما يستدعي المواساة ، الحياة إما نصر أو هزيمة ، وليس سعادة أو تعاسة ، وأنا أنوي أن أكون منتصرة بطريقتي الخاصة . كيف تكونين

منتصرة بلا سعادة؟ قال قبطانها ، جون أندرسون ، وهو يمسد عينيها بيديه الكبيرتين ، يمسد برقة ، يمسد كما يمسد الرجل شيئًا يعني له الكثير جدًا . أخذت يده ، عضتها برفق بأسنانها المفترسة ، أخبركَ غدًا ، أو أهمس لك بالجواب ، أما الآن فقد بدأت أشعر بالبرد . نظرا إلى السماء ، زرقتها اكفهرت ، والعاصفة التي ما فتئت تخبط بيت فريدريك كانت تقترب . لكن إذا كنت تريد ، أضافت ، وإذا كنت قادرًا على تدبر الأمر مرة أخرى ، أنا مستعدة . فقط إذا سمحتِ لي أن أحبك ، أجاب .

يمكنك أن تفعل ، لكن اترك حبّك خلفك عندما تبحر بعيدًا ، اتركه هنا بين الجبال .

الحبّ ليس شيئًا يضعه المرء جانبًا .

بلى ، الحبّ كذلك ، قالت وهي تفك أزرار قميصها ، فكّت أزرار قميصها وهو رأى نهديها الأبيضين النيرين ، هذين النهدين اللذين يمكن أن يمعن في تأملهما إلى ما لا نهاية ، اللذين طارداه بعيدًا في البحر ، على طول الطريق إلى إنجلترا ، هذين النهدين ، تلك البشرة ، تلك الرائحة ، هاتين الساقين الطويلتين اللتين تطوقانه بإحكام ، والشعر ذي السواد الفاحم المتهدل مثل الظلام على الخلنج الأخضر والحشيش ، وهذه الكلمات المبحوحة التي تمتمتها في أذنه . فقط إذا سمحتِ لي أن أحبك ، همس بسعادة ، همس بنبرة يائسة . هذا سيكون تعاسة وموتًا فحسب ، ردت همسًا قبل أن تخفض رأسه بقوة لتمنعه من رؤية وجهها ، من رؤية العينين السوداوين اللتين تنظران إلى السماء . تلك السماء المغرقة في البعد بحيث تبدو أحيانًا أنها عاقبت الإنسان بالعزلة .

السماء الآن قلقة ومثقلة بسحب سوداء متسارعة . إنه الصيف ، بيد أن الجو المنذر بالسوء يخيم علينا . يخيم علينا في شهر حزيران الذي يكون في بعض الأوقات بالغ الإشراق بحيث يبدو أننا نستطيع أن ننظر إلى صميم وجودنا لنرى الخلود ، نراه لطيفًا وهائلًا في المدى . عاصفة ، في شهر آخر غير حزيران ، يمكن بالتأكيد أن تعاملنا بشيء من الإنصاف .

تبعثر الريح البحر وكل ما ليس محكم التثبيت يتطاير : العربات التي تدفع باليد ، المجارف ، الوعود ، وسامحني لكنني ما عدت أحبك ، مزقت الريح حبي وانتزعته مني ، نسفته نسفًا كاملًا . تقف الخيول عند الأراضي السبخية ، في بعض المواضع مكشوفة تمامًا ، تستدير مولية ظهورها للريح التي تسوط المخلوقات ، تترك نوبة الغضب تتجاوزها ، تحملق أمامها ، تتطلع بشوق إلى أن ترعى مجددًا . والمطر يخبطها بعنف ، ويخبط نافذة الصالة الكبيرة في دار غيرترود ، وأربعتهم يجلسون في الصالة ، الفتى تحت مصباح خافت ، فالمرء يجب أن يشع عليه ضوء ليرى الصفحات ؛ إلى أين رحل الضوء ، من أخذه ، أعيدوه ، نحن لا نستحق هذا .

يجب أن يرفع صوته بعض الشيء ليسمعه الثلاثة ، لأنه ينبغي أن تنجح الكلمات في العبور إليهم ، هذا ما هو عليه الشعر ، تلك هي القواعد ، هذا ما ينبغي أن يكون ، ما يجب ، الكتابة حرب وربما يختبر المؤلفون الهزيمة أكثر من اختبارهم النصر ، على هذا النحو فقط تجري الأمور ، كان غيسلي قد أوضح ، متفانيًا في التفسير ، وعيناه تومضان بالبريق كما لو أنه حيّ حقًا . قرأ الصفحات الخمس التي ترجمها الفتى من قصة مدينتين للسيد ديكنز . تلك كانت أفضل الأوقات ، تلك كانت أسوأ الأوقات . ثمة بضعة أخطاء في هذه القصة ، بضع هزائم ، جاعلة مهمة المترجم أشد صعوبة

ولكن جاعلة إياه أسعد . لم ينبس الفتى بكلمة ، والصفحات الخمس أمامه ، بعضها علّمه غيسلي بكثافة ، الترجمة ، المعاناة ، التعرق ، البهجة ، التنقل المرهف بين اللغتين ، كل ذلك مُزّق بتعليقات مدير المدرسة الذي تكلم وتكلم ، نظر الفتى إلى الأوراق وغلى الغضب فيه . مؤكد أنه سيكون من اللطيف أن يكور الأوراق ، يصنع منها كرة كبيرة ويقحمها في حنجرة غيسلي ، ذلك النفق المظلم . لا داعي لأن تجعل إطرائي يعشش في رأسك ، الزهو سمّ ، قال غيسلي ، وصوته أصبح فجأة خشنًا . إطراء؟ هتف الفتى ، مبتسمًا من غير أن يدرك ، وعيناه ما زالتا تنظران إلى الصفحات المصححة ؛ إطراء ، كرّر ؛ أيمكن أن يُدعى تمزيق عمل أربًا إطراء ، عمل ضمنه المرء كل ما لديه ، قلبه ورئتيه وأنفاسه؟ يلتفت الفتى ناظرًا بدهشة إلى كولبين الجالس إلى جانبه ، عيناه مغمضتان كأنه نائم ، بيد أن أذنه اليسرى متجهة نحوهما تلتقط كل كلمة . نعم ، قال غيسلي ، أنا أدعوه إطراء بقولي إنك أنجزت عملًا جيدًا جدًا ، في بعض المقاطع أُنجز بدقة متناهية ، أمر غير عادي بالتأكيد بالنسبة إلى شخص جاهل ، وأنا أدعو هذا إطراء ، ألا تدعو ذلك إطراء مني يا كولبين؟ رفع صوته ونظر إلى الربان الذي لم يقل شيئًا ، لم يصدر عنه أي رد فعل أبدًا . مناسبٌ تمامًا ، تمتم غيسلي ، أنت لست هنا ، يا لها من موهبة رائعة أن تقدر على التلاشي هكذا ، موهبة نادرة ، ينبغي أن تعطيني دروسًا فيها . أنا لم أسمعه ، الإطراء أعني ، قال الفتى بنبرة معتذرة ، لم أرَ سوى أنك وضعت ملاحظات على كل شيء ، وبدا لي أن العمل ليس جيدًا . أهذا كما تقول ، أهذا ما ظننته؟ نعم . لكن ما كان يفترض بتلك الابتسامة أن تعني إذًا؟ جنح بي التفكير فقط . التفكير في ماذا ، ما الذي رأيته مسليًا جدًا؟ حسنًا ، قال الفتى بصوت مُحرَج ،

أنه سيكون من المسلي أن أحشر الأوراق في حنجرتك ، وعلى هذا الجواب ضحك كولبين ، أو على الأقل أصدر ضجة تشبه ما يصدر عن كلب عجوز غريب الأطوار صادف شيئًا مثيرًا للاهتمام ، على نحو غير متوقع : شريحة لحم جيدة ، رغبة جنسية ذاوية .

يقرأ الفتى الأوراق ، نجح في إعادة كتابتها في الوقت المناسب ، آخذًا باقتراحات غيسلي ، بتصحيحاته بالنسبة إلى الجزء الأكبر من النص ، يقرأ بينما يخبط المطر العالم ، يخبط الدار ، يخبط الخيول ، والريح تمزق البحر . يقرأ ويحاول أن ينسى أن البحر الآن يخترق الجسور ، مغرقًا الأرض بالسيول ، وكي تسوء الأحوال أكثر هناك تلك العاصفة ، كما لو أن المراد منها معاقبتنا لأننا استمتعنا بالضوء ، استمتعنا بوداعة الصيف .

في هذا النص طاقة ، تقول هيلغا بعد أن أنهى الفتى قراءة الصفحات الخمس ، تلك الكلمات التي وجدها في اللغة واستعملها ليبني جسرًا بين اللغات ، كي يستطيع هو والآخرون أن يتلمسوا العوالم البعيدة ، يتلمسوا الحياة والمشاعر ، يتلمسوا ما يوجد في الآفاق التي ما كنا على دراية بها . من الصعب بمكان ، كان غيسلي قد قال ، وصف أهمية الترجمات . فهي تغنينا وتوسع مداركنا ، تساعدنا على استيعاب العالم بطريقة أفضل ، تساعدنا على فهم أنفسنا . الأمة المُقلَّة في الترجمة التي لا تركز إلا على أفكارها ، هي أمة مقيدة ، وإذا تبجحت بتعداد سكانها الضخم تصبح مصدر خطر للآخرين أيضًا ، لأن معظم الأشياء مجهولة لها باستثناء أفكارها الخاصة وتقاليدها . الترجمة توسع مدارك الناس ، وبالتالي العالم . تساعدك على تفهُّم الأمم النائية . وعندما يتفهم الناس تتضاءل كراهيتهم أو يقلّ ما يخشونه . التفهّم يمكن أن ينقذ الناس من أنفسهم . يواجه

الجنرالات وقتًا صعبًا ليجعلوك تقتل إذا كنت متفهمًا لمجريات الأمور. الكراهية والإجحاف، أقول لك، هما خوف وجهل؛ في وسعك أن تدوّن هذا.

وهذا ما فعله، دوّن كل شيء، ثم صعد إلى غرفته وصحح الترجمة، وها هو الآن يقرأها لهم؛ قرأها بينما العاصفة تدكّ الدار، والمطر يجلد البلدة والخيول والخراف والأرض ويحوّل ضوء حزيران إلى ظلام. ينهي قراءته. في هذا النص طاقة، تقول هيلغا. صحيح فيه طاقة، توافقها غيرترود وتنظر إلى الفتى. حتى كولبين يبدو أنه يغمغم بكلام ما يمكن تفسيره كإطراء، ذاك البخيل الذي ما زال لا يسمح للفتى بدخول غرفته ليتفرج على مكتبته، بكتبها الأربعمئة، ناهيك عن السماح له باستعارة أحدها، وعلى الرغم من أن الفتى يأمل يومًا أن تتغير الحال، لن يطلب منه ذلك فجأة وبلا مقدمات أبدًا، أبدًا في حياته، فللرجل كبرياؤه. يجلس في الصالة، بعد أن أفلح في إنجاز شيء. فعل ما هو مهم، فعل شيئًا إلى جانب انتشال السمك من أعماق البحر، واستخراج الخث، وتكديس التبن في الحظائر، والآن بينما السماء تزلزل بالعاصفة والسفن تناضل ضد الموت، يشعر الفتى كما لو أن له أهمية. هو الذي أُطلقت عليه تشكيلة مختلفة من الأسماء منذ أن غرق أبوه قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة، هو الذي ينسى كل شيء، لا يتذكر شيئًا، وبالكاد يلاحظ أي شيء، ينسى الأشياء ويفقدها. كنت ستفقده منذ زمن طويل، قالت له العجوز في المزرعة حيث نشأ بعد أن مات كل من يفترض أن يكون قد بقي حيًا، كنت ستفقده منذ زمن طويل، ذاك المتدلي بين فخذيك، لو أنه لم يكن مربوطًا بك. دُعي أبلهًا، مغفلًا، أخرق، غبيًا، أحمق، مخنثًا،

سفيهًا ، جبانًا ، وَغدًا ، رعديدًا ، حثالة ، ومتشردًا ، اللغة غنية بمثل هذه الكلمات ، من السهل جدًا التوبيخ والإذلال ، هذا لا يستوجب الموهبة ولا الذكاء ، ناهيك عن الشجاعة . أحيانًا يمكن أن يكون من الصعب بلا أدنى شك التصديق بأن صبيًا صغيرًا سليم البنية ، ولاحقًا مراهقًا وشابًا ، قد يستغرق وقتًا طويلًا في أداء أعمال بسيطة ، ولا يكاد يتذكر أي شيء يفترض أن تكون يداه قد تعلمتاه ، ربما يتعلم كيف يربط عقدة في المساء ، ثم يأتي الليل ، وعندما يستيقظ تكون يداه قد نسيتا تمامًا كيف تربطان عقدة . ثمة احتمالات في أنك معتوه فحسب ، قالت له عجوز مرةً ، ليس عن سوء نية ولكن بدافع الدهشة نوعًا ما . إنما الآن ها هو يتلقى المديح ، وهذا ليس بالشيء التافه بالنسبة إلى شخص وُجهت له الشتائم طوال حياته ، الكلمات لها تأثير ، يمكنها أن تغوص في المرء وتحدث بلبلة وصخبًا ، تجعله يصدق أمورًا عن نفسه ؛ وتلقّي مثل هذا المديح ، ومن هاتين المرأتين ، يكاد يجعل الفتى قاب قوسين من البكاء . خمس صفحات أخرى خلال أسبوع ، أتستطيع تدبُّر هذا؟ تسأله غيرترود وهي ترفع قدح النبيذ إلى شفتيها ، الشفتين اللتين قُبّلتا اليوم ، واللتين قَبّلتا ، فبُعثت فيها الحياة وهي قابعة في واديها المهجور ، وُجدت ، احترقت ، والطيور بوغتت ، والجبال سارعت إلى تسجيل ملحوظة عنها . نعم ، يجيب الفتى ، واثقًا من نفسه وسعيدًا ، نعم أستطيع تدبر ذلك ، هناك اتقاد في عينيه بينما في الخارج تهتاج العاصفة ويرتعد العالم . لعل تقييد العالم الآن سيكون أكثر أمانًا لئلا ينفجر ويتبعثر في ظلمة الفضاء . وأندريا كامنة في سريرها في غرفة القبو تستمع إلى العاصفة ، إنه ليس سريرها بلا أدنى شك ، بل يعود إلى غيرترود ، وكذلك الغرفة التي تؤويها ،

تستلقي هناك ولا تستطيع أن تنام ، تستدير وتتقلب ، لا تعرف كيف ينبغي أن تستلقي ، كيف ينبغي أن تعيش ، تخبط الريح الدار ، تشتت البحر ، بحر مظلم وثقيل وقلق ، بل حتى البحيرة الهادئة عادة حتى عندما تتكسر الأمواج على الصخر خارجها في حالة صخب ، وسفينة جون أندرسون بمخزنها الفارغ تهتز فيها على نحو مخيف .

اشتغل لولي وأودر بلا كلل ، اشتغلا معًا إلى جانب بعض الرجال ، ليفرغوا حمولة السفينة من الأكياس والبراميل ونجحوا في ذلك . عمل دؤوب وعديد من الأيدي ، الأمور غالبًا ما تكون مُلحَّة هنا بين الجبال ، الحياة في حالة استنفار لا تفتر ، أو بتعبير أفضل ، الناس لا الحياة بنفسها ، هذه الحياة الكائنة بكل بساطة ، التي لها وجود ، مثل زهرة ، مثل موسيقى ، مثل خنجر ، مثل بَرَد ، مثل هاوية ، ومثل ضوء يشفي . لكن مهما كان ما تمثله الحياة ، سواء هو استثنائي أو عادي ، كان من المُلحِّ إخراج سفينة أندرسون ، «القديسة لويز» من رصيف الميناء . «القديسة لويز»! إننا لا نعرف لماذا جُعلت قديسة هذه الـ لويز التي أُطلق اسمها على السفينة ، لماذا استحقت لقب القديسة ، ما العذاب الذي عانته ، أيجب أن يعاني المرء العذاب ليستحق أن يلقَّب بالقديس ؛ ألا تستطيع تلك المرأة أن تكون سعيدة ؛ أليس هذا العالم صعبًا بما يكفي ، جميلًا بما يكفي ، نبيلًا بما يكفي؟ على أي حال كان من المُلحِّ أن تُبعد «القديسة لويز» عن الرصيف ، فثمة سفينة أخرى لبثت تنتظر في البحيرة ، محمَّلة بالمِلح ، المِلح ضروري لتمليح السمك ، و«القديسة لويز» تحتاج لأن تُفرغ بسرعة ، نعم ، لدى الرجال الآن فرصة ليبينوا من أي جِبِلَّة هم ، يعملون كالشياطين ولا يستسلمون أبدًا ، إذا سقطت أيديهم من الإعياء ، يجب أن يعيدوا تركيبها

ويواصلوا العمل . كان رئيس العمال ، كيارتان ، في مكانه الطبيعي ، وهو صيّاح عظيم ، عظيم في حث الرجال ، أحيانًا يعملون في الليل ، وقد يستمرون إلى الصباح . وإذا تذمّر أحدهم ، إذا أراد أن يعود إلى بيته ، لا بأس بهذا ، اِفعل ما تشاء ، لكن لا داعي لأن تعود في أي وقت قريب . كتب سكولي مقالات شديدة اللهجة تعارض هذا الاستنفار المحموم للعمل ، رجل نشيط ذاك السكولي ، ليس بارعًا في زخرفة أسلوبه ، عباراته ليست خناجر بقدر ما هي هراوات ضخمة . وقوف سكولي إلى جانب هؤلاء الشياطين أمر مشجع ، لكن ليس من المشجع أن يفقد المرء عمله ، أن يخسر حظوته ، ثم يصبح البقاء على قيد الحياة كفاحًا ، أيفترض بالمرء أن يراقب أطفاله يتضورون جوعًا في الصيف ، يموتون من الصقيع في الشتاء؟ لا ، لسوء الحظ ، من الأفضل أن يبتلع كبرياءه ويعمل ، يشتغل كما يؤمر . أُفرغت حمولة «القديسة لويز» من كل شيء لدى البلدان الأجنبية : تين ، مشروب كحولي ، قطن ، خشب مسحوج ممتاز ، وبن ، بل كانت هناك أيضًا صناديق تفاح . استطاع أودور أن يفتح أحد الصناديق ببراعة من غير أن يراه أحد ، وأخفى تفاحتين تحت معطفه ، والآن ، بينما تمزّق العاصفة ضوء حزيران شر تمزيق ، تعوي على المنازل وتجعل الجبال تدمدم ، يجلس ثلاثتهم ، أودور وراكيل ولولي في بيت أودور ولولي ، وقد قطعوا التفاح إلى شرائح وأخذوا يمضغون ببطء هذه الفاكهة التي تشربت أشعة الشمس ووداعة العوالم البعيدة . تبتسم راكيل ؛ رباه ، كم هي مبهجة رؤيتها تبتسم عن قرب بينما العاصفة تهزّ البيت بعنف ، والعالم قد تحول إلى زئير لا ينقطع . من أين تأتي هذه القوة الوحشية ، الآن ، بينما يجب أن يكون شهر حزيران تغريد زقزاق يفعم كينونتنا؟

توقف أودور في طريقه ليرى راكيل على مشارف المساء، بعد الانتهاء من إفراغ حمولة «القديسة لويز»؛ أمّا نحن فرأينا ما كان يلوح في الأفق، السحب الداكنة، الريح المتصاعدة، قعقعة أو اثنتين من الجبال، كما لو أن ما يحدث أكثر بكثير من أن تحاول كبح جماح حنقها المقموع. أرادها أودور أن تنضم إليهما، ماذا عن عاصفة تقترب، حسنًا، أو على الأقل جو عاصف، إضافة إلى أن معه شيء صغير يريد هو ولولي أن يتشاركاه معها؛ ثم إنه ليس هناك ما يحتم عليكِ أن تبقي وحدكِ في مثل هذا الجو السيئ. لكنّها لطالما بقيت وحدها في الجو السيئ، في عواصف الشتاء البغيضة، وما انتابها الخوف قط. العاصفة الوحيدة التي تخشاها هي تلك الكامنة في الناس؛ وبتعبير أدقّ في الرجال، وهي أسوأ، أسوأ قطعًا، عندما لا يكون من الكافي أن يلبس المرء ما يدفئه، أن يحتمي بملجأ، تخترقه هذه العواصف وتشحنه بالقلق والخوف، تملأ دمه بأزيز يثير الجنون. لم تقل راكيل شيئًا طبعًا، عن العواصف الكامنة في الرجال. قالت، الجو العاصف ليس إلا رياحًا في عجلة من أمرها، ولا شيء يخيف في هذا. مع ذلك قال أودور إنه سيكون من اللطيف أن تزورينا، فمضت معه من غير أن يكون في نيتها أن تفعل، شيء ما في داخلها قرر ذلك، وراقبها غيسلي تغادر مع أودور، رأى كيف مشيا جنبًا إلى جنب. حسنًا، سأفقدها الآن، فكر، ستغادر القبو وحينها لن يكون هناك المزيد بيني وبين الشيطان، قال لعصاه المستندة على الحائط قرب الباب، وبطبيعة الحال لم تعلّق تلك العصا؛ لا فم لديها ولا عينين ولا قلب، لا يهم إذا منحها المرء اسمًا، الأسماء لا تحوّل الموت إلى حياة. أما ثلاثتهم، أودور وراكيل ولولي فجلسوا يأكلون التفاح، تبتسم، وقلب أودور ينبض

بالعديد من الخفقات الإضافية ، بينما هناك في البحيرة تترنح «القديسة لويز» بشكل مروع .

تهتز مع رجالها والجرذان وهرة السفينة ، التي ما زالت في الواقع هريرة ، تخشى الجرذان ، تخشى العاصفة ، وتبقى مع جون أندرسون في حجرة القبطان . تتمايل السفينة وتهتز بصورة مريعة ، البحيرة يستحيل تمييزها والريح تولول في الجبال ، ولولة يمكن عمليًا أن تفجر رأس المرء إذا لم يكن معتادًا عليها . وبما أن طاقم السفينة لا يستطيع أن ينام ، يستحسن إذًا أن يعاقر الرجال الخمر ، يستغلون الفرصة ويقصفون من السكر ، نخبكم ، نخبكم يا رفاق ، نخبكم يا إخوة ، البحر يجري في عروقنا ولهذا نحن إخوة . لا يشرب أندرسون معهم ، هو على حافة الاستسلام للنوم والهريرة المخرخرة إلى جانبه . أفزعت العاصفة المخلوقة الصغيرة ، والعويل وترنُّح السفينة . لا بأس ، يهمس القبطان ، نحن أقرب إلى اليابسة منّا إلى البحر يا صغيرتي الحمقاء ، يقول ويبتسم عندما تنام الهرة أخيرًا ، تنام هانئة ما دامت تشعر بيد سيدها الذي يمسد رأسها الصغير بإبهامه . مخلوق ساحر ، هذه الهرة ، الأقرب إلى الهريرة ، سعيدة إلى الأبد ، تنظر حواليها بحثًا عن شيء تلهو به ، عن شيء يتحرك . أخبر أندرسون غيرترود عن الهريرة ، ابتهاجها عارم ، قال ، يجدر بك أن تقتني هرة . هذا لن يسعد الغربان كثيرًا ، أجابت وهي تبتسم . أمعن النظر في عينيها القاتمتين ، الأقرب إلى السواد ، وشعر أنه التقط لمحة خاطفة من تلك الطيور الكبيرة السوداء . مد يده ليداعب وجهها ، أنفها ، عينيها ، شفتيها ، مد يده كما لو أنه يحاول انتزاعها من عزلتها التي في وسعه أن يشعر بها بقوة كبيرة إلى درجة أن الدموع ترقرقت في عينيه . بل حتى الآن ثمة دموع تخضل عينيه ، بينما تترنح السفينة وهو

يداعب الهريرة التي تخرخر . أهدته ابنته الصغرى الهرة ، هرة شبه عمياء وعاجزة ؛ اسم البنت أولافيا ، ولا تتعدى الثالثة عشر من العمر ، متألقة وسريعة الضحك ومرهفة الشعور نوعًا ما . أعطتني أولافيا الهريرة ، أخبر غيرترود ، كان لا بدّ من أن يقول ما قاله ، هي أصغر أبنائه ، تضحك بطريقة رائعة ، ثم ، وقبل أن يدرك ، ذكر أسماء بقية أولاده ، توماس وإيفلين ، وهما معًا غادرا البيت . استرسل في الحديث ، تكلم ونسي المعاهدة التي اتفق عليها مع غيرترود ، ألّا يأتي على ذكر عائلته .

أُغرمُ بكَ ، كانت غيرترود قد قالت قبل أربع سنوات ، عندما بدأت قوة أعظم منهما تجذب أحدهما إلى الآخر ، أُغرمُ بكَ بمجرد أن ترتفع الأرض من البحر ، بمجرد أن تراها ترتفع من الأعماق ، حينها أقع في غرامكَ ، وحينها يصبح لك وجود . من أين تأتي ، وأيًا من أنتَ هناك ، وأي حياة لديك ، كل هذا لا وجود له بيننا ، معي أنت شخص آخر ، معي أنتَ لي . كان جيدًا أن تأخذ علاقتهما هذا المنحى ، أسهل ، إنما لا أحد ، على المدى البعيد ، يستطيع أن يتكتم عن حياته ، فعاجلًا أو آجلًا تصعد الذكريات إلى السطح ، إنه قانون الطبيعة ، حتى ينز اضطر إلى أن يتكلم ، هذا مع أنه لا يكاد يكون لديه فم . تحدّث القبطان جون أندرسون عن أبنائه ، وفي الغالب عن أولافيا ، ثم أتبع ذلك بالحديث عن زوجته ، ذكر اسمها . لم تقل غيرترود شيئًا ، اكتفت بالنظر إلى السماء ، وأصابعها تعبث بشعره ، لم تمنعه ، لم تسكته بقبلة ، القبلة التي تُعتبر ألطف طريقة في الدنيا لإخبار أي شخص بأن عليه أن يصمت ، أنا أطبق شفتيك بقبلة لأن كلماتك تعذبني . سمحت له أن يسترسل في الحديث ، استمعت مع أن ذلك يؤلم ، ربما لأن هذا الرجل ، قبطان السفينة الأجنبية ، يعني لها

الكثير جدًا إلى درجة أن ذلك يخيفها أحيانًا . يستلقيان على ظهريهما في المنخفض الأرضي ، رأسه في حضنها وعيناه مغمضتان ، أما هي فحلّقت عيناها نحو السماء ، والسماء غرقت في عينيها الداكنتين .

غيرترود الآن نائمة في سريرها العريض .

لم تستطع إقناعه بالنوم معها ؛ أنا متأكدة من أنني أستطيع تحمُّل بقائك معي الليلة ، قالت غيرترود بينما هما يقتربان من البلدة ، والنسيم الذي بالكاد داعب أنصال الحشيش سرعان ما تحول إلى هذه العاصفة ، فاستوت أنصال الحشيش بالأرض ، مدحورة تمامًا ولا فرصة لديها للمقاومة ، بيد أنها ستنتصب ثانية حالما تنحسر العاصفة ، كأن شيئًا لم يحدث . لم يكن ممكنًا أن يبقى أندرسون مع غيرترود على الرغم من أنه تمنى أن يفعل ، تاق إلى النوم في أحضان رائحتها ، إلى النوم في حنايا شعرها الأسود ، لكن اضطر إلى العودة إلى سفينته بسبب العاصفة . والهريرة ، الهرة نصف البالغة ، مسرورة من حضوره ، من بنيته الضخمة وصوته القوي المطمئِن لأن السفينة تهتز بطريقة مخيفة . ماءت عدة مرات من الخوف ، وهدّأها أندرسون ، هدّأتها اليد الكبيرة فنامت الهرة وهي تخرخر . تميد «القديسة لويز» ، تميد بشكل غير طبيعي ، فيجلس أندرسون ، باستعجال متهور ، ينسى نفسه ، وتستيقظ الهريرة التي تتذمر قليلًا وتفتح عينًا نصف فتحة ، وتموء بصوت خافت . أين يدك؟ تسأل ، فيمد أندرسون ذراعه القوية بلا تفكير ، يلاطف ويهدئ بتربيتات رقيقة . أيقظه شيء ما ، انتزعه من النوم الذي كان يغرق فيه . يمسد الهريرة ، يحملق في الفراغ ، في بادئ الأمر لا يفكر إلا في غيرترود . أبسط شيء سيكون قطع الروابط كلها بينه وبينها ، الأبسط إلى حدّ بعيد ، عندئذ يصبح التعامل مع الناس أسلس كثيرًا في

هذه البلدة النائية ، مع التجار الذين يبحر من أجلهم . سلوكهم تجاهه تغير ، فتر ، منذ أن بدأ ينجذب إلى غيرترود . لكن أحيانًا ، حتى أسهل الأمور ، أكثر السبل وضوحًا قد يثبت أن الأخذ بها مستحيل . سأضع حدًا لهذا الآن ، فكر في بعض الأوقات ، وهو يبحر شمالًا في الربيع ، يبحر تجاه البرد والضوء ، لكن حالما يرى الأرض تظهر ، تبرز من الأعماق التي يستعصي إدراكها ، يشتد تحرُّقه إلى درجة أنه يمكن أن يرتكب جريمة ، وتوقه يستفحل ويصبح عظيمًا جدًا بحيث يكاد يجعله يستسلم للبكاء . أحيانًا في الشتاء ، بينما نحن نبحر ، ربما في البحر الأبيض المتوسط ، أستيقظ على رائحتكِ وأعاني من الصعوبة في التنفس وأفتقدكِ بشكل لا يطاق . افتقادُ شخص ما خَطِر ، كانت غيرترود قد قالت بيد أنها ابتسمت ، ابتسمت ابتسامة جميلة ، ابتسمت كأنها لم تستطع مقاومة الابتسام . والسفينة تميد . تاه عن نفسه في أفكاره ، التوق ، الرغبة ، الحب ، كلها مجتمعة خدَّرت صحوه ، مسؤوليته . لا ينبغي أن تميد السفينة بهذه الشدة الرهيبة . البلهاء الملعونون نسوا ، أو لم يهتموا بوضع الأثقال الحافظة للتوازن ، لم يأخذوا بعين الاعتبار احتمال تدهور حال الطقس ، إذ لا مكان للعواصف وهم في الصيف وفي هذا الضوء كله . لا يعجبني هذا المشهد ، يتمتم أندرسون وهو يفرد الأغطية فوق الهرة كأنها طفل ، بل حتى يقبّلها مع ابتسامة طفيفة ، والهرة بدورها تطلق آهة عرفان صغيرة . يجلس أندرسون ، وربما آنذاك ينظر الفتى خارج النافذة وقد جفاه النوم ، ومع ذلك لم يهتم ، لم تتملكه الرغبة في أن يبالي ، جلس في غرفته وانكب يترجم كتاب السيد ديكنز ، استمتع بكونه على قيد الحياة . الإطراء والتقدير من غيرترود وهيلغا وغيسلي يتردد فيه مثل أغنية ، ومستحيل أن ينام المرء والدم يغني في عروقه ، جلس

هناك أربع ساعات ، ثم بعد ذلك يفتح الستارة . يا لها من ضوضاء ، يتمتم متفاجئًا ، بالكاد ملاحظًا الجو المسعور ، والمطر الذي يخبط الجبال ، والريح العاوية ، ما يراه هو البحيرة بين البيوت و«القديسة لويز» المتأرجحة . اللعنة على الجحيم ، يفكر والغثيان يجتاحه ، يسدل الستارة ، يضطجع في فراشه ، يبتسم ، يغمض عينيه ويفكر في أخيه ، أين يمكن أن يكون ، وكيف يستطيع أن يهتدي إليه؟ يدنو النوم منه ، يسمع دمدمة خافتة ، وصدى يتردد ثقيلًا في الجبال بينما تهبُّ ريح رهيبة على هذه البقعة الصغيرة من العالم ، هذا الركن الذي يمثل كوننا . فجأة تقعقع العاصفة بعنف كالانفجار تقريبًا فتدوي الجبال فوق البلدة النائمة . ثم تخمد الضجة المسببة للصمم ، ولعدة ثوان يصمت كل شيء ، بل حتى المطر يتوقف عن التساقط ، تتوقف قطراته وتعلق في الهواء مثل آلاف من العيون الشفافة ، كما لو أن العاصفة وجدت أخيرًا متنفّسًا لها في تلك الصرخة ، والآن تتوقف ، تنظر من حولها لترى إن كانت قد أحدثت أي تأثير ملموس . أنا على وشك الاستغراق في النوم ، يفكر الفتى ، على وشك الاستغراق في النوم وسط الصمت بعد أن هدأت العاصفة ، وقطرات المطر ما عادت قطرات مطر ، بل أصبحت عيونًا شفافة . وما تراه العيون ، ترويه للسماء .

١٤

حادث مروع ، يقول العنوان البارز في صحيفة إرادة الشعب بعد بضعة أيام ، والعاصفة قد مضى على عبورها مدة . العواصف كلها ، أو تقريبًا كلها ، يطويها النسيان ، وهذا مدهش ، بقدر ما هي رهيبة عندما تثور ، تسيطر على الحياة ، تُفزع الوجود بأسره وتحدِق به ، تمزق البحر إربًا ، تخلخل السماء ، إمبراطورية من العنف والبطش ، فنزحف إلى بيوتنا كفئران تزحف متوارية بين الأعشاب . ثمّ تنقضي وتُنسى ، يستقيم العشب ، ولا يعرف النسيم شيئًا عن الريح العاوية ، ولا أي عاصفة استطاعت أن تحطم الحياة اليومية تحطيمًا كليًا بحيث تفقد القدرة على أن تبصر النور ثانية متضافرة . المألوف هو عشب الحياة ، يقال في مكان ما ، ومن دونه لا وجود لشيء . وهذا صحيح ، الحياة اليومية العادية كالعشب ، نحرقها إلى جذورها ، لكن مع مرور الوقت تنبت ثانية ، تخترق طريقها صعودًا من الظلام ، وفجأة يصبح هناك أزهار أيضًا . هددتنا العاصفة بالتأكيد بينما دامت ، أحزنتنا وأخافتنا لأننا في شهر حزيران ، شرمت الريح مسكن الضوء شر تشريم ، والأمطار الغزيرة سحقته . شنيع ، هذا الجو ، أعلن يون وكيل متجر ليو وشركته

التجارية في بيت فريدريك؛ كحّوا، عاقروا المشروب ودخان السيجار يغشاهم. شربوا أكثر مما نووا، أولئك الرجال الأقوياء الذين يسيطرون على البلدة، حيث البيوت ستبقى قائمة سواء نهضنا أو لم ننهض، وعلى الرغم من ذلك عندما تُحكم العواصف قبضتها على العالم، لا يختلف هؤلاء الرجال عن الناس العاديين، هم أيضًا افتقدوا الضوء وبسبب افتقادهم هذا شربوا قدحًا آخر، استرخوا، قالوا كل ما قالوه عن غيرترود، وتمادوا أكثر، عن كيف هي، وما توقفوا عن الكلام عندما دخلت الخادمة وتحسست طريقها خلال ضباب دخان السيجار الخانق، سمعت الأشياء التي قالوها. إنها لا تنال كفايتها، قال سيغورد، النساء اللاتي لا يمارسن الجنس بانتظام يصبحن مملوءات بالأوهام، يصبحن مزعجات، ينبغي أن يُرسل إليها بعض الشبان الأصحاء، هذا سيعيد لها رشدها. كان سيغورد ثملًا، وثمة تغضنات في سترة بدلته، فأخذ فريدريك نفسًا من سيجاره بحماسة، لا تكن غبيًا جدًا، قال وأصابعه تتحسس ورك الفتاة. إنه جو شنيع هذا، سمعَت يون يقول وهي تتملص بخفة من جوّهم الخانق. إنه عنيف، أضاف عندما لم يتجاوبوا معه، لم يعلقوا، حملقوا في الفراغ بعيون زائغة، والقس ثورفالدر جاهد لينحي الفتاة عن تفكيره، ينحي من ذهنه كيف اهتز وركاها، والعاصفة تقصف البيت وتهدد السفن. وقف يون بتردد، راغبًا في المغادرة. العواصف والمرض هما الشيئان الوحيدان اللذان تخشاهما زوجته توفّه في هذا العالم. ويكون الأمر أسوأ من أي شيء آخر عندما تقعقع العواصف ويتردد صداها في الجبال على ذلك النحو، كما لو أنها مستقرة في مكانها تعوي علينا بعد أن ضاقت ذرعًا بالبشر. ومن ذاك الذي يستطيع لومها؟ توفّه على الأغلب أسدلت الستائر كلها وأغلقت

على نفسها في أقصى غرفة نوم شمالية ، الغرفة التي بلا نوافذ ، عند الطرف المحمي من البيت . تنتظره نافذة الصبر وخائفة ، ولذلك أراد أن يغادر فورًا ، قال هذا عن الجو ، شنيع جدًا ، إلا أن فريدريك واجهه بنظرة ساخرة وشعر يون بسخونة تجتاح وجهه ، تمتم بكلام ما يشبه الاعتذار ، وفرّ من جو السيجار الخانق ، فرّ إلى العاصفة . إنه لأمر حسن أن يكون المرء مهمًا ، ومن الجيد جدًا أن يكون قادرًا على طمأنة شخص أقوى منه ، على احتضانه . في مرحلة ما اضطر يون إلى الاحتماء بجملون بيت وإلا لكانت الريح المجنونة أخذته معها ، استطاع وهو محتمٍ أن يلقي نظرة خاطفة على البحيرة حيث رأى «القديسة لويز» تهتز وتتأرجح بعنف بالغ . جو شنيع ، أنَّ بامتعاض .

جو رهيب ، حادث رهيب .

«السفينة الإنجليزية ، القديسة لويز ، القادمة من هال ، زنة 113.47 ، قبطانها ج . أندرسون ، وصلت إلى هنا في 29 أيار ، تحمل سلعًا من إنجلترا لمؤسسة التاجر ماغنوس التجارية ، انقلبت في الميناء خلال العاصفة العاتية عشية 2 حزيران ، وفُقدت الأيدي العاملة فيها كلها ، 8 في العدد . أفرغت السفينة من حمولتها ، وكانت ستنَظَّف في اليوم التالي وتحمّل بسمك القد المملح الذي خزنه التاجر هنا في الشتاء الماضي ، نظرًا إلى حقيقة أن سفينته التي كان يفترض أن تُحمّل بالسمك غرقت في الخريف السابق وهي في طريق عودتها من إنجلترا . استقرت القديسة لويز راسية في الميناء ، فارغة تمامًا ، وطاقمها لم يهتم بوضع الأثقال فيها لتثبيتها ، والعواقب الوخيمة التي نتجت بسبب العاصفة العنيفة لا

تكاد تكون مفاجئة ، عاصفة هوجاء بطريقة غير عادية بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة . لا شهود عيان على الحادث . عندما استيقظ الناس رأوا السفينة مقلوبة رأسًا على عقب في البحيرة هنا ، لا يشق منها سطح البحر إلا ما يزيد قليلًا عن عارضة القعر . وجثث النوتيين ومدير الدفة التي عُثر عليها كانت الأمواج قد جرفتها إلى إيرارهل ؛ أما جثة القبطان فلم يُعثر عليها .»

«اعترضت محاولة إعادة قلب السفينة صعوبات جمة ، إذ رسخت في مكانها لأن إحدى سارياتها علقت في قاع البحر .»

هذا ما كان بالفعل . التحمت السارية بقاع البحر ، والبحر رفض إخلاء سبيل فريسته . الأشياء الغريبة كثيرة جدًا . نحن طبعًا على ألفة مع البحر ، نعيش في جزيرة ، والبحر جارنا الوحيد ، هو الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نقارن أنفسنا به ، وهو خطر ، يقتل بسرعة وبلا رحمة أي شخص مهمل ، أي شخص يسهو عن نفسه . تلك وحشية ، ذاك الافتقار المطلق للتساهل ، الحكم على الأجانب بالموت لأنهم نسوا أو لم يهتموا بتثقيل السفينة من أجل الليلة ، مرهقون جدًا على الأغلب بعد أن أُنهي إفراغ الحمولة أخيرًا ، مرهقون جدًا ، والقبطان ما زال غائبًا ، وهذا جعلهم يركنون إلى النسيان ، إلى الاستسلام للإهمال ، وحتى نحن تفاجأنا من عدم التساهل الذي تسلل إلى البحيرة بلا أي قيود ، البحيرة التي هي غالبًا في منتهى الاستقرار . في الحقيقة ، ثمة أناس سقطوا في البحيرة وفقدوا حياتهم ، أودعتهم البحر بين السمك والنسيان والصمت ، في الربيع الماضي فقط جدف محاسب وكاتبان من متجر ماغنوس إلى البحيرة ، سُمح لهم

أن يتركوا أعمالهم بين الجدران ، بعد أن تهافت سمك الرنغة إلى البحيرة . فجدفوا في قارب صغير واصطادوا الرنغة والسعادة تغمرهم ، كان يمكن سماع ضحكهم الفج عند الشاطئ ، ثم سُمعت صيحات استغاثتهم عندما فقد المحاسب توازنه وغاص في الماء الساكن . وعندما حاول الكاتبان إنقاذه انقلب القارب ، كان الناس على اليابسة سريعين في الانطلاق بالمراكب ليهبّوا إلى نجدتهم ، إلا أن الأوان فات ، انبطح الكاتبان صامتين وباردين على عارضة قعر القارب ، وعلى مقربة منهما طفا المحاسب نصف مغمور بالمياه ، وجهه إلى الأسفل ، كما لو أنه يحاول أن يقرأ شيئًا في القاع .

هذا صعب ، وغير مشجع البتة ، أن يرى المرء أمام عينيه سفينة مقلوبة ، عارضة قعرها متجهة إلى الأعلى ، مثل سكينة غليظة تُستعمل لتقطيع الضوء . هذا يجعل الكرامة كلها التي تصاحب السفن تختفي ، تتلاشى الحرية التي تسكن في أشرعتها ، وموسيقاها وهي تبحر . سفينة مقلوبة في البحر منظر مشين ، إنها تؤذي العينين وتفتت القلب . عندما صحونا في الصباح التالي كان هناك هدوء كلّي تقريبًا ، وأخبار الحادثة انتشرت بسرعة ، بسرعة مذهلة . ولم يكن الوقت يتجاوز السادسة بكثير ، عندما تخرج هيلغا إلى فسحة المدخل مع أندريا التي تشير إلى البحيرة كما لو أن ذلك ضروري ، كما لو أن المرء يحتاج على وجه التحديد إلى أن يشير إلى المذلة والموت . ومع أن الوقت ما زال مبكرًا ، كانت ثلاثة قوارب على الأقل قد توجهت إلى السفينة ، وأخذت تتذبذب هناك كأنها أحواض غسيل بالمقارنة مع عارضة القعر الضخمة . الهدوء شبه كلي ، بَيد أن البحر ما زال مضطربًا ، لم تسنفد بعد ضغينته بأكملها . عندما ترفع هيلغا المنظار الذي جلبه الفتى لها ترى رجلًا يخبط عارضة قعر السفينة بقبضتيه ، كأنه يقرع

على باب ، مرحبًا أهناك أحد؟ نعم ، يجيب الموت ، أنا دائمًا هنا ، لن تجدوا بابي مغلقًا أبدًا ، وأنتم مرحَّب بكم دومًا ، احتضاني لكم أعظم من الحياة .

هل . . . هو . . .؟ يبدأ الفتى ، وكلهم يقفون عند شرفة المدخل ، هو على إحدى الدرجات ليفسح المجال للنساء الثلاثة ، أولافيا قرب الباب ، هيلغا تحمل المنظار ، وأندريا تستند على الدرابزين ، يدها اليمنى قابضة على مرفقها الأيسر ، هناك بريق رمادي في شعرها وشفتاها مزمومتان . تُحِدُّ النظر في البحيرة ، تُضيِّق عينيها لترى على نحو أفضل ما لا تريد أن تراه ، ما تجلّى لها عندما خرجت من قبوها وسمعت أن لا أحد قد نجا . هل هو؟ يبدأ الفتى من جديد ، فتنظر إليه أندريا ، تلتقي عيونهما ، تنظر إليه بطريقة جدّ جميلة تجعل الدموع تترقرق في عينيه ، فتنبثق كتلة في قلبه ثم ترتفع إلى حنجرته ، مذيبة كلماته . يضطر إلى أن يسكت ويبتلع ريقه قبل أن يتابع ، ليُخرج الكلمات غير مختلطة ، يعتمل فيه السرور من الطريقة التي نظرت بها أندريا إليه ، وفي الوقت نفسه خجل من شعوره بدفق تلك المودة العميقة ، بينما يتجلى الموت أمام أعينهم في البحيرة ، وعارضة القعر سكين تُعمِل تقطيعًا في الحياة ، بينما غرق الرجال ، بينما مُحي وجودهم ، وفي مكان ما عند الطرف الآخر من البحر سيفتقدهم الناس ويبكونهم ، سيسأل طفل عن ذاك الذي لن يعود أبدًا ، عن حياة حُوّلت إلى ذكرى ، عن لمسة حُوّلت إلى حسرة . أذَهَب؟ يبدأ الفتى ، محاولًا مرة أخرى ، أذَهَب إلى السفينة أم بات ليلته هنا؟ تُنزل هيلغا المنظار ، تتقدم أولافيا خطوة أو خطوتين نحو فسحة المدخل ، يداها الضخمتان المتورمتان تمسكان ذراع أندريا ، تبقيان هناك ، لأن قِسمًا من الحياة ليس إلا هاوية ، وأين يمكن العثور على ذراع لتنقذ المرء من السقوط؟ لا ، تقول هيلغا ، تاركة

المنظار متدليًا ، وهناك عند البحيرة يتوقف الرجل عن خبط عارضة القعر وعن مخاطبة الموت بقبضتيه ، والقوارب تتأرجح حول السفينة ، تتذبذب بحيرة ، ذهب جون إلى السفينة ، تضيف هيلغا . تشرع أولافيا في النشيج . ذاك الرجل الوسيم ، تقول ، فتحيطها أندريا بذراعيها ، ها هي كتفي ، تقول ذراعاها ، وتبكي أولافيا . تنشج فحسب ، على الرغم من أنها لم تعرف القبطان جون أندرسون جيدًا ، تناولَ القهوة في المقهى ، مازحهن ، وتولّت هيلغا الترجمة وهي تبتسم أكثر بكثير من المعتاد ، أخبرهم عن هرَّته ، الأقرب إلى الهريرة في الحقيقة ، أخبرهم عنها بأسلوب مرهف ومرح ، بعينيه الجميلتين تلكما . الرجال الطيبون فقط يفعلون ذلك . والآن هو ميت بالتأكيد ، استولى البحر عليه . تنشج أولافيا . وهيلغا التي احترمت جون أندرسون لا يكاد تعبير وجهها يتغير ، تربت كتف أولافيا مدركة ، على الأرجح ، أن ما أطلق سراح هذا الفيضان من الدموع ليس الحزن على القبطان ، ليس جرحًا انفتق هناك عند مدخل الباب ، انفتح على وسعه ، ولكنه الحزن على حياتها ، على وجودها ، الأبناء الذين هاجروا إلى أمريكا ، الأحفاد الذين يكبرون ، والذين قد لا يتاح لها أن تراهم أبدًا ، أصابعهم الطفولية الصغيرة لن تواتيها الفرصة لتلمس وجهها الممتلئ وتتحسسه . تنشج من أجل برينيولفر ، ذاك الرجل العتيد الذي احتواها بذراعيه لأكثر من عشرين سنة قبل أن يكفَّ عن فعل ذلك شيئًا فشيئًا ، كما لو أنها أصبحت قبيحة ومملة ، ذاك كله ليس عادلًا مطلقًا ، ومؤلم بلا حدود ، تعالي إلينا ماما ، يكتب آكي ابنهما ، بيد أنها لا تستطيع ترك برينيولفر ، يشرب كثيرًا وهو تعيس ، مستحيل أن تخلِّفه وراءها ، وقريبًا ستتاح لها الفرصة لتطوقه بذراعيها من جديد ، بالتأكيد ستفعل ، حتمًا ،

حتمًا . تحتوي أندريا الجسم الأخرق بإحكام ، لا تكاد تفهم نصف غمغمة أولافيا المتقطعة ، لكن تفهم الدموع ، تفهمها فهمًا بالغًا . نعم ، حتمًا ، تهمس مربِّتة ظهر المرأة الباكية ، نعم حتمًا . تنظر إليهما هيلغا ، والمنظار متدلٍّ من يدها اليمنى ، مقوسة الكتفين قليلًا ، وهذا غير عادي ، ربما هي أيضًا تحتاج إلى الاتكاء على كتف ما ، بَيد أنها لا تعرف كيف تطلب ذلك ، وأي كتف ينبغي أن تكون ؛ أهناك كتف لكل شخص؟ تربِّتُ ثانية ظهر أولافيا ، بثبات لكن بسرعة . يا عزيزتي المسكينة ، تقول ، وما قالته يجعل أولافيا تغرق في مزيد من البكاء . أسرِع إلى هناك ، تخاطب هيلغا الفتى ، واستفسِر عما حدث ، سأصعد وأوقظ غيرترود . هذا جعل بكاء أولافيا يخفّ .

ينوي الفتى أن يمشي بسرعة في انحداره نحو البحيرة ، وقبل أن يدرك يجد نفسه يجري . ثمة حشد من الناس متجمع عند الرصيف السفلي ، بعضهم يفرغون الحمولات ولكن يعملون ببطء وعيونهم على البحيرة ، على عارضة قعر السفينة ، والقوارب التي تجدف برفق حولها ، وحان الوقت لاستراحة تناول القهوة أيضًا ، يقف عدد من النساء من مواقع تجفيف السمك في مجموعات ويراقبن . يبدو كما لو أن السفينة قد رسخت في موقعها بشكل دائم ، ولا يمكن زحزحتها ، يقول أحد الرجال الذين جدفوا نحوها . يُقبل الفتى جريًا فتتغير الأجواء . يُقبل جريًا نحو التمتمة ، نحو حضور الموت ، وينظر الجميع إليه . لا يستطيع تمييز الوجوه ، الناس كلهم ممتزجون في شخص واحد أمامه ، ككتلة بلا شكل تحدق فيه ويسألهم كلهم ولا يوجه سؤاله لأحد . الطاقم ، أَمِنَ المؤكد أن لا أحد منهم نجا؟ في بادئ الأمر لا يردّ أحد ، بعض الأشخاص يواصلون التحديق فيه ،

بعضهم أطرق ينظر إلى الأرض ، ثم فجأة يتنحنح رجل يقف على مقربة من الفتى مع اثنين من رفاقه ، يتنحنح مرتين ، ويبصق . هل أرسلتكَ إلى هنا لتسأل؟ يقول ، وهو يرنو إلى رفيقيه كأنه يطلب مؤازرتهما ، ويحصل عليها . لا يقول الفتى شيئًا ، كأنه لم يسمع تقريبًا ، يكتفي بالنظر بينما يضيف الرجل ، لا يا سيدي ، لم ينج أحد ، في الأغلب سيكون عليك أن تكفيها إلى أن يأتي القبطان التالي ، ألم تقم باحتوائك لهذا السبب؟ الكراهية التي تتدفق في الفتى تتحول إلى قبضتين ، ولا تسعفه الكلمات ، الكلمات المنفجرة علقت داخله . ولو أنك أغبى من سمكة قدّ يا غودمندر ، تقول امرأة واقفة قرب الفتى ، ما زال يجب عليك أن تتحلى بشيء من الحسِّ والذوق لتقدِّم ولو ذرة احترام لرجل غريق ، ولو كان لديك كلب ، لخجل من تصرفك . ماذا الآن؟ كنت أمزح فقط ، يقول غودومندر ، وهو يتحرك ملتصقًا نوعًا ما برفيقيه . ينظر الفتى إلى المرأة ، يحاول أن يشكرها بنظرته ، اسمها بريندس ، تزوجت مرتين وفقدت زوجيها الاثنين في البحر ، هي الآن وحيدة مع ثلاثة أطفال ، ومع ذلك تبلي بلاء حسنًا على نحو مدهش ، وهذا يراه العديد من الناس عسيرًا على التصديق . غرقوا كلهم ، تقول بلطف موجهة كلامها للفتى . تلتقي عيونهما ، بعض الناس لا يحظون بأي فرصة أبدًا ليلتقوا بأولئك الذين يجب أن يعرفوهم .

١٥

لا يخفى على أحد أن الشمس هنا يمكن أن تشرق بمنتهى التوهج! ويمكن أن تكون بالغة الدفء بين الجبال بحيث أن المنحدرات تنضح بالعَرق مثل النساء في مآزرهن من المشمع وهن ينظفن السمك ، والرغبة تعتمل فيهن ليخلعن ثيابهن كلها ، كل غرزة منها لو تجرأن . ومع الضوء تأتي الحركة الدائبة . تُخفَّف فترات النوم قدر المستطاع ، وتفعم الحياة كل لحظة ، ولا يستطيع ولا حتى الموت أن يسبب لها الإزعاج . بيد أنه فعل هذا ، فعله على مدى ما يزيد عن عشرين يوم استنفدت في إعادة قلب سفينة القديسة لويز . عارضة القعر القاتمة كانت دائمًا هناك أمام العيون ، كما لو أن الموت بنفسه يأخذ قيلولة في البحر ، وعينه التي لا تطرف نصف مغمورة بالماء ، تحت السطح مباشرة . «جثث النوتيين ومدير الدفة عُثر عليها مجروفة إلى أيرارهل ؛ أما جثة القبطان فما زالت مفقودة .» أعيدت جثث النوتيين وقائد الدفة إلى البلدة ، وقام يون النجار بمساعدة آخرين ببناء توابيت لهم ، وبُعثت رسالة إلى إنجلترا ، كُتبت بلغة إنجليزية ممتازة ، بعد أن استعان القاضي ليريس بـ ثورون زوجة كيتل المصور لتساعده في كتابة الرسالة ،

فالاثنان عاشا عدة سنوات في إنجلترا، وهما على ألفة مع سماء مختلفة عن السماء التي تستمد شخصيتها من الجبال، وبالتالي تختلف طريقة انتشار كل منهما عن الأخرى. الرسالة في طريقها إلى مُشغّل السفينة في هال، كتبها ليريس وثورون، ووقّعها الموت. جثة القبطان جون أندرسون لم تُسترد بعد، لم يقدر على الهروب من مقصورته، وهو كامن هناك والمياه تغمره، كامن بلا حراك والهرة إلى جانبه، مثل المرافق.

لا تأتي صحيفة إرادة الشعب على ذكر الهرة. مع أنها كانت هريرة مفعمة بالمرح، وبأشعة الشمس. ولم يُشَر إليها، ولا بكلمة واحدة في الرسالة إلى هال، على الرغم من أن بنت القبطان الصغرى اختارتها لأبيها باهتمام عظيم ومودة كبيرة، بحثت وقتًا طويلًا إلى أن عثرت على هذه الهريرة السوداء ذات العينين اللتين لا يمكن مقاومتهما وأحد كفّيها الأماميين ببياض الثلج. عينان لا تُقاومان غمرهما الخوف عندما تغير عويل العاصفة فجأة إلى صراخ، كما لو أن العالم راح يتمزق إربًا، بعض الناس استيقظوا في بيوتهم، تقلّبوا، استداروا من جانب إلى آخر وعادوا إلى النوم. استمع الفتى، قال شيئًا عن قطرات المطر واستسلم للنوم، أما الهرة الفزعة فتقوقعت على شكل كرة ولكن استرخت قليلًا عندما انحنى عليها القبطان وقال، ستأتين معي، لن أتركك هنا. الكلمات الأخيرة في حياته، التي لسوء الحظ تبين أنها صحيحة، ولكن بطريقة أكثر مرارة وقسوة من تلك التي دارت في الفكر ونُطقت؛ مدّ يده، التقط الهريرة، والعاصفة قلبت السفينة، قلبت «القديسة لويز» بلمح البصر، بعنف قلبت كل شيء رأسًا على عقب. ما كان في السابق متجهًا إلى الأعلى أصبح الآن يتجه إلى الأسفل، صارت السماء بحرًا، والبحر سماءً. وهو جون

أندرسون ، مثل أحمق هدر ثواني غالية محاولًا إنقاذ الهريرة ، غير قادر على تحمُّل موائها البائس ، عجزها المحزن ، ولم يستطع الهروب . ربما كان في وسعه أن ينقذ نفسه ، وهو السبّاح الماهر ، القوي الذي لا يكلُّ . كم كان من الرائع أن تمرِّر أصابعها على طول ذراعيه ، على صدره ، تشعر بقوته . أصابعها لن تنسى ذلك مطلقًا . صعدت هيلغا إليها ، إلى الطابق العلوي ، أيقظتها ، أعلمتها بالأخبار . نهضت غيرترود من النوم ومن حلم ، شعرها يتدلى مثل الظلام على وجهها ، وقالت ، من مكان ما في طيات ذلك الظلام ، نعم ، سأنزل حالًا . بعض الناس يفضلون استيعاب الضربات وحدهم ، ليس في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك ، لا يعرفون طريقة أخرى ، ربما لا يتجاسرون على فعل شيء مختلف . ما المكان الذي ينبع منه سوء حظ الإنسان يا ترى؟ غادرت غيرترود الفراش ، نظرت خارجًا إلى عارضة القعر القاتمة ، رأت أن الموت سكين سوداء تعمل تقطيعًا في ضوء النهار . جلست عدة دقائق إلى طاولة صغيرة متينة ، ابتيعت من ألمانيا . جلست هناك مقوسة الكتفين بعض الشيء تنظر إلى أصابعها التي تخدرت فورًا من لوعة الشوق .

*

«لم يهتم أحد بترسيخها بالأثقال ،» كتب سكولي في صحيفة إرادة الشعب ؛ كتب ، «حادث مروع» وعنى ما كتبه ، لكن فكر أيضًا بأن ذلك إهمال شنيع . أن لا تُرسخ السفينة ، لأن كل شخص وكل شيء يحتاج نوعًا من التوازن ، وهذا ينطلي على السفن مثلما ينطلي على الناس .

تحتاج السفن إلى شيء ثقيل من العالم المادي وتزويدها به سهل، يتطلب جهدًا جسمانيًا بسيطًا، أما تأمين الثقل في الحياة فيتطلب مزيدًا من الطاقة والتضحية؛ بعض الناس يدعون ذلك السعادة، وغيرهم يسمونه الأمان، الكلمات كما هي الحال دائمًا تصف سريرتنا. إهمال شنيع، لأن السماء بدأت تكفهر مدججة بغيوم ثقيلة مبحرة، وأشعة الشمس اختفت، ضوء حزيران الرائع تحول شيئًا فشيئًا إلى غسق، والنسيم إلى ريح، ألا يجب أن يوجّه كل هذا إنذارًا إلى بحارة متمرسين وأصيلين؟ أرضى سكولي تفكيره في ذلك، بترديده بصوت عالٍ ربما عوضًا عن كتابته، مدركًا، وهو ذلك الرجل الذكي، سكولي ذاك، أن كل شيء يغدو أوضح بعد وقوع الحدث، العاصفة ونتائجها تصبح أوضح بعد انقضائها وبعد أن يصبح المرء خارج دائرة الخطر، عندما يتمكن من أن يتوصل إلى استنتاجاته بسلام؛ حينها فقط تتضح الأخطاء. هذا إلى حد ما صحيح، كان عدم ترسيخ السفينة بالأثقال إهمالًا، ولكن من الضروري أيضًا أن تبعد عن الرصيف؛ وما انفكّ كيارتان يستحث الرجال بالتوبيخ والشتائم، كان يغلي. هذا ما قاله لولي وأودور لراكيل في ذلك المساء، بينما جلس ثلاثتهم معًا وذراع أودور اليسرى مستقرة على الطاولة قرب ذراعها اليمنى، ولا تفصل بين أصابعهما سوى خمسة سنتمترات على الأرجح، بل ربما ثلاثة سنتمترات، مسافة تسمح للأصابع أن تتبادل الإيماء، والدردشة فيما بينها ربما، تروي الأخبار النابعة من داخل الأجساد، وإذا استطاعت الأصابع أن تتعارف فليس من المستحيل ألا تتجاوب باقي أعضاء المرء. عنيف انبرى يصرخ بجنون، ذاك الـ كيارتان، لأن سفينة أخرى حطت وراء الميناء ويجب أن تدخل المرسى، محمَّلة بالملح لشركة تريجفي، وما الحياة

بلا ملح؟ إضافة إلى أن الشركة أضمرت شيئًا من الحقد على القبطان جون أندرسون وبالتالي على سفينته ، هذا القبطان لم يُبد أي اهتمام بعقد الصلات مع أحد غير غيرترود ، يضطجع معها مثل كلب شقي . نحّى كيارتان عمليًا السفينة من الرصيف ، ولم يسمع أي اعتراض من أفراد الطاقم الذين تطلّعوا بشوق إلى قضاء مساء هادئ في البحيرة ، ثم ليلة هادئة ، ثم أفضل فترة في الصباح التالي ، والذين تناولوا مشروبهم الأول حالما أفرغوا السفينة . من ناحية أخرى لعل سكولي كان على وعي بنفاد صبر رجال تريجفي الذي يسيطر على كل شيء في الرصيف السفلي ؛ على وعي بأنه في حال كان ممكنًا المجيء على ذكر الأخطاء ، قد يُعثر عليها في مواضع أكثر من تلك التي تبدو واضحة فيها .

كان على أحد الأشخاص أن ينقل جون أندرسون إلى سفينته بمركب تجديف . طقس سيئ قادم على ما يبدو ، قال من تولّى تجديف المركب . قالها بلغة مختلفة . بعض الناس هنا قادرون على تكوين جمل بلغات أخرى ؛ أما فهم تلك الجمل فمسألة أخرى ، أو إدراك ما إذا كانت الكلمات كلها تعود إلى اللغة المعنية نفسها . ولمجرد التأكيد ، يومئ الرجل برأسه نحو السماء التي اختفت وحلّت محلها سحب داكنة ، لكن جون أندرسون ابتسم ببساطة ، غير معني بالأمر ، هذا كان رد فعله الوحيد ، بدا مشغول البال ، قد يكون جسده جالسًا في مركب التجديف ، إلا أن ذهنه ووعيه حلّقا بعيدًا . انتزع نفسه من بين أحضانها عائدًا إلى السفينة التي لم تزوّد بالأثقال ، الأمر الذي كان يجب عليه أن يوليه اهتمامه عندما بدأت الريح تهبُّ . وطاقم السفينة تناول بعض القناني من خمر رخيصة إنما صالحة للشرب . تبًا ، هذه جبال ذات شأن ، قالوا وهم يسكرون ، بينما جلس

قبطانهم أو استلقى في مقصورته يربِّت هرة يافعة تخرخر ويفكر في غيرترود ، مدللًا نفسه بذلك الترف . يفكر في حركاتها والنار تشب في دمه . نحن نسميها الرغبة والحب والشهوة للحياة ، التوق إلى السعادة ، لكن مهما دُعيت ، ومهما كانت الكلمات التي نختارها لها ، تبقى هي السبب في انصراف انتباهه ، ولماذا لم يشعر إلا بعد أن فات الأوان أن السفينة تميد بطريقة غير عادية ، وبالتالي غرق . غرق مع أولئك الرجال كلهم . ما مدى خطورة أن يرخي المرء العنان لنفسه لتحلم بالشغف ، بالنمش والعيون ، يستسلم للأحلام بدلًا من التركيز على الكفاح من أجل الحياة . هذا ما هي الأمور عليه . يستغرق المرء في التفكير في الشِّعر فينسى معطفه الواقي من الماء ويتجمد حتى الموت . يفكر كثيرًا في امرأة ، في عبير شعرها ، وكيف ربتت صدره وبطنه ، وبالتالي لا يلاحظ أن السفينة بحاجة إلى ترسيخها بالأثقال ، فتنقلب ويغرق رجال وهرة . هذا ربما يجب أن يعلمنا شيئًا . يعلمنا شيئًا عن خطورة الأحلام ، عن خطورة الشِّعر . لكن ، من يتذكر أولئك الذين نادرًا ما تشتت أذهانهم أو ربمًا أبدًا ، وما فقدوا قط أنفسهم في الأحلام ، لم يشعروا بالشرارة وشيئًا فشيئًا شابوا وشحبوا واندمجوا ، بلا مقاومة تُذكر منهم ، في الرتابة ، أولئك الذين أصبحوا رتابة وتلاشوا قبل أن يأتيهم الموت بمدة طويلة؟ أيمكن ، ما دام الأمر كذلك ، أن نسعى وراء الشرارة ، على الرغم من أنها قد تكلفنا حياتنا في وقت مبكر جدًا؟ يستحسن إذًا أن نجازف ونحيا ، بدلًا من الإحجام .

ليتنا فقط فعلنا ذلك .

١٦

استغرقت إعادة «القديسة لويز» إلى وضعها الطبيعي ثلاثة أسابيع تقريبًا . سفينة مقلوبة رأسًا على عقب تفطر القلب كثيرًا ، شعرنا بذلك كلما نظرنا إلى البحيرة الهادئة التي تعكس الجبال وتعكس السماء وتعكس وجودنا ، وكلما نظرنا إلى الغيوم التي تشبه الإنسان ، متغيرة أبدًا وسريعة الزوال وليس لها جذور . ثلاثة أسابيع من لعبة شدّ الحبل مع قاع البحر . وذات ليلة جلست غيرترود على الشاطئ وراقبت ، جلست ليلة واحدة بأكملها . لا ريب في أن ليالي حزيران هنا في الشمال هي الأجمل في العالم ، نورانية سماء الليل يمكن أن تُذهل المرء بالسعادة ، تطرح عنه جانبًا القلق والإجهاد والكراهية والحسد ، وكل تلك الأشياء الكامنة كالآفة في البشر . كل شيء هادئ وشفاف . ليلة من ليالي حزيران تشبه قليلًا أنفاس القدير ، ولبرهة يصبح الوجود بأسره رقيقًا وساكنًا . لبرهة فقط . بالتأكيد لا تُشفى جراح الحياة في ليلة واحدة ، شفاؤها يتطلب أكثر من ذلك ، لكن نورانية الليلة تتعامل معها برفق ، وربما تتيح للمرء فرصة للبكاء . هل بكت غيرترود؟ أيمكن لشيء بشفافية الدموع وصفائها أن يترقرق في مثل هذه العيون القاتمة؟

جلست هناك الليلة بأكملها . ولم تنفرد بنفسها طوال الوقت ؛ فقد جاءت هيلغا حوالي الساعة الواحدة ومعها دثار ، وضعته حول كتفيها ولم تقل شيئًا ، اكتفت بوضع الغطاء على كتفيها ، مع ذلك حمل ذلك التصرف كلمات كثيرة . ثم وقفت بصمت ، على مقربة من سيدتها . حيث تنتهي اللغة يبدأ التقارب . بعد ذلك عادت هيلغا إلى البيت . وواصلت غيرترود جلوسها خلال الليل في حضن الصمت ، راقبت وفكرت ، وما بين حين وآخر ثنت أصابعها ، كان لا بد من أن تفعل ، فالخدر عشّش في تلك الأصابع من لوعة الحنين ، وعزوف الدم عنها كساها بالبياض ، وثمة احتمال في أن تتضرر ويتوجب قطعها ؛ وهيلغا لديها سكاكين حادة . كلّ شيء محتمل . بعد أربع ساعات ، حوالي الخامسة صباحًا عادت هيلغا ، لم تعد ومعها سكين لتقطع دابر الشوق ، ولكن جلبت قهوة وكونياك . لم تشربا كثيرًا ، اكتفتا بالقليل فقط . ولما بدأت الشمس تدفئ الهواء جافًا كان أو نديًا ، وبدأ الذباب يطنُّ ، اندفعنا من بيوتنا بينما عارضة القعر القائمة تبتر ضوء الصباح .

١٧

يملك المرء القدرة على التكيّف مع أي شيء ، بل لسوء الحظ يتحتم عليه أن يكيّف نفسه . لكن ، نشكر القدير على هذا ، لأن الحياة في هذه الحالة تستمر بلا توقف ، لا شيء يبدو قادرًا على منعها من الاستمرار ، لا وابل شهب ، ولا الانتقام الإلهي ، أو تهديدات الطبيعة ، أو وحشية الإنسان . تجيء السفن وتذهب ؛ المراكب الشراعية ، وقوارب النجاة العائدة للنرويجيين التي تفوح منها رائحة النفط والربح ، سفن الإبحار الكبيرة ، والسفن البخارية الصافرة ، كلها تأتي وتغادر ، وتناور في الالتفاف حول عارضة قعر «القديسة لويز» . وها هي «الأمل» تصل ، طافحة بالسمك ، طافحة إلى سطحها ، محملة في الواقع بسمك قد صغير نوعًا ما ، لكن السمك سمك ، خصوصًا إذا كان سمك قد . كان جميع الرجال الذين على متنها يبتسمون ، كلاب البحر المتمرسين أولئك ، وجوههم الخشنة المحززة التي ذواها ملح البحر تشعُّ بابتسامات عريضة من الأذن إلى الأذن ، لا سيما وأن العودة إلى الديار رائعة ، ولو لليلة واحدة فقط بينما يجري إفراغ السفينة من القد ، فتتاح لهم فرصة تربيت رؤوس أحفادهم ومعانقة

زوجاتهم اللاتي بدأ الدهر يخني عليهن أيضًا مثل رجالهن ، وقد مر زمن طويل منذ أن كان التحدث عن الجمال مستساغًا ، ناهيك عن الأيدي الناعمة ، أثداؤهن المتدلية تشبه طيورًا فقدت كل أمل لها في التحليق ، والرجال أنفسهم شبه معدومي الأسنان ، ومع ذلك من اللطيف بمكان أن يستلقي الرجل وزوجته معًا ، كما درجا أن يفعلا قبل ثلاثين سنة ، بل ربما ألطف ، على الرغم من أنه قد لا يكون من المحبب رؤية جسدين هرمين متيبسين يحتكان ببعضهما ، لكن أحيانًا يجب ألّا نولي ما نراه أي اهتمام ، فالعيون يمكن أن تكون غبية جدًا ، وفي جميع الأحوال ليس مسموحًا لأحد أن ينظر ، ما نفعله لأنفسنا على انفراد لا شأن لأي أحد آخر به .

سرعان ما يصل سنوري مع بيورن وبيارني ؛ الأب والابن . أغلقوا المتجر نصف الفارغ ووضعوا ملحوظة على النافذة كُتبت بدقة : وصلت الأمل! نفتح أبوابنا قريبًا! يصعدون إلى السفينة ، يرحبون بالرجال . غدًا ، يقول سنوري ، سأحضر أنا والفتيان المعجنات ، سنحضر كمية فائضة منها ، وربما نجلب شيئًا جيدًا لشطفها!

الصباح التالي حافل بالعمل لسنوري وللأب والابن ؛ أُعِدّ الطعام وجُهّز ، بيض طيور بحر اشتراه سنوري من مزارعي سواحل المنطقة الشمالية الغربية ، بيض احتفظ به في مخزن مبرد ، لحم طُهي وخُزّن ، كمية وافرة من الماء ، وبسكويت يصمد أمام كل شيء ، قاس وبلا مذاق تقريبًا ، وباكرًا في الصباح يأخذون هذا كله إلى السفينة ، باكرًا جدًا ، والسماء تتنفس في الأعلى ، والوجود يرحب بهم مثل ذراعين مفتوحتين . تهتز «الأمل» برفق ، بطريقة غير ملحوظة تقريبًا وهي راسية عند الرصيف ،

تتطلع بشوق لتعود إلى البحر، حالها كحال برينيولفر الذي يتسلّم المؤونة. يدردشون، وسارية السفينة تنتصب مشرئبة في هواء الصيف الرائق. يربت سنوري كتف برينيولفر، هذا الربان الذي لم يغمض له جفن في البيت إلا بشقّ النفس وهو مستلق إلى جانب أولافيا. أولافيا التي شخرت قليلًا، ضرطت مرتين، تنهدت مرات لا تحصى، وحوالي الرابعة صباحًا أنّت، ليس كما تئن امرأة كبيرة في السن مرهقة ومتهدمة، ولكن مثل صبية، أو حتى مثل جرو خائف ويفتقد أحدًا ما. بعد ذلك بقليل، نهض برينيولفر من السرير، انحدر نزولًا إلى السفينة، والآن ها هو يتلقى تربيتة كتف دافئة من سنوري الذي يُخرج قارورة ويتناول برينيولفر منها جرعة وهو يتأمل ضوء الصيف. ثم يذهب ثلاثتهم إلى المخبز: سنوري والأب وابنه.

ينتظر الأب والابن خارج المخبز، في الصباح المشمس، يراقبان النساء يفتحن حزم سمك القد ويفرشن السمك على أسطح في موقع التجفيف العائد إلى متجر ليو وشركته التجارية. كلاهما يرتديان ثيابهما القديمة البالية وعلى وجهيهما لمسة إرهاق. الأم والزوجة ثورفيلدر لم تغادر الفراش منذ أربعة أسابيع تقريبًا؛ إنها مجرد وعكة بسيطة، تقول لهما، تلبُّك معدة وخمول. يقفان هناك في حضن الصيف، في الضوء و الهدوء، النساء يدردشن، يضحكن، صعب نوعًا ما أن تجتاح السوداوية المرء في مثل هذا الصباح، والسماء لا تعكر صفوها ولا نسالة غيمة واحدة. يعبث الأب والابن بأكمام سترتيهما الرثة، وسنوري يطلب الكعك الشعبي الرائج أبدًا الذي لا غنى عنه على متن سفن البلدة. والقليل من المعجنات الدانمركية أيضًا، ليس الكثير، فقط ما يُسعد الرجال، يقول، ليستمتعوا بمذاق حلو في أفواههم عندما يبحرون ثانية. يبتسم، لا يبتسم ابتسامة عريضة، إلا

أنها ابتسامة . لكن هناك في المخبز الألماني ، يتبع الصمت كلمات سنوري ، طلبه العادي للكعك والمعجنات ، ثم يتضرج وجه عاملة بالحمرة ، والعاملة الأخرى تفتح فمها لتقول شيئًا ، ثم تغلقه ثانية وتنظر بعجز إلى زميلتها . يلاحظ سنوري ذلك فورًا ، وربما ما انفك ينتظر هذا . ذاك سيئ؟ يسأل بهدوء ، يسأل بتأنٍ ، يبتسم مرة أخرى فتهز الاثنتان رأسيهما ، عممت شركة تريجفي كلمة تقول إن سنوري مفلس ، وأن ليس لأحد أن يبيعه أي شيء بالدين حتى يسدّد ما عليه ، أو بشكل محدّد أكثر ، يوقع عقدًا يلزمه التخلي عن أملاكه نهائيًا . تعضّ الموظفة التي تضرجت بالحمرة شفتها السفلى بشدة ، والأخرى تنظر خارجًا ، ترى الأب والابن هناك يقفان متلاصقين ، كما لو أنهما يتمنيان أن يشتقا القوة من بعضهما لمواجهة العالم المظلم .

يقف سنوري متفكّرًا أمام منضدة البيع ، هذه أول مرة يُنكَر عليه الدَّين على الحساب خلال حياته الطويلة كلها ، أكثر من خمسين سنة بقليل ؛ لطالما كان موضع ثقة ، بقدر ما يمكن أن يتذكر ، ولم يدُرْ في خلده قط ألا يحترم التزاماته ، مثل هذا التعفن الأخلاقي ليس من شيمه ، بل ولا أثر له فيه ، على هذا النحو حافظ على سمعة متجره الصغير ، عالمه ، بمصداقية ورزانة وحكمة . الآن انتهى ذلك ، حدث ما حدث ، الظروف تغيرت ، رحلت زوجته ، استدعاها القدير لخدمته ، أولئك الذين ينصرفون إلى خدمة القدير يخونون الرجال . كل شيء أصبح أكثر صعوبة بعد رحيلها ، تدقيق الحسابات والظلمة ، يستيقظ وحيدًا ولا أحد لديه ليدردش معه . إضافة إلى أنه ليس من السهل أن يكون المرء صغيرًا في مواجهة الشركات الكبيرة ، صعب أن يتنافس مع تريجفي وليو . بهدوء وتروٍ ولكن بإصرار

عمِلًا على استدراج الزبائن ، هكذا جرت الأمور ، وهو بدوره كان في منتهى الضعف والانعزال وفي منتهى أي شي آخر ليتصرّف . لا بأس ، يقول سنوري أخيرًا . لا بأس ، يستعمل هذه العبارة المهمة ليكسر حاجز الصمت المستهجن ، وتتنهّد المرأتان . لا بأس ، هذا ما هي الحال عليه ، كل شيء يأخذ مجراه ويصل إلى نهاية ، كان يجب أن أدرك ذلك طبعًا ، بدلًا من أن أضعكما في مثل هذا الموقف المزعج . مع ذلك ، أود أن . . . يقول وهو يفتش عن بعض قطع العملة المعدنية في جيبه ، أود أن آخذ ست قطع من معجناتكما الدانمركية ، وسأدفع ثمنها نقدًا كأي رجل محترم! بلا أي كلمة تضع إحدى المرأتين عشر قطع من المعجنات أو ما يقاربها في كيس ، والأخرى تدفع العملة المعدنية نحوه ، يخرج سنوري من الكيس أربع قطع ، يضعها إلى جانب النقود ، مسفرًا عن ابتسامة باهتة ويقول ؛ سنقوم بهذا وفق القانون .

يرى الأب والابن من تعبير وجه سنوري أن هناك خطبًا ما ، يلاحظان أن الكيس من المخبز أقل انتفاخًا بكثير مما تمنّيا ، بيد أنهما يبقيان صامتين ، ويتجه الثلاثة نحو رصيف الميناء . يتوقّف سنوري عند مخزن التبريد الذي ساهم في بنائه قبل أن يخسر سهمه فيه لصالح غيرترود ، يجلس في الطرف المشمس ، يشير للأب وابنه ليجلسا إلى جانبه ، يخرج المعجنات ، وهناك يجلسون ويواجهون اللسان الساحلي الذي كساه سمك القد المملح بالبياض ، يراقبون النساء والأحداث يحلون أربطة الأكوام بعد عاصفة ليلة أمس ، فينتشر السمك في اللسان الساحلي محوّلًا إياه إلى مقبرة ملائكة . يمضغ الرجال الثلاثة المعجّنات ، يسرّحون النظر في البحيرة . يخططون اليوم إلى إعادة قلب السفينة ، يقول سنوري . هذا جيد ، يعلق الأب . نعم

صحيح ، منظر عارضة القعر لا يسّر ، يقول الابن . إنها قاتمة جدًا ، يوافق الأب . هذا إن لم تكن سوداء ، يقول الابن . أنهى الأب والابن قطعتي المعجنات . وينهي سنوري قطعته ، يمسح فمه بظاهر يده ويقول ، أنا مفلس . يحدق الثلاثة في عارضة القعر ، غدًا أو بعد غدٍ ، يتابع سنوري ، سيمتلك شخص آخر «الأمل» وما تبقى من متجري . أنا لا أعرف ماذا سيحلّ بي ، لكن سأحاول أن أجد لكما عملًا . أمي متوعكة ، يقول الابن . لم يتبق لها الكثير من الوقت ، يقول الأب ، أوه ، لا أدري حقًا ، يضيف قبل أن يخلد للصمت ، وبالتالي يصمتون كلهم . ثم يخرج سنوري من الكيس ثلاث قطع معجنات أخرى .

١٨

يتقدّم حزيران ببطء وتصل أوائل مراكب الصيف من الشمال ، محملة ببيض طيور بحر ، وبعض المزارعين اضطروا إلى التجديف مسافات طويلة بمراكبهم إلا إذا جاءتهم رياح مواتية ، معظمهم يحطون على الشاطئ غير بعيد عن دار غيرترود ، عند نهاية الطريق ، ثمّ ينقلون البيض على حمالات إلى تجارهم ، ويحاولون على طول الدرب أن يبيعوا مباشرة من الحمّالات أكبر عدد ممكن إلى خادمات البيوت الراقية ، البيض الأحدث يُسلق ويؤكل ، البيض الأقدم يستعمل للخَبز ، غالبًا للكعك المسطح ، ليس في الحياة أشياء كثيرة أشهى من كعك مسطح بالزبدة وساخن .

يحاول الفتى تعقّب مزارعي البيض على أمل أن يلمح بيارني من نيس ، يسمع أخبارًا عن الأطفال ، يتاح له أن يرى وجهه ، ليقول شيئًا عن هيالتي ، وأنهما قد فقداه ، أنه كان لطيفًا ، لكن حزيران ينقضي بلا أي أثر لبيارني ، لا بد من أن فرصة الالتقاء به فاتت الفتى ، إلا إذا قصد سيغردر في سليتوري؟ ومن يدري لعل هيلدر عادت وقيدته من جديد؟ يجري الفتى خمس مرات ، ست مرات ، سبع مرات في الأسبوع ، والآن صار

يتطلع بلهفة إلى أوقات الصباح، إلى الجلوس مع أندريا وهيلغا، ويستمع إليهما تدردشان. بدأت أندريا تدعوه بأسماء التحبب التي كانت تطلقها عليه في كوخ صيد السمك، عندما لا يكون هناك أحد آخر يسمعها ما عدا باردور: يا صغيري، يا روبياني المنمنم ويا فتاي الحالم. كيف حال فتاي الحالم اليوم؟ تسأله ذات صباح، وتقول هيلغا: أصبت الكلمة المناسبة لوصفه. كيف حال فتاي الحالم؟ حلمت أنكِ كنت أميرة في أرض نائية، ذات أشجار وشمس مشرقة وبركة جميلة؛ وأنا كنت فارسًا مغوارًا وأقسمت أن أقاتل من أجلك طوال حياتنا. ما حاجتكَ إلى أن تقاتل من أجلي؟ جمالكِ وحسن أخلاقكِ عظيمان جدًا ما يجعل النبلاء والأشرار على حدّ سواء يتمنون الحصول عليك؛ الأشرار بوساطة وسائل شريرة إذا اضطرهم الأمر. أوه، في هذه الحالة يجب أن تحميني، ولطيف منك أن تجعلني أميرة، وأنا مجرد تلك المرأة العادية، بيدين قبيحتين محتقنتين. أحيانًا تخبرنا أحلامنا من نحن، يقول الفتى، إلى جانب أنها ترينا كيف ينبغي أن يكون العالم، والآن نعرف أنكِ في الحقيقة أميرة في بلاد جميلة ومشمسة. ما قالته غيرترود صحيح، تقول هيلغا، ستكون خطرًا يا فتى إذا فقدت براءتك.

على ذلك النحو يقضون فترات الصباح الهادئة واللطيفة، وهذا ثقل مهم في كفة ميزان الحياة؛ الميزان الذي يتأرجح باستمرار، السعادة في إحدى كفتيه وفي الكفة الأخرى الشقاء، فأيهما أثقل يا ترى؟ غالبًا ما تذهب أندريا لتنام في ساعة متأخرة، تحملق في سقف القبو، عيناها بحمرة يديها، وكولبين يبدو أنه يعاني أكثر فأكثر من صعوبة النهوض فجرًا، وينزل متأخرًا، وحينها يكون مثل قبضة مكورة، حطام سفينة في محيط

مظلم . وغيرترود تمتطي الحصان يوميًا وتيمم خارج البلدة ، وعين خيالها ترى أن عارضة القعر السوداء تشرم ضوء النهار ، ولعلها تحلم بهرّة شبه يافعة مستلقية إلى جانب رجل اقترب منها أكثر مما ينبغي وغرق .

كيف حال فتاي الحالم؟

حلمت أنك كنتِ أميرة أشجار وشمس مشرقة .

كيف حال فتاي الحالم؟

أنا قلق على ينز ، يجب أن أكتب له ، وأريد أيضًا أن أكتب إلى سيغريدور خطيبة باردور ، أعتقد أن باردور كان يودّ أن أفعل ، لن أنساه ما حييت ، هو مثل السماء التي فوقي .

كيف حال فتاي الحالم؟

أفتقد أخي ، اسمه إيغل ، بيد أنني لا أعرف أين هو .

كيف حال فتاي الحالم؟

حسنًا ، قابلت راغينهيلد قبل يوم أمس ، كان الجو مشمسًا وهي تمتطي حصانًا ، كما تمنت تمامًا ، أن تذهب في جولة تحت الشمس ، ويوم قالت ذلك بدا لي أنه يفترض بي أن أكون شيئًا ، الحصان أو نسيمًا يلامس وجنتها ، لكن عندما أزف الوقت اتضح أنني لا شيء ، لا شيء تقريبًا ، مجرد شخص في الطريق عليه أن يتنحّى جانبًا ليخلي السبيل للخيول ، كانت مع ثلاث نساء أخريات من العوائل المرموقة ، تفوح منهن رائحة النقاوة وكل ما لا نملكه ، يرمقننا بتعالٍ بدلًا من النظر إلينا .

اتكأ على السياج خارج البيت الذي تحيطه حديقة تحتوي شجرتي غبيراء ، والتفت ملقيًا عليها نظرة ، ولا شيء أكثر ، ثم نظر أرضًا كما هو متوقع منه .

فجأة تذكّر الشِّعر، أو بالأحرى، بدا كما لو أنَّ الأبيات تدفقت في مجرى دمه مثل قوة طاغية، أبيات من قصيدة قرأها في نشرة دورية أعطاها له غيسلي، قصيدة غريبة لشاعر أمريكي: «أنا شاعر الجسد، أنا شاعر الروح.» أسرت القصيدة الفتى أما غيسلي فلا. صاخبة إلى حد بعيد، قال ناظر المدرسة، ينقصها التركيز، إنها مفككة أكثر مما ينبغي، تتداعى إلى قطع صغيرة لا تفيدك في شيء، لا تهدر وقتك على هذه القصيدة. هذا على أي حال كان ما فعله الفتى بالضبط، صرف وقتًا في نسخها، من ديوان أوراق العشب للشاعر الأمريكي والت ويتمان، ترجمة إينار بنيديكتسون. لا قافية، لا أثر لها، فقط جمل خطرة مضمَّنة بطاقةٍ منفلتة بلا قيود، وشيء جسيم، شيء يحمل وعدًا بسماء أوسع، بأرض أكبر. وقف إزاء السياج حيث صعدت زحفًا نحو الضوء شجرتان صغيرتان؛ نظر إلى الأرض وتدفقت القصيدة في مجرى دمه. «أتفوقتَ على البقية؟ أأنت الرئيس؟ إنها تفاهة، فلسوف يصلون جميعًا إلى أكثر من هناك ولسوف يتجاوزون. الماضي والحاضر مستنفدان، لقد ملأتهما وأفرغتهما، فيَّ يسكن الذي سيكون.» رفع بصره وهذه الكلمات تمور في دمه، انتقلت عدواها إلى نظرته، كان تجنبها مستحيلًا، فيَّ يسكن الذي سيكون؛ هكذا نظر مباشرة إلى راغينهيلد. راغينهيلد التي كانت بشكل لا يمكن إنكاره واثقة من نفسها وجميلة في ثقتها بنفسها، بثوب أزرق مزركش بالدانتلة البيضاء وشريط أحمر في شعرها، وفاقت بتألقها رفيقاتها، فاقتهن بتألقها حتمًا. التقت عيونهما، كان من المستحيل تجنُّب ذلك، انفرجت شفتاها، كما لو أنها تقريبًا احتاجت إلى أن تزيد من سرعة تنفّسها، لاحظ صدرها يعلو ويهبط، نهديها اللذين احتكّا

به مرة ، كما لو أنهما أرادا أن يخبراه شيئًا ، ثم مرّت ، كانت لحظة من أقصر اللحظات ، ووقف بعدئذٍ وحده هناك ، وتمتم ، «ها أنا أقف الآن بروح صامدة .»

١٩

ربما ليس هناك اختلاف عظيم بين التاجر سنوري وبين «القديسة لويز» التي أعيد قلبها أخيرًا ، وتقف الآن في البحيرة بائسة ومبعجة . وماء البحر أتلف حجراتها ، وتقريبًا كل ما يذكّر بالنوتيين اختفى ؛ القبطان أندرسون ، العاشق والزوج والأب انتظر بصبر في حجرته مع هريرته بين الأوراق والكتب وخرائط الإبحار التي دمرها البحر . دُفنا معًا في مقبرتنا ، ولا بد من أن يقال إن ذلك جرى بشيء من الاستعجال . مُنحت الهرة الفانية مكانًا تحت الأرض أيضًا ، من غير أن يعرف القس ثورفالدور الذي كان من الطبيعي أن يحول دون ذلك ، أو كان تحسَّس طريقه خلال موعظة بالية عن كيف أننا كلنا نعود إلى الأرض ، ومن الأرض نُبعث فرضيًا كملائكة أو أي شيء آخر جميل ، متحررين من أجسادنا ، ذلك المتاع الثقيل الذي نجرُّه عبر الحياة . وضعوا يدي القبطان الكبيرتين على الهريرة ، بدا ذلك لطيفًا ، أخفّ وحشة ، إذ ما كان ولا حتى جون أندرسون ليرضى أن يسمع عن الصعود إلى السماء بلا هريرته . الهريرة التي اختارتها ابنته له خصيصًا لأنها كانت تفتقده كثيرًا جدًا كلما أبحر ، والآن لن يغادرها

الشعور بالفقد أبدًا . وهكذا رحلا معًا ، هريرة ورجل إلى باطن الأرض ، غرقا معًا ، على أمل أن يعبرا معًا إلى أرض الخلود التي يجب أن تكون بانتظارنا في مكان ما مع فنجان قهوة ، ومشهد يطل على ما هو جميل مع وعاء حليب لذيذ للهريرة .

تهتز «القديسة لويز» المنكوبة في البحيرة ، مشهدها محزن ، سفينة موت ، مشهدها محزن لكن ليس غير مربح ، إذ استُخدم النجارون لتجميلها ، لإصلاحها ، لتنظيفها ، لاستعادة حالتها المناسبة للإبحار ، فالمزوّد في إنجلترا يدفع التكاليف ، وطاقم جديد في طريقه إلى هنا ، قبطان جديد لغيرترود ، يقول بعض الناس ؛ لا فائدة ترجى من العشاق الأموات ، يمكنكم أن تروا أنها تتطلب الكثير ، نعم صحيح ، هذا في منتهى الوضوح ، انظروا فقط إلى زاويتي فمها ، هذا جلي ، نعم ، لطالما قلتُ إنها مستعدة إلى مضاجعة «الشرير» إذا أتيح لها أن تفعل . إذا أتيح لها ، كيف لك أن تعرف أنها لا تسمح له بمعاشرتها بانتظام ، يضاجعها بجنون في مكان ما هناك بين أوراق العشب؟ لا ريب في أن لديه قضيبًا ضخمًا لعينًا ، يضيف شخص ما بنبرة جدية . اشتغل النجارون على «القديسة لويز» ، أعادوا إليها شكلها ، هم ومساعدوهم من متجر تريجفي وشركته التجارية ، وأثناء العمل يلمحون غيرترود تمتطي حصانًا على طول الزقاق البحري تجاه تانجودالور ، يوميًا تقريبًا ، حتى في المطر والريح المرهقة ، ثم تصعد ميممة أزقة بحرية أخرى ، فيضعون أدواتهم جانبًا ويلاحقونها بعيونهم ويقولون هذه الكلمات عنها . تنطلق بسرعة ، ممتطية حصانها ، هي طبعًا سبق أن باعدت بين ساقيها ، قد يقول أحدهم وهو يفرك عينيه ، في المناخ الجاف يتطاير شعرها الأسود كأنه جناحا غراب يرفرفان حول رأسها . نادرًا ما قضت أي وقت

في الدار منذ أن قلبت العاصفة السفينة وقتلت البحارة وهريرة ، تنطلق بعيدًا يوميًا تقريبًا ، وأولئك الذين يصادفونها ويحيّونها ، أولئك الذين لا يتجنبونها ، لا يتلقون منها ردًا ، تحدق إلى الأمام مباشرة ، تعلو وتهبط مع حركة الحصان ، تعلو وتهبط بمرونة ، وبفخامة أيضًا . يستعصي على أحد إنكار ذلك ، ويغمغم أولئك الذين على سطح «القديسة لويز» ، إنها قطعة جيدة هذه التي يستفرد بها الشيطان .

يجلب لها الفتى حصانًا من حقل هانسن ، يلاطفه ببعض الخبز ، ثم يأخذ سرجًا من يوهان ويمتطي الحصان بسرعة كبيرة ، بعدوٍ يسابق الريح ، متجهًا إلى الدار ، صعب ألا يفعل ما يفعله حتى مع اضطرار الناس إلى التنحي بعيدًا عن الطريق وهم يُلحقونه بسيل من الشتائم ، لكن من الرائع كثيرًا أن يشعر بالقوة ويصبح واحدًا معها . تخرج غيرترود ، تشكره مع ابتسامة ، تتكئ على الحصان ، وربما تتيح للفتى الفرصة ليقول بضع كلمات . في تلك اللحظات يبدو كما لو أن في وسعه التقرب منها أكثر قليلًا ، كما لو أنها تسمح له أن يكون جزءًا من حياتها ، كما لو أنها تتخلى عن حذرها ، إلا إذا كان هذا الحذر قد تصدّع وتركها غير محصّنة . تسأله عن الأمور العظيمة والتافهة ، تسأل كأنما ليس هناك اختلاف بين الاثنين . ومن حين لآخر يعضّ الحصان الفتى بينما هو يتكلم ، كأنه يحاول جذب اهتمامه إلى أن الخبز شهي ، ولا بأس في أن يعطيه الفتى مزيدًا منه . فيحكُّ الفتى ما وراء أذن الحصان ، ثم بعد أن يقول الكثير ، حتى عن الأشياء التي لا يشير إليها أبدًا ؛ يتجرأ على سؤالها : من أين هي؟ كيف عاشت؟ لكن غيرترود تتجاهل أسئلته وتتابع طرح أسئلتها . مرة أسمعها الفتى شعر السيد ويتمان ، ما يتذكره منه ، وهذا في الحقيقة

قدر لا بأس به . فبادرته بقولها ؛ إنه جيد ، مختلف ، أشكرك على تلاوته لي . غيسلي لا يستحسنه ، يقول إنه يزعجه . غيسلي ينتمي إلى تلك الفئة من العائلات ، تقول وتعتلي حصانها . ترنو إلى الفتى الذي ما سبق له قط أن رأى عينين قاتمتين كعينيها ، وما يقوله حرفيًا هو : ما رأيت قط مثل هاتين العينين الداكنتين من قبل . أهما مثل ليل الشتاء؟ تسأله . نعم ، يجيب ، ثم يجد نفسه يضيف من غير أن يعي جيدًا لماذا ، هما أيضًا مثل الزمن . تنحني وتداعب شعره ثم تنطلق . تنطلق بسرعة ، تنحدر نحو الزقاق البحري ، شعرها مثل جناحي غراب ، عيناها بظلمة الزمن ، فيقف عدة رجال على سطح «القديسة لويز» ويرددون كلماتهم عن غيرترود .

إصلاح سفينة مهشمة ليس مستحيلًا ، ما المطلوب إلا أيادي ماهرة ومواد وتمويل ، ولدى متجر تريجفي وشركته التجارية هذه الأشياء كلها ، أو هي تخضع لسيطرته . إلا أن شركة تريجفي التجارية ، لا تملك بطبيعة الحال أيدي النجارين ، ليس مباشرة ، على الرغم من أن الحال قد تكون كذلك أيضًا ، وثمة احتمال كبير في أنها كذلك . لا ، ليس صعبًا إصلاح سفينة ، هذا يستغرق وقتًا فقط ، بالكاد أكثر من بضعة أسابيع ، أسبوعين أو ثلاثة في هذه الحالة . لسوء الحظ ترميم شخص مشتت وممزق ليس بمثل هذه السهولة ؛ ترميمه لن يفيده في شيء ولا حتى مجهود أصحاب الصنائع السبع ، لا على الإطلاق . بصريح العبارة لن تفيده أخشاب لطيفة الرائحة وبراغي متينة ، نعم ، حتى المال لا يفي بالغرض ، على الرغم من أنه العقيدة الأوسع انتشارًا في العالم . لهذا يمكننا أن نقول ونحن بأمن أن سنوري يبدو أسوأ من «القديسة لويز» . ما حطمه ليس

عاصفة ربيعية عاتية وإن كانت قصيرة الأجل ، ما حطمه هو الزمن بحدّ ذاته الذي عانى في خلاله الكثير جدًّا جدًّا من اللحظات المظلمة ، ما حطمه أحداث حياته : زوجته ، القدير ، الإحباط ، والعزلة . يجلس طوال النهار في بيت شبه فارغ ، يحملق في لا شيء ، يعزف على الأُرغن الذي حالفه قليل من الحظ ليكون لديه في البيت ، لكن عليه أن يخلِّفه وراءه عندما يبحر إلى ريكيافيك في غضون عدة أيام على متن «ثايرا» نحو أذرع المجهول . ما عاد ممكنًا الاستمرار في هذا لدقيقة واحدة أكثر ، يقول رجال تريجفي ، الذين عمدوا إلى إشاعة خبر إفلاس سنوري ، وطالبوا الناس بألا يسمحوا لسنوري شراء أي شيء على الحساب ، وقلة من تجاسروا على الاعتراض ومخالفة هذه الأوامر . كان أغلب ما تراكم عليه من الديون يخصّ متجر تريجفي وشركته التجارية ، لسنوات ، لمدة جدّ طويلة ، استدان معظم رأسماله ، وكان عليه أن يسدّد مبالغًا عالية جدًّا مقابل سلعه التي لم يكن قادرًا على بيعها بربح جيد ، هذا إذا جاءه منها أي ربح . بعض الناس ليسوا مؤهلين للعمل في التجارة ، قال هوغني رئيس المحاسبين لدى تريجفي ، وبالتالي مِن الأرحم ، قطع دابر أولئك الناس قبل أن يُسقطوا الآخرين معهم . كثير من زبائن سنوري وربما الأكثر إخلاصًا انسلخوا عنه على نحو بالغ السوء ، مضطرين إلى إنشاء علاقات عمل جديدة مع تريجفي بينما هم يتمرغون في الديون ، بلا أي فرصة حقيقية لديهم ليتخلصوا منها . ينهض سنوري متأخرًا وبحالة يرثى لها ؛ ينام نومًا متقطعًا ومتشنجًا ، يتقلب ويستدير والعرق ينضح منه ، وأحيانًا يكون فراشه مشبعًا بالبلل أيضًا ، يعزف على الأُرغن مقطوعات تعود إلى مئتي سنة خلت ، وما عاد يهتم بضبط الآلة ، ولماذا

يجب أن يفعل؟ الحياة ، تلك الآلة الموسيقية العظيمة ، ليست جهيرة ولا مضبوطة الأنغام من قبل القدير .

أُصدِقكَ القول إنهم أوغاد حقيرون ، تقول مارتا صاحبة مشرب سدوم التي بدأت مؤخرًا تزور سنوري يوميًا ، وتحاول إقناعه بتناول الطعام ، على أمل سماع بعض تلك المقطوعات الموسيقية القديمة من أسفل الجنوب الأوروبي . أنا لا أفهم ، يقول سنوري ، لماذا تهدرين وقتك عليّ ، لديك ما يكفيك من المشاغل ، أنا متأكد من أننا في الصيف ، يضيف ، كما لو أن هناك ما يستدعي الإشارة إلى ذلك ، ففي الخارج يمتد الضوء ورائحة سمك القد المملح إلى منتصف الطريق نحو السماء . لن أسمح لأولئك الأوغاد أن يقضوا عليك بلا معركة ، تقول مارتا ، ثم أنا مدينة لك بهذا القدر ، وعلى هذا يقول بدهشة ، مدينة لي؟ أي هراء هذا ، أنت ما كنت مدينة لي بأي شيء مطلقًا . تبتسم مارتا وتحدق في التاجر بعينين حالمتين ، فيشعر بالحرج ويفكر لبرهة في أن صاحبة المقهى هذه ، الصلبة والمتقدة قد تكون منجذبة إليه ، ينظر بطريقة خرقاء إلى يديه المستريحتين على لوحة مفاتيح الأُرغن ، هل الأمر كذلك؟ يقول عندما يدرك أخيرًا ما تعنيه ، فيعزف مقطوعة قصيرة ليبهجها .

من حين إلى آخر ترسل هيلغا الفتى أو أندريا مع شيء صغير للتاجر المنهار : خبز ، قهوة ، لحم طيور بحرية . وآخرون غيرهما يمرّون عليه أيضًا ، على الرغم من أنهم أقل عددًا من أولئك الذين قصدوا سنوري عندما كان قادرًا على تحمُّل الوقوف على قدميه ، ألوان أصدقائنا الحقيقية لا تظهر إلا عندما تعصف الرياح العاتية . تطهو له مارتا وتلعن متجر تريجفي وشركته التجارية ، تلعن الأصدقاء المنفضّين عنه . يظنون أنهم يفعلون الصواب ،

يقول سنوري ، مع أنه ليس من الواضح أَعَنَى بذلك الشركة أو الأصدقاء ، ربما يقصد الاثنين ، ويربت كتف مارتا ليهدئها ، وربما أيضًا ليشعر بحضور شخص آخر . إن أحوالنا تكون في غاية السوء إذا لم يتيسر لنا قط أن نحظى بفرصة لمس أشخاص غيرنا ؛ هذا أشبه بانتشار الذبول في أطراف أصابعنا ، حيث تصبح بلا حياة كأصابع المومياءات .

ربما لهذا السبب تعبث غيرترود بشعر الفتى قبل أن تنطلق على حصانها ، تعبث بشعر الفتى وتقول كلامًا ما ، ثم تنطلق نحو الزقاق البحري ، توغل في الوادي ، ثم فوق مرج حيث أكوام الثلج تتضاءل . تنطلق من غير أن تقول كلمة لأي أحد خارج الدار ، كما لو أن شيئًا ما عاد يهمها لأن بحّارًا أجنبيًا ، قبطان سفينة ، غرق مع هريرة ، ما عاد يهمها شيء يتعلق بالحياة ، يتعلق بمشاريعها التجارية . ألا يبين هذا بمنتهى الدقة كيف أن النساء لم يُخلقن لخوض مجال الأعمال ، بما أن أحزانهن تحول دون اتخاذ مواقف حاسمة ، تحول دون أن يكنّ مؤهلات لتولي المسؤولية؟ هن بالتأكيد يعرفن كيف يعشقن ، وهذا رائع ، يعرفن ذلك أفضل مما يعرف الرجال ، وهذا بالضبط سبب معاناتهن في اتخاذ قرارات مدروسة بعناية ، بفقدانهن على سبيل المثال رشدهن بسبب الحزن والقُبل ولغو طفل يحبو . هكذا تجري الأمور فحسب . ولا يمكن أن يغير أحد قوانين الطبيعة .

غونار ، صاحب الشارب العظيم ، الموظف في متجر تريجفي ، ينحني فوق منضدة البيع ويدردش مع زبونين مخلصين عن غيرترود ، قائلًا هذا الكلام عن النساء ، إنهن أفضل في المشاعر ، بينما الرجال أفضل في شؤون المحاسبة والإدارة ، واتخاذ القرارات الصعبة التي ينبغي أن نكون

سعداء بها . يوافقه الآخران ، وغيرترود تنطلق على حصانها في الضوء والصيف ، في السكينة والريح ، في الشمس أو المطر ، لتبقى وحدها ، وحدها مع حزنها ، شعورها بالخسارة ، أو لتسمح للشيطان وعفاريته الصغار أن ينالوا وَطَرَهم منها . تبًا لهذا ، يقولون على سطح "القديسة لويز" ، ويعودون بحكم الواجب إلى مهماتهم . يعزف سنوري الأُرغن ، يتقلب ويستدير ، يعجز عن النوم ، ينتظر سفينة لتأخذه بعيدًا ، مهزوم كليًا ، مفلس ، وتقريبًا كما لو أنه يريد أن يتفادى الخروج إلى العلن ، وهو منحن من المذلة ، وربما يخشى أن يلتقي بأولئك اللقطاء المساكين الذين ، بسبب إفلاسه ، انتهى بهم المطاف إلى قبضة شركة تريجفي ، يخشى أن يواجه زوجات أو أبناء بحارة سفينة الأمل التي ما زال يملكها ، ولو بالاسم فقط ، يضخّ دواسات الأُرغن ولا يفهم لماذا لم تستول شركة تريجفي على السفينة كضمانة لسداد ديونه . لعل فريدريك ينتظر تريجفي شخصيًا المتوقع حضوره في الوقت المناسب ؛ وهو الآن في هذه اللحظة يبحر على متن سفينته الخاصة وفي منتصف الطريق بين آيسلندا والدانمرك ، سفينته القديمة الرائعة ، إلا إذا اشترى سفينة بخارية . لعل فريدريك يرغب في إخلاء الساحة لتريجفي ليطالب بسفينة الأمل التي وضع عينه عليها مدة طويلة ، من أجل اسمها ومن أجل حظها الوافر في صيد السمك . وعندما ينسلّ سنوري أخيرًا خارج بيته ، لا يُسرّ رجال تريجفي على وجه الخصوص بهذا ، ينسلّ خارجًا بعد عدة ساعات من انطلاق غيرترود نحو الزقاق البحري ، وقد سمعت لتوّها قصيدة أمريكية طويلة . هل أنت الملك؟ هذا أمر تافه ، لا يُسرّ رجال تريجفي عندما يذهب سنوري قاصدًا هوغني رئيس المحاسبين ، بوجه شاحب وكتفين

مقوستين وأبعد ما يكون عن الوقاحة ، ويسدّد ديون العائلات الخمس التي تلقّت الضربة القاصمة بإفلاسه ، عائلات مهيضة الجناح تعيش في الحي القديم ، هكذا ببساطة . لا يقول شيئًا في ما يخصّ من أين جاءه المال ، لكن الإشاعة تنتشر بسرعة ، ولعل مارتا أول من أطلقها ، مارتا التي جاءتها المعلومة من فم سنوري شخصيًا ، بأن في ذلك الصباح نفسه جاء إلى زيارة التاجر المنهار ، يوهان محاسب غيرترود ومعه عرض نقدي مقابل "الأمل" ، تحت سعر السوق بقليل ، على وجه التحديد ، لكن سنوري لم يكترث ، وافق على الصفقة ليحل الأنشوطة من حول رقاب العائلات الخمس ، إضافة إلى أنني في النهاية لست أعلى مستوى من مثل هذه الأشياء ، قال ليوهان مع ابتسامة باهتة ، أعني الذهاب إلى فريدريك لأستفزه وأشبعه وخزًا .

وهذا ما جرى . أسفر استفزاز سنوري لفردريك عن مفعول جيد جدًا في الحقيقة ؛ لم يسرّ فريدريك مطلقًا عندما علم أن "الأمل" قد انتُزعت منه في آخر لحظة ، ومن قِبل غيرترود التي استغلت فرصة يأس سنوري واستولت على السفينة بسعر مخفّض ، العاهرة صاحبة القلب الجليدي ، وعلى الأرجح دفعت بفضة حصلت عليها من الشيطان نفسه . هذا يؤلم وتريجفي لن يكون مسرورًا حتمًا . فقدَ فريدريك السيطرة على أعصابه ساعة جاءه بالأخبار رئيس المحاسبين القلق ، ولم يقل أي منهما شيئًا عن اللقاء الذي جرى بينهما ، لذا لا نعرف كيف كان رد فعل فريدريك بالضبط ، قال شخص ما إنه جرف كل شيء كان على مكتبه : المحبرة والأقلام والأوراق والملفات ؛ وقال شخص آخر إنه كاد يقتلع رأس هوغني من رقبته بصراخه . هذه مجرد إشاعة ، تخمين ، لكن في الوقت نفسه

نعرف أن فريدريك أخرج مسدسًا جاءه هدية في الشتاء الماضي من قبطان سفينة أجنبي ، وأفرغه على الجدار . مسدس بست طلقات . والطلقات سُمعت ، ولو أن أحدًا لم يكن متأكّدًا من عددها . أربع طلقات ، خمس ، ست . . . بيد أن المسدس أُطلق بالفعل ، وثقوب الجدار تشهد على ذلك ، ونحن بكل تأكيد سمعنا التقارير . الطلقات النارية ليست حدثًا يحصل يوميًا تحت هذه الجبال .

٢٠

إذا كان القدير منصفًا فلن يتوانى عن توجيه ركلة قوية لمؤخراتهم .

عندما يصل الفتى ومعه طعام للتاجر المحطم يجده هو ومارتا واقفين خارج متجر سنوري . رجل يستطيع سداد الديون عن الآخرين ، قال رجال تريجفي لسنوري ، لا شكّ أبدًا في أنه يستطيع العثور على مسكن يؤويه في مكان آخر .

بعبارة أخرى انتُزعت أملاك سنوري منه ، وطُرد وليس معه سوى بضعة كتب ، ونوتات موسيقية وصور أولاده . إذا كان القدير منصفًا فلن يتوانى عن توجيه ركلة قوية لمؤخراتهم . تقول مارتا للفتى . قبل أن تمضي هي وسنوري إلى فندق آخر الدنيا ، سنوري الذي فقدَ الرغبة في الحياة وغير مبال بشيء مطلقًا . ويراقبهما الفتى بينما يبتعدان . اعترى سنوري النحول ، وغَدا هزيلًا مثل وتر يعزف عليه الوجود أغنيته الحزينة ، بينما مارتا ، من الناحية الأخرى ، لا شيء سوى حياة ، علامة تعجب في الوجود .

يسير الفتى ببطء عائدًا إلى الدار ، وفكره مشغول بينز الذي سألت عنه مارتا ، أهو بخير؟ فأجاب الفتى إنه نجح في الوصول إلى البيت وأنوي الكتابة له الليلة ، وعلى هذا قالت مارتا بينما هي تهمُّ بالذهاب إلى الفندق

وسنوري برفقتها مثل سفينة مهشمة ، ينبغي دائمًا سحب كل كلمة مفردة من ينز ، أحيانًا يبدو كأن لا فم له ، لكنني أفتقد رؤيته ، يمكنك أن تخبره بهذا ، وقد رأيت ساعي البريد الجديد أمس ، وليس فيه ما يستحق الرؤية ، بل بالكاد يكون أي شيء على الإطلاق .

سأكتب له الليلة ، عندما أصعد إلى غرفتي ، يجب أن أفعل حقًا ، يفكر الفتى . ويمرُّ أمام المدرسة ، يلقي نظرة على نافذة الطابق العلوي فتلتقي عيناه بعيني بيارني الرسام ومعلم مدرسة إضافي . وبيارني غارق حتى أذنيه لينفّذ طلبًا من شركة تريجفي يقتضي منه رسم سفن تريجفي ، الأسطول بأكمله ، وعليه أن ينجز العمل قبل وصول تريجفي . تلتقي عيونهما ويتبادلان نظرة سريعة ويفكر الفتى ، لا بدّ من أن القدرة على الرسم تشيع الرضا في النفس ، القدرة على أسر العالم والجبال والضوء بفرشاة وألوان ، سيكون من المشوق الاستفسار منه عن لوحة المذبح في سليتوري ، وربما التطرق في الحديث ، كتعليق هامشي ، وبلا مبالاة ، أنه ، أي الفتى ، قد تأمّل اللوحة مع فيغفوس ، لعلك تتذكره ، هو أحد الحواريين في المركب ، ثم يضيف أنه كانت هناك فتاة معهما أيضًا ، فقط لمجرد المجيء على ذكرها ، من غير الإشارة إلى عينيها الخضراوين وشعرها الأحمر ؛ إنما على أي حال كيف ترسم الشّعر؟ شَعر قاني الحمرة بحيث يمكن أن يخترق الجبال التي هي أثخن وأكثف من حياة المرء؟ سيكون من اللطيف التحدث عن هذا ، يفكر الفتى ، أو أن هذه الأفكار تومض في رأسه .

وتشوقه إلى محادثة بيارني ، محادثة شخص يفكر في شيء آخر إلى جانب السمك والأمور العادية ، يمنحه الشعور بالارتباط مع الرسام في

النافذة . يبتسم ويرفع يدّه اليسرى ويحيّيه ، ويردُّ الرسام التحية برفع يده اليمنى قليلًا ، ثم يسارع إلى إغلاق الستارة بفظاظة .

ربما ما كان يجدر بي أن أحيّيه ، يفكر الفتى وهو يبتسم لامرأة تمشي في الطريق ، إنها سفاندس التي تقيم في ملجأ الفقراء ولكنها أصغر إلى حد كبير من سكانه الآخرين ، لا تكاد تتجاوز الأربعين من العمر ، وشيء ما تحطم داخل رأسها عندما فقدت طفلها ابن السنتين قبل عدة أعوام ، وغالبًا ما تتسكع في أنحاء البلدة من الصباح إلى الليل ، في مختلف الأحوال الجوية ، كما لو أنها في حالة بحث عن شيء لا يمكن العثور عليه ، وعادة لا ترتدي شيئًا سوى مُزَق ثوب بالٍ . في الأسبوع الماضي ، وبّخ الفتى وطارد أربعة صبيان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر كانوا يلاحقونها وهم يسخرون منها ويرشقونها بالحصى . يا ولدي ، تقول ، وتمسّد وجنة الفتى عندما يعطيها الطعام المفترض أن يأخذه سنوري ، ويتسلم منها في المقابل قبلة ، قبلة باردة على الخد .

بينما يقترب من متجر ماغنوس يلمح مجموعة بحارة وقحين قادمين من سفينة دانمركية . يتوقف البحارة عندما يقتربون من الفتى الذي يتلكأ والخشية من شر مترقب تطعنه ، بيد أنه ليس مَن جذب انتباههم ، بل صياح مزارع بيض يُقبل من شارع البحر يرافقه ابنه ، والتشابه العائلي بينهما واضح ؛ معًا يدعمان حمّالة يدوية مكتظة بالبيض وطيور بحرية ميتة ، وكلاهما يمشي منحنيًا ، عادة توارثتها الأجيال في مناطق سكناها إلى الشمال ، لأن هذين البائعين من أهل ستراندر الذين يتعقبون البيض على المنحدرات ، منحدرات عمودية لا تخلو من المخاطر ، ينزلون على الحبال بحثًا عن البيض والصخور تهوي على رؤوسهم فيُسحبون إلى

الأعلى موتى بعد أن يخلِّفوا حياتهم وراءهم على المنحدرات . يخلِّفون ذكرياتهم ورغباتهم بين صخب الطيور . المساكن في ذلك المكان مقلقلة جدًا وسقوفها واطئة بحيث أن الرجال البالغين لا يستطيعون أن يقفوا باستقامة فيها ، وهذا يسِمهم ، هم دائمًا محدودبون ، فيظهرون كما لو أنهم من فرط ما يكنّونه من احترام للحياة والقدير يأبون على أنفسهم الوقوف شامخين بقامات منتصبة . يمشون بظهور منحنية كما يفعل المرء في أوقات الشمس المشرقة والجو الرائق والعواصف المظلمة العنيفة ، يمشون بظهور منحنية ولكن عود العديد منهم متين كالسياط . جاء الأب وابنه بالبيض في وقت متأخر ، وهما على الأرجح آخر مزارعي البيض لهذا الموسم ، شيء ما أخّرهما ، ولا نأمل إلا أن لا يكون البيض قد فسد . انطلقا من منطقتهما والأمل يداعب قلبيهما ومعهما قوائم أمنيات من أولئك الذين ينتظرونهما هناك ، طلبات تقتصر على أشياء صغيرة من ممالك الشركات التجارية ، وبين حين وآخر يصيح المزارع بصوت عال ، بيض ، بيض طازج للبيع ، وهو في طريقه إلى متاجر تريجفي ، وفي سريرته يعرف أنه ما دام متأخرًا في القدوم ستدفع المتاجر مبلغًا زهيدًا ، فهذا قانون العرض والطلب ، لذا يصيح في الطريق ، بيض ، بيض طازج للبيع ، ويضيف أحيانًا ، وطيور بحر غضّة ، على أمل أن يكون قادرًا على بيع سلعته مباشرة ، وبالتالي يضع في جيبه مبلغًا أكثر قليلًا . طيور بحر غضّة ، يصيح ، هذا على الرغم من أنه يستعصي على المرء أن يرى ما ذاك الغضّ في طير ميت ؛ الموت ليس غضًا أبدًا ، الموت غالبًا ما يكون قاسيًا وفاسدًا . يلوِّح البحارة الدانمركيون بأيديهم وينادون الأب وابنه ، فيحثُّ الأخيران الخطى ، مسرورين جدًا من حُسن الطالع الذي يبدو أنه جاء إليهما ، وبالتالي تشرق بارقة ابتسامة

على شفتي الابن ، وهذه الحركة العضلية البسيطة ترتسم أعمق منها بكثير في باطن الأب . لديهما سبب للابتهاج ؛ فتلك مجموعة كبيرة من البحارة وهم يدفعون نقدًا ، يا له من يوم ميمون ، الآن ستكون العودة إلى البيت مفرحة ، ولعل الابن يتخيل أشقاءه الصغار ، يترقبون عودتهما وهم يتحرقون شوقًا . لتحلّ رحمة الرب علينا ، هذا يمكن أن يكون يومًا خالد الذِّكر . ليس بهذه السرعة ، يسمع الفتى المزارعَ يقول بصوت مخنوق لابنه المتلهّف ، وهو أيضًا يبطئ الخطى ، سيكون سوء حظ مؤلم إذا مشيا بسرعة مفرطة ، ثم تعثّرا بحجر ، هذه الأحجار التي يوجد منها ما يكفي في الطريق ، وبالتالي يُقذف البيض من العربة اليدوية . يتريّث الفتى ليرى ما سيحدث ، يتحسّس الدانمركيون البيض ، ويريهم المزارع كيف يتيقنون من أنه طازج ، بحمله عاليًا تجاه الشمس ، وإنعام النظر فيه من بين الأصابع المعقوفة ؛ طازج تمامًا يقول بصوت عالٍ ، ويخرج الدانمركيون النقود والشمس ذهبية وكبيرة والسماء جميلة .

لكن كما يتبين لاحقًا ، ليس هذا آخر مزارع بيض لموسم الصيف .

يصل الفتى إلى دار غيرترود ، مأواه وملاذه . كتفاه منحنيتان أكثر من أكتاف الرجال في ستراندر وذهنه مشغول بهشاشة سفاندس ، بتعابير وجه الابن ، والفرح الذي أشرق في محياه مهما حاول أن يخفيه . وقبل أن يدرك وهو يكاد يتجاوز الدار تقريبًا ، يصادف مزارع بيض آخر ، يستشفّ حضور شخص ما ، لا أكثر من هذا ، ثم يصفو ذهنه فجأة وهو إزاء الدار ، يلتفت ويرى مزارعًا يمشي الهوينى هناك ، ويحمل طستًا عامرًا بالبيض . هذا المزارع يمشي وحده ولا يصيح ، يمشي صامتًا ، لا يتلفت ، يتجه إلى الأمام مباشرة ، بعزيمة . يميز الفتى هيئة ظهر الرجل وهو يتقدم ، لكن

يستغرق إشراق ضوء في رأسه فترة طويلة قبل أن يدرك، مندهشًا جدًا من رؤية هذا الرجل هنا في البلدة، كأنما هو يقابل شخصًا من حياة أخرى، فذاك في الواقع بيارني من نيس، بعيدًا عن خليجه، بعيدًا عن البحر القطبي، عن أطفاله الأربعة، والكلبة التي أطلق عليها اسم رجل، اسم وزير الشؤون الآيسلندية، بعيدًا عن أمه طريحة الفراش التي على ما يبدو لا تعرف كيف تموت. بيارني، يقول الفتى بصوت خافت متردد، لكن المزارع يواصل المشي بتؤدة، لا يقف إلا عندما يُنطق اسمه للمرة الثالثة، إذ يصيح به الفتى تقريبًا، يقف، يحملق كما لو أنه تائه في أفكاره، يضع الطست الثقيل على الأرض. ويلتفت ببطء.

عالم بأسره اختفى منذ آخر مرة التقيا فيها، منذ أن تبادلوا كلهم تحية الوداع عند حافة جبل، بالقرب من تابوت، والبحر القطبي في جهة والبرية في الجهة الأخرى، وسواد الأفق يطوق كل شيء. فجأة، تشنّ ذكرى هيالتي هجومها عليه بقوة كاد معها أن ينهار ويبكي، هناك في الطريق، في وضح النهار. تفصلهما مسافة، يتقدم الفتى بضع خطوات ولكن لا يقطع المسافة كلها، مراعيًا حدود حيزه وحدود حيز بيارني، تاركًا بينهما ثلاثة أو أربعة أمتار. شمس الصيف تتوسط السماء، إشراق شهر حزيران حاضر أبدًا، رائحة سمك القد تفعم الهواء، وأصوات القوم البعيدة يصل صداها إليهما؛ أصوات نساء ينظفن سمك القد ويجففنه، ورجال يفرغون حمولات السفن. معك بيض، يقول الفتى أخيرًا، لأنه من الطبيعي أن يعبِّر الناس عما هو واضح بالكلمات عندما لا يتجاسرون على الاستفسار عن الأمور الحاسمة؛ أأنت حزين، هل الأطفال على قيد الحياة، أتفتقد آستا كثيرًا؟ نعم، يقول بيارني على سبيل الإقرار بكل ما لم يُنطَق. أظن

أن هيالتي لم يعد؟ يقول الفتى متخليًا عن التطرق إلى السؤال عن ما هو واضح . لا ، يجيب بيارني . ولا كلمة منه؟ لا . لقد فقدناه ببساطة . لا يعلق بيارني بكلمة ، يحدق فقط ويتجرأ الفتى على المتابعة . نفخ ينز بوقه ونفخ ، صحنا ونادينا ، وذاك كان بلا جدوى ، ما كنا آنذاك قادرين على سماع أفكارنا ، وبالكاد تمكنّا من رؤية بعضنا . زوجتك ، آستا . . . أعرف ، يقول بيارني ، فيتنفس الفتى الصعداء ، مع أنه يجهل ما يعنيه بيارني ، وماذا يعرف ، أيعرف أنها اندفعت خارج تابوتها وحطت فوقه مثل لوحة إرشاد ، كانت لوحة إرشاد ، كانت في رأسه ، قاسية جلفة متهكمة باكية ومتوعدة ، أيعرف بيارني ذلك كله؟ على الأرجح لا ، لا يعرف ، لكن هناك أيضًا حقيقة أن المرء أحيانًا يعرف من غير أن تكون لديه أي فكرة عن أي شيء . الحياة ليست غامضة ، هي فقط غير قابلة لأن تكون واضحة . كيف . . . كيف حال الأطفال؟ هم في البيت . نعم ، في البيت ، هذا شيء جيّد ؛ وإلى أين تنوي الذهاب بالبيض؟ إلى متجر ليو . أعتقد أنك تأخرت كثيرًا ، ما يعني أنك ستحصل على سعر أقل . ربما . أتبقت لديك جولات كثيرة مع طستك؟ أربع جولات كما يبدو لي . أنا أعيش هنا ، يقول الفتى مشيرًا إلى الدار الكبيرة بإبهامه . يلقي بيارني نظرة على الدار ثم ينظر إلى البيض . ما رأيك في تناول القهوة؟ يقول الفتى بشيء من الانفعال ، غير راغب في فقد بيارني ، غير راغب في ذلك مطلقًا . قهوة ، يهتف بيارني ، لماذا؟ لا أدري ، يقرُّ الفتى ، لكنك قدّمت لي القهوة في بيتك . كان ذلك مختلفًا . وربما ترغب هيلغا في شراء بيض منك ، يضيف الفتى ، سعيدًا بهذه الفكرة التي لمعت في رأسه ، هي تدفع أفضل مما يدفع رجال ليو ، وتدفع نقدًا .

هل الطريق بعيد للوصول إلى هيلغا هذه ، وإلى القهوة؟

نحن نقف أمام بيتها تمامًا ، كما قلت .

حسن إذًا .

جيّد ، يهتف الفتى ، وهو يعني هذا ، هيا ندخل . من الباب الأمامي؟ يقول بيارني من فوق البيض ، ويقف متسمرًا . هذا أفضل . كيف يعقل ذلك؟ إن لم نفعل سنمر عبر المقهى حيث هناك حتمًا عدد كبير نسبيًا من الناس . ثمة الكثير من الناس هنا ، يقول بيارني ، بنبرة شبه يائسة . صحيح ، يوافقه الفتى قبل أن يضيف تلقائيًا تقريبًا ، مع ذلك ما زال عددهم قليل جدًا .

تشتري هيلغا كل ما في الطست من بيض ؛ هذا بيارني من نيس ، قال لها الفتى . من نيس ، كررت هيلغا التي تفاجأت ، ولربما فَرِقَت لكنها أخفت شعورها جيدًا ، والفتى أومأ برأسه . دفعت هيلغا ثمنًا جيدًا ولكن يميل إلى الاعتدال ، مدركة أن أي شيء آخر سيزعج بيارني ، عدّت العملة المعدنية وشكرها بيارني وهو يهز رأسه . وتُحضّر أندريا القهوة ، ثم تشرع في شطف البيض ، سعيدة بحصولها على ما تقوم به ، فأحيانًا يبدو كما لو أن هناك أيد عاملة كثيرة في الدار ، وشغل قليل . أولافيا في المقهى مع إيسلاغ ، امرأة أربعينية تقريبًا ، تعمل عادة في دار غيرترود صيفًا ، هذا صيفها الثالث ، زوجة صانع قوارب ولا تطيق الماء المالح وسمك الأحواض البارد والرطب ، إلى جانب أن لديها رضيعًا عمره تسعة أشهر . وابنتاها بعمر ست سنوات وثماني سنوات تحضرانه لها مرتين في اليوم لترضعه ، تأتيان بوجهين كالحين بعد معاناتهما من تهكُّم عدة أولاد ، يلاحقونهما طوال الطريق ويصيحون : ماذا يشبه أن تكون أمكما مثل بقرة؟ تأخذ

إيسلاغ الأطفال إلى المطبخ ، تعطيهم ما يشربونه بينما تعطي هيلغا البنتين سكاكر تتلذذان بمصِّها وتجعل أساريرهما تنفرج شيئًا فشيئًا . وفي حال ليس هناك عمل كثير ، تجتمع النساء حول طاولة المطبخ ، هيلغا وأندريا وغيرترود وأولافيا ، وتتفرجن على الرضيع وهو على صدر أمه ، تراقبن بصمت وكل واحدة منهن سارحة مع أفكارها .

لحسن الحظّ لا يجد الفتى إيسلاغ في المطبخ عندما يدخل مع بيارني ، فهي في المقهى تهتم بالزبائن مع أولافيا ، وأندريا التي تنهي شطف البيض لا تبدو على سجيتها . كان بيتور معها ليلة أمس .

جاء إلى هنا أول مرة قبل أسبوع ، دخل بهدوء إلى المقهى الذي كان تقريبًا مكتظًا بالرواد ، اكتشف مقعدًا شاغرًا في زاوية ، غاص فيه وجلس هناك ويديه على ركبتيه ، نظر إليها أو نظر إلى حجره وافتقد البحر ، هناك حرية في رفع العينين عن خيوط الصيد وعدم إبصار شيء ما عدا البحر الرصاصي اللانهائي ، عندها تصبح المتاعب بعيدة ويصبح كل شيء صغيرًا . لم تره أندريا فورًا ، فأشياء كثيرة تحتاج إلى الاهتمام بها ، قهوة ، جعة ، مشروب كحولي ، خبز ، وحساء . كانت مشغولة ، تستمع إلى طلبات الزبائن بتركيز وأحيانًا تبتسم ، نظر إليها بيتور وكفّ عن التفكير في البحر ، نظر إليها وارتعش شيء في صدره ، شيء ليّن مشاعره ، بيد أنه حافظ على تعبير وجهه القاسي والجدّي ، تمسّك به بقوة ، وهذا ما يفترض أن يكون ، لا ينبغي أن يفصح المرء عن سريرة نفسه ، لكن لماذا لا تبتسم هكذا في حضوره؟ في الحقيقة درجت أن تفعل غالبًا ، ابتسمت هكذا عندما يكون باردور والفتى في كوخ صيد السمك ، وإلا فلا . لماذا؟ بسط بيتور يديه ثم أطبقهما وهما على ركبتيه . ميّز ثلاثة بحارة في المقهى

وتظاهر بأنه لا يلاحظهم ، وهم اختلسوا النظر نحوه ، مرة ، مرتين ، ثلاث مرات ، قالوا شيئًا بنبرات منخفضة ولم يتجاسروا على مبادرته بالتحية ، لن يفعلوا مع هذا الربان العتيد المشهور بسحبه خيوط صيد وافر . هزّ بيتور رأسه قليلًا كأنه يحاول تصفيته وقد خنقته الثرثرة في المقهى ، معظمها هراء أجنبي ، غير مفهوم البتة ، لكن متى يصبح ممكنًا فهم شخص آخر على أي حال ، حتى وإن كان لسانه ينطق باللغة نفسها؟ فهم السمك ممكن عندما يسحبه المرء من أعماق البحر ، فهم الخراف ممكن ، سواء في حظيرة الخراف أو في المرعى ، بل حتى يمكن فهم البحر ، لكن من يفهم امرأة عندما تكون مثل سمكة للحظة ، ومثل فراشة في اللحظة التالية؟ نظر بيتور إلى راحتيه الخشنتين المتشققتين ، رفع عينيه فالتقتا بعيني أندريا ، كانت تحمل أربع قناني جعة . أنتَ هنا ، قالت لاحقًا بعد مرور دقائق لا تحصى ، عندما أتيحت لها الفرصة لتذهب إليه ، عندما واتتها الشجاعة لتفعل ، مقحمةً يديها في جيب مئزرها ، مقحمة إياهما في جيبها مثل صرخة . نعم ، أجاب بيتور ، معتدلًا قليلًا في وقفته ، لطالما كان فارعًا ، لا يبدو على وجه الخصوص متين البنية من النظرة الأولى ، لكن ذراعيه المفتولتين تتميزان بقوة هائلة . أتعتني بك غودرون؟ اتفقت أنا وغودومندر على أن تلك ليست فكرة جيدة . تلك ماذا التي ليست فكرة جيدة؟ أن تقضي ابنته وقتًا طويلًا في كوخي . أتعني أنك وغودومندر تبادلتما الكلام؟ سألته أندريا متفاجئة جدًا إلى درجة أن يديها توقفتا عن الارتجاف داخل جيب مئزرها ؛ تلك ستكون أول مرة خلال اثنتي عشرة سنة! الناس لا يحتاجون إلى مناقشة الأمور ليصلوا إلى اتفاق ، قال بيتور ، وزاويتا فمه تتشنجان قليلًا . أحضرتُ امرأة من الريف ، قال أخيرًا ، بينما وقفت أندريا بصمت ، يداها غارقتان في

جيب مئزرها ، كما لو أن الأمر لا يعنيها لا من قريب ولا من بعيد . نعم ، فعلتَ إذًا . إنها إيلينبرغ . ما يعني أن المكان لن يكون مرتبًا كثيرًا ، قالت أندريا شبه ضاحكة تقريبًا . هي تعمل بجدّ بطريقتها الخاصة ، وتقوم بما هو أكثر أهمية . ولا تحشو رأسها بالهراء ، أضاف عندما لم تقل أندريا شيئًا . هذا حسن يا بيتور ، وهل يا ترى رافقتك إلى سقيفة التمليح ، ربما؟ إلى سقيفة التمليح؟ هتف مذعورًا . هي نضرة وممتلئة وما تملّكها الحياء قط ، قالت أندريا وهي تفتر عن ابتسامة غامضة . ابتلع بيتور ريقه ، اضطر إلى أن يفعل ، ما خطب هذه الدنيا ، التجار يرغمون الناس على بيع السمك وهو ما زال نديًا ، سفن الصيد الإنجليزية تسحب أحمالًا تلو أحمال من السمك بقوة البخار ، تنهب مناطق صيد السمك الأيسلندية بتحديها لقوانين الطبيعة ، كما لو أنه لا وجود لها ، بل حتى تصطاد السمك ضمن الأزقة البحرية وتطأ أي قوارب صغيرة تعترض طريقها ، وزوجة الرجل تتلفظ بأشياء كهذه ؛ إلى أين يتجه هذا العالم؟ نضرة وممتلئة ، ولا تخجل أبدًا . تومض صورة إيلينبرغ في رأسه ، حركاتها المحكمة شبه العنيفة ، الوركين العريضتين ، البطن الكبير ، الفم المستدير الذي لا يتقبل أي شيء من أي أحد ، ثم ، كما لو أن شيئًا قُذف فيه ، فجأة وبعنف ، اتقدت عيناه ، ولجزء من ثانية كان مستحيلًا عليه أن يجلس ساكنًا ، ثم مرّت الخاطرة ، فنظر مضطربًا ومشوشًا إلى أندريا التي ما سبق قط أن تكلمت على هذا النحو ، ما سبق قط أن كانت هكذا ، لكنها في الواقع ما سبق قط أن تركته من قبل ، ذلك الاحتمال ما سبق أن كان له وجود ، الناس لا يفارق بعضهم بعضًا ، ليس الناس الأصحاء ، هم يموتون فقط ، وليس هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن ذلك . نظر بيتور إليها ، حاول أن يستحثّ الغضب في نفسه

لأنها هي التي رحلت ، هي التي تغيرت ، وليس هو ، هو ما زال الشخص نفسه . لماذا يتغير الناس ، أليست هذه خيانة ، أو ضعفًا ، ولماذا يجلس هنا مثل ، نعم ، مثل متسول ، إنه لم يقترف أي خطأ ، إن الحق كله إلى جانبه!

متى تعودين؟ يسألها وهو يقلب يديه ويمسك ركبتيه ، ويداه كبيرتان . أأُحضر لكَ شيئًا؟ فهذا مقهى على أي حال . جئت من أجلِك . أنا أعمل . أنتِ زوجتي! لا أعرف من أنا يا بيتور . كنتُ أخبركِ ، وقد أخبرتكِ توًا من أنتِ . يجب أن أعمل . لا أحب مكوثك في هذه الدار . أحقًا؟ الناس يقولون أشياء سيئة عن تلك المرأة . ما يقولونه مردود عليهم ؛ غيرترود تعادل ضعفنا أنا وأنت مجتمعين ، وهي تملك الجرأة لتعيش حياتها الخاصة كما تشاء . ماذا ألمّ بكِ ، ما دهاكِ بحق الشيطان؟! قال بصوت خفيض إنما ناري ، تكلّما بما يشبه الهمس ، ولكن بقدر كافٍ لتُسمع الكلمات في خضم بعبعة الأصوات . لا أدري . الرجال عاجزون عن فهمِك . هل تجاسروا أن يتكلموا معك عني؟ كلام ، كلام ، أتظنين أن كل شيء يحتاج إلى كلمات ليُفهم؟ نظرت أندريا جانبًا والتقت عيناها بعيني هيلغا ، عينين مستطلعتين ، ابتسمت ابتسامة باهتة وهزّت رأسها ، سأتولى هذا ، قالت الابتسامة ، قالت هزة الرأس ، لكنها تنفست الصعداء لعلمها بأن الفتى كان في الدار مع هولدا ، يتلقى دروس اللغة الإنجليزية ، إذ من الصعب أن تتكهن كيف قد يتصرف بيتور إذا رآه . سُررت برؤيتكَ يا بيتور ، بلِّغ آرني وجفيندور تحياتي .

نهض ، كم هو طويل! اعتمر قبعته ، أراد أن يقول شيئًا ولم يستطع ، لم يجرؤ ، لم يرغب في أن يفعل ، أنتِ زوجتي ، قال ، لمجرد أن يقولها ، وعاد بعد يومين . جلس ، راقبها ، وغادر من غير أن يخاطبها ، قدّمت له

القهوة ، من غير أن تفكر في الأمر تقريبًا ، كأنها فعلت ذلك بحكم العادة ، العادة التي يمكن أن تجعل الحياة جميلة وخانعة في الوقت نفسه . ثمّ رحل ، سارع في العودة إلى كوخ صيد السمك ، بخطوات مديدة وواسعة ، أعلن عن حضوره عندما اقترب ، بصق ، تنحنح بشدة ، وبصق ثانية ، ما جعل إيلينبرغ التي في الداخل تصمت ، فصوتها العميق تسلل خارجًا نحو السكينة ، ولعلها كانت تتحدث عن بيتور وأندريا لأن الجميع هناك نظروا إلى الأرض عندما دخل ، لكنه لم يستطع القيام بأي شيء حيال ذلك ما عدا إحكام تكوير قبضتيه وراء ظهره .

ثمّ جاء مرة ثالثة ، مساء أمس ، المساء السابق على ظهور الفتى مع مزارع البيض هذا ، بيارني ، الذي سبق أن أخبرهم عنه طبعًا ، المرأة التي ماتت ، عامل المزرعة الذي تلاشى في العاصفة ، الأطفال الذين عاشوا وبرفقتهم كلبة . جاء الفتى مع مزارع البيض الذي وصفه بدقة بالغة إلى درجة أن أندريا شعرت أنها قد قابلته من قبل ، كما لو أنهما متعارفان . أما بيتور فلم يدخل إلى المقهى ، ليس في المرة الثالثة ؛ بدلًا من ذلك انتظرها عند عطفة شارع البحر ، لم تعرف ما المدة التي قضاها وهو ينتظر ، إلا أنه كان يقطر ماء ، فقد أمطرت السماء وبقي ينتظرها ، كان غارقًا بالماء وهشًا على نحو غريب ، هذا ما شعرت به ، وعجزت عن قول كلمة واحدة ، تباطأت عندما رأته ثم مشيا جنبًا إلى جنب بصمت ؛ ما كان يفترض بهما أن يقولاه على أي حال؟ شيء غامض حدث بينهما ، شيء لا يمكن تصوره . سمحت له بمرافقتها إلى البيت ، سمحت له بالدخول ، إلى غرفة القبو ، لأنه كان يقطر بالماء ولا يشبه نفسه ، لكن السماح له بالدخول يشكل اختلافًا كبيرًا ، فهو ما عاد في الخارج تحت السماء ، وسط

الجبال والبيوت والناس . كان هناك حيز صغير جدًا بينهما في غرفة القبو ، وكان الامتناع عن قول شيء صعب ، وأصعب من ذلك إخفاء عيونهما وأيديهما ، ولم تستطع حتى أن تُعدّ القهوة التي كانت ستساعد كثيرًا جدًا . أنا أنام هنا فحسب ، قالت ، كأنها تحاول اختلاق الأعذار لبساطة الغرفة ، لا شيء سوى سرير نقال ، وكرسي بسيط ، ومرآة صغيرة ، وحوض اغتسال ، ومبولة ، وكتابين : كتاب تعليم الإنجليزية ، ورواية روسية اختارها الفتى لها ، وصورتان صغيرتان على الجدار . تحتاجين شيئًا من البهجة ، كانت هيلغا قد قالت وهي تناولها الصورتين . رسوم من الخارج ، مجرد إطلالتين بسيطتين على العالم الخيالي . وقف بيتور هناك يقطر ماءً ويرتعش بردًا ، وبدا أضخم بكثير ، أطول وأعرض في هذه الفسحة الضيقة ، ثم جلس وهو في حيرة من أمره على السرير ، وبذهن شارد التقط كتاب تعليم الإنجليزية ، ثم ألقاه فورًا كما لو أنه أحرق نفسه ، أشاحت أندريا وجهها وتظاهرت بأنها لم تلاحظ . ثمّ جلست هي أيضًا على السرير ، يفصلهما ما يقارب طول ذراع ، ويدي كل منهما في حِجره ، تستقر هناك بلا اكتراث ، صرّ السقف عندما مشى شخص في الأعلى ، وتصاعد صوت امرأة تتكلم بحدّة ، وبكى طفل ثم ضحك بعد لحظة بينما بقيا جالسين هناك لا تكاد تفصلهما سوى مسافة طول ذراع ، وأكثر بقليل من عشرين سنة . أنا أنام هنا فحسب ، قالت مرة أخرى . نعم ، أجاب . أذهب إلى العمل في المقهى حوالي السادسة صباحًا وأبقى هناك إلى الثامنة مساء . الثامنة قلتِ . نعم الثامنة .

تلك أربع عشرة ساعة .

صحيح ، أربع عشرة ساعة ، هناك الكثير مما ينبغي عمله .

اصطدنا كمية سمك وافرة .

نعم .

يريدون إرغامنا على بيع السمك نديًا .

نعم . أعرف .

وهم بخلاء .

نعم .

أنا لا أصطحب إيلينبرغ إلى سقيفة التمليح ، قال بصوت أعلى مما قصد . لا ، لم أتوقع أنك قد تفعل ، قالت من خلال ابتسامة باهتة . وضع يده اليمنى على كتفها ، وبقيا جالسين هكذا . ثم نظرت إليه . أنت ترتعد ، قالت . إنه لا شيء ، إنه من تعرضي للمطر فقط . هذا ليس جيدًا ، قالت ، وسرعان ما نهضت وبدأت تفرك كتفيه وصدره بسرعة لتبعث فيه الدفء ، وهو رفع ذراعيه المفتولتين ، عانقها بقوة وضغطها نحوه . ضغط بقوة ، ورأسه محكم الالتصاق بصدرها ، واستنشق رائحتها ، عبيرها ، ذاك العبير الحميم الذي اخترق حياته . الحميمية التي تجعل العالم جديرًا بالثقة ، لكن كانت هناك أيضًا رائحة جديدة ، شيء جديد تمامًا ، فتشممها بفضول وهي وقفت هامدة كالحجر ، ثم نهض ، وكان أضخم بكثير منها ، وأقوى ، وهي كانت تعرف القوة التي في ذراعيه . استلقت على السرير ، وهو تخلّص من ثيابه الندية ، من ملابسه برطوبتها المنفّرة ، ونزع سروالها الداخلي من تحت الثوب الأزرق الذي أعطته هيلغا لها ، المصنوع من قماش ناعم رقيق ، والذي مرر بيتور يديه عليه ، وقال بصوت أجش ، ناعم جدًا ، لكنّها لم تقل شيئًا ، وانحنى يقبل عنقها بطريقة خرقاء ، غير معتاد على القيام بهذا ، ثم نزع عنها ثوبها ، اضطجع فوقها فباعدت بين ساقيها ،

فعلت ذلك بلا تفكير ، بينما أنَّ بصوت خافت وولجها ، دفع طريقه فيها بقضيبه الكبير ذاك الذي لطالما آلمها قليلًا إلا إذا استلقت بالوضعية المناسبة ، وهذا ما جعلها تحاول تصحيح وضعية استلقائها تحته ، حاولت أن تريح نفسها أكثر ، فزاد ذلك من تلهفه ، أمسك ذراعيها ، باعد بينهما وضغطها بشدة ، باحتدام ، على الفراش ، كما لو أنه يثبتها ، وهي حملقت في السقف بينما انكب يشبع رغبته كالرعد ، ركزت على عدّ عقد الخشب في السقف ، ركزت عليها بإمعان شديد حتى بدا كأنها غادرت جسدها ، كما لو أنّ هذا الجسم الكامن تحت الرجل المتقد اللاهث لا علاقة له بها ، لم يعنها شيء سوى عدّ العقد ، وكانت قد وصلت في العدّ إلى تسع عشرة عقدة عندما أطلق صيحة على المفرش .

تعمل أندريا بسرعة وهي تنظف البيض الذي من بيارني ، بسرعة كبيرة ، فالآن ليس لديها ما تفعله ، ليست هناك حاجة ملحّة لعاملة ثالثة في المقهى خلال هذا الوقت ، بيارني يجلس هناك إلى الطاولة ، يتناول القهوة والخبز ، وبأدب يرفض المعجنات . بلى ، بلى ، ستفيدك ، تقول هيلغا وهي تدفع المعجنات نحوه ، فلا يجرؤ على الرفض ، يتناول قضمة ، يلقي نظرة على أندريا ، لقد نظفت البيض بسرعة ولكن بمهارة . لن يأتي بيتور اليوم ، لا ، ربما غدًا ، أطلق صيحة على المفرش وشعرت بمنيه الدافئ داخلها . تسع عشرة عقدة ، فكرت . انتزع نفسه من فوقها ، مفسحًا لها المجال لتتنفس بشيء من السهولة . كان عليها أن تعثر على شيء لتجفف نفسها به . ذاك المني لم ينفخ فيها أي حياة قط ، وأفترض أن هذا عيب فيَّ ، تفكر وهي تزيح خصلة شعر منفلتة عن وجهها ، وتلاحظ أن بيارني يسترق النظر

إليها ، كما لو أن ذلك يحدث عن طريق الصدفة . أظن أنه من المناسب لكِ أن تعملي في المقهى خلال الصيف ، كان بيتور قد قال ، بنبرة عطوفة بينما اندسّ في ثيابه ، أو إلى أن نتوقف عن صيد السمك ، خلال أسبوعين ؛ الناس هذه الأيام يشعرون أنهم يحتاجون إلى التغيير ما بين فترة وأخرى ، يا لها من أيام غريبة هذه التي نعيشها . نعم ، قالت . سيكون من الفظيع أن أرحّل إيلينبرغ بهذه السرعة ، أضاف . نعم يا عزيزي بيتور . وبعد أن جففت نفسها بقدر ما أمكنها جلست على السرير ، ووقف قبالتها بقامته الطويلة الفارعة . سيأتي غدًا أو اليوم الذي يليه ويصيح في المفرش . إنه رجل طيب ، تفكر ، بطريقته الخاصة ، صادق ، ويتمنى الخير للجميع ، لم يسبق له قط أن آذاني ، وتبدُّل حاله من يوم إلى اليوم التالي ليس بيده ، إلا أنه سعى إلى إنزال خيوط صيد أكثر من اللازم في الماء ، وبالتالي تجمد باردور حتى الموت . كان يجب أن يدرك بيتور أن ذلك خطأ ، كان يجب أن يكتفي بخيوط صيد أقل ، نعم ، هذا هو الأمر .

تنظر إلى بيارني . كيف حال أطفالك؟ تسأله . إنهم في البيت ، يجيب ساهيًا حتى عن الشعور بالدهشة من أن هذه المرأة الغريبة تعرف عن أطفاله . شعرها الأشقر الرمادي بدأ الشيب يغزوه ، وهناك شيء ما يتعلق بزاويتي فمها يجعل ذهنه يفكر في أشياء حمقاء عنه وعنها ، لكن على أي حال مَن الذي يستطيع السيطرة على أفكاره؟ كان هذا ما أملتُ فيه ، تقول أندريا مبتسمة بامتنان عندما تناولها هيلغا فنجان قهوة . يختلس بيارني النظر إلى المرأتين ، إحداهما تقف مستقيمة الظهر ، ثابتة العزم في حركاتها حتى لتكاد تبدو خالية من أي رأفة تقريبًا ، والأخرى مقوسة الكتفين قليلًا ، ألطف وبشرتها مسفوعة بأنواء البحر . نعم ، إنهم أربعة ،

يقول بيارني قبل أن يأخذ رشفة من القهوة الدافئة ، ولا يكاد يقدر على إضافة المزيد ، يشعر فجأة بكتلة تستقر في حنجرته . آمل أنني لست بصدد المعاناة من شيء ، يفكر بقلق ، بفزع ، إذ ماذا لو أن الأسوأ غدا أسوأ ، حدث هذا لغيره من الناس ، يعرف الكثير من الأمثلة ، يكحُّ شخص ما ، وبعدئذٍ يصبح ذلك الشخص في عداد الأموات . ما مصير الأطفال حينذاك؟ سيفصلون عن بعضهم ، ويستقر كل واحد منهم بعيدًا عن أشقائه ، ومن سيتكفل بمهمة العناية بأمه؟ يجب أن أعود إلى البيت ، يفكر ، إلى حيث هناك أمان ، أنا هش جدًا بين الناس . يرشف قهوته ، يسمع هيلغا تطلب من الفتى أن يذهب إلى مكان معين ليجلب عربة يدوية ، ليس هناك أي معنى في أن تنقل البيض دفعة وراء دفعة ، وحدك ، إلى منتصف النهار ، تقول ، وتُنهك نفسك ، بينما في وسعك أن تحضر البيض كله برحلة واحدة ومعك الأداة الصحيحة . حمل البيض بنفسي يفيدني ، يعترض بيارني ، لكن لا يقول شيئًا أكثر من ذلك ، ولا يعترض عندما يبدأ الفتى في الاستعداد ؛ لا يملك الطاقة على قول ما هو أكثر ، إضافة إلى ذلك ، يبدو أن الاعتراض في هذه الدار الكبيرة لا جدوى منه . يمد يده لا شعوريًا ويجد نفسه يمسك قطعة معجنات أخرى ، هذه الأشياء التي لا يعرف اسمها ، لا يتجاسر على تركها في الصينية ويأكلها ، يتقبّلها كما يتقبل أي مهمة لا يمكن تجنبها ، إلا أنه يكشر وجهه غريزيًا . أنا متأكّدة من أن أطفالك سيقدّرون مثل هذه الهدية اللذيذة ، تقول أندريا وهي تبتسم ، فيبتسم لها بدوره ، لا يستطيع إلا أن يفعل . أين ذهب ضبط النفس؟

خلال الوقت الذي استغرقه الفتى ليعود ومعه عربة يدوية - لوح خشبي عريض بعمق 10 سنتمرات وبمقبضين مثل عظام الفك يستقر كل

منهما على أحد جانبي العربة - كان بيارني قد أخبر المرأتين عن أسماء أطفاله ، أربعتهم ، وأجاب عن أسئلة تتعلق بهم . كان ذلك غريبًا نوعًا ما أيضًا ، إذ بدا له أن شيئًا قد حدث حالما ذكر أسماءهم : ساكرياس ، يون ، ستينولفر وسورا ، كما لو أن حياة أطفاله أصبحت أقل بُعدًا عنه بترديد أسمائهم في المطبخ . أم أنها تلك المعجنات كانت ما تلاعب برأسه؟ يحضر الفتى العربة اليدوية ، يحضر ابتسامة أيضًا بعد أن صادف في طريقه لولي وأودور اللذَين أنهيا إفراغ حمولة سفينة دانمركية وبالتالي مُنحا إجازة لبقية اليوم ، حادثهما لدقيقة ، دقيقة كانت أكثر من كافية لترسم ابتسامة على شفتيه ، وما زالت هناك عندما يدخل الدار . بعض الناس رائعون في بساطتهم .

لست معتادًا على الإكثار من الكلام ، يقول بيارني بعد أن أنهى الفتى تحميل العربة اليدوية بالبيض . وضّباه فيها بشكل ملائم ، ورتباه جيدًا لئلا يتكسر البيض الذي في الأسفل ، ثم وضعا الطيور التي بلا حياة في الأعلى . حُمّلت العربة بالكامل ، لا بد من أنها تزن 50 كيلو ، قال الفتى وهو يتفقدها ، وعندئذٍ قال بيارني إنه ليس معتادًا على الإكثار من الكلام . فينبري الفتى مستفهمًا ، ماذا؟ كانا يعملان بصمت ، لم يقولا كلمة واحدة منذ أن غادرا الدار ، وهذا كان فيه شيء من الصعوبة بالنسبة إلى الفتى ، ففي جعبته الكثير مما يريد قوله لبيارني ، بيد أنه لم يستطع التحايل على نفسه ليفعل ، بدا المزارع من البحر القطبي شاردًا في أفكاره ، نائيًا . أعني وأنا هناك ، يقول بيارني محاولًا التوضيح . أتكلمت كثيرًا هناك في الداخل؟ يسأله الفتى ؛ هذا لا يفاجئني ، عندما يكون المرء معهما يروق له التبسط في الحديث ، هذا سهل ، فأنت لا تحتاج إلى . . .

لا تحتاج إلى مراقبة ما تقوله . أندريا ، يضيف الفتى عندما لا يعلّق بيارني بشيء ، كانت المشرفة على كوخ صيد السمك . كوخ صيد السمك ، يكرر بيارني أو يعيد ترديد الصدى وهو يحدق في المدى كأنه في مكان آخر . نعم ، يقول الفتى لكن بيارني يقاطعه قائلًا ، تلك التي وخطها الشيب؟ ها؟ أتلك أندريا؟ نعم ، تلك أندريا . حسنًا ، يقول بيارني ، ومرة أخرى يبدو كما لو أن ذهنه في مكان آخر ، ولا يلبث الفتى أن يقول من غير أن يكون قادرًا على الامتناع عن ذلك ، مفعمًا فجأة بالمودة تجاه أندريا بحيث أن صوته يتكسر قليلًا وهو يتلفظ بالكلمة ، يتلفظ بتلك الصفة البليغة ، نعم ، وهي لا تقدَّر بثمن . لا تقدَّر بثمن ، يكرر بيارني وقد عاد من أينما كان ، لا تقدَّر بثمن ، يكرر مرة ثانية ، غريب أن يقال ذلك عن شخص . عليك في الواقع أن تتبسط في الكلام أكثر ، يقول الفتى وهو يبتسم . هذا ما اعتادت آستا أن تردده على مسامعي ، يقول بيارني ، وبسرعة ينحني ليمسك مقبضي العربة .

البيض ثقيل . يمشيان بصمت مارين بالمقهى ، الفتى يمسك العربة من الأمام ويقود الطريق ، من الصعب محادثة شخص يدير له المرء ظهره . عسى أن تنال سعرًا جيدًا مقابل البيض ، يقول الفتى عندما يصلان إلى شارع البحر ، غير راغب في متابعة المشي بصمت ، وراغبًا في سماع صوت بيارني . أنا متأخر وأشك في أنني سأحصل على ثمن البيض كاملًا . لكنك على الأقل ستجني مبلغًا لا بأس به ، يقول الفتى ؛ هذا بيض جيد . نعم ، أفترض أنني سأتمكن من شراء بضعة أغراض ، يعلق بيارني شاعرًا بالارتياح في توجيه الكلام إلى ظهر الفتى . أتنوي شراء شيء للأطفال؟ يسأل الفتى ، غير خائف من طرح سؤال مباشر . القليل من الزبيب ربما ،

يقول بيارني ، أيجدر بي أن أحضر لهم شيئًا آخر؟ يسأل بشكل مفاجئ . أنا ، يقول الفتى من فوق كتفه ، قد أشتري ورقًا وأقلامًا ، أترى ، هذا إذا كنت تريد حقًا أن تدهشهم وتسعدهم . أوراق ، يردد بيارني ، أقلام ، ويشدد قبضتيه على مقبضي العربة ، بهجة الأطفال ، ما الذي لا أعطيه مقابل ذلك ، أوراق ، يردد ثانية ، مرخيًا قبضتيه ، أوه ، صحيح ، معي ، على ما أعتقد ، رسالة لك . رسالة لي؟ يهتف الفتى ، يهتف متفاجئًا جدًا إلى درجة أنه يقف ويحاول أن يستدير لينظر إلى بيارني ، ناسيًا العربة التي بينهما ، وقبل أن يدرك ما يحدث يجد نفسه يدور بالعربة في حلقات هو وبيارني ، مثل رجلين أبلهين . طبعًا لا ضرورة للدوران في حلقات بسبب رسالة ، أو بسبب عشر رسائل ، لأن الرسائل ما هي إلا رسائل ، أوراق فيها كلمات ، ومع أن المرء قد يكون له رأيه الخاص بالكلمات نفسها ، هي لا تذهب إلى أي مكان بعد أن توضع على الورق ، بل بدلًا من ذلك تنتظر بصبر لا إنساني أن يأتي شخص ما ويطلق سراحها من قيودها لفترة من الوقت . ألا يجدر بنا أن نمضي في طريقنا؟ يتساءل بيارني ، إلا أن الفتى لا يتحرك ، يلوي جسمه ليتسنى له أن يحظى بنظرة جيدة إلى وجه بيارني ؛ وهو متسمر في أرضه ، لا يريد أن يستمر في التقدم ، لا يستطيع . رسالة لي ، أنت متأكد؟ طبعًا أنا متأكد ، يجيب بيارني متفاجئًا ، نافد الصبر ، إذ ليس من المناسب الوقوف طويلًا في عرض الطريق في البلدة ، ومعه عربة مكتظة بالبيض ، هذا يجذب الانتباه ، والناس لن يلبثوا أن يبدأوا في التحديق ، مزعج البروز أمام الناس هكذا . معك رسالة لي إذًا ، يقول الفتى كما لو أنه توصّل إلى استنتاج مهم وغير متوقع . نعم ، صحيح ، لقد نسيت أمرها فقط .

الفتى ، نسيت ، نعم ، كدتَ تنسى تقريبًا .

بيارني : علينا ألا نبقى واقفين هنا .

الفتى : ممّن ، هل أتيحت لك الفرصة لتتوقف في سليتوري؟

بيارني : لماذا بحق السماء أكون قد فعلت ذلك؟

لا أدري ، يُقرّ الفتى ، غير متجاسر على الإشارة إلى القبر الذي حُفر مؤخرًا في الطرف الشرقي من الكنيسة . ممّن الرسالة . أعني ، إن لم تكن قد توقفت في أي مكان ، إنها ليست من البحر القطبي؟ يسأل محاولًا تهدئة خفقان قلبه بالمزاح ، لن يكون أمرًا سيئًا تسلُّم رسالة منه!

إنها ليست من البحر القطبي إذًا ، يردف الفتى عندما لا يجيب بيارني ؛ والبيض يزداد ثقلًا ، يشعر بوزنه يزداد بينما يقف بلا حراك ، ينبغي عليه أن يتحرك ، وإلا يتخدر ذهنه ويتخدر دمه ، ووجوده يضغط عليه إلى أن يجعله يلتصق بمكانه . لا ، يقول بيارني أخيرًا ؛ أرسل لي الطبيب وزوجته عاملة بشكل مؤقت ، وهذا لم يكن ضروريًا ، مع أنه أفادني . أثمة احتمال في أن شعرها أحمر؟ يسأله الفتى ، بصوت أعلى مما ينبغي . نعم ، أستطيع قول هذا .

هما قرب تقاطع شارع البحر مع الشارع المركزي ، يمر الناس بهما ، رجلان يجران عربة يدوية محملة بالبيض ، وهما على ما يبدو نسيا مهمتهما . هيا نمضي في طريقنا ، يقترح بيارني . هل الرسالة منها؟ يسأله الفتى من غير أن يتحرك . إنها ليست مني . وليست من البحر القطبي يغمغم الفتى ، ثم يتابعان طريقهما . يتابعان طريقهما الفتى والرجل الذي معه الرسالة . الفتى مشتت الذهن جدًا بحيث لا يلاحظ أن راغينهيلد تحييه مرتين مرددة اسمه بصوت عالٍ في المرة الثانية ، ولولا هذا لما لاحظها ،

لكان فقط خاض طريقه وتجاوزها مع هذه العربة السخيفة ، كما لو أن لا وجود لها ؛ لكان غفل عن وجودها تمامًا وهي بثوبها الأصفر ، وقفازيها الأبيضين المطرزين اللذين يصلان إلى ما فوق مرفقيها ، تحمل مظلة شمس خفيفة خضراء وتخطو برشاقة بالغة وبكبرياء ، تخطو كذلك فعلًا بجزمتها الأنيقة اللماعة وسط الغبار وروث البقر والناس الذين تفوح منهم رائحة سمك القد المملح والبيض . لديك الجرأة على تحيته؟ تقول لوفيستا ، بنبرة موبخة تقريبًا ، بعد أن تجاوزتا الفتى في طريقهما إلى تناول الشاي مع غودرن زوجة القس ثورفالدور . لوفيستا ؛ زوجة قاضي المنطقة ترتدي ثوبًا فضفاضًا فاتح اللون يناسب النزهات ، والرجال يرفعون قبعاتهم لها من بعيد ، هي أرفع مستوى منّا ، كلاهما في الواقع ، ومع ذلك يستقر الغبار على ثوبيهما وعلى جزمتيهما ، هذه هي درجة صعوبة تجاوز المرء حدود بيئته تجاوزًا كاملًا . لا يملك الحق في أن يمرّ بي من غير أن يلاحظني ، تقول راغينهيلد . إنه لا شيء ذلك الفتى ، إلى جانب أنه يعيش مع غيرترود . أنا أتصرف كما يحلو لي . أعرف ، تقول الأخرى ، لكن لا تقومي بأي تصرف غبي ، قريبًا تذهبين إلى كوبنهاغن ، حيث تنتظرك حياة أخرى . إنني على دراية بما أفعله ، تجيب راغينهيلد بهدوء . وذاك بالضبط ما أخشاه ، تغمغم التي تكبرها سنًا .

بثوب أصفر ، وجزمة حالكة السواد . لم يسبق له قط أن رأى امرأة بثوب أصفر ، وطبعًا لا بد من أن تكون هي من ترتديه . يقتربان من المربع المركزي ؛ وراغينهيلد بنت فريدريك رفعت الكلفة بينهما بمبادرته بالسلام . هي بنت السلطة ، من الطبقة الرفيعة ، متأنقة كامرأة من عالم آخر ، وهو مجرد حمّال عادي . يشرفان على متجر ليو ، يضعان العربة أرضًا ويهزان

أذرعهما . قالت لك مرحبًا ، يقول بيارني وهو ينظر إلى الفتى . نعرف بعضنا معرفة سطحية ، يقول الفتى كما لو أنه يعتذر ، كما لو أنه ارتكب خيانة بحق بيارني ، لم يكن صريحًا معه . أولئك الناس ليسوا معتادين على تحية أي شخص ما عدا أنفسهم . أتظن أن هذا صحيح؟ يسأله الفتى بتردد ، وقد باغتته الفظاظة في صوت بيارني . نعم ، يقول بيارني قبل أن يخلد للصمت ملقيًا نظرة من حوله ؛ وفكُّه يبدو مشدودًا . حسنًا ، يبدأ الفتى ، فيقاطعه بيارني ويقول ، كما لو أنه يقضم الكلمات ويحوِّلها إلى فتات . هم لا يلقون التحية على أناس مثلنا من غير أن يكون لديهم سبب ، وهو بالكاد جيد . هذه قسوة منك ، يقول الفتى متفاجئًا . لا ، لست أنا القاسي لحسن الحظ ، أنا لا أملك الطاقة لأكون قاسيًا ، لكن إليك الرسالة ، يضيف بيارني وهو يمد يده إلى سترته بحثًا عن المغلف . لا بدّ من أنهن يرين فيك شيئًا يا فتى ، يردف ممعنًا في الرسالة قبل أن يزمَّ شفتيه ، كأنه يحجم عن قول شيء ، ثم يناول الفتى الرسالة ، ملطخة ببقع الدهن من ثيابه ، وتفوح منها رائحة عرقه .

يشمّ الفتى رائحة العرق وهو يحاول أن يستشف عبير المغلف بعد أن عثر لنفسه على مكان تحت الشمس ، وظهره يستند على جدار البرج الخاص بـ إلياس النرويجي ، والمالك على مدى عدة سنوات محطة صيد حيتان في أحد الأزقة البحرية ، لكنه يعيش الآن هنا في البلدة مع زوجته الآيسلندية ، بنت فلاح مستأجِر ، تصغره بثلاثين سنة وفي منتهى الحيوية بحيث أن كآبة إلياس الوراثية - شقيقه أطلق النار على نفسه ، أبوه شنق نفسه ، جدته خرجت تسبح وغرقت في البحر ، العم جزّ حنجرته ، وآخر ابتلع السم ، عمته حاولت شنق نفسها في الغابة لكن غصن الشجرة

انكسر وكذلك ساقيها الاثنتين ، فقبعت هناك بعدئذٍ عاجزة على مدى اثنتي عشرة ساعة في البرد والمطر قبل أن تُنقذ وتُحمل إلى بيتها حيث ماتت من مرض ذات الرئة - تختفي نهائيًا طالما هو ملتصق بها . يسمعها الفتى تغني من خلال النافذة المفتوحة ، وصوتها يذكِّره بغدير رقراق تحت ضوء الشمس . اختار لنفسه موضعًا متواريًا ، وبيارني دخل المتجر ليفاوض على سعر مناسب للبيض ، وليضيف بضعة أشياء إلى حسابه ، ضروريات مختلفة ، آملًا أيضًا بشراء أوراق وأقلام للأطفال . يشمّ الفتى المغلف مرة أخرى ، لكن الرائحة التي ميزها هي فقط رائحة عرق الرجل الكادح . ماذا تريد ، ولماذا كتبت له رسالة ، حسنًا ، إلا إذا كان لتسأله عن ينز ربما؟ طبعًا هي تستعلم عن ينز ، فهي مهتمة به فقط ، يفكر الفتى ، شاعرًا بالارتياح لهذه الفكرة ، إنما ليس على الإطلاق سعيدًا بذلك وهو يحدق بلا اكتراث في الفضاء . لماذا حيَّته راغينهيلد؟ أتمنّى لو أنها كانت عارية تحت ذلك الثوب الأصفر ، وبتلك الجزمة ؛ لا ، ليس هذا ما أتمناه ، أو بلى ، أو لا ، لكن رباه كم هو أحمر شعر ألفايدر! سأكون على استعداد لأن ألقي بنفسي إلى التهلكة لمجرد أن يتاح لي النظر إليه ، استنشاق عبيره ، النوم فيه والاستيقاظ فيه . يراقب الفتى حياة المربع المركزي النشطة ، أناس يعالجون سمك القد ، أناس يأتون ويذهبون من متجر ليو أو متجر تريجفي اللذين يواجه أحدهما الآخر ، أو من المخبز الألماني . وهو يحمل رسالة ، اسمه مكتوب من قِبَل تلك ذات الشعر الأحمر . وفجأة يفقد اهتمامه نهائيًا بهذه الرسالة . يا لها من حرية ، أن لا يهتم! لن أقرأها ، يفكّر الفتى ، متفاجئًا ، سعيدًا ، منتصرًا ، وهكذا يكوِّر الرسالة ويضعها في جيبه . أنا لن أقدِم على اتخاذ خطوة واحدة

نحو تلك الحياة ، يفكر ، أو أي شيء يؤدي إلى ذلك المصير ؛ لن أسمح لشعر أحمر أن يصادرني لصالح الفقر المدقع ، يسترسل في التفكير وقد نسي استنتاجه بأن الرسالة ليست إلا استفسارًا مسهبًا عن ينز .

عِش حياتك!

الكلمة الأخيرة من أمه ، النداء الأخير . عِش حياتك ، حصِّل العلم ، لا تسمح للمشقة أن تخنقك ، ولا للإحباط أن يحجّمك . وهو سيعيش حياته ، وسيحصِّل العلم . وهكذا يدفع الرسالة ويحشرها في أعماق جيبه ، يقف ، يفكر في الثوب الأصفر ، في القفازين الأبيضين شبه الشفافين اللذَين يصلان إلى ما فوق المرفقين ، يفكر في الطريقة التي نطقت بها اسمه ، وأنها في الواقع أرادت أن تردده بصوت عال ، وأن اسمه ، كينونته ، ارتعش للحظة على شفتيها ، أو بينهما ، شفتيها الدافئتين الحمراوين .

أولئك الناس ، كان بيارني قد قال ، كما لو أنه تقريبًا أراد أن يبصق .

لقد جعل فريدريك التاجرَ سنوري يركع على ركبتيه ، وهدد غيرترود ، وراغينهيلد لن تلبث أن تغادر إلى كوبنهاغن ، حيث من السهل على الأرجح نسيان كل شيء له علاقة بآيسلندا . حتى إذا لم تنسه ، حتى إذا أرادت أن تستمر في نطق اسمه ، وتاقت لتفعل ذلك ، حتى إذا كانت لسبب ما غامض تريده معها نهارًا وليلًا ، وفتحت له المجال لدخول عالمها ، عالم من الراحة والأمان ، أيرغب في دخول ذلك العالم؟ أيريد أن يتسكع هنا وهناك ويرحب ببيارني بصفته واحدًا من أولئك الناس؟ وماذا سيقول الثالوث ، كيف ستنظر غيرترود إليه؟ وهل يقبل لولي وأودور أن يلقيا عليه التحية كلما صادفاه بطريقتهما المفرحة التي تجعل كل شيء أكثر إشراقًا ، وماذا عن غيسلي الذي تصبح أساريره مظلمة

ومتشنجة عندما يأتي على ذكر شقيقه أو ينحو في حديثه إلى التهكم به . يتّكئ الفتى على البيت ، ويراقب الحياة في المربع المركزي محاولًا أن ينسى الرسالة .

سيكون من الرائع إذا ساعدتني في حمل هذه الأغراض ، يقول بيارني الذي ظهر قربه من غير أن يلاحظ ، والفتى على ما يبدو يأتي رده إيجابيًا ، على الأقل هو الآن من يمسك مقبضي العربة ويحدق في ظهر بيارني بينما يغادران المربع المركزي ؛ إنها تقريبًا الساعة الثالثة ، والنساء يسرعن ماضيات في طريقهن إلى بيوتهن من أجل لقمة سريعة يأكلنها بينما يحضِّرن الطعام لأزواجهن ، إن لم يكونوا عند البحر ، يمتطون الأمواج كأنهم في رقصة مع الأفق .

الفتى في الحقيقة قرأ الرسالة .

أو ألقى نظرة عليها .

سبع مرات فقط .

حدث ذلك بشكل مفاجئ ، ما كان يجب أن يحدث مطلقًا ، تحركت يده من تلقاء نفسها نحو جيبه ؛ إضافة إلى أن المرء يحتاج إلى مكان يبقي يديه فيه ، وبعد ذلك وجد نفسه يحمل الرسالة ، وجد نفسه يقرأ ما فيها .

العربة اليدوية ثقيلة . محمّلة بالضروريات : طحين ، سكر ، حنطة ، بن وأرز .

أنا أمسك مقبضي العربة ، يفكر الفتى ، وهناك بيارني ، ما يعني أنني ما عدت جالسًا إزاء جدار البرج . يتباطأ بيارني ، ينظر من وراء كتفه ؛ اشتريت عشر أوراق وأربعة أقلام ، يقول .

قرأ الفتى الرسالة وسمع إلياس يضحك مرتين في الداخل ، ضحك يشبه الظلام البشوش . قرأ الرسالة ، صفحتين ، مدججتين بالكلمات ، بكثافة .

لا يقابلان أي أثواب صفراء ، أي شفاه ، شفاه ندية ودافئة بالحياة تردد اسمه ، وهذا من حُسن الطالع ، لأنه سيكون عليها على الأرجح أن تصيح ، فالفتى شارد الذهن للغاية وعيناه تحدقان في ظهر بيارني مدة طويلة لأنهما توقفا وبيارني يقول شيئًا ما عن الأوراق . عشر أوراق يقول . لا ، يقول الفتى ، هناك ورقتان فقط . لا ، اشتريت عشر أوراق ، يقول بيارني بدهشة ، ولا يلبث الفتى أن يستوعب ؛ عشر أوراق بيضاء وأربعة أقلام ، أربع أرواح وراء الجبال كلها ، في خليج صغير وبعده البحر القطبي . معذرة ، كنت شاردًا . أرى هذا . لقد قرأتُ الرسالة .

بيارني : توقّعت منك أن تفعل .

الفتى : أكنتَ تعرف عنها؟

بيارني : عن ماذا؟

الفتى : الرسالة .

بيارني : أنا أحضرتها لك .

نعم ، طبعًا ، يقول الفتى وقد بدأ ذهنه يصفو ؛ يضحك ، يتذكر رائحة عرق الرجل المعششة في المغلف ، العرق الثقيل لرجل كادح ورائحته تختلف عن رائحة عرق اللوعة ، عرق الرغبة .

بيارني : هي غريبة الأطوار .

الفتى : مَن؟

بيارني : ألفايدر .

الفتى : نعم ، الرسالة منها .

أعرف ذلك ، يقول بيارني بصبر ، كأنه يخاطب طفلًا .

أهي غريبة الأطوار فعلًا؟

نعم .

أتعتقد أن ذلك سيئ؟

أفترض أن هذا يتوقف . . .

يتوقف على ماذا؟ يستفهم الفتى ، فيمعن بيارني التفكير في ذلك . يقفان هناك ، لا يتحركان ، والآن جاء دور بيارني ليلوي جسمه حتى يتمكن من النظر إلى الفتى ، والنساء يعجّلن في مضيّهن ويختلسن النظر إلى هذين الرجلين اللذَين يمسكان عربة يدوية ويقفان هناك بلا حراك من غير أي سبب ظاهر .

بيارني : أتوقّع أنه في هذه البلاد ليس من المحبذ أن يكون المرء غريب الأطوار . الناس هنا يُعاقبون على ذلك .

الفتى : نعم أعرف ، ينسون معاطفهم الواقية من الماء ويتجمدون حتى الموت ، لكن لطيف منك أن تشتري الأوراق .

بيارني : نعم ، وهو تصرُّف غير منطقي أيضًا .

الفتى : لا شيء غير منطقي إلا هذه الحياة اللعينة .

بيارني : أمم ، حسنًا ، صحيح ، أنا متأكد من أن المبالغة في تقدير ما هو منطقي شيء خطر ؛ إذ يمكن أن يمتص الحياة من أشياء كثيرة جدًا .

يجب أن يُقبّلك شخص ما على هذا ، يقول الفتى . أستبعد ذلك ، يرد بيارني ، ويتابعان السير في طريقهما . ثوب أصفر ، جزمة سوداء ، مشية مرنة وفي الوقت نفسه حازمة ومصممة ، لا ، كل ذلك ليس على مرأى من البصر . لكن هنا السؤال :

ما مملكة فريدريك وثوب أصفر بالمقارنة مع تسلُّم رسالة من البحر القطبي؟

«أنا مذعورة من البحر هنا، أشعر أنه يسعى إلى التهامي، أشعر أنه يريد أن يبتلعني ويحوّلني إلى سمك بارد. تراودني رؤى بأن السمك البارد، يسبح من حين لآخر في دمي ويجعل البرد يسري فيَّ. ألديك أنت مثل هذه الرؤى؟ يقضي الصغار هنا وقتًا ممتعًا في مداعبتي بخصوص البحر. وما دام خوفي يساعدهم، فهذا أفضل بكثير. ها نحن هنا كما ترى، أنا وسالفر، حيث سبق أن كنتَ قبل أن ترتطم ببيت الطبيب. أنت وذاك الرجل الصلب. أتعتقد أن يديه حنونتان، أتعتقد أنهما يمكن أن تكونا مؤذيتين وباطشتين؟ وأنت، أيحتمل أنك تملك يدين شريرتين؟ ليس بأي حال أن هذا يعنيني. لا تجعل تفكيري فيك بين فترة وأخرى يعبث برأسك. فأنت لا تعرف ما الأشياء الأخرى التي أفكر فيها في جميع الأحوال، أو كيف أفكر. ما مدى قوتك؟ لا أقصد قوة يديك، بل قوتك الداخلية؟ يرى الناس أنه من السهل أن يعرفوا مَن القوي ومَن ليس كذلك. الناس أغبياء فحسب. أنت تدرك أن الحياة يمكن أن تكون أثقل من الجبال. ويمكن أن تكون أخطر من البحر القطبي، وأكثر وحشية بكثير من الدببة القطبية. وليس لديك أي علم بأنني أكثر قليلًا مما يسمى سوء الطالع، لا شيء سوى شعر أحمر وفقر مدقع. وتفكيرك فيَّ في منتهى السخافة. أتراك تفكّر فيَّ؟»

يتجهان مباشرة إلى القارب من غير أن يمرّا على الدار، يضعان الأغراض التي اشتراها بيارني فيه ويغطيانها جيدًا، فهي ستجتاز بحرًا عريضًا وكبيرًا

ويجب ألا تتعرض للماء . الجو مناسب للعبور ، يقول الفتى للريح ولبيارني الذي يعتدل واقفًا ، والسماء الزرقاء فوق العالم وهناك شيء منها في عينَي المزارع . يمدُّ يده للفتى ؛ أشكرك على كل شيء . أتمنى لو أنني استطعت فعل المزيد ، يقول الفتى . قمتَ بما هو كافٍ ؛ وأنا أحمل معي عشر أوراق بيضاء . ألن تأتي إلى الدار لفترة قصيرة؟ لقد بقيت مدة طويلة كافية ، يقول ساكن الكوخ . لا ، اِنتظر لحظة ، يهتف الفتى عندما لاحظ أولافيا تقترب ، تقترب بسرعة بقدر ما يمكن أن تساعدها ساقاها المتيبستان ، تتقدم لاهثة بوجه أحمر يبدو أنه يناسبها . تنحدر نزولًا نحو الشاطئ ، محافظة على توازنها وهي تخطو على الحجارة الحادة بمدٍّ ذراعيها السمينتين مثل طائر كبير منقبض الصدر حرمته الحياة من الطيران . يجب ألا تغادر ، تقول لبيارني ، من دون أن تمرّ على الدار أولًا . بدا لي أنني يمكن فقط أن أرسل لكم تحياتي وامتناني العظيم ، يقول بيارني بنبرة اعتذار ، تاركًا عينيه تطوفان تجاه الغرب ، من حيث يأتي الليل . وعلى المرء أن يستغل الرياح المواتية متى تسنّى له أن يفعل . لا تعلق أولافيا بكلمة ؛ فهنا لا أحد يعترض على الحجج المتعلقة بالرياح ، الرياح التي انحنينا لها لأكثر من ألف سنة ، مع ذلك لا توافق ، تكتفي بالوقوف هناك ، تقف بطريقة خرقاء جميلة ، تنتظرهما ، كأنها لا يمكن أن تتخيل شيئًا ما عدا أن بيارني سيأتي . المرء عمومًا يفعل ما تطلبه هيلغا ، يقول الفتى الذي يبدو كأنه يخاطب المركب ، وهي بدورها لا تؤخّر أحدًا بلا أي سبب مقنع . الأمر هكذا؟ يقول بيارني باستسلام .

النساء ينتظرن في المطبخ ، وهناك شيء ما يدور ؛ يشعر به الفتى حالما يدخلون ، ثمة شيء في الأجواء ، في طريقة تصرُّف المرأتين هما وغيرتورد

التي انضمّت إليهما ، وجلست إلى الطاولة ، تدخن لفافة تبغ ، وهي تضع رجلًا فوق رجل ، وإحدى قدميها في الهواء ، لكن هناك ظلال على وجهها ، ربما من قلة النوم ، منذ أن انقلبت السفينة في البحيرة لم يمنحها النوم إلا نزرًا يسيرًا من الرحمة . يتلكأ بيارني عند المدخل عندما تقع عينه على غيرترود ، وفي الحال يخمِّن مَن هي ، ينسى لباقته ويحدق ، ثم يشيح بنظره ، يتنحنح ، ولا يقول شيئًا ، يلوح عليه الارتباك . هيلغا تجلس عند نهاية الطاولة ، أما أندريا فتقف إلى جانب الفرن ، وتبدو نوعًا ما كأنها على وشك أن تصاب بطلق ناري ، لكنها تشمخ وتدفع صدرها إلى الأمام . كانت قد بدلت ثيابها ، استعارت من هيلغا ثوبًا بنيًا بسيطًا ، بسيطًا جدًا . تجسيد لما هو عادي ، إلا أنها ترتديه بطريقه جيدة . بعض الناس يمكنهم أن يلبسوا ما هو عادي أفضل من غيرهم ، وبالتالي يمكن ربما أن يُغبطوا .

عاشرَني بكل بساطة ، أخبرت أندريا هيلغا ، بعد أن بدأت تسلق البيض ، وبدا كما لو أن رائحة بيارني قد عششت في المطبخ ؛ كان هو والفتى في الأسفل عند المركب يحمّلان البيض في العربة اليدوية . رجل لطيف ، قالت هيلغا ، صحيح ردت أندريا وهي تعبث بالبيض . مؤسف ، قالت هيلغا ، مؤسف أن رجلًا مثله يُحرم من أي لحظة سعادة . رفعت أندريا رأسها ، متفاجئة من الكلمات التي خرجت من فم هيلغا ، وقالت لا شعوريًا وهي تُبعد القِدْر بضعة ميليمترات ، عاشرَني بكل بساطة ، وفي الحال أدركت هيلغا ماذا عنت . متى؟ ليلة أمس . لكنه لم يأت إلى هنا ، أو أنني لم ألاحظ . لا ، كان ينتظرني في الخارج ، وشعرت بالأسى عليه ، كان يقطر ماءً . مشى معي إلى البيت ، تملّكني الحزن عليه وعرضت عليه الدخول ، هذا إلى جانب أنه زوجي ولا يمكنني أن أمنعه من ذلك . ثمّ

أخذني ، وأنا لم أجرؤ على قول أي شيء مع أنه آذاني من غير أن يعرف ، هو دائمًا يؤلمني إن لم أكن مستعدة ، شعرت كما لو أنه كان يقيدني وأنني لن أستطيع أبدًا النهوض ثانية . بقيت ممددة هناك وعددت العقد التي في السقف . وفي الوقت نفسه فكرت في باردور ، كان ذلك الشيء الوحيد الذي سيطر على تفكيري ، لا أدري لماذا . لطالما كانت رائحته طيبة . كان من اللطيف البقاء قربه ، كان كل شيء يغدو أسهل بطريقة ما . وفكرت ، لماذا انتظر بيتور مدة طويلة قبل أن يعود إلى الشاطئ ، لماذا أصرّ على سحب جميع خيوط الصيد ، كلها ما عدا خيط إينار ، هو يعرف طبعًا ما يعني أن لا يكون مع المرء معطفه الواقي من الماء في البحر ، ناهيك عن كونه بعيدًا جدًا عن اليابسة ، وفكرت ، أكان سينتظر تلك المدة الطويلة لو أن أحدًا آخر غير باردور نسي ذلك المعطف الواقي؟ أعرف أنني يجب ألّا أفكر هكذا ، ومع ذلك فعلت ، وكدت تقريبًا أسأله ، إلا أنه لحظتها أطلق صيحته في المفرش . ولماذا أسأله في حين أن باردور ميت؟ لا الأسئلة ولا الأجوبة تبعث الموتى . لا يمكنني أن أعود إليه ، قالت . بل لا أريد أن أعود إليه ، قالت . إنه ليس رجلًا سيئًا ، قالت ، لكن أفضّل الموت على أن أعود إليه ، قالت . عندئذٍ كررت هيلغا مرة أخرى أن بيارني رجل أهل لأن يُحب . لا ، لا أستطيع أن أفعل ذلك ، اعترضت أندريا عندما أدركت ما ترمي هيلغا إليه . حياتنا ، قاطعتها هيلغا ، نشكلها وفق ما نريد لها أن تكون . وإذا كنت تريدين ، يمكنك أن تفعلي إذًا .

لهذا السبب أَرسلن وراء بيارني .

تذهب معي ، يكرّر مذهولًا وهو جالس عند نهاية الطاولة بعيدًا قدر الإمكان عن هيلغا وغيرترود ، يراقب النساء ، متفاجئًا ، مشوش الذهن ،

حذرًا وربما مذعورًا أيضًا . أيمكن أن نقدم لك القهوة؟ تسأله غيرترود بتودُّد وقد أنهت تدخين لفافتها . نعم رجاءً ، يقول بيارني فورًا ويتنفس الصعداء ، لأن قبول فنجان قهوة أسهل بكثير من قبول امرأة . تنهض غيرترود وتأتي بالقهوة لساكن الكوخ الذي لا فكرة لديه كم من النادر أن تُقدَّم له القهوة من قِبل هذه المرأة . يغطي الفتى عينيه لحظة ، كأنه يحاول استيعاب كل هذا ، وليستعيد رباطة جأشه ، فالعالم ترنَّح عندما قالت هيلغا أن أندريا قد أخذت بعين الاعتبار فكرة مرافقة بيارني ، إنما ماذا استنبط المزارع من ذلك؟ فتح بيارني فمه ، ولم تخرج منه أي كلمة . لديك أربعة أطفال بلا أم ، تقول هيلغا ، وأمك عجوز طريحة الفراش ، والصيف على الأبواب ، وهناك قدر كبير من العمل الذي يتطلب الإنجاز ، أنت تعيش بعيدًا عن كل شيء ، ومن العسير أن تجد أيدي عاملة مناسبة في مثل تلك المنطقة . ليس بمقدورك أن تتولى كل شيء وحدك ، وقد تضطر إلى التخلي عن قسم من أطفالك وترسلهم إلى مكان ما ، أو تتفادى هذا المصير باصطحاب أندريا معك . ولن يتوافر لك أبدًا في هذه الحياة عرض أفضل . يجب ألا تكون متشدِّدًا كثيرًا ، تتابع هيلغا عندما لا يخرج شيء من فم بيارني ؛ يكتفي بالجلوس هناك ، يداه تستريحان على الطاولة ، بلا حول ولا قوة ، وفنجان قهوته فارغ . أو مغفلًا ، تضيف غيرترود مع ابتسامة صغيرة ، كما لو أنها تتسلى بما يجري ، وتعيد صبّ القهوة في فنجان المزارع . فتنبعث الحياة في يديه ، تضطر إحداهما إلى رفع الفنجان ، وتجاريها اليد الأخرى . ينظر الفتى إلى أندريا ، تلتقي عيونهما ، وهذا لطيف . أخيرًا يقول بيارني لأن المرء أحيانًا يجد نفسه مرغمًا على الكلام . أكبر بناتي ، يقول بنبرة حازمة ، لكنه يشعر أنه أكثر أمانًا بإبقاء عينيه على قهوته ، لن تلبث أن تصبح في

الثالثة عشر من العمر . ثمّ يشرب قهوته . أو بالأحرى ، يهمّ بشرب قهوته لولا أنها انتهت وفنجانه فرغ مرة أخرى ، وهناك شيء غبي جدًا في رفع فنجان فارغ إلى شفتي المرء ، ولذلك يضيف بسرعة ، اسمها سورا . لكنني متأكد من أنني ذكرتُ هذا ، وهي كادحة ، يردف كأنه يحاول أن يفسر ، عندما لم يقل أحد شيئًا ؛ كانوا فقط يحدقون فيه . ما زالت طفلة ، تقول هيلغا ، ولا داعي لأن ترهقها ، لقد تحملت ما يكفي ، كلكم تحملتم ما يكفي ، الحياة أشدّ قسوة من أن تحتمل إضافة مزيد من القسوة إليها . ألا تستسلم ابنتك للبكاء في الليل؟ تسأله غيرترود بشكل مفاجئ ، فيطرق بيارني ، يداه هاتان المستندتان على طاولة المطبخ الأنيقة لا فائدة ترجى منهما ، فكيف إذًا تُسرّيا عن بنت في الثالثة عشر من العمر تقريبًا ، تبكي في حنايا وسادتها عندما تظن بأن أحدًا لا يسمعها؟ لكنه يسمعها ، ويريد أن يفعل شيئًا ، ومع ذلك يبقى في سريره ، عاجزًا عن النهوض ، غير قادر على مواجهة التحدي .

أندريا : أنا معتادة على المشقة . معتادة على العمل . وأنا لست غير معتادة على الأطفال على الرغم من أنه لا أطفال لدي ، وهذا القرار بيد القدير لا بيدي .

يسمح بيارني لنفسه الآن أن ينظر بلا مواربة إليها وهي تتكلم ، ولو أن ما قالته لا يتعدى بضع جُمل ، اثنتان منهما قصيرتان ، إلا أنها تكلمت بتأنٍ ناظرة مباشرة إليه طوال الوقت وهو أيضًا ينظر إليها . محيط عينيها جميل ، يفكر بيارني ، غير قادر عن الامتناع عن ذلك ، وليس هناك أثر مرارة حول فمها . مزيد من القهوة؟ تسأله غيرترود مركزة على دورها الجديد هذا . لا ، شكرًا ، يتمتم ساكن الكوخ ، مع أنه لا يكاد يتذكر أنه قد رفض

في أي يوم تناول هذا المشروب الأسود . صبَّ له قطرة من الويسكي ، تقول بعدئذٍ للفتى ، متخلية عن دورها . بيارني لا يعاقر الكحول . أيعني هذا أنه ليس مرحًا؟ تسأل غيرترود كما لو أن المزارع ليس حاضرًا .

الفتى : لا ، غير صحيح ، لقد ابتاع عشر أوراق لأطفاله وأربعة أقلام .

بيارني : ما جئت إلى هنا إلا لأبيع البيض ولحوم طيور البحر ، ولأضيف بعض الأشياء إلى حسابي . وأعلمتهم في البيت أنني سأعود في المساء .

تربِّت أندريا شعرها الذي بدأ يشيب قليلًا وتقول ، عشت أربعين سنة ولم أفعل قط أي شيء غير متوقَّع ، أو خارج المألوف باستثناء مرة واحدة . ما اتخذت مطلقًا قرارًا يتحدى وجودي . عشت كالخراف ، سهلة الانقياد وحيِّة الضمير ، وقمت دائمًا بما هو مطلوب مني .

باستثناء مرة واحدة؟ يستفهم بيارني ، مستغلًا الفرصة من جديد لينظر إليها ، ومن يدري ، لعله أيضًا يحاول أن يتخيلها في الغرفة العائلية البسيطة ، يتخيل أن . . . تبًا السيطرة على الأفكار صعبة ، أحيانًا تُحدِّثنا تلك الأفكار بما لا نجرؤ على الاعتراف به .

نعم ، تجيب أندريا ، وهي تبادله النظر كأنها تريد أن تنظر إلى أفكاره ، إلى المخاوف والأحلام ، وربما تراها ، ترى عجز الأطفال ، عيونهم ، والأسف . نعم ، باستثناء مرة واحدة . ينظر بيارني ، لا يستفهم ، ثم إن هذا لا يعنيه ، وأندريا لا تضيف المزيد . تتبادل غيرترود وهيلغا النظرات ، تخرج غيرترود لفافة تبغ أخرى ، هذا عندما هجرتِ بيتور ، تقول ، زوجكِ ؛ عندما تحليتِ بالشجاعة . متى ذلك؟ يسأل بيارني ، عندما لا يخرج شيء من فم أندريا . قبل خمسة أسابيع . يا للعجب . نعم . أنتِ إذًا متزوجة؟ نعم . الفتى هنا كتب لها رسالة ، تتدخل غيرترود من وراء غيمة دخان

لفافتها . رسالة؟ وبعد ذلك جاءت أندريا إلى هنا . لماذا رسالة؟ لتغيير العالم ، تقول غيرترود ، أهناك أي سبب آخر للكتابة؟ يطرق بيارني وينظر إلى يديه . إنهما كادحتان ، إنهما ثقيلتان ، إنهما بكماوتان . أنا لاجئة هنا ، تقول أندريا . ولديَّ حق في أن أعيش . هل آذاكِ ، أعني زوجك؟ يسأل بيارني من غير أن يرفع عينيه عن يديه اللتين شقَّقهما الكدح . إنه تقريبًا كل شيء آخر لم يفعله . هو إذًا لم يضربك قط؟ يسأل المزارع يديه . بيتور رجل محترم وأهل للثقة لكن قلبه قطعة من سمك القد . لعلي لست أفضل منه ، يقول بيارني ، ربما قلبي ليس إلا طائر بحر ميت . لا أظن هذا ، ترد أندريا . ينظر بيارني إلى الفتى ، كما لو أنه المسؤول عن كل هذا . لا تكن عنيدًا جدًّا ، تقول غيرترود أخيرًا ، تستطيع أندريا أن تعود إلينا في الخريف إذا لم تسر الأمور جيدًا . الرجل لم يُجلب إلى هذه الحياة الدنيوية ليكون وحده ، تقول هيلغا . يتنهد بيارني ، يكيل اللعنات بيارني ، ثم يقول بيارني ، إنها مجرد مزرعة صغيرة مستأجرة . إنها حياة شاقة . أليست هذه بطبيعة الحال مسألة وجهة نظر؟ تقول أندريا .

بيارني : ها؟

أندريا : لا شيء شاق ما دمتَ حرًّا .

يقف بيارني ، وبيارني يملك ذراعين ، ذراعين اثنتين . والأذرع وُضعَتْ في الناس لتمكنهم من أن يعانق أحدهم الآخر .

٢١

العالم ليس لطيفًا أبدًا ، ولهذا السبب يشعر المرء بالأسى عندما يذهب شخص طيب ، يقول غيسلي للفتى في اليوم التالي ، بينما يجلس منحنيًا أمام سيرة أحد اليونانيين القدماء الذاتية . مؤلمة دائمًا رؤية شخص طيب يذهب ، ويدرك الفتى فورًا أن غيسلي يعني أندريا ، على الرغم من أنهما لم يقولا في يوم أي شيء عنها . يقف مدير المدرسة كالمعتاد عند النافذة في الصالة الخارجية ، ويقول للضوء ، لماذا كان لزامًا عليها أن تغادرنا؟ لم تملك خيارًا آخر غير هذا ، يجيب الفتى ، وهو يرفع رأسه عن معرفة يبلغ عمرها 2500 سنة .

لم تملك خيارًا آخر ، يكرر غيسلي ، ما يمكننا أن نفعل ، ما يجب أن نفعل؟ مستحيل أن نقول أنه يتحتم على المرء أن يتخذ قرارًا أو لا يتخذ قرارًا ، ففي النهاية لا يهم اتخاذه أو عدم اتخاذه ، نحن لسنا الأوصياء على حياتنا .

يديم الفتى التحديق في الأفكار القديمة ، يركز ، وأحيانًا يسير الأمر سيرًا حسنًا ، وأحيانًا بشكل مروع . ثم إنه ليس من السهل دائمًا تسلُّم رسائل .

لماذا لا ترحل مع النرويجي اللعين؟ الطقس أفضل في النرويج ، لا بد من أنه كذلك ، وهذا يجعل العيش أسلس .

«هذه الأوراق سخيفة . أصغر بكثير من أن يكتب عليها المرء . ليس فيها متسع لأي شيء . أخذتُ من شتاينان خمس أوراق ، وأعطيت الأطفال ثلاثة منها ، وما تبقى هو لك . سالفر في الخارج مع الأطفال ، ويمكنني أن أسمع ضحكهم من هنا . رأيتك تتأملني ، أتعرف ذلك؟ يجب ألّا تهدر نظراتك على ما لا طائل منه . اكتشفت في الحال أنك بائس ، ولهذا أفكر فيك . أنت حتى لست عريض الكتفين ، ولست جميلًا ، ما عدا ربما بعد أن فكرت فيك مدة طويلة ولم يكن لدي أشغال كثيرة تحتاج إلى الإنجاز ، أمي كتبت لي مرة قائلة بأنه يجب ألّا أحب رجلًا مطلقًا . تبدأ المرأة في الوثوق بهم ، وفي النهاية يدمرون حياتها . لكن لسوء الحظ أنا نتاج أبي وأمي ، وهذا هو السبب في أنني أحطّ من قدر نفسي . أظن أنك تعرف كيف تكتب رسائل ؛ رأيت هذا في عينيك ، في يديك ، رأيت أنهما لا تُلمّان بشيء آخر تقريبًا ولا تنتميان لأي مكان . أنا لا أتقن فن كتابة الرسائل . وأعتقد أيضًا أن معظم الكلمات اخترعها الرجال ، ولهذا لا أستطيع استخدامها لأصف نفسي . لا أفهمها وهي لا تفهمني . أترى ما أعني؟ والآن هذه الورقة السخيفة وصلت إلى نهايتها . أنا ذات شعر أحمر والكلبة تبلغك تحياتها»

على هذا النحو تنتهي الرسالة .

لا نقطة في نهايتها .

بيد أنها رسمت كلبًا مبتسمًا في منتهى الصغر عند طرف الورقة السفلي ، مدهش كيف استطاعت أن تجد لذلك الرسم مكانًا ، ذلك الرسم الذي بدت سبابة الفتى عريضة بما يكفي لتغطيه . والأسوأ من كل شيء في الرسالة كان خصلة الشعر التي ضمَّنتها فيها ، كما لو أنه لم يدرك بكل جوارحه بأنها حمراء الشعر ، كما لو أنه قد نسي . كان التصرف الوحيد الحكيم بالنسبة إليه أن يرمي خصلة الشعر ، وهذا ما قام به ، بعد صعوده إلى غرفته في تلك الليلة . رماها . ثم قضى نصف الليلة وهو يحاول العثور عليها واستعادتها . يتثاءب الفتى . أكان يجب أن أُقدِم على شيء؟ يسأل غيسلي ضوء النهار . تُقدم؟ يستفسر الفتى وقد تشتت انتباهه ، على أي شيء؟

حسنًا ، لا أدري في الحقيقة ، ربما كأن أعرض عليها الزواج مني .

أنت ، تتزوج أندريا؟ يهتف الفتى ، متفاجئًا جدًا بحيث ينسى خصلة الشعر ؛ لماذا؟ حسنًا لأحول دون أن ترحل . وأنا أعيش وحدي ، أنا وحيد ، هذا هو الأمر ، ومن يعيش وحيدًا ليس لديه أحد يبادله الحديث . هي متزوّجة ، يقول الفتى ، لكن لا يبدو على غيسلي أنه يستمع ، يكتفي بالنظر خارج النافذة ويغرق الفتى مجدّدًا في الفكر اليوناني القديم . تشعُّ الشمس في السماء الصافية ، تغمر أشعتها الجبال ووجوه الرجال ، تشعُّ على عيني كولبين الضريرتين ، كولبين الذي يجلس في الخارج ، إزاء جدار الدار ، يستمع إلى الحياة . وقد وعده الفتى أن يخبره عن اليونانيين ، ولذلك يتابع القراءة . ثم يبدأ غيسلي في طرح أسئلة عن النصّ الذي بين يدي الفتى ، وكلاهما مشتت الذهن كثيرًا ، ثم في منتصف سؤال تقريبًا يقول غيسلي ، حسنًا يكفي هذا لليوم . النساء كلهن يرحلن ، يضيف ،

وأنا أتقدم في السن بين تلاميذ المدرسة والكتب والكلمات والويسكي ؛ كيف حال غيرترود؟ يستفسر على حين غرة ، مقاطعًا نفسه المسترسلة في الكلام ، وفي بادئ الأمر يظنّ الفتى أنه يسأل كيف تشعر ، كيف تنام ، وإن كانت تحلم بهريرة غرقت وإلى جانبها قبطان سفينة؟ يتردد في الإجابة ويتابع غيسلي أسئلته ، كيف ، برأيك ، ستتصرف؟ تتصرف ، تتصرف بخصوص ماذا؟ أوه ، بخصوص الحظر طبعًا . أي حظر؟ ألم تتطرق إلى هذا؟ هذا الحظر؟ نعم ، أي حظر؟ حسنًا أفترض أنك الشخص الوحيد الذي لا علم له بالأمر ، يقول غيسلي وهو يهزّ رأسه بعد أن عبر الغرفة إلى المكتبة حيث تناول كتابًا ، كتابًا هزيلًا ومهترئًا وبدأ يطالعه . أي حظر؟ يكرر الفتى السؤال بينما يتابع غيسلي القراءة . مُنعَت من إفراغ حمولة السمك التي تخصها في موقع التجفيف في البلدة . لماذا؟ هذا من ترتيب أخي . لماذا؟ يريد أن يحسب له الناس حسابًا . لكنّه لا يمتلك مواقع التجفيف كلها . تعني أن تريجفي لا يمتلكها كلها ، صحيح ، إلا أن فريدريك ماهر في جعل الآخرين يفعلون ما يريد ، أعرف شيئًا عن هذا ، الناس في أغلب الأحيان يستسلمون لما هو أكبر منهم ، وإلا يصبح كل شيء أصعب بكثير إلى حدّ بعيد .

في هذه الحالة ماذا يمكنها أن تفعل بالسمك الذي في السفن؟

تلك هي المشكلة بالضبط ؛ أقرأتَ هذا؟ يقول ناظر المدرسة وهو يلوِّح بالكتاب الهزيل . لا . حسنًا ، اِقرأه من أجل الدرس القادم ؛ معك خمسة أيام . يسلِّمه غيسلي الكتاب الذي يراه خفيفًا في يده . أهو خطر؟ الكتاب؟ لا ، الحظر . لا تشغل ذهنك بذلك ، ركّز على الكتاب ، من الضروري أن يُعمِل شخص ما فكره في أمور أخرى غير سمك القد والكدح ، وإلا ربما

يكون لزامًا أن يُطلق علينا الرصاص بلا تلكؤ. ما موضوعه؟ يستفسر الفتى وهو يختلس النظر إلى الصفحة الأولى، متلجلجًا في تهجئة الكلمات الدانمركية، أم أنها نرويجية؟ ما أدراني؟ يقول غيسلي وهو يأخذ المعطف الإنجليزي الذي سُمح له أن يضيف ثمنه إلى حسابه في الصيف الماضي. لأي غرض؟ كان فريدريك قد سأله وهو غارق في بحر أفكاره. حدث ذلك في مكتب فريدريك، حيث جلس الأخير إلى منضدة ثقيلة ضخمة، ووقف غيسلي على بساط ناعم، مرغمًا كحاله دائمًا على ابتلاع كبريائه ليطلب من أخيه الإذن بإضافة هذا الغرض الثمين إلى حسابه. ليس كلّ شيء له تفسير، يا أخي العزيز، قال غيسلي. أوه بلى لكل شيء تفسير، جابهه فريدريك، السؤال الوحيد يتعلق بما يملكه المرء من قدرة على معرفته والشجاعة لتقبُّله. مع ذلك حصل غيسلي على المعطف، كما توقع بأنه سيفعل، رائع أن يكون لدى المرء معطف ثمين وجيّد النوعية، هذا يجعله يشعر بالأهمية. إنما كم مرة، يفكر وهو يضع معطفه في صالة غيرترود، يمكن أن يحني المرء ركبتيه من غير أن يتكبد الخسائر؟ ألا يصبح الوقوف بقامة منتصبة ثانية أكثر صعوبة، الوقوف بقامة منتصبة؟ قد لا يهم ما الذي تتضمنه الكتب، يقول غيسلي للفتى وهو يهم بتزرير معطفه ثم يقرر ألا يفعل، فالخارج مشمس؛ لكن ككل الكتب المهمة يتعلق الأمر بكيف يكون المرء إنسانًا، وهذا أمر يكاد يكون بعيد المنال. إنما الآن رافقني إلى الشمس، سنحضر جعة ونشربها مع ذاك المخلوق الأعمى؛ سنشرب نخب أندريا، المرأة التي رحلت إلى تخوم آخر العالم.

٢٢

كلهم يفتقدون أندريا ؛ أبحرت بعيدًا مع مزارع عنده أربعة أطفال ، وأم مقعدة لا تزيد إلا قليلًا عن بقايا حياة ، وكلبة ، وبعض الدواب ، ومزرعة صغيرة مفروشة بالعشب تواجه البحر القطبي ، خلف جبال الدنيا . آخر الدنيا ، أو حيث تبدأ الدنيا . ساكن الكوخ بيارني يسميها حرية . فما عسانا نقول؟ بيد أن أندريا إلى هناك ذهبت ، وعدم التيقن في دمها ، هاربة من حياتها السابقة ، بحثًا عن حياة جديدة . حياة مختلفة . عودي فورًا إذا شعرت بالحاجة إلى ذلك ، كانت هيلغا قد قالت لها ، إن تملكتك التعاسة . نعم ، قالت أندريا ، ومع ذلك عرفوا أنها لن تفكر في العودة في أي وقت قريب ، ليس قبل الخريف على أي حال ، وربما بعده أو حتى أبدًا . كان الفتى قد وصف المكان بإسهاب ، الأطفال الأربعة ، هشاشتهم ، حيويتهم ، وصف الكلبة ، ووصف بيارني الرجل اللطيف ولكن الراسخ ، مع مسحة ألم في وجهه ، كيف قرأ الكتب ، كيف دخل أبوه بيتًا تشتعل فيه النيران لينقذ الكتب ، هؤلاء الناس لديهم أحلام ، قلوبهم ليست طيور بحر ميتة ، أو قطعًا من سمك القد ، أبدًا على الإطلاق . لعل أندريا أبحرت مع المزارع

بيارني بسبب الأحلام . هذا يقول شيئًا عن التربة إذا كانت الأحلام تنمو منها . عشت مدة طويلة بلا أحلام ، قالت للفتى في الأسفل عند الشاطئ ، وهم يحمّلون في القارب صندوقًا كبيرًا ، هيأت هيلغا وغيرترود والفتى محتوياته على جناح السرعة ؛ ثياب ، أقمشة ، بسكويت أجنبي ، زبيب ، تين مجفف ، أوراق وكتب ؛ ولم يَلقَ اعتراض أندريا أذنًا صاغية ، وبيارني وقف في المطبخ ينقّل قدميه باضطراب ، راغبًا في الرحيل ، في الوصول إلى البيت قبل هبوط الليل ، كان مرتبكًا ، وفي الوقت نفسه شعر بشيء في دمه لم يستطع أن يجد كلمات تعبّر عنه ، ربما كان موسيقى ، دوارًا خفيفًا ، قلقًا ، أو ذرّة بهجة ، فالإبحار مع امرأة غريبة ليس بالأمر البسيط ، حياة بأكملها ، امرأة ستستلقي لتنام قربه بعد بضع ساعات فقط ، وسيستمع إلى تردد أنفاسها . عِدني أن تكتب لي رسائل طويلة ، قالت وهي تعانق الفتى كما لو أنه كان شيئًا ثمينًا ، ثم جدّفا مبتعدين ، أندريا وبيارني ، جدّفا ما يقارب نصف الساعة إلى أن وصلا إلى الريح ، عندما رفعا الشراع المائل إلى اللون البني . أقوم ببعض الأعمال التجارية مع صيادي السمك الأجانب في الصيف ، قال بيارني ، فرنسيين ، وأمريكان . ظننت أنك بعيد جدًا عن كل شيء ، علقت أندريا ؛ كان التجديف بقوة مفيدًا ، فقد حال دون تساقط الدموع ، إن تغيير الحياة يتطلب بذل الجهد . حسنًا ، صحيح ، لكن صيّادي السمك يحتاجون إلى الماء وإلى الثلج لتجميد صيدهم ، عندنا ينبوع جيد وهناك منحدر جبلي هائل نادرًا ما يذوب عنه الثلج ، وهذا مصدر دخل ثابت . الأطفال يعتقدون أن رؤية الأجانب وسماعهم يرطنون بلغاتهم المختلفة أمرًا مسليًا ، يضيف بيارني ، هذا على الرغم من أنه لم يكن من الضروري أن يتكلم كثيرًا جدًا ، إذ ماذا ستقول عنه؟ لكنها

ابتسمت له مسفرة عن ابتسامتها تلك ، هناك في عرض البحر . إن ما يقال صحيح تمامًا بالتأكيد ، من أن الابتسامة يمكن أن تقيم أود المرء مدة طويلة جدًا . لسنوات ربما . أبحرا شمالًا ولحا الجبال تنهض من البحر ، شاهدا المنحدرات ذات السواد الفاحم ، والخلجان الخضراء تنبسط أمامهما والأزقة البحرية المتغلغلة في اليابسة ، رجل وامرأة في قارب ، والشراع فوق رأسيهما مثل الجناح أو مثل الحرية .

يبدأ الفتى في كتابة رسالته في الصباح التالي ؛ يجلس إلى أبعد طاولة ، طاولة كولبين ، وهناك ثرثرة زبائن في المقهى . سفينة نقل واحدة دانمركية في الرصيف ، وسفينة صيد حيتان عند البحيرة ، ومركبان شراعيان من قطاع البلاد الشمالي وصلتا خلال الليل ، وما اصطادتاه اشترته شركة تريجفي . يجلس خمسة دانماركيين وأربعة نرويجيين إلى طاولتين ، والنوافذ كلها مشرعة بسبب رائحة النفط الكريهة المنبعثة من النرويجيين . ينهض الفتى بين فترة وأخرى ليساعد إيسلانغ وأولافيا ، ولكن ذلك بشكل أساسي ليثبت وجوده لأنهما قادرتان على التعامل مع المهام ، وقبل التاسعة بقليل أُرسل وهو يحمل رسالة إلى يوهان محاسب غيرترود . اليوم يعمّه الهدوء على الرغم من الحركة الدائبة في مواقع التجفيف ، وبين الجبال تسود السكينة ، سكينة شبه حالمة تقريبًا ، كما لو أن العالم قد أغمض عينيه مؤقتًا . ثم فجأة تكسر هذه السكينة سفينة بخارية تندفع نحو البحيرة معكرة الجو ببخارها .

ت . يونسون ، الاسم المكتوب على هيكلها : تريجفي يونسون . هو هنا ، تريجفي بنفسه ، وقد اشترى لنفسه سفينة بخارية ، مخالفًا نصيحة فريدريك وهوغني رئيس المحاسبين في الشركة ، اللذين كانا يفضلان سفينة

كبيرة متينة ، أرخص بكثير وتفي بالغرض كالبخارية تمامًا . لكن تريجفي يميل إلى اتخاذ خطوات أكبر من خطوات الآخرين ، وهو لا يريد أن يعتمد على الرياح ، كما اضطررنا دائمًا إلى أن نفعل ، نطلب من الريح باستمرار أن تهبَّ لصالحنا ، بينما هي في الواقع تهبُّ فقط وتأخذ في طريقها أي شيء يعترض اندفاعها ؛ الرياح لا تفرق بين الطيور والسفن ، بالنسبة إليها هما الشيء نفسه . هي تنفخ على الكلمات والذكريات وتبعثرها في المدى ، وتقذف السفن بين البلدان . الآن ، على أي حال ، ابتاع تريجفي سفينة ضخمة وقوية تشتغل على البخار وما عاد بحاجة إلى الاعتماد على الرياح ، هذا كما لو أنه تقريبًا هزم قوى الطبيعة ، وسواريها الثلاث التي ترتفع عالية وملوكية من سطحها إشارة إلى أن الرياح في خدمة تريجفي ؛ مهمَلة خلال هبوب الرياح المعاكسة ، مستعمَلة خلال هبوب الرياح الخلفية .

عندما يخرج الفتى من عند يوهان يتراءى له كما لو أن وصول هذه السفينة - أول سفينة عابرة للمحيطات يمتلكها رجل آيسلندي ، تشتغل بقوة البخار وذات طاقات كامنة غير مقيدة ، هذه الـ 849 طنًا البالغة من العمر عشرين سنة ، والتي اشتراها تريجفي في سكوتلندا - قد زلزل البلدة بكل ما في الكلمة من معنى . هذه السفينة العظيمة راسية الآن في البحيرة ؛ وتريجفي الصغير ، مركب بخاري زنة 30 طنًا ابتيع السنة الماضية ، ينقل الشخصيات المهمة إلى اليابسة . تريجفي بنفسه ، مع زوجته ، وطفلين ناضجين ، وحما تريجفي الجنرال المسنّ الذي كان سابقًا وزير حربية .

أجلى رئيس العمال كيارتان الرجال إلى عنابر سفينتين راسيتين عند الرصيف وهو يصيح عليهم ويشتمهم ليعودوا إلى العمل بعد أن أشبعوا عيونهم تحديقًا

في الباخرة الضخمة ، لأن الآن هو الوقت ، بحق الشيطان لنبعد هذه المراكب القديمة العفنة عن الرصيف ، فالسفينة البخارية ت . يونسون تحتاج إلى أن تحط هناك ، مضيئة وباهرة كالمستقبل ، محمَّلة بالملح والفحم . ثم ستُحمّل السفينة بسمك القد ، إنما ليس إلا بعد أن يمضي الرجال اليوم والليلة التالية في إفراغ عنابرها وتنظيفها ، ومسح سخام الفحم الذي سيصعدون منه لاحقًا مسودين مثل شياطين من الجحيم . يحثّ كيارتان العمال بصيحاته ، ولا يتمهل إلا عندما يرسو المركب البخاري الصغير ويخطو أكابر القوم إلى اليابسة ، ثم يبدأ مجدّدًا في كيل شتائمه بعد أن يصبح ذلك الجمع البارز على مسافة بعيدة ؛ المرء لا يطلق العنان لصوته عندما تكون هناك على مقربة منه آذان راقية . وها هما الآن يمشيان معًا خلال شوراع البلدة ، تريجفي وفريديرك ، الألف والياء ، فريدريك يرتدي سترته الزرقاء التي تحيط صدره الواسع بأناقة ، أطول من تريجفي بمقدار رأس تقريبًا ، ولكن ليس بالتحديد مثيرًا للرعب كالعادة ؛ كلّ شيء يتضاءل في حضرة بعض الأشخاص . يتوقّفان مرة أو مرتين ليتفحّصا سمك القد ، ينحني فريدريك لينتقي سمكة ويقومان بمعاينتها معًا ، يرفعانها نحو الضوء ، يدققان فيها ليريا أنها قد عولجت كما ينبغي ، وما إذا كانا يستطيعان تمييز أصابع اليد الأخرى من خلال الرقبة ، السمك مجفف كما يجب ، ويمكن أن يبحروا به إلى إسبانيا ، نحو الشمس ، وبالتالي يجنون ثمنه ، وذلك من أجل الصمود والبقاء على قيد الحياة ، من أجل جرٍّ هذه البلاد ، هذه الجزيرة الملسوعة التي تكتسحها الرياح ، إلى أحضان المستقبل . خارج الظلام والموت إلى الضوء والرخاء . يناول فريدريك تريجفي سمكة تلو سمكة ، بينما أولئك الذين يقفون أكثر قربًا منهما يشعرون بضغط غريب في

رؤوسهم ؛ ويتنفسون الصعداء عندما ينصرفان ، وفي الوقت نفسه يتملكهم الفخر لأنهم كانوا على مقربة من ذاك الذي يبقي بلدتنا حيَّة ؛ كأي شيء مهم يقترب منه المرء كثيرًا ، فمداخيل الآلاف تعتمد كليًا عليه ، على دهائه . يحوّل تريجفي كدحنا وروتيننا الكئيب إلى ذهب يسدِّد ثمن البواخر ، يسدِّد تكاليف حياته في كوبنهاغن ، يسدِّد ثمن لباسه ، يسدِّد مصاريف أطفاله وأحفاده ؛ ونحن نتقاضى حصة واحدة ، ويقبض هو تقريبًا الحصص التسع المتبقية . هكذا هي الحال .

يستسلم الفتى إلى إغراء الانحدار نحو رصيف الميناء السفلي ليلقي نظرة جيدة على الباخرة ، تلك العملاقة ، رمز النصر تلك ، ينعطف في طريقه ليتفادى البحارة السكارى ، يتجاوز المدرسة ، وفجأة يسمع اسمه يُنطَق بصوت خشن . يقف ، يستدير ويتيبس عندما يرى فريدريك يسرع نحوه ، يمشي بخطى واسعة ، ولا يلبث أن يحول دون رؤية تريجفي الذي يتريث لينتظره مع حاشيته عند مبنى المدرسة . يتقدم فريدريك مباشرة نحو الفتى ، كاسفًا كل شيء ، بل حتى جاعلًا التنفس أصعب ، كما لو أنه يمتص الأوكسجين كله . يحاول الفتى أن يفكر ، أنا أقف هنا بروح صامدة ، متلمسًا بيت الشعر هذا كأنه خيط الأمل الأخير الذي يملكه ، إلا أن ذلك لا يساعده كثيرًا . عينا فريدريك غائرتان جدًا ، مثل كهفين ، والسلطة تنبثق من أعمق أعماقهما . جاء ذكركَ في البيت ، يقول فريدريك ، وعيناه تحفران في رأس الفتى ، والفتى يشعر بأن دماغه يزداد سخونة . ذكرتك راغينهيلد ثلاث مرات بلا أي سبب . وهذا لا يعجبني . الرجل الذي يتخلى عن مكانه في قارب صيد سمك مع ربان متمرّس في منتصف موسم صيد السمك لا يساوي قدر نقير . لا أعرف إن كان قد

جرى بينكما شيء ،لكنني أعرف ابنتي ، وأعرف أنها لن تأتي على ذكرك ما لم يكن هناك شيء يحدث . يتمهل فريدريك ، يجيل نظره في الجبال التي تعلوهما متفكرًا ، يتنفس الفتى الصعداء ، تفتر قليلًا السخونة التي اجتاحت دماغه ، إلا أن فريدريك الذي يتصنع رباطة الجأش يعاود النظر إليه ثانية ويقول بهدوء ، إن حاولتَ لمسها ، أو حتى بلغت بك الوقاحة حد مخاطبتها ، سأحرق الأرض تحتك . سأقطع خصيتيك وأطعمهما للكلاب . ستغادر ابنتي إلى كوبنهاغن في غضون ثلاثة أيام ، وحتى ذلك الحين من الأفضل لك أن تجري وتختبئ إذا حدث ونظرت في اتجاهك . لا أريد أن يقترب الأنذال الميؤوس منهم من ابنتي تحت أي ظرف .

٢٣

يحلّ المساء على مأدبة ، وثمة حشد ضئيل من الأفراد الفضوليين يتجمع خارج الفندق ليتفرج على الضيوف وهم يفدون . راغينهيلد ترتدي ثوبًا أحمر مميزًا مع جيدها الأبيض وعينيها والمسافة الفاصلة بينهما ؛ وبينما تدخل الفندق يلتفت جميع من هناك لينظر إليها ، النساء ليتأملن ثوبها ، والرجال ليستشفّوا الجسد الذي تحت الثوب . على كتفيها شال بنّي ثُبّت بوردة سوداء مخملية ، ثوبها يعانق صدرها بإحكام ، وهذا كاف ليجعل الرجال يفقدون السيطرة على عيونهم ؛ إنهم أحيانًا يُهزمون بسهولة بالغة . لم يُدع غونار الموظف المشورب ، طبعًا لم يُدع ، إلا أنه تمكن من رؤيتها في ثوبها . وقف هناك في المتجر مثل شبح ، مثل خيط مرتعش وحملق فيها . كان اضطرابه أشد من أن يبقى في بيته ، فذهب إلى المتجر ، وجد شيئًا ينجزه ، حاول تهدئة نفسه بالعمل . اذهبي واثني عليه ، كان فريدريك قد قال لابنته ، فمضت إلى المتجر وهي متأنقة هكذا ، تلبس ثوبًا أحمر بحمرة الجنون ، دخلت ، وفي لحظة تحوّل غونار من شبح إلى خيط مرتعش . يفترض بي أن أثني عليك ، قالت ، وكانت شفتاها حمراوين . نعم ، هما

بالتأكيد حمراوان ، يفكر غيسلي في الفندق وقد عافت نفسه الاندماج مع المجموعة التي تدردش ، يريد نبيذًا ، ولكن أكثر من ذلك يريد أن يكون جالسًا في بيته والستائر مسدلة ، يمسك كتابًا ويجلس والكون في قبضته . يراقب غيسلي ابنة أخيه تعبر الغرفة وعلى شفتيها ابتسامة ليست خالية تمامًا من التباهي ، جاء الثوب على متن الباخرة ، مفصَّل من قِبَل خيّاط خاص . إنه آخر صيحة في عالم الأزياء ، تقول راغينهيلد للنساء ، أتعرفن وورث؟ لديه أرقى الأزياء ، أي امرأة ذات شأن في لندن وباريس ترتدي ثيابًا من صنع يديه . تكاد راغينهيلد تسرق الأضواء من ضيف الشرف الذي أقيمت المأدبة له ، سيد بلدتنا ومنقذها . الجو هادئ ، والجبال تعتم قليلًا في المساء ، والبحر مسالم جدًا إلى درجة أن بعض الغرقى يرتفعون إلى سطحه ، يطفون هناك كالزبد أو مثل قناديل بحر غامضة ، يحلمون أحلامهم المالحة والمُرة ، بينما المسافات بين النجوم معابر غير مرئية إلى السماء .

على أي حال ، ليست هناك أي قناديل بحر غامضة في المأدبة ، وآنا ، زوجة فريدريك ، تعزف البيانو الذي أحضرته إلى الفندق في اليوم السابق ، مستهجنة تقاعس تيتور وزوجته آوسغيرد عن توظيف المال لشراء آلة موسيقية جيدة عوضًا عن ذلك الحطام الذي تعزف عليه هولدا لنفسها من حين إلى حين . تعزف آنا في الصالة الكبيرة التي تستقر على حيطانها لوحات سفن تريجفي ، تلك التي رسمها بيارني . يا له من أسطول! اللوحات بأسرها أعمال من الدرجة الأولى ؛ سُرّ تريجفي بها ولم ينبس أحد ببنت شفة . تنقَّل التاجر بين اللوحات يصحبه فريدريك والقس

ثورفالدر وقبطانان مهمان؛ أمعنوا النظر في اللوحات، تفحصوها بدقة ليتأكدوا من أنها صحيحة بأدق تفاصيلها، كل شيء في مكانه، واجتاز بيارني المعاينة بنجاح باهر، يبدو كما لو أن المرء يقف على السطح، قال تريجفي، وهذه الكلمات بقيت ترنُّ في أذني بيارني عندما استيقظ في الصباح التالي. يا له من ثناء من تريجفي بنفسه، أن يكون قد اجتاز المعاينة بنجاح باهر، ما عليكَ يا بيارني إلا أن تسرع الآن إلى الرصيف السفلي مع أدواتك لتبدأ في رسم مخطط أولي للباخرة، فهي ستبحر خلال يومين أو ثلاثة، أي رجل محظوظ أنت! لا، ذلك اليوم لم يأت، تلك اللحظة لم تأت؛ وبالتالي سنسمح لبيارني المستنزَف بأن يؤجل قراره، وسنسمح له بالتطلع إلى رسم ضوء الصيف الذي لن تلبث السفينة البخارية أن تأخذه منه.

تعود آنا إلى البيانو بعد العشاء، تعزف موزارت، والموسيقى تتسلل إلى القبو، إلى غرفة سنوري التي استقر فيها ومعه القليل مما تمنى واستطاع أن يجلبه، وذاك لم يكن كثيرًا، إذ ما الداعي لأن يأخذ المرء تذكارات من حياة فاشلة؟ هو مستلق في السرير بمنامته الحريرية الرثة، صور أولاده على الطاولة الصغيرة، وبضعة كتب، وكومة نوتات موسيقى يصل ارتفاعها إلى الركبة، ونوتة على حِجره: مقطوعات شوبان الحالمة، إلا أنه الآن يستمع بعينين نصف مغمضتين إلى معزوفة موزارت القادمة من الأعلى، وحاجبيه يرتعشان كلما أخفقت آنا في اتباع اللحن، وعلى هذا النحو تجده هولدا عندما تدخل بعد أن دقَّت بابه برقّة وارتباك. وردّ سنوري على قرع الباب بذهول، كانت قد أُعفيت من السهر على المأدبة ومُنحت إجازة لبقية الليلة، والآن تقف هناك في غرفة سنوري، طويلة نوعًا ما، قبيحة نوعًا ما،

وفي غاية البؤس ، معذرة ، تقول . لا بأس ، يقول . معذرة ، تكرر مرة أخرى . لا داعي لأن تعتذري ، يقول . بلى ، لأنني أتطفل عليك هكذا . عيناها كبيرتان جدًا بالنسبة إلى وجهها ، كما لو أنهما لا تتناسبان كما ينبغي مع محجريهما ، ولعلها لم تر من قبل قط رجلًا في السرير ، باستثناء البحارة المخمورين حتى الثمالة ، بعضهم شبقون كالعفاريت ؛ كالعفاريت بسبب اقتناعهم أن افتقارها إلى الحُسن يجعلها فريسة سهلة ، وبالتالي على استعداد لأن تأخذ أي شيء يمكنها الحصول عليه ؛ انظري هنا يا دميتي ، شاهدي ما لدي لك . ليس عليك أن تقلقي من شيء ، يقول سنوري مواسيًا ، مع ذلك كررت اعتذارها للمرة الثالثة ، فيقاطعها قائلًا ، هذه معزوفة موزارت . أعرف ، تجيب . يجب أن ترخي آنا كتفيها أكثر ، يقول سنوري . صحيح ، تقول هولدا ، إنها تشدد الضغط على المفاتيح كثيرًا . أتودين الجلوس؟ يسألها سنوري . نعم رجاء ، تقول وتجلس .

سنوري : لم أعرف أنك خبيرة في الموسيقى .

هولدا : لا .

يضع سنوري يده بلطف على كتيب النوتة المفتوح في حِجره . هذه ، من ناحية أخرى معزوفة شوبان ، يقول . فتلقي هولدا نظرة خاطفة على النوتة وتقول ، أليست هذه المقطوعات الحالمة؟

سنوري : يا إلهي!

٢٤

واضح جدًا أن الشخص الذي يصوغ قدرنا قد جاء . يقوم تريجفي بنزهات طويلة في الصباح ، بين السابعة والثامنة ، يسلك طريقه خلال طرقات البلدة ؛ وبالكاد نجرؤ على تحيته ، وأبدًا إن لم يبادرنا هو بها ؛ وهو يفعل هذا ، على أي حال ، يحيِّي الجميع ، يسأل الأطفال عن أسمائهم ، وسفينته البخارية راسية في الرصيف السفلي . في الصباح التالي بعد المأدبة أُحضِرت أداة حديدية ضخمة من السفينة إلى بئر البلدة ، مضخة حديدية ارتفاعها بطول رجل ، ويباشر رجال تريجفي العمل على تركيبها فورًا . هي هدية تريجفي لنا . لا أحد طلبها منه ، ويا له من فارق ، يا لها من بركة ، بل حتى سكولي مدحه في صحيفة إرادة الشعب . أخيرًا سيكون ممكنًا ضخ ماء نظيف ، خال من الملوحة . إلى الآن ، اضطر أولئك الذين لم يرضوا بشيء أقل من ماء صالح للشرب إلى جلبه من الساقية ، وهذا يستلزم الجهد لكونها على مسافة بعيدة ، خصوصًا في الشتاء ، عندما يتجمد العالم ويصبح البقاء على قيد الحياة شاقًا ، بغضّ النظر عن حمل ماء بارد مسافات طويلة بينما يتطاير رذاذه على المرء في الصقيع . أما الآن

فقد أصبح هذا العناء وراء ظهورنا ، والشكر يعود لتريجفي ، والمضخة التي عُمّدت بسرعة وحملت اسم مضخة تريجفي ، تجلب لنا الماء الصالح للشرب من أعماق باطن الأرض ، بلا عناء تقريبًا . وبينما يجاهد العمال ليثبتوا المضخة بالبئر ، تنتشر أخبار بأن عمالًا آخرين يشتغلون في منزل تريجفي ، حيث سيُمَد خط هاتف نحو المتجر ، ولاحقًا من منزل فريدريك أيضًا ، شريط هزيل معلّق في الهواء فوق رؤوسنا بمسافة جيدة ، ويفترض أن يحمل الأصوات من بيت إلى بيت ، شريط ليس أعرض من خيط البول في جريانه ، وقد يخطر على بال المرء بأننا كنا مدعاة سخرية ، لولا أن هذا هو العصر الحديث ، وهكذا سيكون المستقبل ؛ المستحيل تخيُّله يصبح عاديًا . إضافة إلى أن تريجفي يمّهد لمدّ خط هاتف يصل إلى درينزلي ، قرية صغيرة تبعد عشرين كيلومترًا عن البلدة ، تستقر عند فم واد ليس أعرض من نصل سكين ، والجبال هناك شاهقة وشديدة التحدر ، حيث يتردد في البحر خلال فصول الشتاء صدى زئير الانهيارات الجليدية هناك . وإلى هناك يرغب تريجفي في مد خط الهاتف ، لأن ترصُّد حالة المناخ من درينزلي أسهل ، توقُّعه للساعات القادمة أسهل ، وذلك لاتخاذ القرار ما إذا من الآمن الإبحار أو لا ، مثل هذه المعلومات يمكن أن تنقذ الأرواح ، بلا أدنى شك . وهذا الابتكار سيكون أشبه بحبل إنقاذ ألقاه لنا تريجفي .

يلازم طفلا تريجفي البيت في أغلب الأحيان ، يلهوان بالبيانو ، يطالعان الروايات ، يستلقيان على الأرائك المبهرجة ، يحدِّثان راغينهيلد عن كوبنهاغن ، بينما يجلس حما تريجفي ، الجنرال المسن ، في الخارج إزاء جدار البيت ، يحدق بعيدًا نحو موقع التجفيف المكتظ بسمك القد والناس ينحنون فوقه ليقلبوا السمك حتى لا تحمّصه الشمس . تلوح

سمات الوعيد على مظهر الرجل المسن ، شعر حاجبيه كثٌّ ورمادي ، وعيناه زرقاوان وثاقبتان ، هو الآن جنرال مسؤول عن سمك القد . الكرسي الشاغر المستقر إلى جانبه مخصص لغيسلي المتأخر عن موعده في الوقت الراهن ، لكن لا ضير من ذلك ؛ فعينا الرجل الزرقاوان يبدو أنهما قادرتان على اختراق الناس والكشف عن جوهرهم . لهذا يعرف أن غيسلي سيأتي ، كما هو متوقع ، وحينها سيدردشان بالفرنسية عن المعارك التاريخية ، وأحداث العالم . يمد الجنرال المسن نظره إلى ما بعد موقع التجفيف ؛ يراقب راغينهيلد تغذّ السير بعيدًا عن البيت ، ولا تقف إلا بعد أن تصل إلى شارع البحر ، وهناك تقف مشرفة على الشاطئ وتركز بكل قوتها على تهدئة دمها ، تهز قدميها كما لو أنها نافدة الصبر ؛ البحر يطبطب في الأسفل ، وبط العيدر يعلو ويهبط على الأمواج الصغيرة . تعبّ الهواء بعمق وتلاحظ حركة عند الشاطئ المقابل ، تضيق عينيها ، نعم ، لا شك في ذلك ، إنه الفتى يركض ، وتمييزه سهل ، لا أحد غيره يركض مثله ، ما عدا ربما من يحاول النجاة بحياته ، بل حتى آنذاك لن يركض بمثل تلك السرعة ، أو بمثل هذه الطاقة . تراقبه راغينهيلد ، تنفتح يداها وتنغلقان ، كأنهما تشهقان طلبًا للهواء .

*

يركض مثل صرخة . يطنّ الذباب ، تغرد الطيور ، تلوّح الأبقار بذيولها ، راضية في العشب ، ومذاق الدم يموج في فمه بينما يعبر أمام الكوخ حيث

استبد الخوف بكلب من عصا مشي ، يطأ في عدوه البرك الصغيرة والبقع السبخية ، لا يهتم بتفاديها ، وبالتالي يغدو ملطخًا بالوحل ورطبًا إلى ركبتيه .

ماذا تنوي أن تفعل؟ سأل هيلغا عندما نزلت أخيرًا ، متأخرة جدًا عن المعتاد ، حوالي السابعة ، والفتى في هذه الأثناء أعدَّ القهوة ودهن الخبز بالزبدة لكولبين الذي بقي في عالمه المظلم صامتًا كحجر . كانوا بخلاف عادتهم قد أطالوا السهر كثيرًا في الليلة السابقة . حسنًا ، الآن بدأنا ، قالت غيرترود عندما أعلن الفتى عن وصول الباخرة ، بيد أنه لم يشر مطلقًا إلى فريدريك وتهديداته . بدأنا ماذا؟ استفسر . ابتسمت غيرترود لحظة وجيدها الأبيض ما زال ناعمًا مع أنه ربما بدأ يجف ويتصدع ، لأن الجلد بلا قُبل يهرم بسرعة . ليت هناك أناس أكثر مثلك ، قالت ، فنخر كولبين . اِنخر كما يحلو لك أيها الكلب العقيم ، قالت غيرترود وهي ما زالت مبتسمة . أحيانًا يبدو كأنك لا تستوعب شيئًا ، قال كولبين للفتى ، أحيانًا أنت مجرد مغفل ملعون بحيث سيكون فرمك إلى قطع عملًا خيريًا . لهذا السبب بالتحديد هو لا يُقدّر بثمن ، قالت غيرترود . لم يجرؤ الفتى على رفع نظره ومع ذلك سأل مرة أخرى ، بدأنا ماذا؟ عندئذ جاءه الجواب من غيرترود والذي سبق أن سمعه من غيسلي ، أن سمك سفينتها لا يمكن أن يجفف في مواقع البلدة المخصصة لذلك إلا إذا تخلت عن غرورها وسلوكها الفاسد ، إذا باعت «الأمل» لشركة تريجفي التجارية ، إضافة إلى حصتها في مخزن التبريد ، وانضمت إلى نادي النساء ، وحضرت القداس بانتظام و . . . تزوجت بأقصى سرعة ممكنة . فهي قد هددت المجتمع بأسلوب حياتها ، وخرقت كليًا القيم

الأصيلة والمجربة ، شوشت الفتيات اليافعات ، حقنتهن بأوهام تتعلق بمواقعهن وواجباتهن . أو كما ورد على لسان فريدريك : أولئك الذين يُخضعون قوانين المجتمع للمساءلة ، يقوضونه ، وما الفرق عندئذ بينهم وبين المجرمين؟

ماذا ستفعل؟ سأل عندما نزلت هيلغا أخيرًا . إنها تفكر ، أجابت هيلغا وهي تجلس في مكانها عند نهاية الطاولة ومعها قهوة وشريحة خبز .

الفتى : أيستطيعون أن . . .؟

هيلجا : أن يجعلوها تنحني؟ يرغمونها على الركوع؟ حسنًا ، إن القوة ليفعلوا هذا لا تنقصهم ؛ السؤال هو ما إذا كان ذلك يناسب مصالحهم أو إلى أي درجة يناسبها .

لماذا لا يمكن أن نُترك بسلام ، سألها الفتى ؛ لماذا لا يمكنها أن تعيش كما تريد؟

كولبين : لأن لا أحد مسموح له أن يقف بقامة منتصبة . هذا لأن هؤلاء الناس متنمِّرون ، وإذا لم يستطيعوا السيطرة على كل شيء يصابون بعسر الهضم . إنه مرض . وغيرترود تسبب لهم عسر الهضم .

عسر الهضم؟ ردّد الفتى مستفهمًا .

كولبين : سيكون من الأفضل من كل شيء إطلاق الرصاص عليهم ، فرمهم وتحويلهم إلى طعوم . حينها سيعلق سمك القد جيدًا بالتأكيد . هؤلاء الرجال نهمون كسمك القد ، يبتلعون أي شيء أصغر منهم ، إنها طبيعتهم . أنت تعرف كيف هو القد .

الفتى : مرة عددت 150 سمكة كبلين في جوف قد متوسط الحجم وحجرين .

كولبين : أنت لن تكون أبدًا بحارًا قديرًا ؛ هذا مستبعد . إذا استطاع هؤلاء الأوغاد أن يحطموا غيرترود سيكون إطلاق النار عليك تصرفًا إنسانيًا . إطلاق النار عليك أولًا ، ثم عليَّ أنا .

كُفّا عن الثرثرة ، قالت هيلغا ، سنفكر في شيء ما .

شيء ما - أحيانًا ليس هناك أي نفع في هذا المصطلح .

عليه أن يقف . ليس مستنزفًا من الركض بعد ولكن نفَسه يكاد ينقطع ، وإلى جانب ذلك يحتاج إلى التبول ، هو على حافة الانفجار بعد أن نسي التخفيف عن نفسه بالتبوّل قبل مباشرة الركض . يستغرق إفراغ البول وقتًا إذا كان المرء يلهث بعد ركض عنيف ؛ يقف مباعدًا بين ساقيه وينتظر ، يغمض عينيه ، لا يسمع إلا تسارع دمه ونبض قلبه . توارى عن العالم ، تحت حافة تل ، عيناه مغمضتان ، يستمع إلى دمه الذي يقول شيئًا عن غيرترود ، عن تهديد فريدريك أمس ، عن الخوف ، عن الغضب . يفتح عينيه ، المكان جميل هنا ، بساط عشب وحشيش وسِتر . يُسطّح تدفق البول الملحاح ذي الرغوة أنصال الحشيش وتصعد إلى خياشيم الفتى رائحة البول الخفيفة . يتباطأ خفقان قلبه ، لكن التسارع في مجرى دمه حادّ جدًّا إلى درجة أنه لا يسمع وقع حوافر على العشب الطري . الحصان ينضح عرقًا ، فقد قادته راغينهلد بسرعة ؛ يا له من مشهد كان ذاك ، والمرء يراها تخب خارج البلدة حاسرة الرأس ، وعلى وجهها تعبير حازم ، لباسها فاتح الزرقة ، وقفازاها من الدانتيلة البيضاء ، وهي تمتطي حصانها الأغبر كما يمتطيه الرجال ، مثل غيرترود ،

ولتصرفها أثر مدمِّر. قادت راغينهلد حصانها بطيش بالغ بحيث إن الناس اضطروا عمليًا إلى القفز بعيدًا عن طريقها، إنها مسعورة بنت الإمبراطور، قال أحدهم وهو ينهض من الطريق المعفرة بالتراب ويراقبها تبتعد، منحنية على سرجها، وشعرها يتطاير بحرِّيَّة. بدا كما لو أنها كانت تهبُّ إلى الحرب. ينظر الفتى أرضًا ويشعر أن ثمة شيئًا في الجو، يسمع الحصان، ربما وهو ينفض جسمه قليلًا عندما تترجل راغينهيلد عنه وتدوس جزمتها السوداء الحشيش. بينهما مسافة لا تكاد تتجاوز مترين أو ثلاثة، تحدق فيه، وجهها مضرج بالحمرة جراء اندفاعها العنيف، وشعرها متهدل على كتفيها. لا تنطق بكلمة، تحدق فقط. تحدق وهي أمامه وترى. فرغ من التبول أخيرًا، لكنه متخشب، متسمر في أرضه. كان ينوي أن ينفض القطرات الأخيرة كما يفعل دائمًا، ينفض باستفاضة وإلا تسيل القطرات في بنطلونه، وأكثر من مرة واجه السخرية بسبب هذا الاحتشام المفرط، بل حتى باردور تحوّل وهزَّ رأسه، ولذلك يتبول الفتى عمومًا على انفراد، ينطلق وحده، يتبول وينفض قضيبه إلى أن لا يبقى فيه شيء. الآن هناك من يراقبه. تراقبه امرأة. المرأة التي مصَّت حبَّة حلوى ثم حشرتها في فمه وبعدئذ جاءته عارية في الحلم، فاضطر إلى النزول إلى القبو لينظف منامته الدبقة؛ ولاحقًا قبّلته، كانت شفتاها دافئتين ونديتين بالرضاب. يتذكّر ذلك كله. دمه هو الذي يتذكر في ومضة واحدة متفجرة، وشيء من تلك الومضة ينحدر إلى الأسفل فينتفخ قضيبه قليلًا، قليلًا جدًا، قليلًا فقط، ليس بشكل ملحوظ.

ما المدة التي يستغرقها تردُّد الفتى؟

وما المدة التي تستغرقها وهي تراقب؟

للدم إرادة مستقلة ، وذاكرة مستقلة ، وذكريات الدم هي التي شلّته ، غيَّرته إلى مخلوق حسّي بحت لا يتذكر إلا لسانها ، والقبلة ، والثديين الناهدين اللذَين يمكن أن يرى معالمهما بوضوح غير مريح تحت قميصها ، إلا إذا كان ما تلبسه يسمى بلوزة ، إنه لا يعرف ، ويتذكر أيضًا كلمات فريدريك من الأمس ، العنف الذي فيها ، الحديد الذي قصد منه أن يلوي ويحطم ويسحق ويروِّع ، والذي أدى مهمته ، لكن ذلك أثار في الدم الغضب أيضًا ، العناد ، والكراهية التي تحرق ، الكراهية ذات السخونة المدمرة . للدم إرادته الخاصة والفتى هناك تحت حافة تل ، فرغ توًا من التبول وبنطلونه ما زال في الأسفل عند قدميه وراغينهيلد تراقبه ودمه لا يكفّ عن التذكر ، ويستمر في شلّه محولًا اللحظة إلى شيء أزلي . ألفايدر قبّلته أيضًا عندما كان يغفو بين وجودين ، وجلست ملتصقة به في الكنيسة ، ويتذكر جيدًا حرارة فخذيها ، وكذلك جلسا ملتصقين والكلبان منحنيان تحت التابوت ، وذاك كان شيئًا بشعًا ، محزنًا ، إلا أن ذاك ما كان إلا الحياة بنفسها أيضًا ، فهذه طاقة لا يمكن إيقافها ، الدم يتذكر هذا وشيء منه يتدفق نحو قضيبه الذي ينتفخ أكثر قليلًا . ثم يحدث الأمر .

ينجح الفتى في كبح إرادة دمه العمياء ، ويهم بستر قضيبه شبه المنتصب بسرواله الداخلي ، يدخله المأوى ، يوفر على نفسه المزيد من الإحراج ، ولكن يتأخر في ذلك كثيرًا ؛ تتقدم نحوه راغينهليد وتقفز عليه .

تصل إليه بخطوتين ، بطفرتين ، ويدها اليمنى تمسك مؤخر عنقه ، تقبض على حفنة من شعره ، إحدى جزمتيها تجتاح ساق الفتى من الوراء وفجأة يجد نفسه على الأرض ، بين العشب ، ويشعر بهشاشة غريبة أمام ما يجري ، بالدهشة وربما بالخوف ، وأيضًا لأن بنطلونه المرخي يحرمه من

حرية الحركة . تسقط أرضًا معه ، أو تترك نفسها تسقط ، هما معًا بين الحشيش الريان الطري الذي بدأ الحصان يرعى فيه ، يقضمه بأسنانه الحادة . تحدق راغينهيلد في الفتى ، عيناها في منتهى التصميم ، عيناها ناريتان ، إلى درجة أنه لا يحتمل تقريبًا مبادلتها النظر ، تعضّ قفاز يدها اليمنى ، تنتزعه ، تقول ، أنا ذاهبة إلى كوبنهاغن خلال يومين ؛ امتطيت حصاني سعيًا وراءك ، تقول ، رأيتك تركض . ركبت حصاني سعيًا وراءك وامتطيته كما يمتطيه الرجال ، لأن أحدًا لا يملي علي أفعالي ، امتطيته كالرجال ولا سروال داخلي تحت ثيابي لأنني أفعل ما أشاء وما أحتاج إلى فعله ، أنا راحلة وكل شيء سيكون مختلفًا عندما أعود . أحيانًا أكره طريقتك في النظر إلي ، كما لو أنك تخشى ذلك كله ، كما لو أنك عاجز عن فعل أي شيء ، وفي الوقت نفسه كأنك تعرف كل شيء أو تعرف شيئًا لا نملك نحن الآخرون أي فكرة عنه ، مع ذلك أنت لا تعرف شيئًا ، وأنا سآخذ ما أريد أن آخذه ، تقول ، أنا راحلة . . . فجأة يبدو كأن صوتها يتكسر ، يعجز عن إخراج مزيد من الكلمات ، تبعد نظرها عنه كما لو أنها محتارة ، فتقع عيناها على قضيبه ، منتصب ، يرتعش قليلًا ، ومضحك قليلًا . هذا ليس صائبًا يقول الفتى وهو يجلس . تتلاحق أنفاس راغينهيلد ، كما لو أن نفسها قد انقطع ، تتنفس أنفاسًا ضحلة ، كأنها خائفة ، لكن أصابعها تسارع إلى فك أزرار قميصها ، هذا لا يهمني ، تقول ، ولعلها توجِّه الخطاب لنفسها أكثر من توجيهه إليه ، ذراعاها قويتان وبهما تدفع الفتى وتعيده إلى بساط العشب . هذا الصيف ، كانت قد قالت له في شهر نيسان ، سأمتطي حصانًا تحت أشعة الشمس . والدنيا صيف ، وهناك أشعة شمس ذهبية ، وهي امتطت حصانًا وتجلس منفرجة

الساقين فوق الفتى ، تمتطيه ، ترفع ثوبها ، يرى جزمتها السوداء ، يرى ساقيها العاريتين ولكن ليس أعلى من ذلك ، تطبق جفنيها ، كأنها تتذكر شيئًا بينما تنحدر يدها ، تتلمس طريقها ، تمسك قضيبه بإحكام قبل أن تستقر فوقه بحذر ، كأنها تجلس على شيء قابل للكسر ، وتتردد هنيهة ، ثم تواصل احتجازه بقوة . عيناها مغمضتان ، وتتنفس بعمق ، وهو لا يتحرك ، يشعر بنعومتها ، ببللها ، يشعر بكل ذلك بكامل وعيه . يستريح نهدا راغينهيلد على صدره ، أذنها على كتفه ، شعرها يغطي نصف وجهه ، يستنشق عبيره ، عبير نقي ولكن ثقيل أيضًا ، أريج مسكر يلسع قليلًا . إذا حاولتَ الإقدام على لمسها بل حتى واتتك الجرأة لمخاطبتها سأحرق الأرض تحتك ، سأقطع خصيتيك وأطعمهما للكلاب . أنا لم أخاطبها ، يفكر الفتى . اِذهب إلى الجحيم يا فريدريك ، أنت وعنفك . أظن أنني لا أريد أن أكون هنا ، وفي الوقت نفسه أريد هذا .

تضع راغينهيلد يدها على العشب قرب رأسه تمامًا ، تتنفس بعمق ، بصعوبة ، ثم تترك نفسها تغرق ، وهو لم يشك أبدًا في أن ذلك يمكن أن يكون بهذه الروعة . تترك نفسها تغرق ، تستقر عليه كليًا ، ويزلق إلى الدفء والبلل ، ولكن سرعان ما يعوق بحاجز ما . تعتدل والعرق ينضح منها ، وخصلة شعر ملتصقة بجبهتها ، شفتها العليا مشدودة ، ومرة أخرى يرى صدرها ، يرى نصف نهديها اللذين لا يكاد يواريهما شيء ، تفتح عينيها ، تحملق في الفراغ ، تركز ، تبدو شبه غاضبة ، ترفع جسمها قليلًا ثم تترك نفسها تسقط بشدة ، وعندئذ يتمزق شيء . يسمع صيحتها المكتومة ، شيء ما يتمزق فيها ، وقبضتاها الصغيرتان القويتان تخبطان صدره بعنف ثلاث مرات ، أربع مرات ، ثم ترفع رأسها ، وترفع جسمها

بحذر ، وتسقط ثانية ، بحذر ، لكن الإعاقة قد زالت وكذلك الحذر . تهتز ، وهو يشيح بنظره ، الدم يهدر في عروقه ومع ذلك يشيح بنظره ، يرى السماء من بين أنصال الحشيش والعشب ، يرى الحصان ، يسمعه يقضم العشب ، أنصال الحشيش لا تتمايل إلا لمامًا ، والفتى يسمع راغينهيلد تلهث إلا إذا كانت هذه الأصوات تصدر منه ؛ دمه يتدفق بلهفة في جسمه ، وهو يشعر به ، يشعر بالتيار ، يشعر كما لو أنه على قاب قوسين من الانفجار .

ثمّ لا تعود فوقه .

حدث ذلك بلا سابق إنذار .

لم يكد الفتى يلاحظ ذلك ؛ كان ينظر إلى الحصان ، وبدأ للتو يفكر في كوكب المشتري ، الكوكب الذي يقع على بعد ستمئة مليون كيلومتر ، لم يلاحظ أنها ما عادت فوقه ، بل قابعة على أربعتها إلى جانبه ، شعرها متهدل على وجهها ، وهي تحدق في الأرض كأنها تائهة مع أفكارها . ثمّ تنهض ، تزرر قميصها ، يرى وجهها ، وليس من السهل دائمًا أن يعرف المرء ما نوع الألم الذي يجعلنا نبكي ، أهو ألم الحياة أم ألم الجسد .

٢٥

أُرسِل صباح اليوم التالي في مهمة .

رحلة أخرى .

إلى المروج والجبال . ثم انحدارًا نحو مضيق بحري . كما لو أنه لم ينل كفايته من هذه الأشياء .

إنه الصيف طبعًا ؛ وستكون رحلة لطيفة ، لا تتعدى السير مسافة قصيرة . واللواذ بالفرار جيد ، بل أكثر من جيد حيث يتسنى له أن يكون وحده على الروابي ، على الجبال . المرء يفكر بمزيد من الوضوح في هواء الجبال ، يرى الحياة من زاوية مختلفة ، بسبب الهواء بحد ذاته أو بسبب المسافة بينه وبين الناس والمستوطنات . أُرسِل وهو يحمل رسالة ، كتبتها غيرترود ومرسلة إلى تاجر في قرية تتألف من ثلاثمئة شخص عند المضيق البحري المجاور ؛ الفتى يعرف هذه القرية جيدًا ، فهو يقترب من المكان الذي نشأ فيه بعد أن غرق أبوه . طُلب منه أن يسلم الرسالة وينتظر ردًا خطيًا . يمكنه الوصول إلى ذلك المكان في يوم واحد ، لكن سيضطر إلى قضاء الليلة هناك . لا يذهب وحده ، كما فعل ذات مرة من قبل ، إنما الآن

لا يرافقه ينز الذي تصعب مجاراته ، ينز الذي سيتسلم رسالة من الفتى ؛ هل أنت على قيد الحياة ، أيها المحتال ، وأطرافك كلها سليمة ، أتتدبر أمر تمضية الوقت وأنا لست إلى جانبك؟ لا ، ليس ينز ، بل سنوري التاجر سابقًا ، والمستكين إلى الخمول حاليًا في قبو فندق ، هزيل وشاحب ، ويصعب القول أنهما كانا يقومان بهذه الرحلة معًا ، فكل منهما في عالمه الخاص ، في ذكرياته ، وفي أفكاره المشوشة . كانت آوسغيرد صاحبة الفندق قد قصدت دار غيرترود لتسأل عن إمكانية الاستفادة من خدمات الفتى ليومين ، حتى يرافق سنوري جنوبًا إلى هذه القرية المعينة ، فالتاجر سابقًا ليس من المتمرسين في المشي لمسافات ، وغير معتاد على مثل هذه السفرات ، وسيضل طريقه ، ويرفض أن يسمع عن القيام بهذه الرحلة على صهوة جواد ، وما عاد يريد أن يمتطي أي حصان منذ أن انطلق على جواده إلى ريكيافيك بلا توقف ، ليكتشف هناك أن زوجته أحبَّت القدير أكثر بكثير مما أحبَّته . على أي حال ، يفترض من سنوري أن يذهب جنوبًا إلى تلك القرية ليلقي نظرة على أُرغن ، كي يشتريه للفندق إذا رأى أنه في حالة جيدة ، ففي الفندق لن يجدي نفعًا عدم وجود موسيقى ، نحن لا نعدو أن نكون كالسمك من دونها . ونحن بالتأكيد لا نستطيع تحمّل فقد رجل مثل سنوري ، تضيف صاحبة الفندق . فانبرت هيلغا تقول ، لا أقصد أن هذا سيؤرقني ولكن تعرفين أن فريدريك لن يسرَّ بوجود سنوري في الأنحاء . الموسيقى أعظم من فريدريك ومتجر تريجفي وشركته التجارية ، قالت آوسغيرد .

لم تكن هناك مشكلة في مرافقة الفتى لسنوري ، بل كان ذلك في الواقع ينطوي على مصادفة رائعة ، بما أن الخطة اقتضت إرساله جنوبًا إلى تلك

القرية نفسها ، والآن ، هما يصعدان إلى تانجودالور ، سنوري والفتى ، نادرًا جنبًا إلى جنب ، وفي أغلب الأحيان مع عشرات الأمتار تفصل بينهما ، ينسى الفتى نفسه ، ينسى سنوري ، ينسى الهدف من الرحلة ، ينسى مهمته ، السفر جيد ، الإحساس بالأرض ترتفع ، وإفلات العنان لقدميه لتفكرا وحدهما ، مع ذلك ، لا يشعر أنه على ما يرام .

امتطت حصانها ورحلت . في بادئ الأمر جثمت هناك ، على يديها ورجليها ، كأنها مشلولة ، كأنها تائهة في أفكارها ، ثم نهضت ، نظرت إلى الفتى وخصلة الشعر ملتصقة بجبهتها ، وثمة رقراق في عينيها لا يكاد يُرى ؛ تبادلا النظرات ، ولم يُسمع شيء سوى صوت الحصان وهو ينتزع الحشيش . مدت يدها وتناولت قفازها ، وقفت ، ملَّست ثيابها ، هندمت بلوزتها ، إلا إذا كانت قميصًا ، فهو لا يعرف ، مرّرت يدها على شعرها ، باردة في جمالها ، إلى متى يمكن أن يبقى البرد جميلًا؟ ثم غادرت . قادت حصانها باندفاع واختفت بسرعة ، كان في ما يشبه التجويف ، مخفيًا على أي حال عن الأنظار ، في حفرة ، في قبر ، بيد أنه ما لبث أن اكتشف جدولًا ينساب ماؤه صافيًا بين الأكوام المعشوشبة . أراد أن يغسل وجهه ، يرش عليه الماء البارد - ألمّ به ارتباك عظيم ، أو بالأحرى كأن رأسه قد سُدّ - أراد أن ينظف القسم الأسفل من جسمه ، يشطف الدم الذي رآه عندما رفعت راغينهيلد جسمها عنه فجأة مطلقة صيحة شبه مكتومة ، ولا يدري هل انكمش قضيبه وتراخى في لمح البصر بسبب الدم أو لأن راغينهيلد جثمت هناك على أطرافها الأربعة كأنها تبكي أو تشتم . جثا أمام الجدول ، أنزل بنطلونه بقدر ما يستطيع

لينظف نفسه جيّدًا ، والدم كان متخثرًا ، كان متماسكًا ، ومتكتلًا تقريبًا ، وله رائحة ، فتذكر كيف تمزق كل شيء فيها ، كيف هسهست ، كيف حملقت وركزت في لا شيء كما لو أنها ليست هناك ، وبدلًا من تنظيف نفسه ، جثم على أوصاله الأربعة ، تهوّع وتقيّأ ، والجدول تسلّم هذا اليأس والخوف والغضب والخزي مثل تسلّمه أي ورقة عشب أخرى تأتمنه ليحملها إلى البحر .

أيمكن نسيان كل شيء بين بُسط العشب ، والمرء أقرب إلى السماء منه إلى الواقع اليومي؟ حيث ينثر النهار الطيور على المرج ، ينثر تلك الأنغام الموسيقية بين السماء والأرض ، وأنصال الحشيش كلاب نائمة ، وموسيقى الجدول نقية وفضية ، في أيام كهذه تكون المروج الجبلية أشبه بشرائح من الجنة الأبدية . انطلقا قرابة السابعة صباحًا ، غادرا الأرض الواطئة ، وصعدا إلى روعة الهواء وبسط الأعشاب ، ولمدة طويلة لا ضرورة إلى التذكر ، لا ضرورة إلى إيقاظ الوعي . ينسى الفتى يوم أمس ، ينسى الحيرة ، ينسى العنف ، وينسى سنوري أيضًا ، ويعود إلى صوابه في أعلى المرج ، يقف ويلتفت ، يرى بقعة صغيرة في المدى ثم يضطجع على العشب ، على الحشيش المرتوي بالشمس ، الحشيش الذي هو أكثر قتامة وأكثر إشراقًا من حياته ، يتأمل الغيوم تبحر والحياة تأتي إليه . يركّز الفتى على الغيوم ، كأنه يأمل أن تأخذه معها بعيدًا ، هذه الغيوم التي تسافر فوق أكواخ صيد السمك حيث يقف خمسة رجال عند الشاطئ ينزعون أحشاء صيدهم ، بينما السادس ، ولا أحد سوى بيتور ، يدخل مقهى غيرترود ، نشيطًا بعد مسيرة منعشة . سلك طريقه حالما حطّوا عند الشاطئ ، ترك الآخرين يهتمون بالصيد ، أعطى نفسه بضع لحظات ليضع في جوفه شيئًا من الطعام الذي حضّرته إيلينبرغ المتأففة

نوعًا ما من استعجاله، عمل ملحّ، كان التبرير الوحيد الذي قاله لهم قبل أن يغذّ السير تجاه البلدة. إلى أين ينوي بيتور الذهاب؟ كانت إيلينبرغ قد سألت الرجال وهم ينظفون السمك وعيناها على آرني الذي هزّ كتفيه. الناس لديهم أعمال يهتمون بها، كان كل ما قاله، إلا أن إينار تمخط، وضع إصبعًا في كل منخر على حدة وتمخط بقوة لينظف خياشيمه. ذهب ليضاجع أندريا طبعًا، قال. اسكت، نهره آرني. ماذا تعني، سألت إيلينبرغ من غير أن تزيح عينيها عن إينار. ما قلتُه بالضبط، أجاب إينار.

إيلينبرغ: ماذا تعني، ألم تهجره أندريا؟

هذا سبب أكبر بالنسبة إلى بيتور ليضاجعها، قال إينار بصوت متّقد، سيفيدها كثيرًا أن يضاجعها بسفاهة؛ كل تلك الخيلاء وكل تلك القراءة عبثت برأسها على مدى فترة طويلة.

آرني: اسكت أيها الصعلوك.

توقّف الآخرون عن العمل، جفيندور العملاق والصيادان الآخران المتجولان اللذان حلّا محل الفتى وباردور.

يستطيع الناس أن يقولوا ما يريدون، أعلنت إيلينبيرغ، وما قاله إينار صحيح؛ أي صنف من النساء هي، على أي حال، تلك التي تهجر رجلًا مثل بيتور؟ أنا أسأل فقط، أي صنف من النساء هذه؟

أي صنف من النساء؟ أي نوع من الحياة؟ يدخل بيتور المقهى متلاحق الأنفاس من المشي؛ هناك ثرثرة مستفيضة في الداخل، يتلفت ناظرًا حواليه، يميّز عدة أشخاص ولكن لا يكترث بإلقاء التحية عليهم، ينظر وعيناه تبحثان عن أندريا؛ أخبريهم، ينوي أن يقول لها، أنك تحتاجين إلى الخروج لنصف ساعة أو ما يقاربها. عانى في الليالي الأخيرة من

اضطراب شديد في النوم ، الوقت الذي قضياه معًا في القبو ما انفك يخترق رأسه . لقد لاحظ عبيرًا آخر في أندريا ، وكانت تلبس ثوبًا جديدًا ، بدت مختلفة وفي الوقت نفسه لم تتغير . استغرق في الليلة السابقة دهورًا لينام ، وبدأ يفكر في ذلك ثانية حالما استيقظ ؛ وعندما نهض من الفراش في ليل الصيف شبه المضيء كان قضيبه منتصبًا . ولا ريب في أن إيلينبرغ المستيقظة رأت ما رأته ، إنما لا بأس ، إذ يمكنها أن تنظر ، فحجم ما لديه ليس فيه ما يُخجل . يضع بيتور ذراعه الطويلة على كتف أولافيا ويسألها : أين أندريا؟ فتلتفت لتنظر وسرعان ما تقول ، أوه .

بعد دقائق قليلة يسلك طريقه خارج البلدة .

ذهبت أولافيا لتستدعي هيلغا التي طلبت من بيتور أن يتبعها ، قادته إلى قلب الدار ، إلى صالة تثير الشعور بعدم الارتياح من أناقتها ، حيث وقفت غيرترود وأخبرته أن أندريا قد رحلت . أخبرته شيئًا من هذا القبيل ؛ لم يكن صافي الذهن ، تسلّم ورقة مطوية منهن ، بضع كلمات كتبتها أندريا بسرعة ، كما لو أن هناك من يطاردها : الغالي بيتور ، لقد غادرت . أنت لست رجلًا سيئًا ، لكن حياتنا معًا انتهت . لا أستطيع تخيُّل العودة إليك ، وإذا فعلت سأكرهك ، وسأكره نفسي أيضًا . الحياة أقصر من أن نقضيها بالكراهية . أتمنى أن تعثر على امرأة أفضل مني . يمكنك أن ترمي حاجياتي كلها .

ثمة شيء ما بين تلك السطور . قرأها على عجل ، جاهد ليركِّز . قرأها على عجل وكوَّرها ، أراد أن يقذفها ويتخلص منها ، ولم يتجاسر . إلى أين ذهبَت؟ استفسر . أهذا مكتوب في الورقة؟ سألته لحظتها غيرترود . لا . هناك سبب لذلك إذًا . عند هذا الحدّ غادر . غادر مثل كلب بائس .

لكن أندريا زوجته ؛ ولا تملك الحق لتتصرف هكذا . . . بهذه الطريقة المستهجنة . يستطيع طبعًا أن يذهب إلى القاضي ويستردّها ، هذا حقه . لكن بدلًا من ذلك ينسلُ مبتعدًا ، والآن ها هو يمشي بعجالة ، يفرُّ هاربًا . سيصبح مدعاة سخرية إذا سمح لهم أن يعاملوه بهذه الطريقة ، أن يكون مجرد حطام تافه ، وسيقول الناس أنه لم يستطع إرضاءها .

اللعنة على الجحيم . لماذا لم يطلب ، في أدنى الأحوال ، مقابلة الفتى اللعين؟ كان هو وباردور من أوقعا أندريا في هذا الاضطراب الجمّ . وباردور ميت ، مع أن هذا لم يحسّن شيئًا ، بل العكس تمامًا . كان يجب أن يطلب رؤية الفتى . وحينها يوجّه إليه ضربة مهلكة!

لكن ، على أي حال ، لا فائدة كبيرة ترجى من أن يطلب في البلدة رؤية شخص هو في أعالي المروج الجبلية .

تناول سنوري والفتى شيئًا من زوادتيهما حيث اضطجع الفتى بين بسط العشب والحشيش المرتوي بالشمس . أنا لست معتادًا البتة على هذا ، قال التاجر السابق ، ويده تقوم بإشارة واسعة لتشمل العشب والجبال والجدول النقي كالفضة . شربا قهوة باردة من قناني زجاجية ، الفتى معه غداء موضب من هيلغا ، وغداء سنوري من هولدا . يدا هولدا هما اللتان كدّستا شرائح الخبز ، وهذا سبب مذاقه الطيب ، فكّر سنوري ، هذا الرجل المفلس ، الفاشل في حياته . يداها ، فكّر وهو يقضم الخبز ، والمشهد المحيط به كان جميلًا . شمس مشرقة وكل شيء في منتهى الروعة تحت هذه السماء الزرقاء ، خصوصًا بعد أن علّمه الفتى كيف يتجنب رقع الأرض الندية ، والبقع السبخية ، ما أفسح المجال لقدميه لتجفّا ، وكذلك جوربيه . كل شيء لطيف ، وهذه الأرض وهذا اليوم

مثل مقطوعة لموزارت مرحة ، وفي الوقت نفسه نابعة من القلب . ينحدران نحو مضيق بحري عريض وعميق تتخلله أعداد لا تحصى من الوديان المتجاورة أحيانًا ، ويحدّث سنوري الفتى عن موزارت ، يتعثر ثلاث مرات فوق العشب ، ويُدعم بالعدد نفسه ويُنقذ من الوقوع على يد الفتى الذي يستمع ، يتشرب الكلمات والأنغام التي يصفّر بها سنوري عندما لا تفي الكلمات بالغرض وتنقطع بسبب ضعفها عن تبيين المقصود .

تمرّ الساعات ، يصعد الفتى وسنوري بعيدًا عن المضيق البحري إلى مرج جبلي آخر ، يمشيان بصمت ، يفكران في متاعبهما ، جروحهما ، السعادة غير المتوقعة . ستغادر راغينهيلد على متن الباخرة غدًا أو اليوم الذي يليه ، والباخرة محملة بكمية عظيمة من القد المجفف ، ستغادر وهذا جيد ، يشعر بذلك الآن بوضوح ، هنا وسط حزم الأعشاب ، بينما يناور حول رقع الأرض الندية ، ويساعد سنوري على تجاوز إحداها . يفكر فيها ، يسمح لها أن تخترق كيانه ، لكن ما الذي يبقى في دمه؟

لدهشته ، ما يبقى ليس غضبًا ، ولا غيظًا بدرجة أقل ، لا ، أهو شفقة؟ أو ربما شيء من الخزي؟

يقف عند حافة المرج وينظر إلى الأسفل نحو مضيق بحري آخر حيث القرية التي يريدان مع تاجرها ، والرسالة التي من غيرترود في جيبه . يسمع سنوري الذي تخلّف عنه يلهث . ليست بعيدة الآن ، يقول الفتى . لا ، يردُّ سنوري بأنفاس متقطعة . يُحدّان النظر في المضيق البحري فترة من الوقت . السماء فوقهما مثل جناح أزرق . ظننت أن الحياة قد انتهت ، يقول سنوري ، لكن لعلها ببساطة لم تبدأ قطّ .

الفتى : لا أعرف الكثير عن الحياة .

سنوري : ليس على المرء بالتأكيد أن يعرف الكثير عن الحياة ، ما عليه إلا أن يلجها ، ويعرف كيف يرحب بها عندما تأتي إليه .

٢٦

في طريقهما نزولًا يلمحان القرية عبر المضيق البحري ، بيد أنها سرعان ما تختفي عن مجال الرؤية ، بسبب عُمق المضيق والتوائه . أقل من أربع ساعات تقريبًا ، يقول الفتى . ماذا؟ يصيح سنوري وهو يحاول المحافظة على موطئ قدم جيد على المنحدر ، وذهنه في غرفة طابق الفندق السفلي . يا إلهي ، قال ليلة أمس ، عندما أدرك أن هولدا لا تقرأ نوتات الموسيقى فحسب ، بل أيضًا ميَّزت مقطوعة شوبان الحالمة بعد لمحها جزءًا من النوتة فقط . إذا كنا سنلتفُّ حول المضيق البحري سنستغرق أربع ساعات على الأقل وربما خمس ساعات . حينها سيحل المساء ، ويهبط الليل ، يقول سنوري . قد يكون في وسعنا أن نجدف ونعبر خلال ساعة ، يعلِّق الفتى . إذًا لنعثر على مركب ، يقترح التاجر المحطم ، وهو ما يفعلانه ، يذهبان للبحث عن مركب . يجتازان المنحدر مخلِّفين المرج الجبلي وراءهما ، ولا تلبث أن تهاجم خياشيمهما رائحة كريهة وهما يقتربان من الشاطئ . اللعنة على النرويجيين ، يهتف الفتى ، وينعطفان يمينًا صوب الزقاق البحري ، مبتعدين عن محطة صيد الحيتان التي تقوم على رأس بحري أو قاعدة منبثقة من

المضيق ، يريان المصهر العالي قرب الشاطئ ومنه تمتد سلاسل ثقيلة كأنها أذرع وحش ، تُستعمل لسحب جثث الحيتان إلى القاعدة . يضطران مرتين إلى الانعطاف حول بقايا متعفنة من عضلات الحيتان ، والنتانة المتخلفة من أمعائها . وكل شيء يعجُّ فيه الدود ، ويمضي عليهما ما يقارب نصف ساعة قبل أن يصبحا على مسافة كافية ليتخلّصا من الرائحة ومن خمّ المصهر ، ولا يلبث أن يطوّقهما السكون ، وهدير الأمواج ، والأصداف التي تتكسر تحت أقدامهما ، والأراضي السبخية فوق الشاطئ . يصادفان كوخ صيد سمك . كوخ قديم ، بطابق واحد ، وعند الشاطئ مركب بأربعة مجاديف . أنحتاج إلى التجديف المسافة كلها؟ يسأل سنوري ، وهو ينظر إلى ما وراء الزقاق البحري العريض نحو القرية في الطرف الآخر . هناك ريح قوية ، يجيب الفتى ، وبالتالي يمكن أن نرفع الشراع . يقرعان على الباب ، بعد أن عانيا من وقت صعب للوصول إليه خلال أكوام الأصداف المتروكة من الربيع ، إذ على ما يبدو قام صيّادو السمك بتنظيف بلح البحر في الكوخ قبل أن يجرفوا الأصداف إلى الخارج عندما بدأ الكوخ يكتظ . لا بد أنه قد أصبح نتنًا ، يفكر الفتى مقطّبًا جبينه ، بينما يقرع سنوري على الباب .

يظهر وجه منتفخ من النوم ، وجه مستطلع بفضول ومستاء في آن ؛ فإزعاج المرء في رقاده شنيع ، لأن الخلود للراحة لا يقدَّر بثمن . أعبرُ بكما المضيق البحري ، يقول الوجه ، لماذا بحق الجحيم يتوجب عليَّ أن أفعل؟ هناك سبب منطقي لكلّ شيء ، يقول سنوري بصوت هادئ محاولًا تعديل موطئ قدميه على الأصداف . وهناك سبب منطقي أيضًا في تبريح الناس ضربًا ، يقول الوجه ، وإذ ينظر إلى الفتى يصحو تمامًا . أشك في هذا إلى حدّ كبير ، يقول سنوري .

الوجه : تشك في ماذا؟

سنوري : في أن تبريح الناس ضربًا منطقي .

لماذا لا نحظى بأي سلام لننام؟! يصيح صوت من داخل الكوخ ، أما عاد يمكننا أن نرتاح؟! ويتبع هذا الصوت صوت آخر عميق يطلق لسانه بألفاظ بذيئة . لدينا معتوهان هنا في الخارج ، يريدان منا أن نعبر بهم إلى القرية ، يصيح الوجه نحو الداخل . وما همُّنا بحق الجحيم؟ يصيح الصوت الأول ، اطلب منهما أن يكمِّما فاهيهما وينقلعا من هنا! سندفع ، يقول سنوري ، فهو قد يكون تاجرًا منبوذًا لكنه ما زال يعرف الكلمة السحرية ، ويسارع إلى إخراج بعض المال . انتظرا ، يقول الوجه وهو ينقل عينيه بين المال والفتى ، وأبقيا فاهيكما اللعينين مغلقين .

بعد خمس دقائق ، يصبح الوجه رجلًا قصيرًا بشعر أشقر رمادي مزيّت ، وعينين لم توجّها إليهما إلا نظرات خاطفة مستعجلة . قصير ولكن بكتفين عريضتين . بسرعة كومضة برق يدفع هو والفتى المركب إلى البحر ، بينما يرفع سنوري يديه ، جاهلًا ما يفعله بهما ، بيد أنهما سرعان ما تُعطيان مهمة ، عندما يمدُّ الرجل يده ويقول : الأجرة . يجلس الفتى صامتًا إلى جانب الرجل ويجدِّفان ، يجلس سنوري في المؤخرة ، بلا أي فائدة ترجى منه بعد دفع الأجرة ، يحدِّق في الجبال ، في طائر يغوص بحثًا عن أشياء يأكلها ، ولكن ليس عن السعادة ، يفكر سنوري ، لا ، ليس عن السعادة . بعد أن يقطعوا مسافة جيدة في المضيق البحري ، يرفع الرجل الجلف الشراع ، فيلتقطون الريح ، يقود المركب ، يمضغ التبغ ويبصق تفلًا أحمر ، كأن حياته كانت تنزف . من أين جئتما بحق الجحيم؟ يسأل بنبرة بدت كما لو أنها مشوبة بالاحتقار ، أهناك ما يستدعي أن أعرف أيًا

منكما؟ سؤال جيد ، يقول سنوري ؛ يراقب القرية تقترب والبيوت تتضح ثم يقول إنه ، هو سنوري تاجر أشهر إفلاسه وفي طريقه إلى هذه القرية ليلقي نظرة على أُرغن من أجل فندق آخر الدنيا . أُرغن ، يهتف الرجل مصدومًا ؛ يا لها من مهمة! أمّا أنت فلا أتوقع قطعًا أن تكون تاجرًا معدمًا ، يقول للفتى بعد بضع لحظات ، بعد أن حشر في فمه قطعة تبغ أخرى وراح يمضغها بتلذذ . لا ، يرد الفتى . لكن لا بد من أنك تُدعى شيئًا ما . بشقّ النفس ، يجيب الفتى قبل أن يقول اسمه والرجل يمضغ . وخطوط حمراء تتقطر من زاويتي فمه ، يجففها بسرعة بظاهر يده ، ملطخًا خده الأيسر بشيء من تلك العصارة . هل يصادف أنك ذاك الذي يعيش مع الغواني والرجل الأعمى؟ أنا لا أعيش مع الغواني ، بل أعيش مع نساء . كلهن لديهن فروج ، يقول الآخر ، قبل أن يضيف عندما لا يردُّ الفتى بشيء ويطرق ناظرًا إلى قدميه ، وصديقك تجمَّد حتى الموت بسبب قصيدة شعر! تلتقي عيونهما للحظة ، يشعر الفتى بطعنة نافذة ، ثم لا تلبث أن تزول . أنت ذائع الصيت ، يقول الرجل أخيرًا بينما يواصل قيادة المركب . لكن ما يمكن أن يكون اسمك؟ يسأل سنوري بأدب . أنا ، ما اسمي ، هه ، اسمي كيس هراء ابن عملاق ، يقول الرجل باقتضاب ، قبل أن يلزم الصمت لبقية الرحلة ، ويغضُّ النظر عن توديعهما عندما يخطوان نحو اليابسة أسفل القرية ، مكتفيًا بقوله : الفندق ، بناء بابه أخضر . ثم يبحر مبتعدًا .

لدينا غرفة واحدة شاغرة من أصل عشرة ، ثمة أعمال كثيرة هنا ، يقول الرجل في الفندق . طويل ، هزيل ومنحني الظهر ، كأن جسمه لا يقوى على حمل وزنه ، يلتوي تحت ثقله . ثلاث غرف منها يشغلها مرضى من

سفن صيد الهلبوت الأمريكية ، اثنان مريضان كالكلاب بالإنفلونزا ، والثالث في حالة يرثى لها بعد عراك ؛ لديهم خناجر ، يقول الرجل الطويل في وجه الفتى ، ما اضطره إلى كتم أنفاسه لأن رائحة فم الرجل كريهة جدًا . الرجل ذو رائحة الفم الكريهة يشير إلى الأعلى فيسمعون أنينًا كأن ذلك الأنين رهن إشارة من إصبعه . لا أتمنى إلا أن يصمد بضعة أيام أخرى ، هؤلاء الأمريكان يدفعون مبالغ جيدة ، والآن على أحدكما أن ينام على الأرضية ، وأنا لا أفترض أنك أرفع مستوى من أن تفعل؟ لا ، يجيب الفتى ، هو بالتأكيد ليس أرفع مستوى من أن يفعل ، ثم يلتفت كل منهما إلى أعماله . سنوري ليختبر الأرغن ، والفتى ليسلِّم التاجر الرسالة ، مهمته لها علاقة بالسلطة ، بالمال ، وهذا طبعًا أسوأ لأنه ، كما يقول بيت الشعر ، «هناك قطبان في الجحيم / أحدهما يُدعى المال والآخر السلطة .» يقفان في الخارج بضع لحظات ، يُحدّان النظر في السفن الأمريكية الثلاث الراسية في المضيق البحري ، ملساء ونظيفة ، وهذا واضح حتى من مسافة بعيدة . فجأة يبدأ المطر في التساقط . ينهمر من سماء هي تقريبًا زرقاء ولو أن السحب الداكنة أخذت تتجمع ، ينظر الفتى آليًا إلى حذاء سنوري ، مؤكد أن قدميه ستتبلّلان . أنت ستقابل التاجر ، يسأله سنوري بعد الاستماع لحظة إلى قطرات المطر وهي تحطُّ على رأسه . صحيح ، يقول الفتى للمطر في الاتجاه الذي أبحر نحوه المركب عائدًا ؛ أين رأى ماضغ التبغ ذاك من قبل؟ التاجر كريستيان ليس سيئًا ، يلمّح سنوري ، لكنه ليس جيدًا جدًا أيضًا ، الحياة بالنسبة إليه ربح أو خسارة .

المتجر في مبنى كبير نوعًا ما ، بطابقين وقبو فسيح . العقار وملحقاته مرتب ومكنوس جيدًا إلا أن المطر بدأ يحطّ ببطء على الأرض الصلبة في الخارج ويحوّلها إلى وحل سيجلبه الناس بأحذيتهم إلى الداخل . يدخل

الفتى ويُعلن عمّا يريده . تقابل التاجر ، يقول أحد موظفي المتجر ، ومن لا يريد أن يقابل التاجر ، أما إذا كان هو يريد مقابلتك فهذا شأن آخر مختلف كل الاختلاف ، وماذا يُحتِّم عليه أن يوافق على مقابلتك؟ يقول الفتى إنه قادم من قِبَل غيرترود ، وأن عليه أن يُسلِّم رسالة ، وفي الحال يتغير موقف الموظف من عدم اهتمام مطلق إلى فضول ممتزج بالحيرة . مكتب التاجر في الطابق العلوي ، في غرفةٍ جانبية كبيرة فيها ثلاث نوافذ ، والسفن الأمريكية تتمايل في المضيق البحري ، وسفينة صيد حيتان نرويجية تندفع منطلقة نحو المحطة وهي تقطر حوتًا . يخاطب التاجر الفتى بمزيج من اللغة الدانمركية والآيسلندية . غيرترود أرسلتك؟ يقول التاجر . نعم يجيب الفتى ، ويبقى واقفًا هناك بينما يقرأ التاجر الرسالة ، فالجلوس لم يُعرض عليه . الرسالة ليست طويلة ، لا تزيد عن صفحة ، مع ذلك يستغرق التاجر وقتًا طويلًا في قراءتها وهو يتهته ، وأخيرًا يضع الرسالة جانبًا ، يشعل سيجارًا ، يستدير بكرسيه ليلقي نظرة على المساء ، ويصرّ الكرسي تحت وزن الرجل ؛ لا يميِّز الفتى حجم جسم التاجر إلا بعد أن ينهض واقفًا ، بطنه منفوخ كبطن امرأة حبلى ، رقبته غليظة ، كتفاه محدودبتان تشبهان كومتين لا شكل لهما مثبتتان إلى ظهره . لا يستطيع الفتى منع نفسه من التحديق . ماذا ستصبحون عندما تكبرون ، كنا أحيانًا نسأل الصِّبية هنا في بلدتنا ، ولم نحتج إلى سؤال البنات ؛ لأنْ لا فرصة لديهن ليصبحن أي شيء . سأصبح سمينًا ، كان يجيب أولئك الذين ركزوا عيونهم على الأبعد والأعلى . إنها تريد مني جوابًا ، يقول التاجر وهو ينظر خارجًا ، حيث يجدِّف قارب نحو إحدى السفن . نعم يقول الفتى .

أتعرف ما تدور حوله؟

نعم .

تبًا .

نعم .

ما كان يجب أن تخالف فريدريك ، هذا غباء .

لا ، يقول الفتى ، بصوت أعلى مما ينبغي ربما ، لكن الكثير كان يغلي فيه ، لعل ذلك بسبب نبرة التاجر ، وكيف يدخن سيجاره الذي يخرجه الرجل الآن من فمه قبل أن يصيح ، ماذا؟

لا ، ليس غباءً . إذا كنا سنقف فيجب أن نقف شامخين ، لا يمكن أن نحيا إلا هكذا .

يمعن كريستيان النظر في البحر ، يهمس بكلام غير واضح . أعطيك الجواب غدًا ، يقول ملوِّحًا بيده للفتى لينصرف .

يمسح شيء ما النافذة فيستيقظ الفتى . إنه منتصف الليل ، لا شك ، والمطر ما زال ينهمر ، مطر كثيف يحجب السماء . يشعر بالبرد من النوم على الأرضية وهو متدثر ببطانية . سنوري يشخر بصوت خفيض في السرير ، وقد أنهى عمله في وقت مبكر ، راضيًا عن الأرغن ، وراضيًا كذلك لأن برينيولفر قال له إنه سيعبر به وبالأرغن إلى البلدة في اليوم التالي ، مصمًّا أذنيه عن اعتراض التاجر المحطم الذي يعرف أن «الأمل» يفترض أن تصطاد السمك لصالح غيرترود ، لا أن تنقل أُرغن من مضيق بحري إلى آخر . فـ «الأمل» ، كما قال برينيولفر ، لا بد من أن ترسو هنا لأن يوني الطاهي كسر ذراعه . طبعًا من الجيد ألّا يضطر المرء إلى العودة سيرًا على الأقدام ، وقدَما سنوري استُهلكتا ، وستكونان متيبستين ومتقرحتين غدًا . وأنت سترافقنا ،

قال سنوري للفتى في المساء، وكلامه لا يكاد يكون مفهومًا وسط تثاؤبه، ثم غطّ في النوم. قرأ الفتى فترة واستلقى بعد ذلك صاحيًا يستمع إلى المطر والحياة يتدفقان مثل جَيَشان دم كثيف في وعيه. في النهاية أخلده وقع المطر للنوم، فغرق في أحلام مشوشة، إلا أنه أُوقظ الآن بيد تخفّ النافذة.

إنه الشاب من كوخ صيد السمك، كيس هراء ابن عملاق، يقف في الخارج، ويشير للفتى ليخرج، يضع إصبعه على شفتيه ليعلِم الفتى أن عليه القدوم بهدوء، وهذا ما يفعله بالتسلل خفية إلى الباب الأمامي، حيث بوغت هناك بعيني الرجل الطويل المنحني تراقبانه بصمت وهو جالس على كرسي. في بادئ الأمر يهمُّ الفتى بقول كلام ما، يعلل سبب تسلّله إلى المطر والليل، مع أنه هو نفسه لا يعرف لماذا، غير أن الرجل الهزيل يبدو غير آبه بسماع شيء، مختلف تمامًا عما كان عليه في السابق. الناس شيء خلال النهار، وفي الليل هم شيء آخر. وهكذا لا يقول الفتى شيئًا على الرغم من أنه يقوم بحركات قصد منها إيضاح شيء، لكنها أبعد ما يكون عن الإيضاح. يرحب به المطر وهدوء الليل، وماضغ التبغ ينطلق بصمت نحو الشاطئ مشيرًا للفتى ليتبعه. ماذا؟ يسأله، إلا أنه يسكته بنظرة، وهناك قارب على الشاطئ. ماذا؟ يسأل الفتى ثانية، فيجيب الآخر: أحتاج إلى الكلام معك، سنجدِّف في المضيق البحري ويشرع في التحضير لإطلاق القارب. ثم كأن ضبابًا ينقشع عن ذهن الفتى، ينقشع من ذاكرته. أنت إيغل، يقول بتردد، وعندما لا يجيب الرجل بشيء، يضيف متلعثمًا بعض الشيء وهو يعتدل في جلسته قليلًا وببطء كأنه يخشى أن يتكسر، نحن أشقاء، أعني أنت أخي! نعم يجيب إيغل أخيرًا ويجدفان في المضيق. الدنيا مظلمة من المطر والليل، وكل شيء هادئ وساكن.

ذلك الجرح

المفتوح في الوجود

حزن لأننا لم نحيا حياة طيبة . لكوننا موتى ولكن غير قادرين على الهروب . لكوننا عاجزين عن التوقف عن الإيمان بكل ما وراء المدى ، ما ندعوه الإله ، ندعوه المغفرة ، ندعوه الأمل . حزن لأن تجنُّب الناس للحقيقة أسهل عليهم من مواجهتها والدفاع عنها في هذا العالم القاصر عن الكمال . حزن لأن أدنى ظروف الحياة اليومية المزعجة يمكن أن تجعل الناس ينسون أنه في مكان آخر من العالم تُقطع أيدي الناس ، ويُغتصب الأطفال ، وتُدنَّس الحياة . حزن لأن الأحياء ليسوا أفضل مما كنا ، لأنهم لا يحاربون بقدر كافٍ ، وفي بعض الأحيان نادرًا جدًّا بسبب العقبات ، بسبب ضيق الوقت . حزن من الأسلوب الذي تعيشون به حياتكم ، وتدعون ذلك سعادة ، تدعون ذلك سعادة من غير أن تُمعِنوا النظر أبدًا في عيون ضمائركم . وخوف يعتمل فينا من فكرة أنكم يومًا ستستيقظون مثلنا ، مجرد ظلال ممسوخة بين الحياة والموت . حزن من طريقة مضغكم توت الجحيم بطيشٍ مفسحين المجال لسُّم الجحيم كي يخترق دماءكم . يخترقه الإجحاف . الجشع . القسوة . العنف والأنانية .

خمس كلمات في حبة توت واحدة؛ خمس كلمات تعود إلى جذر واحد.

لهذا السبب قصصنا هذه الحكايات.

مع ذلك، ليست حكاياتنا فقط ما يجب أن تبني هذا الجسر إلى القدير، أو إلى الأرض التي في الطرف المعاكس للموت، ما يجب أن تحرك فيكم شيئًا وتوقظكم، لكن أيضًا، وليس بأهمية أقل، أنفاسنا التي تتردد، وكيف تخفق قلوبنا، كيف يهدِر دمنا، خوفنا، شعورنا بالذنب، ابتساماتنا، وتوقنا إلى السعادة. وكلّ هذا الذي نقذفه بقوة في عالم النقائص.

الآن سنصل بكل ذلك إلى نهاية، موتنا وتعطشنا للحياة، سنصل به إلى نهاية. فهيا بنا نتبع الفتى، ذلك الجرح المفتوح في الوجود.

هذا العالم الموحش صالح

للسكن ما دمت تحبّني

١

موسيقى هي السفينة التي تبحر . و«الأمل» تشقّ الموج الذي كان تقريبًا مصقولًا كمرآة ضمن الزقاق البحري ، وغدا أكثر دينامية بعده بينما يبحرون موغلين في المحيط تحت المطر . ربّاه ، يا له من مطر! تُبحر السفينة إزاء محيط الجبل الذي ينتهي فجأة كما لو أن الأرض قد هبطت إلى البحر ، ثم تطوف حول مضيقين بحريين وبعدهما تدخل نطاق سلسلة جبال ديوب . ليس في مخزن «الأمل» صيد كثير ؛ كسر يوني الطاهي ذراعه بغباء ، فاضطروا إلى التخلي عن صيد السمك في الوقت الحاضر ، تدبّروا أمر سحب خيوط الصيد ويوني ينتفض ؛ هذا الرجل لم يستطع قط أن يكتم وجعه أو عواطفه ، ولا أن يحضّر طعامًا طيبًا ، ولكن الرجال عقدوا آمالهم على ذراعه المكسورة في تحسين الوضع . الأُرغن مربوط بإحكام وسط السمك ، وسنوري يجلس إليه طوال الرحلة ويعزف ، غير قادر على منع نفسه ، شاحنًا هذه السفينة المحظوظة بمقطوعات باخ ، والفتى يترك المطر يتساقط عليه ، يستمع إلى قطراته تتطاير على جبينه وإلى الموسيقى التي تتغلغل في السفينة وتصعد إلى السطح . الرجال يستلقون أو يجلسون في

السلوقية ، على أسرّتهم الرطبة ، يحدقون في لا شيء ، فالموسيقى تجعلهم يتذكرون ، تملأهم بحنين لا يفهمونه ، تجعلهم كئيبين وسعداء في الوقت نفسه . الفنّ خطر ، فهو يمكن أن يؤجج أحلامًا بحياة أفضل ، أكثر إنصافًا ، أجمل ، ويمكن أن يُذكي الشعور بالذنب ويهدد وجود الناس اليومي .

لا يبالي الفتى قيد أنملة بتعرّضه للبلل ؛ الحرارة معتدلة جدًا ، إن لم تكن تميل إلى الدفء ، بيد أن الوقوف على سطح سفينة فترة طويلة والمرء مشبع بالماء ولا يلبس ثيابًا واقية فيه مجازفة . أتريد أن تصاب بالمرض يا بني؟ يقول برينيولفر بعد خروجه لينضمّ إليه ، واضعًا ذراعه بطريقة خرقاء حول كتفي الفتى . تفوح من الربان رائحة كحول ، كان من السهل جدًا أن يعثر على المشروب في القرية ، كان حرفيًا ينتظره هناك . لا ، يقول الفتى ، سأنزل إلى السلوقية في الحال ، يردف من غير أن ينظر إلى الربان ، ويحدق في المطر ، تجاه اليابسة ، تجاه كوخ الصيد المختفي بين المطر الغزير ، يسمع برينيولفر يعود إلى الداخل بعد الوقوف معه بعض الوقت بلا أي سبب ، كما لو أنه كان تقريبًا ينتظر شيئًا ما .

كان الفتى قد شمّ رائحة الكحول نفسها تفوح من أخيه بينما جدّفا بعيدًا عن الشاطئ وتغلغلا في الليل الماطر شبه المظلم . جدّفا نحو المضيق إلى أن ما عادا يستشفّا الأرض . هذا مناسب ، قال إيغل وهو يسحب مجدافيه ، وينتقل من مكانه إلى مقعد التجديف التالي . كان البحر هادئًا إلى درجة أن الفتى استطاع تمييز قطرات المطر وهي تغرق فيه . أعطاه إيغل معطفًا واقيًا من الماء ، ثم أتبعه بجرّة ، تناول القليل ، قال ، إنه مشروب جيد لعين . ارتدى الفتى المعطف الواقي لكنه هزّ رأسه رافضًا الجرّة ، ولم يكن قد نطق بكلمة منذ أن غادرا الشاطئ . أمعن إيغل النظر في أخيه

لحظة ، ثم أطلق لسانه بالشتائم في وجه المطر ؛ أأنتَ صغير جدًا على معاقرة الكحول؟ أنا فقط لا أريد أن أفعل الآن . لم لا؟ لا أدري . أهو ربما ليس من مقام شخص يعيش مع غانية ثرية؟ أنا أشرب كل شيء ، قال الفتى بعناد وهو يعتدل في جلسته . أوه ، اِشرب إذًا! غيرترود ليست غانية . لا تكن مرهف المشاعر كثيرًا ، هي ليست ملاكًا بالتأكيد ، يقول الناس إنها تنبض بالحياة مع أولئك الذين يُرضونها . إنها ، إن غيرترود . . . هيا الآن ، قاطعه إيغل ، لا داعي للغضب ، لكن ما زلت تستطيع تناول مشروب معي ، نحن لا نلتقي كل يوم ، كما ترى ، هه ، نحن أشقّاء! أنا لا أريد أن أشرب ؛ إذا فعلتُ قد لا أعود أرى قطرات المطر وهي تغرق . كان إيغل قد رفع الجرّة إلى فمه ، وتوقف قبل أن يعبَّ منها شيئًا ، أنزلها ، حدَّق في أخيه ، ثم نظر إلى المطر وبدأ يكيل الشتائم . هناك جلسا . والمركب لا يكاد يتحرك ، ولا شيء بينهما سوى المطر إلى جانب ردح من الدهر ، ربما أكثر من أن يتقبّله المرء . لم يقولا شيئًا وكان صوت بط العيدر مزيج غريب من العزلة والسكون . مضى زمن طويل جدًا منذ أن كمنوا في سرير والديهم ، هما الاثنان وأختهما ليليا وأمهم ؛ كانت تلك آخر ليلة في عالمهم ، وفي الصباح التالي تشتتت العائلة . أيقظت الفتى أصابع إيغل في شعره ، الأصابع نفسها التي أمسكت بإحكام الجرّة في المركب ؛ أصابع غليظة الجلد ومجرَّحة . نفسها؟ أم هل يمكن أن يتغير المرء كثيرًا بحيث يموت تقريبًا أو يذوي ، يتحول إلى لا شيء ، أو بمعنى أدق يتغير إلى شيء مختلف كل الاختلاف؟

أنت لم تعرفني ، قال إيغل وابتسم ، أو تكلّف الابتسام ، ورفع الجرّة إلى شفتيه مرة أخرى . أشاح الفتى بوجهه وشعر كما لو أنه يفقد ذكرياته عن تلك الليلة الأخيرة ، ذكريات خزّنها في باطنه مثل عزاء ، مثل فرحة مؤلمة . لا

أتذكر إلا القليل ، كان قد قال ، بل حتى لست متأكدًا كم مضى من السنين منذ أن غرق أبونا ، أهي عشر سنوات أو . . . عشر؟ إنها ثلاث عشرة سنة! أنا أتذكر كل شيء ، قال إيغل بنبرة شبه مؤنبة ، وعرفت من لحظةِ أن أيقظتمانا من أنت ، عرفت هذا فورًا! أنا لا أتذكر الأحداث ، قال الفتى ، ولكن أتذكر كيف شعرت . كان ينوي أن يضيف ، أتذكر أصابعك في شعري ، ثم قرَّر ألّا يفعل . أنا أتذكر كل شيء ، كرَّر إيغل بشيء من الهدوء هذه المرة ، التفت ينظر إلى المطر ، وعبَّ جرعة من جرّته . كان قد سمع روايات عن باردور ، روايتين مختلفتين ، وعن المعطف الواقي ، وأنه بعد ذلك قطع شخص ما الوادي ، وصعد إلى مرج ومعه كتاب ، كتاب شعر ، وعرف فورًا أن ذاك كان شقيقه . عرفت ذلك فورًا ، ولطالما عرفت أنك مثل أمّنا ، ومثل أبينا أيضًا ، فيك هراء الشعر اللعين ذاك ، أنت وأحلامك المهلكة ، وأنت ترى إلى ماذا أوصلهما هذا! على أي حال ، لطالما كنتَ مثل أمّنا بالضبط ، متشبث بها باستمرار ، وهي نادرًا ما أفلتتك . عليك أن تكون حذرًا مع ذاك الهراء . أي هراء؟ كان الفتى قد سأل وهو ينظر إلى أخيه . الكتب اللعينة ، ذاك الشعر اللعين ، ذاك الهراء السخيف سيجعلك رقيقًا ، وسيحرثك الناس حرثًا ، يجب ألّا يستسلم الرجل ، ولا قيد أنملة . ما الذي يجب ألا نستسلم له؟ لكل ذلك ، لكل تلك الحفنة العفنة بأكملها ، عليك أن تكون صلبًا ، إنه الشيء الوحيد الذي يفهمه أي مخلوق . لا ، قال الفتى بصوت خافت وهو يطرق برأسه ليخفي عينيه . مؤسف جدًا أنك لا تريد أن تشرب ، قال أخوه . أتعرّضتَ للضرب حيث نشأت ، أكنتَ تنال كفايتك من الطعام؟ إن كان هناك مَن يزعجك أعلِمني فقط ، وسأهتم باللقيط . لقد استطعت أن أقاوم وأبقى حيًا ، وما اضطررت قط إلى الانحناء . أنا أعرف أساليب هذه الحياة البائسة .

٢

تبحر «الأمل» في عرض البحر، والماء متغلغل في الفتى حتى جلده، متشبع به تمامًا، وباخ ينسج خيوطه صعودًا من مخزن السفينة، وينزلق عبر سطحها. وجهه مخضل بالمطر، لا دموع، مع أنه من الجيد أن يبكي، أن يزيح هذا الثقل عن كاهله، هذا الجرح، هذا اليأس. لقد عثر على أخيه أخيرًا، ولكن ليفقده ثانية في الحال. تبادلا تحية الوداع عند الساحل والنهار كان قد طلع بين المطر، طلع خفية تقريبًا، بدت قطرات المطر كأنها تطحن الصباح وتحوِّله إلى نصف ضوء. سأتي أنا والرفاق إلى البلدة قريبًا لنرفع معنوياتنا. قال إيغل، مؤكد أننا سنحصل على الجعة بثمن مخفض هناك، لا بد من أن لديك صلات جيدة! والفتى اكتفى بهز كتفيه. ونودُّ، أردف إيغل، أن ننفِّس قليلًا عن «أصدقائنا الصغار»، لقد ظمئوا كثيرًا خلال الشتاء، والمرء لا يضاجع سمك القد، والغواني هنا لا ينظرن إلى أحد سوى أولئك الأوغاد الأمريكان. هم الوحيدون المناسبون لتلك الفروج. وسنفعل شيئًا مميَّزًا معًا، هاه، شقيقان ينشدان اللهو! ثم اختفى القارب واختفى هو معه في المطر، ووقف الفتى مدة طويلة على الشاطئ،

وقطرات المطر تتساقط عليه ، وما زالت تتساقط عليه بينما يقف على سطح «الأمل» ، وجواب التاجر على طلب غيرترود في طَرْدٍ في مخزن السفينة ، لا يستطيع ، ولن يحاول ، ولا يجرؤ على مساعدتها ، الفتى يعرف ذلك ، لا حاجة إلى فضّ الختم وقراءة الرسالة ليرى الرد ، وماذا الآن ، ما الدروب المفتوحة أمام غيرترود ، هل سينهار كل شيء ، وإلى ماذا سيؤول إليه حاله ، وما مصير تعليمه؟ تشق «الأمل» البحر ببطء خلال المطر ؛ وراغينهيلد خبطت صدره ، وهو كان فيها ، نالت وطرها ثم غادرت وتركته ممدّدًا هناك ، وبعد ذلك تقيأ . «كيف يخفق قلبك؟» سألته امرأة أخرى في رسالة ، تلك التي تفكر في نرويجي وتفكر في ينز ، وكلاهما طويل القامة وقوي مثل برينيولفر ، برينيولفر الذي يخرج إلى المطر ، يتقدم نحو شفير ظهر السفينة ، يصعد إليه بتثاقل ويختفي في البحر .

غادرت باخرة تريجفي . هي في طريقها إلى كوبنهاغن ، تمخر عباب البحار تحت السماء الواسعة ، مكتظة بحمولتها من القد المملّح ، وفيها أيضًا راغينهيلد التي ستمتطي حصانًا تحت أشعة الشمس ، في حين يُفترض أن يكون الفتى شيئًا ما بالنسبة إليها ، لم يكن يعرف ماذا ، أما الآن فيعرف . لفترة من الوقت حلم بها ، حلم أحلامًا سخيفة ، وليست خالية من الخيانة ؛ لكن أهلها هم من سيُسيئون إلى غيرترود ، سيسعون إلى تركيعها ، ويؤذونها في أدنى الأحوال ، أولئك الناس ، كان بيارني من نيس قد قال ، ونبرة صوته تشير إلى أن كل من له أي علاقة براغينهيلد لن يكون أهلًا لأن يرحّب به أحد . إلا أنه لا يستطيع أن يكره المسافة بين

عينيها ، والبرود في تعابير وجهها ، ربما لأنه لن ينسى أبدًا كيف ارتعشت بعد دفعه أرضًا ، بعد اغتصابه . لا يستطيع أن يكرهها ، وفي الوقت نفسه لا يمكن أبدًا أن يحبها ، مهما عنى ذلك ، أيًا ما عنته عبارة أن يحب .

البحر هادئ جدًا إلى درجة أن «الأمل» لا تكاد تهتز بينما يسير الفتى من الرصيف ميمِّمًا الدار . البحر الذي اختفى فيه برينيولفر .

في البداية اكتفى الفتى بالتحديق . حدَّق بينما صعد الربان إلى شفير ظهر السفينة وألقى نفسه في البحر ، مثل طائر لم ينبت ريشه بعد . وقف برينيولفر هناك ، وحياته وذكرياته تثقلان ظهره ، ثم اختفى ، ما عاد هناك شيء سوى المطر ينهمر على سطح السفينة . بدا أن وقتًا طويلًا قد مرَّ على ذلك النحو ، إلا أنه في الواقع لم يكن أكثر من ثانيتين أو ثلاث ثواني ، وهي ليست أقصر بكثير من الحياة على الرغم من طولها . حدَّق الفتى ، ثم هبَّ بسرعة . صاح بكلام ما عن الغرق والموت فأقحم الرجال أنفسهم من السلوقية إلى السطح كما تقحم البذاءة نفسها ، حوّلوا دفَّة السفينة وجعلوها تلتف بدوائر واسعة ببطء شديد وهم يصيحون باسم رُبّانهم ، يبتهلون ، ويكيلون الشتائم ، وسنوري توقف عن عزف الأُرغن وصعد ، حملق في المطر الذي وصل السماء بالبحر ، وفكر ، هذا ذنبي ، ذنبي . انتُشل برينيولفر كما يُنتشل أي حطام مهترئ من البحر ، والرجال الغرقى لحوا ساقيه المتدليتين في الماء وقالوا فيما بينهم ، رجل آخر جاء لينضم إلينا . لكن تبين أن هذا غير صحيح : أبقى الربان جسمه عائمًا برفرفة ذراعيه ، مذهولًا وهو يرى أنه انتهى في البحر ، ومتردِّدًا أيضًا في الوقت نفسه ، إذ ما الداعي للمقاومة ، أليس الغرق أفضل بكثير جدًا وأشرف ، وبذلك يجد السلام ، يبتعد عن كل شيء ، ويهرب من الحياة؟ ثمّ سمع نداء الرجال ،

سمعهم يصيحون باسمه ، وتلك الأصوات وذاك الصياح أبقياه عائمًا إلى أن استطاعوا أن يرفعوه إلى سطح السفينة . بماذا كنت تفكر بحقّ الشيطان؟ هتفوا وهم منحنون فوقه هناك ، غاضبين ؛ وما حال دون أن يوسعوه ضربًا إلا حقيقة أنه كان حيًا . لا أدري ، قال برينيولفر وهو ينفض البرد عنه في السلوقية عندما نزل الفتى إلى اليابسة والرسالة في جيبه . قلّة من الناس في الأرجاء ، ومواقع معالجة السمك تبدو مقفرة في المطر ، بعد أن كُدّس القد المجفف وغُطي .

يمشي الفتى إلى الدار عبر البلدة ، جيد أنها رحلت ، جيد أن السفينة البخارية الكبيرة حملتها بعيدًا ، هذا يناسبه ، يُشعر كما لو أنه متحرّر بعض الشيء ، لكن لا يدري من ماذا . وفي الوقت نفسه لا يشعر أنه على وجه التحديد بخير . «أيمكنكما أيها الشقيقان أن تتدبرا أمر تبادلكما الزيارات؟» كانت أمه قد كتبت في إحدى رسائلها . «يجب ألّا تهملا ذلك . يجب ألّا تسمحا للعالَم أن يفرّق بينكما!»

لكن هذا ما حدث . لم يتبادلا الزيارات ، لم يستطيعا أن يفعلا ، لم يُسمح لهما بذلك ، فقَدَ أحدهما الآخر . شقيقان ، كل منهما وحيد في هذا العالم ، كانت هناك رسالتان ، ثم لا شيء أكثر ، انتقل إيغل إلى مقاطعة أخرى ، ثم أخرى ، والعالم فصلهما ، فصلت بينهما الجبال والمسافات ، وعندما التقيا أخيرًا ، عندما خبط سنوري باب كوخ صيد السمك القذر وفتحه إيغل جاء ذلك الحدث في وقت متأخر جدًا . أتى الفتى على ذكر ليليا ، شقيقتهما ، بينما تسكعا في المركب في وسط الزقاق البحري ، أتتذكر كم كانت تبدو سعيدة حينما تستيقظ ، كيف كانت تضحك كلما رأتنا؟ فنَخَر إيغل وقال : يا للأشياء التي تزعم أنك تتذكرها! أتذكّر ما شعرتُ

به ، ردَّ الفتى ، مستعيدًا رباطة جأشه بعد أن اجتاحته موجة غضب عنيفة مفاجئة . كلهم موتى ، قال إيغل ، رحلوا كلهم ولن يعودوا مطلقًا ، ما الفائدة التي نجنيها من التذكر؟ إنه لا يساعد في شيء ، التذكر يجعلك ليّنًا ، أنت ليّن أكثر مما ينبغي ، لاحظت هذا من النظرة الأولى ، وسيدوسك الناس ما لم تبصق في راحتيك وتتصف بالرجولة . حسنًا ، وكذلك ما لم تسمح لك الظروف لتبقى هناك تحت جناح تلك المرأة ، وأقرّ أن هذا شيء جيد لعين ، عليك أن تستغل ذلك لتمهد طريقك ، قال إيغل وهو يبصق تفلًا أحمر خارج المركب .

٣

ما زالت الدنيا تمطر عندما تفتح غيرترود الرسالة في الصالة . كلهم هناك ، هيلغا وكولبين والفتى الذي يقطر منه الماء ، الفتى الذي قال إنه جاء على متن «الأمل» ، وأن يوني الطاهي كسر ذراعه ، نعم ، قرّر سنوري إحضار الأُرغن ، كان راضيًا عنه ، وأنا كنت في الخارج على سطح السفينة أستمع إلى زخات المطر وباخ ، على الأقل قال إن سنوري عزف مقطوعة لباخ ، وأحيانًا بدا كما لو أن الموسيقى طغت على المطر . عزف سنوري بينما كنا نبحر ولم يتوقف إلا عندما قفز برينيولفر ، أو سقط من السفينة ، لا ، لم يغرق لحسن الحظ ، وبدا كأنه لا يعرف كيف انتهى في البحر . نعم ، كان مخمورًا . إنه لا يستطيع التعامل مع مشروبه ، علقت غيرترود .

هيلغا : هذه التعاسة كلها .

غيرترود : بل التخاذل كله .

والآن ما رأيكَ في كريستيان؟ تقول ، بعد أن قرأت الرسالة التي تدلّت من يدها المستريحة على ذراع كرسيها . سمين ، يقول الفتى ، ما كنت أملك أي فكرة أن الناس قادرون على الإفراط كثيرًا في تناول الطعام . وهناك

لافتات معلقة في متجره، وكلها منقوشة بعبارة الوقت مال. هذا هو السبب في أن أوضاعه تسير جيدًا جدًا، تقول غيرترود، أولئك الذين يفكرون هكذا ينجحون، أنا واثقة من أنك تعرف ما كان ردُّه؟

الفتى: لم أقرأ الرسالة.

غيرترود: لكنك قرأت الرجل، وأنت تعرف الجواب.

وأنتِ عرفتِ الجواب مسبقًا، يقول الفتى مأخوذًا بالمفاجأة، كأنه توصَّل إلى استنتاج غير متوقع. كان يمكنني أن أكتب الرسالتين، تجيب غيرترود. لماذا إذًا أرسلتِني في تلك الرحلة؟ لأن صعود الجبال يفيدك، ويفيدك أن تكون على مقربة من أمثال هؤلاء الرجال؛ ألم تكن سفرتك جيدة؟ بلى، يقول الفتى بصوت واهن.

هيلغا: أحدثَ شيء ما؟

عساكَ اجتمعت بفتاة، يتدخل كولبين وهو يقرع الأرض بعكازه قرعًا خفيفًا. عندئذ يفصح الفتى، يقول إنه قد قابل أخاه وتقريبًا فقده في اللحظة نفسها، ولهذا فضّل الوقوف على سطح السفينة تحت المطر، ولهذا استطاع أن يرى برينيولفر يختفي في البحر. مصيبة شخص، تقول غيرترود، هي أحيانًا خلاص شخص آخر. لماذا راسلتِ كريستيان ما دمتِ تعرفين أنها بلا فائدة؟ هو مفتون بي. ذاك الخسيس السمين؟ يصيح الفتى. شهية كريستيان هائلة، تقول مبتسمة كما لو أنها تأتي على ذكر شيء مسلٍّ؛ إن لم نسمِّ ذلك جشعًا، تضيف. إنه فاسق، يقول كولبين بفظاظة، لقيط متزوج يبقي زوجته محبوسة في بهرجة كوبنهاغن. كتب لي عدة رسائل، تقول غيرترود، ولم يكن محتشمًا أيضًا، لعلي رغبت في أن أعذِّب الرجل المسكين بتذكيره بكلماته الكبيرة، كنت متأكدة من

أنه لن يقف أبدًا في وجه تريجفي وفريدريك. عرضَ أن يغزو العالم من أجلي، مفترضًا أنه سيفوز بي بهذه الطريقة، ولم أستطع مقاومة إغراء وخزه واستفزازه. هناك اختلاف هائل بين أن يقول المرء كلماتٍ كبيرة وبين أن يكون هو كبيرًا. وفي أغلب الأحيان لا تسنح لنا الفرصة لندلِّل على هذا بالأمثلة. أحيانًا أعتقد أننا محكومون بكلمات كبيرة يقولها رجال صغار.

أننا؟ يستفسر كولبين، أننا مَن؟ ويلتفت برأسه كما لو أن أملًا عقيمًا أحكم الخناق على رأسه ليوجّه عينيه نحو شيء ما.

هيلغا: ليس هناك ما يمكن توقعه من كريستيان طبعًا؟

غيرترود: لا، لكنه يقول أن عيني جميلتان، وشفتي جميلتان، وأنه غالبًا ما يستلقي صاحيًا في سريره يفكّر فيَّ. مع أنني أجزم أنه يفكر في أعضاء أخرى من جسدي أكثر مما يفكر في عينَي.

هيلغا: ليس هذا كأنه يمكننا أن نجفف السمك على أرقه.

كولبين: ولا على مجونه اللعين. ذاك اللقيط الفاسق.

تحتاجين إلى التوصل إلى اتفاق مع فريدريك وتريجفي، تقترح هيلغا، بنبرة صوت صارمة وغير صارمة أيضًا. أظن أنني أحتاج إلى الانضمام إلى نادي النساء الذي تديره غودرون زوجة القس، تعلِّق غيرترود مع ابتسامة طفيفة، وأعتاد على شرب الشاي مثلما تشربه النساء الراقيات، ولا أعبُّ القهوة عبًّا كصيادي السمك. اِدعيهن إلى هنا، يقول كولبين، وبعد أن يضعن مؤخراتهم الملمعة على الكراسي، سأنزل إليهن عاريًا تمامًا وأحرق حساسيتهن بشيء من القذراة، حينها ستتخلصين منهن. لماذا وأنت عارٍ؟ تسأله غيرترود بحماسة. ألا تستوعبين؟ ليس هناك أسوأ من رؤية شيخ عارٍ، من رؤية تعيس أعمى لا يلبس شيئًا، إنه منظر مروّع. وسأضرط أيضًا،

تعلمين أن رائحتي حينها يمكن أن تشبه رائحة جيفة كبش متعفنة . لا مزيد من هذا الهذيان الفارغ ، تعترض هيلغا . لعل الهذيان الفارغ هو الشيء الوحيد الذي ينفع هذا . . . كل هذا ، تقول غيرترود أو تتمتم ثم تحدِّق في الفراغ بذهن مشتَّت ، كما نميل إلى أن نفعل حتى عندما لا يبقى هناك أي شيء لنراه .

في الصباح التالي يُرسَل الفتى ليستدعي يوهان ، وطوال اليوم تمطر السماء من هذه العين المتدلية فوقنًا . يعود ويوهان برفقته ، ثم يتناول الفطائر مع هيلغا قبل أن تنضم الأخيرة إلى غيرترود ويوهان في الصالة . هل ستفاوضين؟ كان الفتى قد سأل غيرترود . إذا فعلتُ ، يتحتم عليَّ أن أجد طريقتي الخاصة ، قالت ولمسته فجأة ممسِّدة خدَّه برفق ، برِقَّة بالغة كادت تقريبًا تجعل الدموع تطفر من عينيه . إنما ، على أي حال ، أخشى أن تقود هزيمة واحدة إلى مزيد من الهزائم ؛ فهذه هي طبيعتها . تعطيه هيلغا الفطائر وتجلس معه ، تتفرج عليه وهو يأكل ، وتسأله عن شقيقه . ليس من المؤكد أنك فقدته ثانية ، تقول ، قد لا يكون الشخص الذي حلمتَ به ، وربما يكون رجلًا مختلفًا اختلافًا كليًا عما تعرفه ، لكن دمكما واحد ، والدم يمكن أن يكون أمتن ، ويشدُّ بقوة أكبر من أي شيء آخر . يقول إنه ينوي القدوم إلى هنا مع رفاقه ويتوقع أن يحصل على تخفيضات لهم كلهم . سنرحب بهم عندما يأتون ، تقول هيلغا ، ولكن ليس من السهل دائمًا أن يكون بينك وبين الآخرين روابط دم ، أحيانًا هذا يأخذ منك أكثر مما يعطيك .

قبيل المساء يتحول المطر إلى سديم كثيف . ثم ضباب . ضباب مظلم ، ويختفي كل شيء ، بما في ذلك الجبال ، كأنها لم تكن قط ، مع أنها أكبر إلى حدّ كبير من حياتنا . ومع الضباب يأتي الصمت . ينسحب الناس

إلى بيوتهم ، ولا يبقى أحد في الطرقات بمعزل عن بعض البحارة ، شياطين دانمركية يتقطرون إلى الشاطئ قرابة منتصف الليل ، يتسكعون في الضباب بحثًا عن مشرب سدوم ، ويصادفون نظراءهم الآيسلنديين الذين يسعون إلى معركة ، اِنقضوا على هؤلاء الدانمركيين الأنذال وأعيدوهم كلهم معلّبين ، أنتم لا جبال مستقرة في أعماقكم ، تنشط قبضات الرجال ولا تصيب إلا الضباب الذي يبتلع اللكمات كلها ، لا يبذل جهدًا للمقاومة ، فقط يجعل كل شيء يختفي . يبدو العالم غريبًا جدًّا عندما يختفي كل شيء . حينها نسمع أنفاسنا ، ونتحقق أيضًا من أن قلوبنا ما زالت تخفق . في العالم صمت رهيب جدًّا إلى درجة أنه يخيفني ؛ تعال واستلقِ إلى جانبي ، تحسَّس دفء أطراف أصابعي ، تحسَّس نعومة شفتي ، عندما يخلد العالم إلى الصمت ويختفي ، أناديك ، معك أنا بأمان . وهذا العالم الموحش صالح للسكن ما دمت تُحبُّني .

٤

أدبر النهار ولن يعود أبدًا . جاء ، ملأناه بأخطائنا وانتصاراتنا ، بخياناتنا وكآبتنا ، ثم أقبل المساء والفتى يجلس في الفندق مع غيسلي الذي كان هناك منذ أن نهض في بيت تريجفي وغادره من غير أن يقول كلمة ، مع أنه وافق على قضاء فترة من الوقت مع الجنرال المسن . كان الرجل الهرم قد ذهب إلى السرير ، وعلى الرغم من أنه كان يفترض بغيسلي أن يبقى ويتفرغ له ، غادر . لا يمكن الوثوق بك أبدًا ، مؤكد أن فريدريك سيقول له ذلك ، تبًا ، يتمتم غيسلي ، ماذا؟ يستفهم الفتى .

غيسلي : أخشى أن دروسك لن تصل إلى ما هو أرقى بكثير بعد الآن . أنا خسيس بائس ، مجرد صعلوك أجلس عندما يُتوقّع مني ذلك ، أتنحى عندما أؤمر بالتنحي ، أجلب العصا من البحر إذا قذفها الشخص المناسب . ما فائدة الشِّعر والمعرفة إذا كنت بلا كرامة؟

لا ريب في أنه غير مطلوب من الفتى أن يجيب على هذا ، فهُما ليسا في حصة درس ، وهذا ليس سؤالًا عن بحث ما ، بل عن الحياة نفسها ، لا درجات لتُعطى ، ولا شهادات لتُمنح . كان الفتى قد أتيح له أن يشرب

القليل ، أربع قناني جعة ، ويشعر بالانتشاء ، والضباب عزل العالم . لا أعمال رتيبة يجب إنجازها في الدار ، ولم يحتاجوا إليه في المقهى ، لا شيء ينبغي تنظيفه ، أو جلْبه ، يمكنه طبعًا أن يواصل العمل على الترجمة ، بيد أنه كان أكثر قلقًا من أن يفعل ، سأذهب إلى الفندق لأرى إن كان الأرغن قد وُضع في مكان مناسب ، قال . وهيلغا أجابت : اِفعل ما تريد .

ما يريد ، بمعزل عن المستحيل : عن إحياء الموتى ، عن سحق فريدريك ، عن إسعاد أندريا ، عن شفاء السعال في فيترارسترند ، عن دعوة ماريا إلى هنا لتنضم إليه أثناء دروسه أحيانًا؟ إذا بقي غيسلي يعلّمه ، إذا أفاق من السُّكر ، إذا سُمح له أن يستمر في تعليمه ، إذا لم يطفح به الكيل من كونه خسيسًا بائسًا وصعلوكًا فيغادر ، يهرب ، ربما ليصبح صعلوكًا وخسيسًا في مكان آخر .

ما يريد . . . في جيبه رسالة من ماريا . ورقة واحدة ، خارجها مغلف ومن الداخل ورقة رسائل ؛ بضع جُمل ، الجُمل التي اتّسعت . هي أقرب إلى قصاصة ورق منها إلى ورقة ، وأين علينا أن نضع كلماتنا إن لم يكن لدينا ورق ، ماذا سيحلُّ بهذه الكلمات إذا عشنا في مزرعة صغيرة معشوشبة تحت جبل ، على مرمى حجر من المحيط ، ولا ورق هناك ، بل ليس هناك أي شيء تقريبًا سوى الكفاح من أجل الحياة؟ بضع جُمل ، أشكرك على الكتب ، وسيسعدها كثيرًا جدًا أن تناقش محتواها معه ، فقط لو لم يكن هذا البحر بينهما ، قرأتُها ، وسردتها لـ يون الطيب ، شكرًا جزيلًا ، لكن قل لي بكم أدين لك . وفي زاوية الرسالة رسوم أطفال دقيقة ، الصفحة كلها استعملت ، وهذا دلالة على الفقر ، ولكن أيضًا على التعطش للحياة

الذي يهلَك المرء إذا فقده . يراقب الفتى غيسلي وهو يمدُّ يده إلى معطفه ليُخرج قارورة ، يعيد ملء كأسه منها ، يغمز الفتى بعينه . شكرًا جزيلًا ، لكن ولا كلمة تبين ما إذا كانت الطفلة ما زالت حيَّة ، وما مدى سوء سعالها ، أمَا كانت ماريا ستُلمِّح على الأقل إذا حدث ما هو أسوأ ، شكرًا جزيلًا ، أنا أعشق القراءة ، لكن الحياة يمكن أن تكون أفضل . أثمَّة شيء ما على طول هذه السطور؟ ما يريده . . . يريد أن يكتب لماريا . ليسأل ، هل الجميع أحياء ، ليسأل ، بماذا تحلمين؟ ما يريده : أن يستعير القارب من مارتا وأوغست في مشرب سدوم ويجدِّف مثل المجنون في دمبسفيردر ، يجدِّف بقوة عظيمة حتى ينسلخ الجلد من يديه ، ينسلخ الجلد الخشن الذي لانَ بعض الشيء هذا الصيف ، يجدِّف تجاه الشعر الأحمر ، تجاه العينين الخضراوين . يجدِّف! حسنًا ، إنما لأي غرض؟ ليُهزم؟ هذا أنت؟ ستقول متفاجئة ، هي التي تحبُّ ينز ، وتحبُّ نرويجيًا لعينًا ، تحبُّ الرجال الأقوياء الذين تجد الرياح صعوبة في زحزحتهم . هذا أنت؟ نعم ، أُرسلت إلى هنا ، سيجيب ، مثل البائس الذي هو عليه ، اضطررت إلى قضاء بعض الأشغال ، وبما أنها الآن قد أُنجزت ، أردت فقط أن أقول لكِ شكرًا على الرسالة . ثمّ يجدِّف عائدًا ، إنما ليس بالعزيمة نفسها ، غير مبالٍ قيد أنملة إن كان سيُقذف خارج مساره ، ولو حتى إلى مضيق بحري لا وجود له . لكن ، لماذا كتبتْ له رسالة ، بل رسالتين؟ الأكثر عقلانية سيكون طبعًا أن يكتب لها ويسألها ببساطة لماذا تبعثين لي الرسائل؟ أنا بصدق لا أستطيع تحمُّل هذا ، شعرك قاني الحمرة ، وعيناك ناضرتا الخضرة ، أكتبُ لها بأسلوب رابط الجأش ومتروٍّ . نعم طبعًا ، إنه من السخيف جدًا أن أجدِّف وحدي عبر مضيق بحري واسع جدًا إلى درجة أنه عمليًا أقرب

إلى محيط ، لأقوم بمثل تلك الرحلة وأنا في حيرة عظيمة ، ثم أواجَه على الأرجح بالإذلال ، والهزيمة الساحقة .

مرة أخرى يمدّ غيسلي يده إلى معطفه ليُخرج القارورة الفضية النحيلة ، يختلس النظر من حوله ، ويضيف الويسكي إلى كأسه . اِشرب ، يقول ، لنشرب طوال هذه الليلة اللعينة . لطيف أن يسكر المرء مع شاب يافع ، ينبض بالشِّعر ، لم تكن لديَّ فكرة أن مثل هذا كان بانتظاري ، ولا خطر على بالي مطلقًا أنني سأجده هنا ، من بين كل الأماكن ؛ هيا الآن ، أفرغ كأسك البغيض ذاك ، لنشرب ونمرح كفأرين في حجرة مؤن! يعبُّ كأسه ، كمية مزدوجة سخية ، برشفة واحدة ، يضع الكأس من يده ، نحن الآن نقضي وقتًا ممتعًا ، يقول ، مع أن لا شيء يقترح أنه مستمتع ؛ ينظر بذهن شارد إلى الفتى ويتمتم ثانية ، كما لو أنه يحدِّث نفسه ، كما لو أنه يقتبس حكمة مأثورة ، أكثر من كونه يطرح سؤالًا ، ما فائدة الشعر والمعرفة إذا كان المرء بلا كرامة؟ لا يتوقع جوابًا ، وليس مهتمًا بأي جواب ، يحدِّق في الفتى فحسب بنظرة شفقة ، ربما بسبب صِغر سنِّه وقلة خبرته ، وكيف أنه ما زال أمامه أن يختبر إحباطات الحياة ، أن ينهك في معمعة الكدح اليومي ، لا يطلب جوابًا ، إلا أنه على أي حال يتلقّى واحدًا . لا يمكنك أن تلقي اللوم على الشِّعر والمعرفة ، يقول الفتى بنبرة آسفة .

يجب أن تخجل من نفسك لقولك شيئًا كهذا ، يوبِّخه غيسلي الذي يبدو أنه تقدَّم في السنّ عدة أعوام ، يحرك كأسه - الفارغ للأسف - ويردف ربما أنت لا شيء بالنسبة لي إلا رفقة مخادعة .

يقترب الليل ، يموّه الضباب العالم ، ولدينا هنا سؤال للتصارع معه : يموت باردور ويصبح العالم بائسًا ، ولكن بسبب هذا بالضبط تنفتح أبواب

الدنيا أمام الفتى ، الإمكانيات التي سمح والديه لنفسهما أن يحلما بها ، كما لو أن باردور ضحّى بنفسه ، فكيف يمكن أن يحيا المرء مع مثل هذه التضحية ، بل كيف له أن يحيا؟ يموت باردور ، وتبصر مواهب الفتى النور . الآن أموت وبالتالي يمكنك أن تعرف السعادة . أتحوَّل إلى ظلام وأنت تخطو نحو الضوء . هذا لا يمكن أن يكون صائبًا ، يفكر الفتى ، وهذا هو السبب في أن كل شيء يتفكك الآن . أو أيعقل أن تسكن السعادة في الحزن ، أيمكن أن ينبثق النور من الظلمة ، وهل ، في هذه الحالة ، يكون الترحيب به مبرَّرًا؟

يرشف الفتى الجعة ، يشعر كما لو أن الضباب شلّه ، الضباب والشك ، وربما بسبب ذلك يمتنع عن النهوض والذهاب إلى الدار ، بل يواصل الجلوس في الفندق . إضافة أن لا فائدة فيه لأحد ؛ عندما تتعرض غيرترود للتهديد ، يثبت أنه لا شيء سوى جرو تافه ، بل أسوأ ، هو جزء من سوء حظّها ، وهذا سبب آخر يدفع فريدريك إلى سحقها ، هي التي تتعهد بالرعاية الشخص الذي أتت راغينهيلد على ذكره أمام أبيها . هذا الفتى الذي نبذ مكانه على مركب صيد سمك جيد ، الذي يدفن أنفه في الكتب ، وفي الوقت نفسه ينجح في وخز اهتمام ابنة فريدريك . إنه شيء لا يحتمل . وهو بالتأكيد سبب آخر لقصِّ أجنحة غيرترود تلك ، كونه تحت جناحها طبعًا . إنه عديم القيمة . عديم الفائدة . مثل الرجل الذي يقف قبالته ، أهو توقهما للشعر والمعرفة ما يجعلهما بلا أي قيمة مطلقًا .

عديم القيمة . نعم . عديم الفائدة . ربّما ، لكن ليس بالكامل ، ليس على نحو حتمي ؛ فهو قادر على المساعدة إلى حدّ ما ، بطريقته الخاصة . معه رسالة من ماريا في جيبه ، أو ملحوظة ، الشيء الوحيد الذي يمكنها أن ترسله ، كلمات قلائل تعبّر عن امتنانها وتوقها . أنّه قد يكون من اللطيف

أن تناقش تلك الكتب معه ، لولا أن البحر بينهما ، المحيط الذي نعتاش منه ونموت فيه . أما كانت تسأل عن رفقة ، الرفقة التي على الرغم من كل شيء ، يمكن أن يُعثَر عليها في الكلمات؟ هناك أشياء قليلة تساوي تسلّم رسالة . هناك حميمية في الرسائل ، فهي تشيّد جسورًا تلغي المسافات ، ورفيقة ثمينة تدوم وقتًا طويلًا ، تبقي المرء دافئًا أمدًا بعد قراءتها . سأكتب لها ، يقول الفتى بصوت عال ، فيتوقف غيسلي عن محاورة نفسه ، يرفع كأسه ليشرب ، لولا أنه فارغ ، كالحياة ، كل شيء ينتهي بالطريقة نفسها . ينظر إلى الفتى الذي كان يقول شيئًا ما عن كتابة رسالة ، كما لو أن ذلك قد يغير أي شيء ، يُحدث أي فرق . تكتب ، تكتب لمن؟ يقول مدير المدرسة بكلل ، قارورته فارغة ، وعليه أن يبتاع لنفسه مشروبه التالي ، أو ربما يضيف ثمنه إلى حسابه ، يزيد ديونه . ماريا ، يقول الفتى ، من فيترارسترند . مَن تكون ماريا؟ يسأله غيسلي ، فيقولها الفتى ، مع أنه ما نوى إلا أن يقول ، تعيش هناك ، وأنا أُرسل لها كتبًا ، وسأكتب لها ، بيد أنه يشعر فجأة أنها تستحق ما هو أكثر بكثير ، أنها تستحق أن يُحكى عنها ، تستحق أن يطّلع الناس على حياتها ، كفاحها من أجل البقاء ، تعطشها للكتب . كنت أنا وينز على قاب قوسين من الموت في العراء والصقيع أسفل مزرعتها ، يبدأ الفتى ، قبل أن يحكي عن المساء والليل والصباح في تلك المزرعة التي كانت مطمورة بالثلج آنذاك ، ولكنها الآن عادت وظهرت إلى السطح لتتشرب الضوء والشمس .

٥

لا تتركني ، يقول غيسلي . خرجا من الفندق ، والفتى كتب رسالته إلى ماريا ، حصل على الورق من هولدا ، ناداها عندما بدا كما لو أنها في طريقها إلى القبو . لا تتركني ، كرَّر غيسلي . سأعرج على الدار فقط ، يقول الفتى ، لأعلِمهم أين أنا ، وأعود . لا ، لا ، جميع الناس في هذا العالم نيام ولا يمكنك أن تذهب إلى مكان في هذا الضباب ، ستضلُّ طريقك وتنتهي في الجحيم ، صدقني ، أنا حائز على شهادات ممتازة من جامعة كوبنهاغن ، يقول غيسلي ويمسك ذراع الفتى ليضفي مزيدًا من التوكيد على ما قاله في حال لم يكن رصيد الشهادات من جامعة كوبنهاغن كافيًا .

ليسوا نائمين ، اِنتظرني هنا فقط ، سأكون سريعًا . لن تهتدي إلى طريق العودة ، ليس في هذا الضباب ، يقول مدير المدرسة بيأس ، ويتلمس جيب معطفه طلبًا لشيء من العزاء ، لكن القارورة فارغة ، وكتاب الشِّعر الذي يُخرجه لا قيمة له . في بعض الأحيان لا تكون أعمق الأشعار وأعظمها أكثر من كلمات عقيمة على الورق .

كان الفتى محقًا ، وجد المرأتين مستيقظتين في الصالة ، أنا منتشٍ من المشروب قليلًا لسوء الحظ ، يقول ، كنت أجلس مع غيسلي في الفندق ، وكتبت رسالة لماريا في فيترارسترند ، رسالة طويلة ، بينما لعب غيسلي الشطرنج مع آوسغيرد ، لمحت هولدا وهي في طريقها إلى القبو ، كانت مبتسمة ، يقيم سنوري في إحدى غرف القبو ، وأتذكر أنه جاء على ذكر هولدا هناك في الجبل ، وغيسلي ينتظرني في الضباب ، يأمل أن أرافقه إلى سدوم . تتبادل المرأتان النظر ، غيرترود تجلس حافية وأصابع قدميها في غاية الجمال . كان القبطان قد قال لها ، هناك في العالم الخارجي يمكن أن تتسلمي جوائز وهبات عليها ، يمكنك أن تحكمي الممالك بها ، لا أستطيع الاكتفاء منها ، اثنيها من أجلي مرة أخرى ، وها هي تفعل ذلك ، تثنيها بعض الشيء في الصالة حتى على الرغم من أنه ميت ، قابع في باطن الأرض . معذرة لأنني لم أبكر في القدوم ، يقول الفتى ، لا أدري لماذا لم أُعلِمكما أين استقرّ بي المقام ، أغضِبَ كولبين لأنني فوّت عليه ساعة القراءة؟ قال إنه سيجعلك تتحسّس مذاق عكازه ، تجيب غيرترود ، بيد أنه مرّ بخيبات أمل أعظم ، فلا تقلق ، ويمكنك بالتأكيد أن تخرج ثانية إلى الضباب ، وتقضي بعض الوقت مع غيسلي مئة بالمئة ، لكن لا تفرط في تناول المشروب ، نحن على الأرجح سنقوم برحلة غدًا صباحًا ، لذا اِحرص على العودة إلى الدار في وقت مناسب ، إذا أردت أن تنال قسطًا من النوم ، وأحضِر غيسلي معك ، هذا مهم . أُحضر غيسلي إلى هنا؟ يسأل بدهشة ، رحلة ، يسأل ، إلى أين ، كلنا ربما؟ نعم نحن الأربعة شخص واحد كما ترى ، ألم تدرك ذلك؟ هذا من ترتيب العالم ، ساقنا وجمعنا معًا . لكن ماذا ، يسأل الفتى ، لكن ماذا؟ يسأل مرة أخرى وهو يشعر ببلادة

عظيمة ، بحذَر ، لكن ماذا ، يسأل أو يقول للمرة الثالثة وهو يحدِّق في لا شيء كما لو أنه يحاول بيأس أن يتذكر شيئًا . هذه السفرة ، يقول أخيرًا ، أهي بعيدة ، أهي بسبب فريدريك وتريجفي ، أهي بسببهما ، بسبب ما يخططان القيام به ، وهل سنذهب مسافة بعيدة؟ ربما ليس بالكيلومترات ، تجيب غيرترود ، والأرقام لا فائدة منها على أي حال ، لنقيس بها أي شيء يتعلق بالحياة الإنسانية ، لكن نعم ، لو أن ذلك ليس بسبب فريدريك وتريجفي لما قرَّرنا الذهاب . أعتقد ، في جميع الأحوال ، أن لا ترابط بين اسميهما وشخصيتيهما ، لأن أولئك الذين يحكمون تُشكلهم قوتهم ، وهي قوة خاضعة لما تمليه التقاليد . ما يعني أننا نتصارع مع شيء أكبر إلى حد بعيد من هذين الرجلين المرموقين . يكفي ما قلناه الآن ، المساء يمر ، اذهب واقضِ وقتًا مع غيسلي ولا تتأخر في العودة إلى هنا .

يسلك أقصر طريق جريًا إلى الفندق ، ليجد غيسلي بانتظاره حيث تركه تمامًا ، في البقعة نفسها بالضبط . يمكنك أن تأخذ هذا ، يقول وهو يناول الفتى الكتاب الصغير ، أشعار هولدرلين ، لا حاجة لي به . إنه بالألمانية ، يقول الفتى أو يسأل . صحيح ، على الأغلب ، على الأقل عندما دقّقتُ فيه آخر مرة . أنا لا أقرأ الألمانية ، يقول الفتى بخيبة أمل ، وهذا مسموح له ، فعدم معرفة لغات أخرى محزن . سنعمل على هذا عندما أتخلص من ذلك الجنرال اللعين ، ولا اضطر بعدئذٍ أن أكون كلبًا ، المرء لا يستطيع أن يعيش من غير أن يعرف الألمانية ، عنوان الكتاب «مُذ كنت صبيًا» ، إن الحياة ستكون مقفرة لولا الشعراء ، يقول غيسلي وهو ينظر بتشاؤم خلال الضباب قبل أن ينطلقا تجاه سدوم ، المشرب الذي يمتلكه ويديره أوغست

ومارتا ، والذي اسمه في الحقيقة بيفروست ولكن لا يشار إليه أبدًا إلا باسم سدوم .

يستغرقان وقتًا في العبور خلال الحي القديم ، ويضلّان الطريق مرتين على الرغم من أن غيسلي يعرف الدرب كما يعرف ظاهر يده . هذه الليلة لن تنتهي على خير ، يتمتم ، ويبدو كأنه يهمُّ بإضافة شيء ما لولا أنهما يصادفان ثلاثة بحارة . أناس في الخارج في هذه الساعة ، يهتف غيسلي بنبرة متفاجئة ؛ بل ثلاثة حتى! ظننت أننا كنا الوحيدَين اللذَين بقيا في هذا العالم ؛ عن أي شيء تبحثون في هذا الضباب؟ لكن الرجال لا يردّون ، بحارة من سفينة شراعية ، البحارة نفسهم الذين أرادوا توسيع الدانمركيين ضربًا ، في معركتهم الخاصة من أجل الاستقلال ؛ يتاح للفتى أن يرى وجه أحدهم ، مجرد لمحة خاطفة ، وما عدا ذلك كانت عيونهم على الأرض أو تنظر جانبًا ، يسرعون في مرورهم ويختفون ، يقولون هذا ليس من شأن أحد . أيُّ هرج ذاك؟ يهتف غيسلي الذي أراد أن يتكلم ، يسأل أشياءً ، يسمع أصواتًا جديدة ، لكنهم اختفوا . لِم العجلة؟ ليس هناك شيء ينتظرنا في آخر الحياة سوى الموت ، يصيح غيسلي تقريبًا وهو يمضي قُدمًا ولكن يستدير لينظر إلى الوراء كأنه يناديهم ؛ تذكروا أن على الناس أن يسيروا ببطء ، لا أن يولّوا هاربين ؛ لاعتقادهم بأن الهروب ممكن ؛ لا أحد يهرب ، المرء لا . . . اللعنة على كل شيء ، يزمجر بينما يتعثر ويقع فوق كومة ، شيء يشبه كتلة لا شكل لها ، يسقط رأسًا على عقب ويقبع هناك منبطحًا على بطنه مثل ختم سوداوي . هل الشيطان من أسقطني؟ يقول للأرض ، إلا أن الفتى ينحني إلى جانب الكومة التي يتضح أنها شخص ، ويتضح أنها سفاندس من ملجأ الفقراء ، جاثمة متكورة كما لو أنها تريد

أن تتحول إلى قوقعة ، ولا تتحرك عندما يخرّ غيسلي فوقها . سفاندس ، يقول الفتى برقة ، فتفتح عينيها ، تفتح هذين القمرين الوحيدين ، تنظر إلى الفتى . يا ولدي ، تقول أخيرًا بصوت يائس ، أتنوي أنت أيضًا أن تفعل؟ أنوي أن أفعل ماذا؟ يسأل الفتى ولا يسمع جوابًا منها ، فقط تمعن في التقوقع وتنكص فزعًا بطريقة مفاجئة عندما يحاول أن يسوّي لباسها الرثَّ الممزق والمرفوع إلى ما تحت وركيها ، ويشعر الفتى بشيء بارد يلفحه . هذا واضح جدًا . فرار الرجال في الضباب ، طريقة تكورها هناك ، وكيف تبدو . سفاندس ، يقول ملاطفًا ، وهو يشدّ بتردد النسيج الممزق ، والذي بسببه تنكص فزعًا مرة أخرى ، وتُمعن في التكور . لا ، تتوسّل ، لا تفعل . أنا فقط أحاول أن أرخي ثوبك ، أنا . . . ليس أنتَ أيضًا ، تتوسّل بصوت خفيض ، بقنوط ، والفتى يبتلع ريقه ولا يتجاسر على لمسها ثانية ، كما لو أنه قذر ، ثم لا يلبث أن يشم نتن الكحول بينما ينحني غيسلي مقابلهما ، فتستسلم سفاندس للبكاء . ستضعين عليك معطفي الإنجليزي يا سفاندس ، يقول غيسلي الذي كفّ عن الشعور بالأسى على نفسه ؛ يخلع معطفه ويساعده الفتى على تغطيتها به ، هذا أفضل يا عزيزتي المسكينة ، يقول ناظر المدرسة بلطف قبل أن يساعد سفاندس لتنهض على قدميها ، وتقف مثل حيوان صغير مطارد وفزع بين ذراعيه ، ولكن تلبس المعطف الإنجليزي الراقي والثمين الذي حصل عليه غيسلي بالركوع لفريدريك . هذا المعطف الإنجليزي أصبح لك الآن ، أتسمعين ، هذا المعطف ، إنه يناسبكِ أكثر مما يناسبني على أي حال . ذراعا سفاندس ملتفتان حول عنق غيسلي ورأسها بشعره المتسخ يرتاح على كتفه . يرنو غيسلي إليها وفجأة يبدو كأنه لا يدري ما يمكن أن يفعل . ماذا الآن ، يقول تعبير وجهه

الحائر ، ماذا نفعل الآن؟ أيجدر بنا أن نأخذها إلى الدار؟ يسأله الفتى . أي دار؟ يستفهم غيسلي .

دار غيرترود ، يقول الفتى .

دار غيرترود ، يتمتم غيسلي كما لو أنه يختبر الاسم ، ثم فجأة يبدو أن فكرة تلمع في رأسه . لا ، الطريق إلى بيتي أقصر ، أنا متأكد من أن راكيل هناك ، إنها الشخص الذي نريد ، سفاندس يا عزيزتي المسكينة ما رأيك في هذا ، يقول ، أكثر مما يسأل ، وبالتالي ينطلقون . استجديتُهم ليتوقفوا ، تقول لكتفه ، لماذا لم يتوقفوا عندما طلبتُ منهم أن يفعلوا؟ ليأخذهم البحر كلهم ، يقول غيسلي وهو يمسك سفاندس بمزيد من القوة ، ونحن ، نحن مشرفون على قول الشيء نفسه ، عسى أن يأخذ البحر هؤلاء البحارة الثلاثة ، حتى على الرغم من أن تمني الموت للآخرين شيء لا يغتفر . أو كما يقال : «يمكن أن تجعل القوةُ الرجلَ شيطانًا ، ولهذا يكون الرجال أحيانًا أسوأ ما قد يوجد على وجه البسيطة .»

٦

هذه ليلة شرّ ، يقول غيسلي .

أخذا سفاندس إلى راكيل وهما الآن يجلسان في سدوم ، وهناك أربعة بحارة دانمركيون ، ثملون وصاخبون ، ومارتا تجالس الدانمركيين ومظهرها مروّع . ليلة شريرة يتمتم غيسلي للطاولة .

لكن ما الخير وما الشر؟ الاختلاف بينهما ليس واضحًا كما نتمنى . قد يجلب لنا ما هو خير سوء الحظ ، والأشدّ صعوبة قد يصبح في يومٍ ما سلوى . إلا أن هذه الليلة لا تبدو على وجه الخصوص جيدة ، هذا صحيح . في غرفة راكيل في القبو ، تحملق سفاندس في السقف ، صادفها البحارة في الضباب ، تتسكع وحدها ، وليس عليها أكثر من ثوبها الرثّ ، تهذي بكلام مفكّك ، حيّاها أحدهم ببشاشة ، بل حتى بمرح ، ثم وضع يده على ثديها ، كما لو أن ذلك جاء بطريقة عرضية ، وهذا كل ما استلزمه الأمر ، اختفى الحبور . لم يستطيعوا تحمّل الموقف ، أولئك البحارة ، لم يستطيعوا تحمّل الضباب ، شعورهم بالتفوق ، الاحتكاك بثديها ، شيء ما نهش فيهم ، ولم يكونوا أقوى منه . دفعوها أرضًا ، رفعوا ثوبها ، قالت لا ، مرة ،

مرتين ، ثلاث مرات ، لكنها لم تقاوم ، ما عدا ربما ببعض الدموع ، تمددت هناك فقط وعيناها شاخصتان على وسعهما . أي عينين لعينتين هاتين؟ قال الرجل الأول قبل أن يحجبهما بيده الثقيلة ، وقضى وطره منها بينما وقف الآخران ينتظران بصبر نافد . وبعد ذلك لاذوا بالفرار إلى الضباب .

هذه ليلة شريرة ، ولا أدري من أين نبعت ، يقول غيسلي وهو يصبّ الجعة في جوفه ، يصبّها فوق حياته ، بقايا الحطام تلك ، أما الفتى فلا يكاد يرشف كأسه ، وينتظر الفرصة المناسبة ليأخذ ناظر المدرسة إلى الدار ، كما طُلب منه أن يفعل ، على الرغم من أن لا فكرة لديه عن السبب ، وليس متأكدًا من أنه يريد أن يعرف ، ليس متأكدًا من أنه يبالي إذا اصطحبوا غيسلي معهم ، إذ ما السفرة التي تنتظرهم ، ومن سيأتي معهم ، من غير المحتمل أن يكون غيسلي ، لا ، طبعًا لا ، لكن لماذا تريد منه غيرترود أن يأتي إلى الدار؟ يحضر أوغست جعة أخرى لغيسلي ويتجنّب النظر إلى زوجته ، التي تستدير في كرسيها لتراقبه . مخنّث لعين ، تقول ، بضجر ، بتعمّد ، وغد لا يعوّل عليه ، تقول للبحارة الدانمركيين مخاطبة إياهم بلغتهم ، مخلوق أخرق ، أحتاج إلى رجل حقيقي ، أأنتم ذاك الرجل؟ تسأل الدانمركيين ، فيميل نحوها الدانمركي الذي إلى جانبها ويقول شيئًا بصوت خافت ، فترمي رأسها إلى الوراء وتضحك . إنها تبدو الليلة شيطانية ، يتمتم غيسلي ، والغد لن يأتي أبدًا على الأغلب ، يضيف عندما يقبض الدانمركي الذي همس بكلام لمارتا على أحد نهديها ، بشيء من التردد في بادئ الأمر ، مستعدًا ليجعل ما فعله يبدو كأنه مجرد دعابة ، ثم يستمر بشراهة عندما لا تأتي بحركة وتلتفت برأسها لتنظر إلى زوجها عينًا بعين . أملكُ نهدين ، تقول بهدوء للبحار ، هذا صحيح يجيب بصوت

مبحوح بينما يراقب رفاقه وهم يتأرجحون في كراسيهم، كما لو أن صبرهم بدأ ينفد. تريد أن تنظم الشِّعر، يقول غيسلي للفتى بصوت أجش وهو يبعد نظره عن مارتا، لديك هناك شيء تكتب عنه، لديك الحياة هناك! أنا لست بشاعر، يقول الفتى ممتنعًا عن التطلع إلى الطاولة الأخرى. يعرف الشيطان من أنت، يقول غيسلي، ونحن لدينا أعدادًا هائلة من القصائد عن الجبال والآلهة المندثرة، والأبطال القدماء، يجب أن تكتب عن هذا هنا، تذكَّر فقط أن تجعله على قافية: ما لا يأتي أبدًا؛ كيف تستطيع تحمّل هذا؟ يقول بعدئذٍ لأوغست الذي أحضر جعة لنفسه. إنها مخمورة يقول صاحب المشرب، سيمرُّ هذا. أشكّ في ذلك، يقول غيسلي، أشكّ في أن شيئًا سيمرُّ.

الفتى: علينا أن نغادر.

نغادر؟ يميل غيسلي برأسه جانبًا بعض الشيء ليتفادى الكأس الذي تقذفه مارتا نحو زوجها، إلا أنها مخمورة أكثر من أن تحسن التصويب، يطير الكأس قرب جبين غيسلي ويتكسّر على الحائط؛ نغادر، يكرّر، إلى أين؟ نحن عالقان هنا إلى الأبد، وكيف يمكنك تحمُّل هذه البذاءة اللعينة يا أوغست، ها، كيف؟ تذهب مارتا وتحضر زجاجة مشروب جديدة وكأسًا لتستعيض به عن ذاك الذي قذفت به زوجها، تملأ كؤوس الدانمركيين وتفرغ كأسها. يميل البحار إلى الوراء، يفتح ساقيه وينظر إلى مارتا بعينين نصف مغلقتين، نظرة تتقد بشبق رهيب حتى لتكاد تبدو أقرب إلى الشراسة. إنها تذلّك يا رجل، يقول غيسلي. أأنت واثق من أنني أنا من يتعرّض للمذلة؟ يرد أوغست من غير أن يرفع رأسه عن الطاولة، فيكيل غيسلي الشتائم، يلعن ردَّ أوغست ويلعن مارتا ويلعن الحياة، وفجأة يُفتح

الباب وغونار المشورب ، الموظف في متجر تريجفي ، يدخل مترنّحًا . يدخل مخمورًا وثمة ابتسامة مصطنعة مغمومة تداعب شفتيه . يجلب أوغست قنينة جعة ويعطيها لغونار الذي يقبلها بلا كلام وهو يحدِّق في الطاولة الأخرى حيث مارتا في حضن البحار الذي استطاع ، للحظة خاطفة أن يعري أحد نهديها . تبًا ، تبًا يا رجل ، يقول غيسلي . اِشربوا أكثر ، تقول مارتا بالآيسلندية للدانمركيين وتملأ كؤوسهم من جديد ، أنتم يا شباب قادرون بالتأكيد على التعامل مع المشروب ، لديكم هذا القاسم المشترك مع كل الأغبياء الآخرين البائسين ، أعني قدرتكم على تحمّل معاقرة الكحول . تنهض ، تعدّل بلوزتها ، تنظر بسخرية تقريبًا إلى الانتفاخ بين ساقي الرجل ، ثم تتكئ على الحائط وتدخن .

لقد رحلَت ، يقول غونار وهو ينظر إلى الفتى . الناس لا يرحلون إلى أي مكان ، يعترض غيسلي كأنما هو يخاطب طفلًا ، ما يرحل هدفهم فقط ، ونحن نبقى مع جعتنا ، والنكات السيئة ، والبحارة الفاسقين والضباب . يواصل غونار التطلع إلى الفتى ، بعجزٍ تقريبًا ، مضطرًا الفتى إلى أن يسأله ، مَن؟ أنت تعرف مَن ، طبعًا تعرف!

الفتى : أنا؟ لا .

غونار : بلى ، تعرف .

الفتى : مَن رحل؟

غونار : إنها هي ، ألا تفهم؟ هي ، أنت تعرف أن ليس هناك إلا هي واحدة ، أعتقد أنني سأقتل نفسي .

غيسلي : كيف؟

غونار : بالباخرة طبعًا .

غيسلي : أهذا ممكن؟!

غونار : أأنت أبله؟ طبعًا هذا ممكن . البواخر تبحر بالناس .

غيسلي : قصدت كيف تنوي أن تقتل نفسك؟

غونار : كيف لي بحقّ الجحيم أن أعرف . ما سبق لي قط أن فعلت شيئًا كهذا .

أنت تعني راغينهيلد؟ يقول الفتى . طبعًا ، يجيب الآخر ، وما يستدعي مني أن أعني أحدًا آخر ، ما يستدعي مني أن أتحدث عن أي أحد آخر . أكره كل شيء يذكّرني بغيابها . حسنًا ، ما أكثر ما يذكّرك بغيابها؟ يسأله غيسلي . كل شيء! يمكنك إذًا أن تقتل نفسك ، يقول غيسلي كما لو أنه يطمئنه ، فأنت لن تحصل عليها أبدًا ، قد يقدّرك فريدريك كثيرًا بصفتك موظفًا لديه ، وبالنسبة إليه أنت فاسد بما يكفي لتعمل عنده ، ولكنه يفضّل أن تقضي راغينهيلد حياتها عانسًا على أن يزوجها ابن نجار ، زوج ابنته يجب أن يكون أعلى مستوى من ذلك . أعرف يقول غونار وهو يراقب مارتا تدخن سيجارة ثانية ، ويبدو كما لو أن الهواء من حولها يرتعش . المسيح كان ابن نجار ، يقول الفتى . هذا لا يساعدني ، يقول الرجل الآخر . لا ، يتدخل غيسلي ، الصحيح هو العكس تمامًا ، لا تريجفي ولا فريدريك يقبلان بأن يكون في دائرتهما الداخلية شخص مثل المسيح ، رجل لديه أفكار كتلك ، سيقودهما إلى الإفلاس مباشرة . نعم ، في أغلب الاحتمالات ، يضيف لحظة تضع مارتا سيجارتها نصف المدخّنة وتذهب إلى الغرفة الجانبية الصغيرة ، يتبعها الدانمركي . إن دخول الجحيم أسرع إلى حد كبير من دخول الجنة .

٧

إنها الثالثة تقريبًا ، تقول غيرترود التي يجدها الفتى مستيقظة عندما يعود إلى الدار ومعه غيسلي . تلمّسا طريقهما خلال الضباب من سدوم ، خلال الضباب الكثيف الذي ما زال على ما يبدو مخيِّمًا على ناظر المدرسة مضفيًا عليه مظهرًا غائمًا . قطعا هذا الطريق كله ، والوقت يشارف الثالثة صباحًا تقريبًا . هيلغا نائمة على الأريكة ومتدثّرة ببطانية ، لكنها تستيقظ عندما يصلان ويسأل الفتى عن الوقت ، فتقوم ، تنهض وعلى وجهها تعبير ينمُّ عن شفافية مفرطة حافلة بذكريات عزلة ماضية ، ولعل هذا مجرد سوء فهم ، إذ لا يكاد ذلك التعبير يدوم أكثر من ثانية ، ولا تلبث أن تستعيد تماسكها ، تصبح في كامل وعيها . يا لمظهركما ، تقول هيلغا وهي تطوي البطانية ، منحنية إلى الأمام لتلقي نظرة أفضل عليهما ، أتعرضتما لحادث؟ يعتدل غيسلي في وقفته يتأمل سترته الممزقة ، يرفع ذراعه كأنه متفاجئ من مشهد ظاهر يده المُدمى . أي فوضى فاسدة كانت تلك ، يقول .

تبع البحار مارتا إلى غرفة النوم الصغيرة الواقعة وراء منضدة المشرب مباشرة ، بينما راقبه رفاقه بصمت ؛ باب الغرفة تُرك مواربًا ، ربما لدعوة

الآخرين للدخول؟ أحد الدانمركيين ، بكتفين عريضتين ورأس أصلع ، وقف مرتبكًا ، تقدم ثلاث أو أربع خطوات غير واثقة نحو الغرفة ثم وقف ، بل حتى تيبس في أرضه وأسفر عن ابتسامة معتذرة حينما نهض أوغست من الطاولة ، كأنما تمنى ذلك البحار أن يقول ، اعذرني لكنني مستميت على هذا . بيد أن أوغست على أي حال لم يُعِره الاهتمام ، اتجه مباشرة إلى منضدة المشرب ، عاد بزجاجة ويسكي وأربعة كؤوس ، جلس ، ملأ الكؤوس ، أفرغ كأسه في جوفه ولبث يحدِّق بعينين خاليتين من التعبير ، وزاويتا فمه تختلجان قليلًا . نقل الدانمركي الأصلع عينيه بارتياب بين أوغست والغرفة ، وعندما لم يأت صاحب المكان بحركة ، واكتفى بالتحديق في الفراغ ، قطع المسافة المتبقية ، دفع الباب ، ترصَّد وهو منحنٍ مثل حيوان . نظر الفتى إلى غيسلي متسائلًا ، متوسلًا ، لكن ناظر المدرسة هزَّ رأسه ، مهما عنت تلك الحركة ، فازدرد الفتى ريقه ، وأكثر ما يريده أن يندفع خارج المكان بعيدًا عن الأصوات السوقية المنبعثة من الغرفة التي عملت على تمزيق شيء عميق فيه . أعاد أوغست ملء كأسه ، وصبَّ كمية مماثلة لهم كلهم ، من غير أن يلاحظ أن الفتى لم يكد يلمس كأسه ، وبالتالي تسبب في إراقة المشروب الذي شكَّل بركة صفراء على خشب الطاولة الخشن . وضع صاحب المكان الزجاجة على الطاولة ، وحدقوا كلهم في كؤوسهم ، كأن قيامهم بما هو أكثر من التحديق يفوق قدرتهم ، بما هو أكثر من الجلوس هناك مثل مجرمين محكوم عليهم بالإعدام بينما البحار يشخر في الغرفة الصغيرة ؛ والرجل الأصلع حلَّ بنطلونه ، أمسك قضيبه الثقيل وراح يربته كما يربِّت الحيوان الأليف . مدّ أوغست يده إلى كأسه وابتلع الويسكي ، صبّه في عنقه النحيل ، ثم مسح فمه بظاهر يده ، تلفّت

يلقي نظرة من حوله كأنه يتفحّص المكان بدهشة، تقريبًا كما لو أنه أراد أن يسأل: أين أنا، وما الحياة التي أنا فيها؟

أوغست، قال غيسلي من جديد، بعد أن دخل الرجل الأصلع الغرفة ممسكًا قضيبه المنتفخ؛ ذلك الشيء الدنس، دخل إلى نهيق رفيقه، إلى شتائم مارتا وقرقرتها، ثم نهض الدانمركي الثالث وهو يلعق شفتيه، وتعبير وجهه أشبه بالقناع. الحبّ يمكن أن يجرِّد المرء من البصيرة، أما الشهوة فتجرِّده من الضمير.

ثم جرى كل شيء بسرعة كبيرة.

أصبح أوغست عند باب الغرفة؛ انزلق إلى الداخل وجرّ الرجل الأصلع من الخلف، كان ذلك سهلًا، فالرجل واجه مشكلة في المحافظة على توازنه وبنطلونه عند كاحليه، وصاحب المكان ألقاه أرضًا بلا جهد كبير، وعاد إلى الغرفة وجر البحار الآخر من شعره، أطلق الرجل لسانه بالسباب وحاول أن يعثر على موطئ قدم إلا أن محاولته أوصلته إلى نهاية سيئة، بما أنه هو أيضًا وجد نفسه عالقًا ببنطلونه، ولعل الذهول طغى عليه كذلك، الذهول من انتزاعه بعنف عن نشوة الجسد. استعاد البحارة رشدهم بسرعة وأسقطوا أوغست أرضًا. اِخصوا اللقيط! زعق أحدهم وهو يلوِّح بسكين. اللعنة! صاح غونار. تبًا للجحيم، هتف الفتى وشيء ما يتفجر فيه، فقبض على عنق زجاجة الويسكي، رفعها عاليًا كأنها هراوة، لأن العراك الآن احتدم، والآن ستسدَّد اللكمات والزجاجة اللعينة ستُحطم على رأس شخص ما، اللعنة على الجحيم، رفع الزجاجة عاليًا جدًا فوق رأسه فانسكب الويسكي من عنقها وسال على ذراعه، سأصبح أضحوكة من الآن إلى لحظتي الأخيرة، فكر، وأنزل الزجاجة. لم أُخص

في حياتي معركة قط ، قال غيسلي بينما حاول أحد الدانمركيين نزع بنطلون أوغست . تبًا لكل شيء! صاح غونار ، وقفز ثلاثتهم عن كراسيهم . لا فادئة منهم في العراك ومع ذلك جاء تصرفهم أقرب إلى المفاجأة ، جاء مثل انفجار ، جاء مسعورًا بسبب كل ما اجترحته الحياة بحقهم . كان غيسلي قويًا وثقيلًا جدًا ، وما اضطر قط أن يضع ثقله على شيء إلى جانب معاقرة المشروب وقراءة الشعر ، بيد أنه ألقى نفسه على أحد الدانمركيين فتدحرجا على الأرضية ، آخذين في تدحرجهما كرسيين ومنتهيين تحت الطاولة ، وغيسلي فوق غريمه جزئيًا ، وهو يصيح بأبيات شعر تستعصي على الفهم ، ملوِّحًا بها كأنها هراوات ، أما الفتى فانتهى تحت الرجل الأصلع ، كان الشيطان الفاسق قويًا كثور ، وما انفك يبتسم ابتسامة عريضة وهو يصفع وجه الفتى بتكاسل ، ملقيًا نظرة من حوله ، وتعبير وجهه يقول انظروا كم أمرح هنا! لكن أولئك الأضعف يقاتلون بكل شيء يملكونه ، لا خيار آخر لديهم ، واستطاع الفتى أن يعضّ خنصر الرجل ، عضّه بكل ما أوتي من قوة ، كأن الحياة تعتمد على ذلك ، على العضّ بقوة جنونية ، صدر من الخنصر صوت يشبه السحق وزعق الرجل الأصلع ، خلال اللحظة نفسها التي استطاع فيها غونار أن يطرح غريمه أرضًا ، جارفين معهما طاولة الدانمركيين وهما يسقطان ، مع كل ما عليها من كؤوس وزجاجات ، ومع لعنات غونار العاوية لأن راغينهيلد رحلت ولن يتسنى له قط أن يقبّلها ، ناهيك عن أي شيء آخر . ما كان إذًا المغزى اللعين من البقاء في هذه الحياة؟ عوى في وجه الدانمركي الذي لا يفهم الآيسلندية وبالتالي لم يستطع أن يجيب على مثل هذا السؤال الملحّ ، في هذه الأثناء كان أول دانمركي تبع مارتا إلى الغرفة ، ذاك الذي باشر مضاجعتها ولكن لم يتح

له وقت كاف قبل أن يُنتزَع عنها من شَعره ، كان قد ثبَّت أوغست إلى الحائط ، ورفعه من عنقه ما جعل حنجرته تطقطق . وبالكاد سمع صاحبُ المكان الدانمركيَ يزعق وهو يرفع سكينه ، الآن سأقطع خصيتيك يا صعلوك! إلا أنه رأى بكل تأكيد زوجته تُقبل مندفعة ، عارية من خصرها إلى الأعلى وهي تلوح بمقلاة ثقيلة . إذ بعد أن انتزع أوغست الدانمركي عنها ، ودارت رحى حرب طاحنة ، ذهبت مارتا واضطجعت في السرير ، اضطجعت فحسب ، كأن كل ما يجري لا علاقة لها به ، تغطت ، بعد أن فكرت ربما في أن تخلد للنوم ، إلا أن قلبها بدأ يخفق بشراسة وشرعت في البكاء . كانت مضاجعة البحار لها ممتعة ، ورأت البحار الآخر عند مدخل الباب من طرف عينها ، أدركت أنه ينتظر فرصته ، ولم تهتم قيد أنملة ، لم تبال بأي شيء مطلقًا ، كان ذلك ممتعًا ، وفي الوقت نفسه مضحكًا للغاية ، بحيث لم تستطع الامتناع عن القرقرة التي أربكت الرجل الذي فوقها ، لكن ، وإن يكن ، هو ليس بذي أهمية قطعًا ، المهم هو ما كان يفعله ، ثم تغير كل شيء إلى ما انتهى إليه . انتزع أوغست البحار وجرّه بعيدًا عنها . أوغست الذي يمكن أن يكون مثقلًا بالرطوبة ، مضجِرًا بشكل لا يطاق ، في منتهى الحذر دائمًا ، يحكّ النقود ببعضها ، يوفِّر المال من أجل بيت ومستقبل بدلًا من أن يعيش هنا والآن ، إن تعقُّله اللعين ذاك يمكن أن يكون خانقًا جدًا ، أوغست الذي لا يتزحزح أبدًا مهما فعلت ، كيف تتصرف ، لا يحاول حتى الانتقام منها عندما تخطئ في التصرف ، عندما تقلِّل من شأنه ثم تنزوي في سريرها متوعكة مثل كلب في اليوم التالي ، تتقيأ وتعاني صداعًا ثاقبًا ، فيجلس قربها ومعه دلو وقطعة قماش رطبة ، يمسد شعرها ، ويهمهم بكلام سخيف ، طيِّب معها على نحو لا يمكن تحمُّله ، لا يمكن

فهمه ، آنذاك فقط شرعت في البكاء . إن استلقاءها هنا بينما أفضل رجل في العالم يواجه المتاعب تصرّف عقيم ، الرجل الأفضل ، العاطفي جدًّا إلى درجة أنه يضيع من دونها! وهكذا نفضت الغطاء ، تناولت أقرب قطعة ثياب منها ؛ أحد بنطلوناته ، ارتدته من غير أن تفكر في التستر بأي شيء آخر ، واندفعت خارج الغرفة ، قبضت على مقلاة ثقيلة ، رأت الدانمركي الحقير يخنق زوجها ، لم تر سوى ذلك ، وضربت بكل ما أوتيت من قوة ، صوَّبت نحو رأسه ، إلا أنها على الأرجح كانت مخمورة كثيرًا ، ومتحمسة جدًّا ، فلم تصب سوى كتفه ، ولكن بعزم ، زعق من هول الألم ، ثم انحنى نصفين عندما ركلت أربيته بضراوة . غيّر صراخ الدانمركي وشتائم مارتا كل شيء ، توقف الآخرون عن العراك ، نهض الدانمركي من فوق غيسلي ، بعد أن أصبحت السيطرة بيده ، وفي الوقت نفسه شبه مذهول من الكلمات التي انهالت عليه من مدير المدرسة ، وهناك وقفت مارتا في وسط المكان ، وأوغست إلى جانبها وبيده سكين البحّار ، وهي تلوِّح بالقِدر بينما راح نهداها الكبيران يتأرجحان صعودًا ونزولًا ، تكوّم الدانمركيون معًا ، مرتبكين وحائرين ، أحدهم بكتف محطمة ، وآخر بخنصر مقضوم ، والثالث مشوش بأبيات شعر ، والرابع ، على أي حال ، أقلّ تضررًا ، إذ استطاع بكتفيه العريضتين أن يقهر غونار بعد أن استعاد وعيه من الهجوم المفاجئ ، ووقف ينقل عينيه باستهزاء بين النهدين المتذبذبين والمقلاة . غير أنه أمعن النظر في النهدين أكثر ، إذ وجد صعوبة في إبعاد عينيه عنهما ، وسرعان ما نال قصاصه العادل عندما اندفعت مارتا نحوه ووجهت إلى أنفه وعظم فكه خبطة قوية بالمقلاة ، ولم تمض بضع دقائق إلا وكان البحارة قد ولّوا الأدبار لائذين بالليل ، بكتف محطمة وخنصر مشوّه وأنف مكسور . وسرعان ما ابتلعهم الضباب .

٨

لا نستطيع أن نرى أي شيء لعين في هذا الضباب ، بل حتى لا أكاد أميز أصابع قدمي ، يقول غيسلي . كلنا عُمي إذًا ، يعلّق كولبين ، مبادرًا قبلهم إلى الجلوس في المركب ، موسّعًا خيشومَي أنفه ، فهو لا يكاد ينال كفايته من رائحة البحر ، لأن الرائحة المالحة في مركب وفي البحر تختلف اختلافًا كليًا عن تلك التي يلاحظها المرء على اليابسة . تعبير وجه كولبين يمكن أن يشبه بالفعل جرحًا ، لكنه يشيح برأسه بعيدًا عنهم ، يشيح تجاه البحر غير المرئي ، تجاه السكينة الغامضة .

كان الوقت متأخرًا نوعًا ما عندما جدّفوا خارج البحيرة ، ومروا بالسفن الهامدة التي لم يلمحوا صواريها ، فقط هياكلها التي صلّبتها السنين ، وحوّلها الضباب إلى حيتان بعمر الزمن . كان الوقت يقارب التاسعة ومع ذلك شمل الهدوء كل شيء ما عدا المجاديف ، ما عدا حركة مقدمة المركب وهو يشق البحر والضباب . يجدف الرجلان بتؤدة عبر القناة تحت مقهى سدوم ، ويتنفّس الفتى الصعداء عندما لم يشم رائحة دخان ، فقد خشي الرجال أن يعود الدانمركيون ومعهم تعزيزات ، مزيد من القبضات ،

مطالبين بالثأر ، وربما حتى لإحراق المبنى وتسويته بالأرض . لم تكن هناك رائحة دخان ، ما يعني أن سدوم ما زال قائمًا في الضباب ، سليمًا وخاليًا من أصحابه . فقد اصطحب الفتى وغيسلي الزوجين إلى الفندق . كره أوغست ترك كل شيء وراءه ، المشروب والأثاث وحاجياتهما ، لكن كانت حمايتهما أهم ، إنقاذ حياتهما بدلًا من إنقاذ مقتنياتهما . ساعد الفتى في رفع الطاولة والكراسي ، وكنس الزجاج المكسور ، أما مارتا فلم تكن ذات عون كبير ، إذ امتنعت عن التزحزح من جانب أوغست ، وما انفكت تربِّته وتعانقه . يا حبيبي المسكين ، قالت ، يا صغيري المسكين يا بطلي ، يا رَجُلي ، ضمّته بقوة وهي ما زالت عارية الصدر ، إلا أن هذا لم يهمها ، كان شيئًا عاديًا . الحياة ، والنهدان والقناني المحطمة ، الليلة مجرد ليلة ، وليس هناك إلا القليل مما يمكن قوله عنها أكثر مما قيل . وقف غونار يتفرج . تمتم بكلام ما وهو يحدُّ النظر في النهدين الكبيرين اللذين ضغطتهما على أوغست ، ثم انحنى نحو الفتى وهمس ، يا للجحيم ، أي دورقين لدى تلك المرأة ، يجب أن نحصل على شيء مقابل مساعدتنا لهما ، ثم ما لبث أن غادر ، اختفى في الليل والضباب مع شاربه وحنينه إليها تلك التي رحلت على متن سفينة بخارية وأخذت معها كل شيء يمكن أن يخطر على بال ، وربما أكثر . لاحقًا ، بعد فترة قصيرة تغلغل أربعتهم في الليل نفسه ، الفتى وغيسلي وصاحب المقهى وزوجته . أنتَ أفضل بكثير مني ، أفضل بكثير جدًا ، ولهذا أتصرف على ذلك النحو ، أنا سيئة ، أنت أفضل بكثير مني ، هدرت مارتا . أنا مملّ جدًا ، غير مرح ، وأنت في غاية الحيوية ، بالمقارنة معك أنا شبه ميت ، قال بالمقابل ، ومشَيا متلاصقين إلى درجة يصعب معها تمييز مَن يدعم مَن ، وفي بعض اللحظات يبكيان معًا ،

وخلفهما غيسلي والفتى يتبعانهما مثل حارسي شرف، مثل متطفلين، مثل مسؤولين عن تسجيل التقارير. أدخل تيتور الزوجين عابسًا بسبب نعاسه ورائحة الكحول الكريهة المنبعثة من المجموعة، ومع ذلك أدخلهم، أمّن للزوجين الملجأ بينما نامت هولدا قرب سنوري في قبو الفندق، ناما عاريين، استيقظ، وداعب شعرها وانهمرت الدموع على وجنتيه، ثم تعرّجت متغلغلة في شعر لحيته الخشن. استلقيا متعانقين، يشبهان نغمتين متشابكتين بدأتا للتو تشكلان لحنًا. وتابع غيسلي والفتى طريقهما إلى دار غيرترود. أنتِ بالمقارنة معي في غاية الحيوية، أنا شبه ميت، كرّر الفتى في الصالة، وكانت هيلغا قد انتهت من طي الغطاء، لكن غيسلي ما عاد قادرًا على الاستمرار في الوقوف، فتهالك على كرسي ورأسه يترنح من المشروب والليلة. أما الفتى فبقي واقفًا ورائحة الويسكي تفوح منه، وحكى عن المساء والليلة والعراك، عن الشهوة، أو ماذا يمكن أن نسميها، أي كلمة يجب أن نستعملها لنَصِف الشهوة عندما تتحول إلى فجور: الرجل الذي وقف عند مدخل الباب حلَّ بنطلونه وداعب قضيبه المنتفخ كما لو أنه كان حيوان الشيطان الأليف.

*

لا تفوح منه رائحة ويسكي الآن في المركب الذي يتهادى مارًا بالجبل، والذي لن يلبث أن يخرج إلى عرض البحر ثم سلسلة نوبور، مع أنهم لا يميزون شيئًا في الضباب، هذا يبدو تقريبًا كما لو أنهم لا يتحركون، التغيير

الوحيد بان في أمواج أعلى معلِنة عن بحر أعمق . أتيح له أن ينام أكثر من ثلاث ساعات بقليل ، من غير أن يتوقع أنه سينام ، فكل شيء يدوّم في أعماقه ، ولا يملك أدنى فكرة عما ينبغي أن يكون عليه شعوره ، في بعض الأحيان تستحيل الاستجابة للحياة بعقلانية . ناهيك عن الإقدام على ذلك عن سابق تصور وتصميم . يا لها من نعمة أن يكون قادرًا على النوم . شيء ما باركه ، استلقى في السرير وغفا . نام بعمق إلى أن لمسته هيلغا برفق ، هذه المرة لن يفيد أن تقرع على بابه ، كان عليها أن تدخل ، تلمسه برفق ، وفي الوقت نفسه تقول كلامًا لطيفًا وحلوًا . حياة الرجل ستكون ، بلا ريب ، أخف وطأة وأقل تعبًا إذا أُوقظ بهذه الطريقة في أغلب الأحيان .

يجدّف جفيندور العملاق والفتى بعزيمة الآن ، بعد أن وصلوا إلى عرض البحر المكشوف ، وتحتهم عشرات الأمتار من الظلام . أُجلِس غيسلي في مؤخرة المركب ويبدو مرهقًا ، عيناه تنظران إلى الأسفل ، وغيرترود عند مقدمة المركب . جاء دورنا لنجدِّف يا غيسلي ، تقول هيلغا . نجدِّف ، يردّد بصوت مرهق . ما جدفت طوال عشرين سنة ، وهل نحن واثقون من أننا نبحر في الاتجاه الصحيح؟ لا يمكننا أن نرى أي شيء لعين في هذا الضباب ، ولا أكاد حتى أميز أصابع قدمي! نحن كلنا عُمي إذًا في هذا المركب ، يعلِّق كولبين . يأخذ الفتى نفسًا عميقًا ، جيد أن يتحد مع حركة المجاديف ، يصبح حركة ، يصبح مركبًا يزحف ببطء في المحيط ، ومن حين إلى حين يوجّه عينيه إلى المنطقة التي يجب أن تكون فيترارسترند . عليك ألا تنسى بعث رسالتك إلى ماريا غدًا ، قالت له هيلغا في الليل . كانوا أربعة أشخاص في الصالة ، بعد أن مضى وقت طويل على ذهاب كولبين إلى الفراش ، وكذلك جفيندور الذي أعطيت له الحجرة التي

درج ينز على النوم فيها ، رجلان ضخمان لكن مختلفان . جفيندور هنا؟ سأل الفتى بدهشة ، بعد أن قصّ عليهما أحداث المساء الذي تحوّل إلى ليل ، كتب رسالة ، جاء إلى هنا ، عاد إلى غيسلي ، تسكعا خلال الحي القديم ، غيسلي تعثّر بسفاندس ، الوحوش اللعينة ، قال الفتى . فبادرت هيلغا إلى القول : بعض الناس يستحقون أن نخصيهم . بل هي القوة والسلطة ما تفعل بهم ذلك ، قالت غيرترود وهي تعاين غيسلي بنظرة متفحصة ، غيسلي الذي تأرجح بين التذكر والنسيان ، لأنه لم ينل قسطًا كافيًا من النوم ، وشرب أكثر مما ينبغي ، جامعًا بين سلاحين فتاكين ، مع ذلك صفا ذهنه مرة أو مرتين . السلطة ، قال ، القوة ، قال ، وحاول أن يعتدل ، شعر بوخز عينيها السوداوين ، وضع يدًا على فخذه ، كما لو أنه بطريقة ما بصدد القيام بتصريح . نعم . . . ، قالت غيرترود بنبرة فضولية . ران صمت طويل ، انتظروا خروج شيء من فم غيسلي ، وساعة الصالة الكبيرة متوقفة كالعادة ، بندولها الضخم مجرم مُدان معلّق رأسًا على عقب . ينشب الشيطان مخالبه في الناس من خلال السلطة ، قال غيسلي أخيرًا ، ناظر المدرسة ، الرجل الذي ينتمي إلى عائلة مهمة . لا أظن هذا ، قالت غيرترود ، بل أعتقد أن السلطة هي ما تجعل الرجل شيطانيًا . تبًا ، غمغم غيسلي وترنّح رأسه بإعياء من المشروب وربما من التركيز ، أو لأن العينين السوادوين لم تتزحزحا عنه . أكمِل ، قالت هيلغا للفتى ، وفعل ما طلبته . أخذا سفاندس إلى راكيل ، وأودور كان هناك ، وغيسلي أعطى سفاندس معطفه . المعطف الإنجليزي؟ استفسرت غيرترود . نعم ، أجاب الفتى ، ثم أقبل الليل على أولئك الذين في سدوم . كانت الرسالة في جيبه طوال الوقت ولكنها لم تتلف في العراك . رسالة ، قال غيسلي محاولًا من

جديد أن يعتدل في جلسته ؛ تبًا ، عليّ الآن أن أكتب إلى القس كيارتان ، يا لها من ليلة مجنونة ، كما لو أن الحياة بُعثت فينا تقريبًا! تبادلت المرأتان النظر ولاحظهما الفتى ، إلا أن ما يريده أكثر من كل شيء هو أن ينام ، أن يتخلص من هذه الثياب التي تفوح منها رائحة الويسكي وأن ينام . لكن هيلغا قالت عندئذٍ ، جاء رجل ضيق الخلق يسأل عنك . عني ، يسأل عني أنا؟ هتف الفتى بدهشة ، لماذا ينشد أي شخص رؤيته ، ثم تبدّى له ، من الوصف الموجز من يكون ، رجل ضخم ضيق الخلق ؛ هل يصادف أن اسمه جفيندور؟

نعم .

جفيندور هنا؟

وأنا أيضًا ، سمعوا غيسلي يتمتم ، ورأسه غارق ، ذقنه يستريح على صدره متدليًا عند نهاية عنقه مثل وزن عرضي أراد جسمه أن يتخلص منه بأسرع ما يمكنه ، ومع ذلك انتفض عندما صاح الفتى ، جفيندور هنا؟! ثم رفع رأسه ونظر حواليه متفاجئًا ، وقال بصوت مندهش ، وأنا أيضًا! كثيرة هي الأمور الغريبة التي تحدث ، قالت غيرترود . ونقل الفتى عينيه من المرأتين إلى غيسلي على التوالي ، وخطر له أن حضور غيسلي إلى هنا لقضاء الليلة ليس شيئًا عاديًا ، وأنه قد أؤتمن على جلبه ، لكن لأي سبب؟ وجفيندور نائم هنا . حسنًا ، قال الفتى ، ولا شيء أكثر من ذلك ، اكتفى برفع يده كأنه يقول بذلك أنه لا يستوعب أي شيء .

لا بد من أنهم الآن في عرض البحر ، وفي طريقهم نحو الشمال . ما زال غيسلي جالسًا في المؤخرة . أراد كولبين أن يجدف ، أنا الآن على قيد

الحياة ، قال وهو يكدّ في التجديف . زعم جريء ، علّق غيسلي ، بينما لازمت غيرترود مكانها عند المقدِّمة ، تجتلي المركب بعينيها من وقت لآخر ، تتفحّص الرجال الأربعة يتحكمون بالمجاديف ، مجموعتها الغريبة هذه : عملاق يخشى أن يفقد حياته ، ربّان أعمى أقحم نفسه في درب الأذى بالكتب ، هيلغا رفيقتها المخلصة من الطفولة تقريبًا ، ثم الفتى ، هذه الهدية الغريبة . تطبق عينيها لحظة .

جاء جفيندور إلى البلدة في المساء السابق باحثًا عن الفتى . انتهى موسم صيد السمك أخيرًا ، بعد أن ، والحق يُقال ، طال على غير العادة وامتد إلى الصيف ، لكن بدا ببساطة كأن بيتور لم يشأ أن يتوقف . ما عاد يخاطب أحدًا إلا لمامًا ؛ كان آرني يتحرق شوقًا ليواصل عمله في مزرعته ، والجو أصبح ثقيلًا ومتوترًا في كوخ صيد السمك . ثم حدث أن اصطحب بيتور إيلينبرغ إلى سقيفة التمليح . كانوا ينتزعون أحشاء صيدهم ، عندما وضع بيتور سكينه أرضًا من غير أن ينطق بكلمة ، وذهب إلى الكوخ ، ثم خرج ومعه إيلينبرغ واختفيا في السقيفة . انفجر إينار ضاحكًا كأن الشيطان في عروقه ثم قال شيئًا عن أندريا ، شيئًا في منتهى البشاعة . بشع جدًا إلى درجة أن جفيندور استشاط غضبًا ولم يدرِ ما فعل إلا بعدما أوسع إينار ضربًا ، إينار الذي كان مرشده وسيده على مدى عديد من السنوات . ضربه إلى أن أفقده الوعي . وأسرع آرني ليرى ما إذا كان إينار ما زال حيًا ، ثم سحبه جانبًا . لا خير في العمل وسط القمامة ، قال . أنهيا تنظيف السمك وغادر بعدها جفيندور كوخ صيد السمك ، مدفوعًا من آرني الذي أشار عليه أن يذهب ويبحث عن الفتى وأندريا ويطّلع على ما حدث .

يرتفع المركب ويهبط على الأمواج الثقيلة ، يشقّ طريقه قُدمًا نحو الشمال . ولدى كولبين بوصلة داخلية . سلسلة نوبور هناك ، يقول فجأة وهو يومئ برأسه ، لا يرون شيئًا في الضباب ، إلا أنهم يسمعون الأمواج وهي تحتك بالمنحدرات الفولاذية القاتمة وتتكسر عليها ، مرتفعة مئات الأمتار في الهواء ، عمودية كصرخة . يغمض غيسلي عينيه مشتاقًا للنوم ، مشتاقًا للراحة ، ولا بد من أن حركة المركب الوئيدة ستساعده على النوم ، جيد أن يغلق المرء عينيه ويختفي عن أنظار الآخرين. يغمض عينيه ، وحتى تردّد أنفاس المُجدفين يبدأ في التلاشي ، لعل كل هذا حلم؟ الضباب ، هذه السفرة الغريبة ، ارتداد العالم هذا؟

الحياة بلاء ، قال في الليل في صالة غيرترود ، والفتى أعاد سرد أحداث المساء ، وأحداث الليل ، والأرق والتعب أثقلا أوصال غيسلي كلها ، وجفناه تحوّلا إلى مصراعين راحا ينزلان شيئًا فشيئًا على عينيه ، مهما جاهد ليبقي عينيه مفتوحتين . تنبه هنيهة عندما ذُكرت الرسالة ووجد ذهنه يسرح نحو كيارتان ، شعر بالحاجة إلى الكتابة له ، إلى زيارته . مؤكد أنني لن أسافر إلى الخارج هذه السنة ، لا اختلاف في هذا عن أي سنة أخرى ، ولا رغبة لديه في الذهاب إلى ريكيافيك ، تلك القرية الصغيرة المثيرة للشفقة . سأذهب لزيارة كيارتان ، يفكر ، نصف مغمور بالنوم ، لأجلس في غرفته الصغيرة ، بين رائحة الكتب ، نشرب ونتحدث عمّا هو مهم . ولكن أولًا وقبل كل شيء لأنام . ثم يسمع اسمه ، ربما أكثر من مرة . ماذا؟ يستفهم ، وتملّكه شعور بأن غيرترود سألته ، ما الحياة يا غيسلي؟ الحياة بلاء ، أجاب . أليس هذا عذر أولئك الذين استسلموا . شيء ما في

نبرة صوتها أيقظه . والمرأتان نظرتا إليه . أنا جبان ، قال غيسلي وهو يرفع يديه كأنه يعتذر بهما .

غيرترود : النزاهة يمكن أن تجعل المرء شجاعًا ، لكن الحياة ليست بلاءً ، قد تكون قاسية ، وأحيانًا مُذلّة ، ولهذا السبب يستسلم عدد كبير جدًا من الناس ، هم أكثر ليونة أو أكثر وهنًا من أن يستمروا في ملاحقة أحلامهم . ولذلك ينحنون ، يرضون بما يجب ألّا يرضوا به . أنت والقس كيارتان يعرف أحدكما الآخر ، أليس كذلك؟

فغَرَ غيسلي فمه ، جلس هناك بفم فاغر فترة ، مكافحًا ليجيب على سؤال بسيط ، أهو والقس كيارتان متعارفان ، إذ فجأة راوده شعور بأن وجوده قد لُخّص ببضع جمل كشفت عن خيانته للحياة ، لنفسه ، ولتلك الأحلام التي راودته في يوم من الأيام ؛ وهو يعتقد أنها كانت أحلامًا جميلة ، ولا مكان لفريدريك فيها . أخيرًا أومأ برأسه ، قال : نعم ، نعم ، نعرف بعضنا جيدًا . خيّم الصمت على الصالة ، والفتى المتعب اضطر إلى الجلوس ، ولكن ما انفك ينقل عينيه بين غيرترود وغيسلي ، وقد خمّن وجود خطب ما ، شعر بالقلق ، بل حتى بالخوف . رزح ثقل الصمت الطويل على ناظر المدرسة ، وحملق في الفراغ ، رأسه يترنح قليلًا ، وهيلغا لم تزحزح عينيها عن غيرترود التي ابتسمت للفتى ثم نظرت إلى غيسلي . ذلك رائع ، رائع أنكما متعارفان ؛ أترى ، كنت أفكر في أن نجعل كيارتان يزوّجنا . غيسلي حدق في الفراغ بصمت قبل أن يقول أخيرًا ، تبًا أنا مخمور أكثر مما ظننت ، ثم هزّ رأسه ، من الواضح أنه أتى بهذه الحركة ليولي أذنيه الاهتمام . وهذا دفع غيرترود إلى أن تقول ، سأتزوجك يا غيسلي يونسون . وعندما لم يرد بكلمة ، ونظر بذهول فقط ، أضافت ،

كما لو أنها نسيَت ، هذا إذا وافقتَ . واصل غيسلي تحديقه في الفراغ ، وصالبت هيلغا ذراعيها ، مجرد تلميح لنفاد صبر يتبلور ، ولكن الفتى قال الكلام الأكثر وضوحًا ، ابتلع ريقه وهتف : أنا لا أفهم ، فنظر إليه غيسلي بامتنان طفولي .

مرّرت غيرترود إصبعها برقة على شفتيها ، قال لها ذاك الذي رحل قبل أن يداعبهما لسانه بأناة ، قبل أن تفرجهما قبلاته . بينهما حياتي . وربما موته أيضًا! مسدت شفتيها برقة وأغمضت عينيها ، لثانية فقط ، لم ير ذلك سوى الفتى ، لحظة الأسى تلك . نحن لا نفهم الكثير ، قالت ، القليل فحسب في الواقع ، إلا أن هذه هي الطريقة الوحيدة . أن أرتبط بكَ ، أضافت وهي تنظر إلى غيسلي ، وأنت ترتبط بي . ستنال حريتك وتتخلص من استبداد أخيك . أنا لست امرأة فقيرة كما تعلم ، وستحصل على الفرصة لتسافر إلى الخارج بانتظام ، وتشتري الكتب ، ولن تضطر إلى ارتداء ثياب قديمة ، ولن تضطر إلى الركوع لأخيك لتشتري معطفًا إنجليزيًا شتويًا ، ولن يكون عليك أن تجالس جنرالًا طاعنًا في السن ومتغطرسًا إلا إذا رغبت في ذلك . ستلقَّب طبعًا بأسماء نابية مختلفة ، الناس لا يتقبلون فكرة أن يكون الرجل ، في منتهى الوضوح ، الطرف الأضعف . فالمرأة في نظرهم ليس عليها أن تؤازر الرجل بالمنافسة ولكن بالمواساة ، وهي قطعًا يجب ألّا تتفوق عليه .

التفّوا حول سلسلة نوبور وداروا ببطء تجاه الشرق ، ولا يمكن أن يكونوا بعيدين جدًا عن فيك ، فهي تنكشف في مكان ما مثل عناق أخضر في ظل قسوة الجبال .

لا أعرف ما شعوري ، يفكر غيسلي وهو يغطّ إحدى يديه في البحر ، لمجرد أن يشعر بشيء ملموس . مرة أردتُ شيئًا ، أما كان متعلقًا بالشعر ،

بالإنجازات ، ببيت؟ يا إلهي ، تلك الأحلام ، أي طفولية تلك! يسحب يده من الماء ، وهي باردة من البحر ، هذا شيء ما محدد ومحسوس ، على الأقل الآن . يتفحص المركب ، المجدفون الأربعة ينضحون عرقًا ، وجوههم متوردة من بذل الجهد ، وعلى وجه الربان الأعمى تعبير غريب ، ذاك النزق المُسلي ، تعبير حافل بذكريات ألم ولكن أيضًا بذكريات بهجة . هل ستنحسر تلك البهجة حالما يخطون نحو الشاطئ؟ ترخي هيلغا بصرها ، كأنها غارقة في التفكير ، المرء لا يعرف مطلقًا ما تفكر فيه على وجه الدقة ، أهي سعيدة أم أنها لا تحتاج إلى السعادة ، أمثل هذا ممكن؟ خلفها يبتسم العملاق ، لا يستطيع غيسلي أن يتذكر اسمه ، شخص ما يعرفه الفتى ، واضح أن هناك قوة هائلة في كتفيه هاتين ، ولكن لا شيء سوى السماحة في وجهه . لا يزيح العملاق عينيه عن هيلغا ، وإلى جانبه هذا الفتى . «هل أُرسل إلى هنا من قِبل القدير أو من ذاك الشرير؟» كان كيارتان قد قال ، أو سأل في رسالة كُتبت في الربيع . اللعنة إن كنت أعرف ، يفكر غيسلي ، وهو يدسّ يده ثانية في المحيط قبل أن يحول عينيه نحو غيرترود الجالسة في صدارة المركب . يراود غيسلي شعور بأنهم كلهم يسيرون في اتجاهها ، أنها هي من تقود هذه الأرواح كلها ، هذا الجمع الغريب من الأرواح المطاردة بطرق مختلفة . يترك يده متدلية في البحر ويجدفون نحو القس كيارتان ، نحو عقد قران .

أتزوّجكِ ، قال ليلة أمس ، بعد إعلان غيرترود أنها تفكر في أن يعقد كيارتان قرانهما . أتزوجكِ ، قال غيسلي عندما استطاع أخيرًا أن ينطق ثانية ؛ حسنًا ، لم لا؟ رفع كتفيه بلا مبالاة كأنه غير متهيب من الفكرة ، إلا أنه ما لبث أن هزّ رأسه وصاح ، كما لو أنه تقريبًا قد سُري عنه ، لا

بدّ من أنك مجنونة! أن لا أنحني ، أن أرفض أن أعيش كما يُتوقّع مني ، ألّا أسمح للأوغاد أن يتحكموا بي ، ألّا أترك ذوي العقول الضيقة يُملون عليَّ أسلوب حياتي . نعم ، ربما ، أجابت غيرترود وابتسمت ، ابتسامة واهنة ، ابتسامة ضجرة . فقد أمعنت التفكير في هذا الاحتمال ، هذه الفكرة السخيفة ، في وقت سابق ، وأخذت وقتها خلال اليوم لتتحدث مع يوهان وثورون ، صديقتها وصديقة هيلغا وزوجة المصور كيتل . غيسلي سهل الإقناع قالت ثورون ، وسيصل إليك فريدريك من خلاله . أعتقد أنني أستطيع الحؤول دون ذلك ، أجابت غيرترود ، أعرف أنني قادرة تمامًا عليه . لكن هل تثقين بغيسلي؟ ليس بنقاط ضعفه ، لا ، لكن أعتقد أنني أستطيع السيطرة عليها . أيكفي أن تعتقدي أنك تستطيعين؟ ليس هناك أي عرض أفضل ، الحياة شيء مشكوك فيه ، والنتيجة عمومًا تعتمد علينا . أأنت متيقنة من أنه سيوافق؟ سبق أن وجّه لي نظرات ، أنا لست عمياء وأعرف ما لدي ، هو ذكي وسيدرك أنه سيربح قدرًا من الحرية تحت جناحي . ونعم ، أستطيع أن أعيش معه ، الدار كبيرة . وسأرسله إلى الخارج إذا سئمت منه ، الأفضل لم يكن متاحًا للعرض ، على أي حال ، كان جون متزوجًا و . . . والآن رحل . هذا إضافة إلى أن غيسلي ليس رجلًا مِملًا ، هو ليس أبلهًا ، ولا غبيًا ولا سمك قد ، وهذا ليس شيئًا تافهًا ، وآمل أن يكون عشيقًا بارعًا . ثم جاء دور يوهان . لا داعي لأن تظهر هذا الذهول كله يا يوهان ، الناس أجمع لديهم احتياجات . وبعد ذلك تكلمت مع سكولي المحرِّر .

سكولي! صاح غيسلي! ذاك المنافق ، لأي سبب؟ ما يكتبه عن هذا مهم . عن أي شيء؟ هذا الزواج؟

غيرترود : نعم .

غيسلي : أنا لم أقل أي شيء ، لا قلتُ نعم ولا قلتُ لا . حسنًا ، لا شيء على الإطلاق!

غيرترود : أعرف يا غيسلي .

غيسلي : وماذا عن اليوم؟ عندما لم أفعل شيئًا سوى مجالسة الجنرال الهرم ، ذاك النذل ، أستمع إلى تبجُّحه ، ولا فكرة لديَّ عن أي شيء مما يقوله ، بينما أنت رحت تناقشين فكرة الارتباط بي مع الآخرين بمن فيهم أيضًا ذاك اللقيط سكولي!

أعرف يا غيسلي ، كررت غيرترود بصبر ، كأنها تخاطب طفلًا تقريبًا . ثم قالت أنها ذهبت لترى كارولينا العجوز . أمي؟! زعق غيسلي وهو يقذف يديه في الهواء بيأس ، من غير أن يعرف أيجدر به أن يغضب أو يُصدم أو يخاف . وبالتالي فعل الشيء الوحيد الذي استطاع التفكير فيه : قذف يديه في الهواء مرة أخرى . ثم سأل ، من قبيل السؤال فقط ، أو ليحافظ على شيء من مظاهر احترام النفس : أيعني هذا أنك مجنونة فعلًا؟ لا ، قالت ، إنه مجرد التركيز على كفاحي من أجل الاستقلال ، قد يظنه بعض الناس جنونًا ، هذا صحيح . اجتمَعت بالعجوز ، لم يدم الاجتماع مدة طويلة ، نصف ساعة فقط ، كانتا متروِيتين في نقاشهما ، وعلى وجه التحديد لم تتعاملا ببرود فعلي . السفن الشراعية الثلاث التي تملك فيها كارولينا حصة أساسية ، والتي يفترض أن يرثها غيسلي ، ستوضع باسم غيرترود عندما تموت العجوز ، وسيقوم يوهان غدًا بإعداد عقد بهذا الخصوص مع هوغني رئيس المحاسبين في متجر تريجفي وشركته التجارية . سُفُني ، غمغم غيسلي بصوت واهن ، ما يعني حريتي . تعرف أمك جيدًا

كما أعرف أنك ستبدّد كل شيء على التوافه وتفقد السفن لصالح أخيك، لكنها ستكون لك إذا تطلّقنا، هذا في العقد. لم أعرف أننا متزوجان، قال غيسلي بلا مبالاة، مثل شخص لا يملك أي سيطرة على أي شيء.

يسحب يدّه من البحر البارد. المركب يتهادى قدمًا وغيرترود تنظر إليه. تبًا، إنها جميلة، يفكر، ويحشر يده ثانية في البحر.

*

الحبّ. قد يكون شخص ما ذكر هذه الكلمة في الليل فعلًا. شخص ما؟ مستبعدٌ أن تكون هيلغا، فالجبل لا يسترسل ويتساءل عن الحبّ، لعله الفتى. أهو من قال تلك الكلمة، الحبّ، تلك الكلمة القاسية، ذلك المُذنّب؟ لا، لم يقل الفتى شيئًا، فقط حدق بعينيه اللتين تشبهان عيني عجل عاجز، تلك الأغشية العجيبة التي تجعل المرء يتذكر أشياء مختلفة. أيكون هو نفسه من قالها، ربما؟ يحرّك غيسلي يده في البحر، وينحني ليصل إلى الماء. ذاك كان أنا إذًا، يبدو أنني لم أتعلم شيئًا في هذه الحياة.

الحبّ، كررت غيرترود، لا أعرفه، لكن أفترض أن العالم ليس فيه حبّ يكفي جميع الخلق، ما يعني أنه من المستحيل أن يتلقى كل فرد نصيبًا منه. أنا أحترم ذكاءك، علمك، وبعض الجوانب في تصرفاتك؛ من ناحية أخرى أنت ضعيف الإرادة ولن يكفّ أخوك عن محاولاته في دفعك هنا وهناك، كلاهما في الواقع، وحالما تموت أمك يتلاعبان بك باندفاع وبلا كلل. أنت المفضل لديها، بل قد أقول، بعد أن جلست

معها وجهًا لوجه وتحدثنا عنك ، أنت محبوبها . نقطة ضعفها . وفريدريك يحسدك على هذا ، بل ربما يكرهك بسبب ذلك في بعض الأحيان . لقد حافظ على إمبراطورية أبيك ووسّعها ؛ كل شيء يقع على عاتق فريدريك ، وبكل تأكيد تلقّى منها الثناء ، والاحترام ، إنما ليس الحنان إلا في ما ندر ، وسأواجه صعوبة كبيرة في الاعتقاد بأنها منحته الدفء . وأكاد تقريبًا أرى كارولينا تنتقل إلى هنا لتبقى قربك وهي تخطو خطواتها الأخيرة ، ولو أنني لا أتمنى ذلك ؛ الدار كبيرة ، إنما ليست كبيرة بما يكفي لاحتوائها . بسبب هذا كله ، سيقوم فريدريك بكل ما يستطيع القيام به ما أن ترحل . أنت تدرك طبعًا أنك بصفتك الرجل يمكنك بسهولة أن تأخذ ما أملكه ، القانون يبيح هذا ، لكن فريدريك سيسارع في الحال إلى مطالبتك به ، مع أي شيء تبقى من احترامك لنفسك . سنتزوّج ، وأنا سأضمن لك تحرّرك من أخيك ، لن يُسمح لك أن تقترب بما له علاقة بالأعمال ، إنما يمكنك أن تسأل بقدر ما تشاء ، تشارك بالأفكار ، لكن ، أولًا وقبل كل شيء عليك أن تتماسك وتقف منتصب القامة بقدر ما تستطيع ، تستمر في التعليم ، هنا وفي المدرسة ، وعليك أن تجلب ثقافتك ومعرفتك إلى هذه الدار . وسنحاول التعامل مع نقاط ضعفك عندما تطفو على السطح ، أما الآن فيجدر بنا أن ننام ، نحتاج إلى الاستيقاظ في وقت مبكر جدًا . وهكذا وقفت ، وقفت بثياب نومها المريشة التي عانقت جسدها . هل سنكون سعيدين؟ سأل البطانية ، بنبرة استجداء ، بنبرة مستسمحة . لا تكن سخيفًا ، أجابت بهدوء ، لكن تراءى له أن هناك شيئًا يشبه الابتسامة ارتسم على وجهها . بيد أنه لم يتجاسر على إمعان النظر . ستكون لديك غرفتك الخاصة طبعًا ، ومع ذلك أنا على ثقة من أنني سأراك في بعض

الليالي . رفع غيسلي رأسه وقد تضرج وجهه بالحمرة . تضرج بالحمرة على الرغم من المشروب والتعب ، على الرغم من أنه قد نجا وبقي حيًا طوال تلك السنوات الماضية ، على الرغم من مآسي الحياة ، من الأحلام المحطمة ، على الرغم من زحفه في قعر الليالي الثقيلة ليسكر من الجداول التي تنبع من الجحيم . تضرج بالحمرة ، ولا بد من أن هذا ما شجعه على أن يطرح أسئلة بدت أنها معلّقة في الفراغ : لكن ماذا سيحدث إذا كنت لا أستطيع مواجهة فريدريك ، إذا لم أستطع أن أعيش من غير أن أخونك ، إذا لم أكن أملك القوة في داخلي؟ إذا خنتَ ، تموت ، سُمع هذا من الفتى ، ولكن بصوت مشوب بالدهشة ، كما لو أنه توصل فجأة إلى استنتاج غير متوقع . ذاكَ ذاك إذًا ، قالت هيلغا قبل أن تنحني وتناول غيرترود الصندوق النحيل المسطح الذي كان مستقرًا على طاولة الصالة ، والذي لاحظه غيسلي من زاوية عينه مع أنه أبقى نظرته مثبتة على الفتى الذي قال ، المادة الثانية عشرة ، بند الدستور الثاني عشر ، وهو لديك ، وأنت تعرف الجواب أفضل منّي! فتحت غيرترود الصندوق وأخرجت مسدسًا . كان هذا يخصّ زوجي المتوفى غوديون ، قالت بتأنٍ . جاءه هدية وكان ينوي قتل نفسه به ؛ هذا قبل أن يلتقي بي . وأعطانيه بعد أن أوصاني أن لا أستعمله إلا إذا اضطررت لذلك ، إذا واجهتني حالة طارئة ، إذا تعرضت إلى تهديد خطر . قالها على سبيل الدعابة ، لكن ربما بجدية أيضًا . وازنت المسدس في يدها من غير أن تنظر إلى غيسلي الذي قال ، أنتِ قاسية!

غيرترود : لا ، أنا مجرّد امرأة في عالم الرجال .

٩

وصلوا إلى اليابسة قرب مصبّ النهر الذي يندفع نزولًا من مرج جبلي ، يتعرج تجاه مقرّ القس ثم إلى البحر ؛ النهر يهتدي إلى طريقه على الرغم من الضباب . إنه منتصف نهار صيفي ، إلا أن العالم صامت ، أسكته الضباب ، لا يسمعون إلا خرير النهر الذي يحمل حياة أنصال الحشيش ، أحلام بسط العشب ، دندنة أغنية ساحرة تنقرض في البحر . تقف المجموعة إلى جانب المركب ، تقف متقاربة ، كأنها تنتظر شخصًا ما ، تنتظر شخصًا ما أو شيئًا ما ليعطيها إشارة ويؤكد لها بأن لها وجود ، يؤكد الحياة ، أن هناك شيئًا بقي في الدنيا إلى جانب الضباب وخرير النهر المندفع قُدُمًا . يقفون هناك بلا حراك كحالهم في الصباح عندما جاءت ثورون والتقطت لهم صورة . صورة! قال غيسلي مأخوذًا بالمفاجأة ، إذ بالكاد كان واعيًا ، وما زال يعاني من صداع الثمالة ، متعبًا ، ومشوش الذهن . صورة زفاف يا عزيزي ، علقت غيرترود مبتسمة ، كما لو أن ذلك كله كان ممتعًا جدًا . إلا أنها لم تبتسم في الصورة ، جلست هي وهيلغا هناك وبدتا حازمتين ، ووقف الرجال في نصف دائرة خلفهما ؛ كولبين الذي بدا كأنه يحاول الابتسام ، أو

ربما التكشير ، الفتى جدّي ، ينظر إلى العدسة مباشرة ، كما لو أنه يحدق في عيني المستقبل ، في عيني الزمن نفسه ، وغيسلي يبدو عليه الإعياء والحيرة ، في عينه اليمنى حزن ، وشيء آخر في عينه اليسرى ، أما جفيندور فكان يبتسم ابتسامة عريضة كأن عينيه في تلك اللحظة بالذات أبصرتا سعادة عظيمة .

يتحتم علينا أن نهتدي إلى وجهتنا خلال الضباب ، تقول غيرترود . لا رغبة عندي في التعثر بحزم الأعشاب ، يعلن كولبين ، فالعجز وعدم الأمان في الظلام استقبلاه على الشاطئ . سأقودك ، تقول هيلغا . أنا لست حطامًا بائسًا ، يقول ، ومع ذلك يتعلّق بذراعها . غيسلي هو الوحيد الذي سبق أن كان في هذا المكان من قبل ، بمعزل عن الفتى ، لكن ذلك حدث مرة واحدة ، ولم يكن بكامل وعيه من شدة التعب في الصقيع القاسي والظلام والثلج . سنبدأ بتتبُّع مسار النهر ، يقول غيسلي وهو يقود الطريق . الفتى يحمل صندوق نبيذ . وهيلغا ربطت حقيبة حول خصرها وهي تقود كولبين ، جفيندور يأتي في المؤخرة ويحمل المؤن ، طعام للمأدبة وأشياء أخرى . ظننت أنه يفترض بنا أن نتتبّع طرف النهر الأيمن ، يهمس الفتى وغيسلي يمضي نحو شمال النهر ، ويقودهم نحو المنطقة الداخلية . سنترك القرار له ، تقول غيرترود ، لمرّة ، لن يستغرق منا التراجع وقتًا طويلًا ، ومن الجيد أن نمشي . أنا متأكّد من أن الضباب سينقشع قريبًا ، يقول غيسلي بعد أن قطعوا مسافة لا بأس بها ؛ عثر على درب يمكن تتبُّعه إلا أنهم تاهوا ، لا معالم بارزة هناك ، وخرير النهر شبه صامت . ألسنا في الجانب المعاكس من النهر؟ يسأل الفتى بحذر ، فينظر غيسلي إليه . صحيح يقول وهو يتنهد . تتناول غيرترود زجاجة من الصندوق ، زجاجة نبيذ أحمر فرنسي ،

وتدور عليهم الزجاجة ثلاث مرات قبل أن تفرغ . هناك بيت ، يقول الفتى بعد تقدُّمه في السير بعيدًا عن المجموعة ، ثم لا تلبث غيرترود أن تقرع على الباب الذي يميِّزه الفتى ، ما عدا أنه كان آنذاك محجوبًا بالجليد عندما خبط عليه ينز في ليلة نيسان تلك وبينهما حصان . وخبطات ساعي البريد أيقظت الكلاب التي ردت بالنباح ، لكنها لا تنبح الآن ، ربما بسبب الضباب ، وتبقى وراء ربَّة البيت التي تفتح الباب ، بشعرها البراق ، أشعة الشمس تلك ، وتقف هي وغيرترود وجهًا لوجه ، عتمة وإشراق . لا تبدو المرأة متفاجئة ، مع أن المرء لا يفتح بابه يوميًا ليجد مثل هذه المجموعة على عتبته . ستة أشخاص ، امرأتان أنيقتا الملبس ، وأربعة رجال ، اثنان منهما يحملان رزمًا ثقيلة ، الثالث بعينين تشبهان النوافذ السوداء ، والرابع ، نعم ، إنها تميِّز مدير المدرسة . مرحبًا غيسلي ، تقول وتنحني له غريزيًا ؛ لأنه رجل ذائع الصيت . لن تعثروا وحدكم على طريقكم بسهولة في الضباب وأنتم غير متآلفين مع هذا المكان ، تقول بعد أن سمعت غيرترود وإشارتها إلى المكان الذي يقصدونه ، وبالتالي تعرض عليهم زوجها ليرشدهم ، إذ لا تتوقع أن يستطيع غيسلي الاهتداء إلى الطريق ، وهو ما هو عليه من التميّز والشهرة . يرحِّبون برفقة المزارع الذي يمسك يد ابنته ذات الأعوام السبعة بينما يمشي إلى جانب غيسلي . ويبتسم المزارع يون لأن حدوث شيء ليس في الحسبان يمكن أن يكون طريفًا . يرافقهم الأب وابنته إلى بوابة المقبرة ، ومن هناك يستشفّون معالم باهتة من بيت القس ، كما لو أنها منظر محرّف . اِسمح لي أن أعطيك هذه لمساعدتك لنا ، تقول غيرترود وهي تأخذ قنينة نبيذ من الصندوق . ويحاول يون أن يرفضها ، المرء لا يأخذ شيئًا لقاء عمل بديهي كهذا ، مثل مرافقة الناس من مزرعة إلى أخرى في

الضباب القاتم ، ولو فعل ، سيكون العالم فاسدًا ، إلا أن شيئًا في أسلوب هذه المرأة يقنعه بقبول الزجاجة ؛ ينحني لها انحناءة خفيفة ، ويقول لابنته بصوت خفيض ليس من التهذيب أن تحدّقي هكذا ، ابنته التي واجهت مشكلة في زحزحة عينيها عن غيرترود ، عن ثيابها ، عن طريقة تصرُّفها ، ثم يعودان إلى بيتهما ، وقلب البنت يخفق بسرعة وهي تحمل دبوسًا نزعته غيرترود من قبعتها وأعطته لها ، وهو يحمل زجاجة النبيذ ، على الرغم من أنه لسوء الحظ لم يتجاسر على طرح السؤال الذي ما انفكّ ينخر فيه : كيف يشرب الناس النبيذ الأحمر؟

١٠

في وقت لاحق من تلك الليلة تحوّل الضباب إلى مطر كثيف ، إلى وابل شديد بحيث كانت هناك ظلمة كلية تقريبًا بين قطراته ، تلك القطرات التي هي عادة بشفافية البراءة . وانتهى الفتى إلى النوم في مكتب القس كيارتان ، يستنشق الغبار ، يستنشق الكتب ، يستنشق عشرات الآلاف من الكلمات ، والأفكار التي يفترض أن تكون قادرة على تحرير الإنسانية من قيودها ، وإن كانت لا تفعل ذلك دائمًا . استمَع إلى المطر ، كان يخبره شيئًا ما ، ثم نام . حتى قلبه لم يفلح في إبقائه مستيقظًا ، تلك العضلة التي لا تهدأ ، تلك المقطوعة الموسيقية ، ذلك الكهف المعتم . همس المطر بكلام ما ، ونام الفتى .

تتزوجان! كان القس كيارتان قد قال وهو يميل برأسه ، وتلك هي إشارة الدهشة الوحيدة التي بدرت منه ، وما عدا ذلك تصرَّف كما لو أن لا شيء يبدو أكثر بداهة ، بينما وقف غيسلي يمسح يديه بجانبيه مثل صبي خجول ؛ كانوا آنذاك في بهو البيت ، لم يطأوا الداخل بعد . وبصوت ليس مجردًا تمامًا من البهجة قال كيارتان : لمن ندين بالشكر على هذه الزيارة العظيمة والمميزة ؛ أيجدر بي أن أبارك الضباب؟ لا ، أجابت غيرترود ، هذا سيحدث

فرقًا صغيرًا . جئت أنا وغيسلي لنتزوج . تتزوجان ، قال كيارتان وهو يميل برأسه ، بينما خرجت زوجته آنا شبه العمياء من المطبخ وميَّزت الضيوف من هياكلهم الخارجية . قدَّمت غيرترود نفسها لآنا ، يد باردة صافحت يدًا دافئة . تشرَّفتُ بحضورك ، قالت آنا ، بجدية كبيرة بحيث ظهرت ومضة حياء لثانيةٍ في عيني غيرترود خرجت من مكان ما في ذلك الظلام . لم أجرؤ حتى على أن آمل ، قالت آنا ، أن يتزوج غيسلي ويحسن الاختيار في الوقت نفسه ، فليحفظكما القدير ويبعد عنكما سوء الحظ . فحنت غيرترود رأسها ، كما لو أنها تتلقى مباركة . كانت المراسم قصيرة ، والضباب كثيف جدًا ، بل حتى أكثف من السابق بحيث عانى الغرباء صعوبة في تلمّس طريقهم إلى الكنيسة . لم تُعزف أي موسيقى ، ولا شيء أُنشِد . أنغني؟ سألهم كيارتان على الرغم من أنه يعرف الجواب ، ثم قام بما طُلب منه أن يقوم به . لا أحد حضر المراسم سوى الفتى وهيلغا وكولبين وجفيندور ، وفي هذه الآونة حضّر الخدم المأدبة . غُلي حساء سمك التروتة ، وشوي اللحم بينما بارك كيارتان غيرترود وغيسلي في الكنيسة ، باركهما من خارج ظلامه الخاص ، باركهما زوجًا وزوجة ، والضباب يغشّي النوافذ . نظر كيارتان إليهما ، ونوى أن يقول شيئًا ، وربما فكر ، ما الكلمة التي يمكن استخدامها لجعل الحياة تستقيم ، ما الكلمات التي تهزم سوء الحظ ، ثم استسلم ، استسلم عاجزًا ، أجوف ، وباركهما بكلمات القدير القديمة والمستهلكة ، تلك الحلل الرثة المبتذلة التي ما زلنا نلبسها لأننا لم نجد غيرها ، بينما الواقع وصقيع الفضاء الخارجي يخترقانها بلا عوائق . إلا أن المأدبة كانت ممتازة .

يحاصر الضباب البيت ، وفترة العصر تحولت إلى مساء ، والمساء إلى وليمة ، وما انفك كيارتان يهزّ رأسه . أيؤلمك رأسك يا صديقي؟ سأله

غيسلي . وأجاب الآخر ، نعم ، كلما حاولت أن أفهم العالم . تحول الضباب إلى مطر ، ومثل ذلك الطعام الطيب ربما لم يسبق قط أن أُكل مثله في بيت كيارتان وآنا ، ولا شُرب مثل ذلك النبيذ الفاخر . عامل المزرعة الذي رافق في السابق الفتى وينز إلى المرج الجبلي وروى لهما حكايات عن القساوسة الأحياء والموتى ، ضحك ، ما بين تارة وأخرى ، ضحكته المعهودة التي تشبه الصهيل ، وسرعان ما ثمل ، بلبلته تشكيلة الطعام ، وبلبله حضور غيرترود ، فقد سبق أن سمع العديد من القصص عنها ، بل حتى روى بعضها بنفسه ، وهناك جلست ، إلى الطاولة نفسها ، مستقيمة الظهر ، وكل كلمة قالتها بدت مدروسة بعناية أو صحيحة بطريقة ما . النبيذ وحضورها هيمنا عليه ، صهل مرتين ، ثلاث مرات ، ثم حمله جفيندور إلى الكنيسة ، وهذا حدث قبل أن يصبح الضباب مطرًا ، حمل عامل المزرعة كأنه كيس . لا كثير من الجلَد هناك ، قالت غيرترود وهي تبتسم ، هذا مفعول تأثيرك ، قالت آنا ، وآنذاك فقط بدأت الدنيا تمطر . وليمة زفاف من الدرجة الأولى . ولا أحد عرف طبعًا ، ما البركة التي نزلت على العريسين : أمل بحياة أفضل ، حرية ما ، تعاسة ، أو العبثية؟ لكن أيًا ما كانت ، ذاك المجهول الذي لا يسبر غوره حدث . تزوجت غيرترود غيسلي ، تزوجت من عائلة مهمة ، هذه المرأة التي تحدّت جميع الناس ، وخرقت القوانين ، ارتبطت بأضعف حلقة في أقوى سلسلة ، أغرته بالوعود والاستقلالية ، هددته بمسدس ، وإذا خانها ستحشو المسدس بظلام عينيها وتصوِّبه نحو قلبه . بعد نصف قنينة نبيذ تجرّأ غيسلي على النظر إليها ، ولم يكن قط أكثر بعدًا عن فهم الحياة مما هو عليه . وبين فينة وأخرى بادلته النظر ، وفي تلك اللحظات فكر ، يا إلهي إنها تحتقرني! ثم لاحظ النمش

في وجهها ، فالضوء ، وللحظة ربما ، تسلط على وجهها بطريقة مختلفة ، فأظهر ذلك النمش ، عندئذ فكر ، لا ، هي تشفق عليَّ ، أيكون هذا أسوأ؟ تأمَّل النمش وفكَّر ، ماذا حلّ بأحلامي ، أيمكنني العثور عليها في مكان ما؟ إلا أن الفتى وقف في تلك اللحظة . لم يشرب الكثير ، وانتهى لتوّه من الغمغمة بينه وبين نفسه ، الحياة نجوم براقة ، فما كُنه الظلام الذي يتوسطها إذًا؟ قِف ، همهم قلبه ، فأطاع . سكت الحضور في الحال ، كأنهم كانوا بانتظار هذا ، سكتوا وحدّقوا في الفتى ، الفتى الذي وجّه نظراته إلى الأعلى كي لا يجبن ، رفع قدحه شبه الفارغ ونظر إلى الأعلى كما لو أنه يخاطب السقف ، أو ما كان في الأعلى ، المساء ، قطرات المطر ، السماء ، أو الإله . الحياة ، بدأ ، ينبغي أن تكون نجومًا براقة ، وليس شقاء مريرًا وأسى .

أولئك الذين يجمعون الأحذية ليقوموا برحلة مهمة يجب ألّا يموتوا . لا ينبغي أن يكون الموت رحلتهم ، إذ ما الوجهة التي يقودنا إليها غير الظلام؟ لطالما اعتقدت أن الكتب والمعرفة تجعل المرء سعيدًا . الآن أدرك أن ذلك ليس صحيحًا ، لكن أيضًا هذا هو الشيء الوحيد الذي أعرفه . الحياة شاقة ، إلا أنها ما زالت أسهل من الموت ، هذا الخسيس الذي يسرق كل شيء منا . أعني ، كلّ الإمكانيات . يأخذ عيوننا وبالتالي لا نستطيع أن نقرأ ، يأخذ آذاننا فلا يتمكن أحد من أن يقرأ لنا ، يأخذ أذرعنا فلا يتاح لنا أبدًا أن نعانق شخصًا يهمُّنا كثيرًا ، ولا نلمس مطلقًا أولئك الذين نريد أن نلمس ، وثمة أيد كثيرة جدًا ما عاد لها وجود . لا أدري أين اختفت ، وأنا أحلم بها في أغلب الأحيان ، لكنها ما عادت تستطيع لمس أي شيء . مرة ، وليس قبل مدة طويلة جدًا ، بدا لي أن طريقة الاقتراب منها ستكون عن طريق موتي أنا أيضًا . وفي سريرتي

عرفت أن ذلك خطأ . ومرة تلقيت رسالة تقول لي أنه يفترض بي أن أعيش . بيد أنني حينها لم أُدرك لماذا . لذا يجدر بكم أن تعرفوا أنكم لا يمكن أن تعيشوا لأنكم لستم أمواتًا ، ذاك زيف . يجب أن تعيشوا كالنجوم ، وتلمعوا مثلها . أدرك هذا الآن ، مع أنني لا أدري حقًا لماذا وقفت . تزوجت غيرترود اليوم ، تزوجت غيسلي . كلاهما واسع المعرفة ، وهي قوية ، بيد أن ما يعرفانه لم يساعدهما كثيرًا . وأشعر أنه بالنسبة إليهما ينبغي أن تكون الحياة شيئًا آخر غير التعاسة . لا أعرف من أين ينبع الظلام ، وفي الوقت نفسه أظن أنه يأتي من المكان نفسه الذي يأتي منه النور ، وأعتقد أن الظلام يستفحل لأننا نسمح له بذلك . أعتقد أن الوصول إلى النور صعب ، بل صعب جدًا في أغلب الأحيان ، لكن أعتقد أيضًا أننا إن لم نسع إليه فلا أحد سيجلبه لنا . لا القدير ولا المسيح الذي كان ينبغي ربما أن يأتي على شكل امرأة ، لأن العالم عندئذ سيكون مختلفًا وأفضل ، لن يجلبه لنا الحاكم ، ولا الزراعة ، ولا السفن ولا الكتب . الحياة لا شيء إذا لم ننطلق إليها بأنفسنا . علينا أن نحيا لنقهر الموت ، ذاك الشيء الوحيد الذي نعرف كيف نقوم به ويمكننا القيام به . إذا عشنا قدر المستطاع ، بل أفضل قليلًا ، لن يقهرنا الموت أبدًا . ولن نموت ، سنتحوَّل فقط إلى شيء آخر . وأنا لا أعرف الكلمات التي تشير إليه ، أعني لا أعرف كيف أصفه ، ربما بكل بساطة نتحول إلى موسيقى .

ثم سكت .

جلس ، ولاحظ فجأة الكأس في يده ، فعاد ووقف ، رفعه بشيء من التردد ، ثم همّ بالعودة إلى الجلوس ، لكن جميع الحضور وقفوا ، ورفعوا كؤوسهم ، والمطر روى حكايات قديمة على السطح .

لا يمكن أن أطلب مباركة أجمل من هذه ، قالت غيرترود ؛ الأمر بيدنا الآن يا غيسلي . نعم ، قال . تبًا ، قال وهو يفرغ كأسه لا شعوريًا . وياكوبينا ، الخادمة التي نزعت عن ينز ثيابه في مطلع نيسان ، وفركت الحياة فيه ، وبالغت قليلًا في ذلك ربما ، مع أنه كان من اللطيف جدًا أن تضع يديها في المكان الذي لا يفترض أن تقترب منه ، ثملت على نحو مذهل بما أنها غير معتادة على النبيذ الأحمر ، فراحت الكآبة والدهشة تتبادلان الأدوار في التأرجح على وجهها الجميل . أما كيارتان فاتكأ على الطاولة وقال للفتى ، أشكرك على خطابك غير التقليدي . لعله لم يكن بالضرورة خطاب زفاف نموذجيًا ، وكان يمكن أن يكون دينيًا أكثر ، وما كان يليق أن تقول أشياء كهذه عن المسيح ، إلا أنه في جميع الأحوال خطاب مُلهِم . فانبرت غيرترود تسأل كيارتان ، أنت تكتب؟ أنا؟ هذا ما قيل لي ، وتترجم أيضًا ، وهذا في الحقيقة معروف عنك أكثر . أنت كاتب إذًا . لا ، لا ، أجاب كيارتان مذهولًا ، مزهوًا بالإطراء ، وأفرغ كأسه . أنا أُغرق نفسي في الكتب أحيانًا ، هذا كل شيء ، قال وهو ينظر بعيدًا . واكتفى غيسلي بغمغمة شيء ما للطاولة . غير أن العملاق جفيندور عبّ نبيذه كأنه ماء ، وبين حين وآخر تلفّت حواليه مشدوهًا ، وقلبه الكبير يكافح ، أفرغ في جوفه كأسين قبل أن يدرك ما فعله ، وتبيّن أن هذا يفوق طاقة احتماله ؛ نهض ، غمغم بهراء ما ممتزج باللعاب ، ونجح فقط في الوصول إلى الخارج قبل أن يتقيأ النبيذ والطعام ، ذاك الطعام الرهيب بجودته . ويا لها من فضيحة . لكن كل شيء كان قد انهار من حوله ، زال ، تمزق ، الوجود الذي دار لسنوات حول بيتور وإينار وأندريا ، كوخ صيد السمك والمزرعة ، ذاك الذي بدا الأكثر مصداقية من أي مصداقية أخرى . جبل زُحزح فجأة وانتُزع من

أرضه ليكشف عن شيء مُربك وغامض . تقيّأ مرارة ، خوفًا ، عجزًا عن الفهم ، تقيّأ قلقًا ، وبدا كما لو أنه ينازع ، تهوّع ، جثم على يديه وركبتيه ، يرتعش ، ثم شعر بيدٍ على جبينه البارد الناضح بالعرق . أأنت الموت ، سأل ، بشي من الحزن والإشفاق على نفسه ، والقيء في أنفه ، ومذاق عصارة المرارة في فمه . والدموع في عينيه . لا ، أجابت هيلغا ، أنا لست على هذه الدرجة من السوء . ثم ساعدته ليصل إلى غرفة عامل المزرعة الذي كان يشخر في الكنيسة ، ساعدت الرجل الضخم ليرتقي الدرج بعد أن مسحت وجهه من الدموع والقيء . أوه ، أوه ، نشج جفيندور تقريبًا . حسنًا ، قالت هيلغا ، هيا الآن ، هيا . نزعت عن العملاق ثيابه ووضعته في السرير . هو أولًا ، ثم نزعت ثيابها ، واستلقت إلى جانبه ، تلك المرأة الجميلة ، استلقت بهدوء وتروٍّ ، وفي عينيها الرماديتين مسحة تقشّف . حلّت أربطة شعرها فانسدل مثل أذرع مفتوحة على ظهرها العاري ، وقليلًا فوق نهديها الصغيرين ؛ راحتاها أنعم من الغيوم ، مسدت ذراعه ، مسدت صدره ، مسدت بطنه ، أربيته ، ثم أوطأ ، جيد أن ليس كل شيء فيك هائل الضخامة ، قالت هيلغا ، لكن جفيندور أغمض عينيه حياءً ، ومن يدري ، لعله أغمضهما من السعادة . أمِن الممكن فهم هذه الحياة؟

١١

يدفع الفتى القارب بعيدًا عن الشاطئ ، مستمدًا قوة الدفع من الحصى ، فينزلق في البحر الهادئ . إنه الصباح ، لا يكاد الوقت يتجاوز السابعة ، وقطرات المطر تتآزر معًا لتسحن الضوء ، تحوله إلى شبه عتمة . يقفز إلى القارب ، ويقبض على المجدافين . لا شيء يضاهي البحر ، يقول كولبين .

لقد كان ذلك واضحًا .

لعله اتخذ القرار منذ زمن ، لكنه لم يمتلك الشجاعة ليعترف به . خشي أن يكون قد أساء فهم كل شيء ، خشى أن ينتهي الأمر إلى مصيبة إذا أقرّ به .

وقف في المساء السابق ، لأن شيئًا فيه أمره بالوقوف ، وهذا ما فعله ، وقال كل ما قاله عن الحياة ، عن الطاقة ، وعن الموت . تكلّم ، وفي الوقت نفسه اتخذ قرارًا ، أو بالأحرى اعترف به ؛ أن يأخذ قاربًا صغيرًا ، ويجدف شمالًا إلى سليتوري ، يجدف في اتجاه الشعر الأحمر ، نحو ما لا يعرفه . هذا ببساطة يجب أن يحدث . قلبه يطالب به . ذاك الذي يعصي قلبه يتحول إلى ظل رمادي . لا مشكلة في العثور على مركب صغير ، ما عليك

إلا أن تأخذ القارب، قال كيارتان محدّدًا له أين يجده. أتنوي الإبحار بعيدًا؟ لا أدري، أجاب الفتى، آمل أن أقطع المسافة كلها. يا للهول، قال القس. والمساء تبدّل إلى ليل وانهمر المطر بلا انقطاع على السقف، وكل قطرة منه توجّه التهم، وجفا النوم كيارتان، تمدّد في الغرفة الصغيرة الواقعة خارج غرفة النوم الرئيسة، وكل قطرة مطر توبيخ. أهي كلمة القدير؟ أم كلمة الحياة؟ لا أجوبة هناك حتمًا، فكّر كيارتان، مواصلًا الاستلقاء هناك بدلًا من الانضمام إلى آنا في غرفة نومهما، لعلها كانت تنتظره، تأمّل في أن يتجاسر ويأتي، أنه قد يكون قادرًا على التغلب على ما فرّقهما، التغلب على خيبات أمل الحياة. أنا قشٌّ متعفّن طرحه القدير جانبًا، فكر كيارتان وأغلق عينيه. غرق في رثاء الذات، أحد ذنوبه المهلكة، بدلًا من الذهاب إليها وسماعها تقول، قبّلني وقبّلني، لا تسمح لقبلاتك أن تقلّ عن عدد قطرات المطر المنهمرة على السقف، حوّل أطراف أصابعك إلى قُبل، قبّلني والمسني ومعًا سنجعل العالم صالحًا للسكن، قبّلني وسنحوِّل الصخور إلى أحواض زهور.

أتبادل غيسلي وغيرترود القُبل؟ أعلِمني ساعة تنوي المغادرة، قالت غيرترود للفتى. كان الوقت يقارب منتصف الليل، والمطر كان مطرًا، وهو أَولى ما قالته انتباهه، تسلل خارجًا مع بزوغ الضوء، وكاد يتعثر بكولبين الذي نام في الردهة ملتفًا حول نفسه على شكل كرة كما تفعل الكلاب. أراد الربان مرافقة الفتى، صمّم على مرافقته. مستحيل قطعًا، قال الفتى قبل أن يلاحظ، مروعًا، شيئًا يشبه التخاذل في وجه السُّلّوْر الهرم، كما لو أن جرحًا بدأ يتفتق، وعندئذ وافق بلا نقاش. تسلّل بهدوء إلى الطابق العلوي حيث غيسلي وغيرترود اللذَين ناما في غرفة الخادمة، وهمّ بأن

يهمس شيئًا للغرفة ، يهمس بأنه سيغادر ، إلا أن غيرترود كانت مستيقظة ، ونهضت من السرير في الضوء الخفيف ، ووقفت عارية ، فحوّل عينيه عنها . أنا ذاهب ، قال بعد أن خرجت من الغرفة وبعد أن ألقت على نفسها رداء . كان غيسلي نائمًا على ظهره كأنه ميت ، ما عدا أنه يشخر ، وهذا ما لا يفعله الموتى أبدًا . أعرف ، قالت ، إلى سليتوري . كيف عرفتِ؟ لعل مصيبتي هي أنني أفهم البشر ، اِذهب وإلا سيلازمك الندم دائمًا إن لم تفعل ، الأحلام التي تعاودنا باستمرار يمكن أن يكون تلاعبها بنا فظيعًا . اذهب ، ولكن عُد . لا تتركني وحدي . أنا؟ أفي وسعي أن أتركك؟ سأل متفاجئًا . غيسلي يشخر ، قال عندما لم تعلّق ، وشخير ناظر المدرسة تزايد بشكل ملحوظ ، أصبح صاخبًا . أيجدر بي أن أطلق عليه الرصاص من الآن؟ ومَن سيعلّمني إذًا؟ معك حق . بدلًا من ذلك صبّي عليه بعض الماء ، سيباغته هذا كثيرًا وبالتالي يتقلب وينام على جنبه ، وذلك سيخفف شخيره بدرجة كبيرة . حسنًا ، أترى كم أنا بحاجة إليك ، قالت غيرترود ، ونزلت معه إلى الطابق الأرضي لتجلب بعض الماء ، ثم ودّعتهما في الردهة ، وطبعت قبلة على جبين الفتى ، بدت أشبه بمباركة . أنت ذاهب أيضًا يا كلب البحر العجوز؟ أنت متأكد من أنه التصرّف الصائب؟ اتركيني أذهب ، قال ، توسّل . أفضّل ألّا أفعل ، قالت ، ومع ذلك عانقت ذلك السّلّوْر كما لو أنه شيء ثمين ، حضنته مثلما يُحتضن الحزن ، ثم صعدت إلى الأعلى ومعها ماء لتضع حدًا لشخير غيسلي . صعدت وعيناها السوداوان لا يمكن مقارنتهما ولا حتى بأحلك ليلة شتاء .

إلى هناك ذهبا مع انبثاق النهار ، الفتى وكولبين الربان ؛ الربان الأعمى بين كتبه ، الأعمى ضمن وميض الكلمات الفوسفوري ، وراحته القوية

متشبثة بكتف الفتى ، ومعًا تحسسا طريقهما قدمًا ، متجهين إلى البحر . رجلان ، لا يكاد يربطهما شيء سوى مسارهما نحو البحر ، وكفُّ الرجل الهرم على كتف الفتى .

كان الفتى سريعًا في قلب المركب ، في قلب القارب . سبق أن مرّرتُ يدي على توابيت أكبر من هذا القارب ، قال كولبين . بوجيز العبارة ، أترغب في مرافقتي؟ قال الفتى ، وهو يبتلع ريقه بصعوبة . منذ زمن بعيد كففت عن أن أرغب في شيء . لكنك ستذهب معي؟ هل انتهيت من حل حبال القارب؟ نعم . ماذا تنتظر إذًا؟ لا شيء ، أجاب الفتى من غير أن يتحرك ؛ لم يستطع ببساطة ، كما لو أن ضخامة البحر تغلبت عليه ، أو خوفه مما ينتظره ، مَذَلَّة أو حياة جديدة ، وفي هذه الحالة ، أي نوع من الحياة ، أيام من الكدح وخيبات الأمل؟ عِش . تلك صلاة أمّه ، أمه التي حملت اسم إيلين ، ولم يُتَح لها أن تعيش ، أمه التي اضطرت إلى أن تشهد موت ابنتها ذات السنوات الثلاث قبلها . ماتتا حينما عاد الربيع إلى الدنيا ، حينما ذاب رجال الثلج في الخارج ، العائلة بأكملها ، خمسة رجال ثلج ذابوا في الأرض مع ابتساماتهم ، مع بياضهم ، اختفوا من غير أن يتركوا أثرًا في الأرض المظلمة الرطبة . متى نذهب؟ سألت ليليا أمَّها ، ما عنت به : متى نذهب لزيارة شقيقيَ ، إلا أنها سألت بوهن كبير إلى درجة أن ذلك السؤال لم يُسمع إلا بشقِّ النفس . غدًا يا حبيبتي الغالية ، همست إيلين ، وسأضمّك طوال الطريق . أمسكت ليليا سبابة أمها ونامت ، سعيدة لأن كل شيء سيكون جيدًا ثانيةً غدًا ، أمسكت السبابة بقوة بدافع الحب الخالص ، ولكن ربما بدافع خوف الحياة العميق عندما تشعر بحضور الموت ، تشعر بالظلام . أمسكت بقوة وإيلين أراحت جبهتها على ليليا وفكرت

بكل ما أوتيت من عزم ، بكل خليَّة في جسمها الحي ، يجب ألّا تأخذها ، لا يجوز لك ، أتوسّل إليك ، غضّ النظر عن هذه الحياة ، هذا النور ، هذه الطفلة ، ارحمها ، أتوسل إليك!

لكن الموت يدوس على أمانينا ، على صلواتنا ، على يأسنا وقوّتنا ، هذا ما يفعله متى ما يسرّه ذلك .

«كنت أنا و بيورفن بصدد القيام بالكثير . كنا مقتنعَين بأننا شيئًا فشيئًا سنمهّد طريقنا خارج القهر اليومي ، ونحظى بحياة محترمة . حياة معكم فيها كتب ومعرفة ، حياة بهجة . لم نطلب الكثير ، لم نطلب الغنى ، بل ما يمكن أن نخلقه بأيدينا . لعل من المبالغ فيه أن نطلب الحب والسعادة في هذه الحياة ، في هذه الأرض! يا حبيبي ، يا ولدي الحبيب ، لقد بكيت كثيرًا جدًا بحيث جفّت دموعي ، فأي حيلة أخرى بيدي؟ ليليا معي في السرير ، قريبة مني . ليتك فقط تستطيع أن تراها ثانية! لطالما كانت في غاية السعادة ، ولطالما كانت تطفح بالحياة! وفيها لمسة مشاكسة . وكلما اعترتها السعادة زقزقت بطريقة لا تُقاوم ، بطريقة أروع من كل شيء له وجود . ليتك فقط تراها الآن ؛ هزيلة بشكل لا يصدَّق وعزلاء من أي سلاح ، زاويتا فمها الجميلتان بلا حياة . هي ممّددة في غاية القرب مني وفي الوقت نفسه ما عادت هنا ، بعيدة إلى أقصى حد ، هي التي ما كفّت قط عن الاستفسار عن كل شيء . كيف يمكن أن يتضمن العالم هذا القدر الهائل من القسوة؟ سأتمدد الآن لأنام إلى جانبها ، أنام نومًا أثقل من أن تتحمله الحياة . هذا ليس عادلًا . كان في داخلنا الكثير جدًا أنا وليليا ، وفي بيورفن ، وقريبًا سيصبح كل شيء لا شيء ، كما لو أنه ما وُجد قط . كما لو أننا ما عشنا قط ، ما ضحكنا قط ، ما تعانقنا ، ما قال أحدنا للآخر

كلامًا أهم من ألف سفينة محمّلة بالذهب . والآن سيتلاشى كل ذلك ، يختفي . الذهب لا يختفي أبدًا من العالم ، الحياة فقط هي التي تختفي . مع أن الذهب ليس إلا معدنًا باردًا ، والذهب لا يريح الناس ولا يجعلهم سعداء . أهذا هو العالم الذي تمنيت أن تراه يا إلهي؟ أين يذهب ما لدينا من حب ، أين يذهب كل شيء نفعله ، أين تذهب كل الأحداث التي أضاءت لنا الدنيا وغمرتنا بالسعادة؟ يا ولدي الحبيب ، ليتك فقط تحقق ما تلهّفنا على تحقيقه ، عندها ربما يكون هناك سبب لكل هذا . . . أنا جدّ مرهقة . يا ولدي الجميل . ليت ليليا تستطيع أن تصحو ثانية . أين أنت يا إلهي؟ عِش الحياة يا بني ، ما دمت قادرًا ، عِش!»

*

دفع كولبين القارب ، ووقف بساقيه المتهالكتين في الماء مستمتعًا بالقشعريرة التي أشاعها فيه ماء البحر المالح . لكن في بادئ الأمر فقط ، إذ سرعان ما داهم البرد أوصاله ونهشها ، فالتفت برأسه الأعمى نحو ما بدا له أنه تجاه الفتى . أأنت ميت ، أيها الفتى الأبله ، أتنوي تركي أتجمد حتى الموت هنا؟ زمجر قبل أن يخطو بحذر إلى القارب ، متحسسًا موطئ قدميه ، ثم جلس ومد يده متلمسًا المجاديف ، وهو يتمتم بشيء عن الجُبن لأقصى الحدود ، وأنه لا يمانع الذهاب وحده . حينها لن يكون هناك شيء يمكن توقعه ، بيد أن الفتى ما لبث أن انضم إليه ، أمسك مقدِّمة المركب بيده اليمنى ، ويده

اليسرى انفتحت وانغلقت في قفازها كأنها تلتقط أنفاسها . فالأسف على الموتى يملك القدرة على التلاعب بنا بكثير من الحيل القاسية . لا شيء في الدنيا كالبحر ، يقول كولبين .

يجدف الفتى وكل شيء متسق في تداخله ؛ الهواء مع السماء ، والمطر مع البحر ، ولهذا يصعب أن يميّزا ما إذا كانت حركة المجاديف تأخذهما إلى مسافة أبعد في البحر ، مسافة أعلى في الفضاء في انطلاقهما نحو السماء ، أو تجرّهما نزولًا في البحر ، نحو قاعه ، حيث خاتمة كل شيء . يجدف الفتى . وهما ، هو وكولبين ، الوحيدان المتبقيان في عالم من القتامة والخيبة ، ولعل هذا ما جعل الفتى يتجاسر ويقولها بصوت عالٍ ، أنه ما عاد متأكدًا من الوجهة التي يسلكانها ، لأنه ما عاد قادرًا على التمييز بين قاع البحر وقطرات المطر ، بين السماء وشبه الظلام . يربض كولبين محتميًا بمؤخرة القارب ، كأنه مقرور ، لسانه الثخين يظهر مرتين ، ثلاث مرات من بين أسنانه ، ثعبان أعمى في كهف معتم . الناس نادرًا ما يميزون الفرق ، يقول أخيرًا ، قلائل جدًا من يسألون ، وأقل منهم من يهتم بأن يعرف . يحملق الفتى في الفضاء ، تائهًا جدًا في أفكاره بحيث يغفل عن التجديف . اِستمر في التجديف وإلا أختنق ، يزمجر كولبين . معذرة ، يقول الفتى ويجدف حتى يتمكن كولبين من التنفّس ، حتى وإن كان الهدف من تنفسّه يبدو في بعض الأحيان مبهمًا جدًا .

الفتى : الآن بدأت أستوعب .

كولبين : الأبله سيهنئك ، والرجل الحكيم سيقدِّم لك التعازي ، وأنا لا هذا ولا ذاك .

الفتى : ماذا؟

كولبين : لا يسع أي شخص يمتلك عينين أن ينظر مباشرة في وجه الاستيعاب ، قليلة هي العيون التي تتحمله .

الفتى : ألهذا أنت أعمى؟

البقاء قربك ممتع تقريبًا ، يقول السِّلَّوْر وهو يتنحنح ويبصق ولو أن البصاق لا يستقر خارج القارب . ماذا تستوعب؟ يسأل بينما يجدف الفتى تجاه ما لا يسبر غوره . ما قاله لي القس كيارتان في الربيع ، من أن الناس أمثال كيركيغارد يشكلون خطرًا لأنهم يحرضوننا على مساءلة العالم ، وإعادة التفكير فيه .

كولبين : إنه يجيد التفكير .

الفتى : كيركيغارد؟

كولبين : القس كيارتان .

الفتى : على الرغم من هذا هو لا يشعر أنه على ما يرام . ولا غيسلي . وغيرترود أيضًا ليست كذلك ، مع أن لا أحد أعظم منها .

عينا كولبين الميتتان مسلطتان نحو المطر ونصف الضوء . التفكير لا يكفي ، الاستيعاب لا يكفي ، يقول وهو يلعق شفتيه ليذوق ملح البحر . لا ، يقول الفتى أو يسأل ، ويبدو أنهما قد جدّفا خارج العالم ودخلا في عالم آخر ، إذ في الحقيقة ، ينطلق لسان كولبين بالكلام . عليك أيضًا أن تملك القدرة لتحيا مع ما كل ما تراه وتستوعبه ، وهذا يتطلب أن تتزود بجرأة وطاقة أكثر مما لدى معظم الناس ، ولهذا السبب يتصيدنا سوء الحظ . وأنا كان يجب أن أموت منذ عهد بعيد . يبدأ الفتى في التجديف ثانية ، يجدف بقوة ، تجاه قاع البحر ، تجاه قطرات المطر ، والسماء . يجدف نحو وجهة قد لا

يكون لها وجود . يتقدم القارب ببطء والدنيا تمطر ، وبين قطرات المطر عتمة جزئية ، والفتى بدأ يجدف بعزم ، بعزم هائل ، بل حتى بحماسة ، الحماسة التي تحرم المرء من أفكاره ، من أحاسيسه ، هو غارق بالماء والعرق ولكن غير مبال بذلك ، تؤلمه يداه ويجدف ، كأنه يهرب من أسئلة العالم ، يهرب من سبب رغبة كولبين في مرافقته ، يهرب من ابتهالات أمه ، بأنه يجب أن يحيا حتى يشرق النور على الموتى ، يعيش ما حُرموا من فرصة عيشه . يجدف باتقاد وقتًا طويلًا ، إلى أن يسأله كولبين بخشونة ، ما وجهتك يا فتى؟ يرفع الفتى رأسه ، منهكًا ويميز معالم شيء ضخم وقاتم من خلال المطر . اليابسة ، هوه ، يقول ، والدهشة في صوته ، بل حتى التعجب ، كما لو أنه نسي أن هناك شيئًا آخر له وجود إلى جانب البحر . يهتز القارب ممتطيًا أمواجًا متصاعدة ولكن لطيفة ، ينحني الفتى ، يستند على مجدافيه المتدليين في البحر . ذراعان طويلتان تمتدان نحو قاع البحر . أتساءل أين نحن؟ يقول الفتى بعد أن استعاد الجزء الأكبر من تماسكه ؛ عرقه توقف عن التصبُّب ، وقلبه كفَّ عن القصف وضخِّ الطاقة في المجاديف . أين أردت الذهاب؟ يسأل كولبين على مضض ، كأنه ما عاد يبالي بسماع جواب ، عندئذ يقول الفتى ، ولو أنه لم يقل ذلك : إليها ، تلك التي تكتب رسائل عجيبة ، شعرها أحمر ، وحمرته القانية تخترق الجبال ، لديها طفلة صغيرة ، وهي فقيرة ، وأخشى أن الحياة معها ستكون صعبة ، وأني سأنتهي إلى الكدح في البحر بيدين عديمتي الفائدة ، وبأحلام ممزقة ، لا ، لا يقول ذلك ، يكتفي فقط بأن يقول : إلى سليتوري . لكن طبعًا تتضمن هذه الكلمة كل ما أشرنا إليه ، ولهذا السبب يرتعش صوته قليلًا . كان يجب أن تتوجه شمالًا وليس نحو الشمال الغربي . أعرف ؛ لكن أتعني أننا

قد أصبحنا الآن في الشمال الغربي؟ لا يرد كولبين ، لا يهتم حتى بأن يجيب ، فالجواب في منتهى الوضوح ، ثم إنه يحتاج إلى التفكير بأشياء أخرى ، وهي ليست بتلك البساطة . يحوّل الفتى وجهة القارب ويجدف نحو هذه الكلمة التي تجعل الحبال الصوتية تتراخى . يتبع اليابسة التي هي عبارة عن ظلّ قاتم ثقيل . يجدِّف بعزم ، بيد أن التقدم وئيد ، فهو تائه في أفكاره ؛ لقد حان الوقت إذًا .

بدأت الريح تهبّ . ترتفع الأمواج تحت القارب ، وقطرات المطر أصبحت مِدراسًا تضربهما الريح به . يبتسم كولبين . ابتسامة منيعة تبدل أسارير وجهه ، ابتسامة هي صف متناثر من الأسنان تحت عينين كامدتين ميتتين ، ولم يسبق للفتى قط أن شاهد ما يشبه هذه الابتسامة ، اجتاحته قشعريرة ، قشعريرة خوف . يقول بصوت مرتعش ، الريح تهبّ . يسفر وجه كولبين عن ابتسامة أوسع بكثير . نحن بعيدان عن الشاطئ ، يقول أو يسأل . ما يقارب خمسين مترًا ، يجيب الفتى . ما عاد الظلام كما كان ، كأن الريح استطاعت أن تنفخ الحياة في الضوء ، لا يتمكن الفتى من تمييز التفاصيل الصغيرة ، الصخور وبُسط العشب ، لكنه يلتقط لمحة من طيف ، طيف إنسان أو خروف ، طيف شيء ما . يتحتم عليه العمل بجلد ليبقي القارب ثابتًا . هل البحر عميق هنا؟ بالنظر إلى الأمواج ، نعم ، بعمق عدة أمتار . ما زال كولبين يبتسم ، ومن الصعب جدًا أن يشعر أي مخلوق بالارتياح وهو يشاهد مثل تلك الابتسامة . يعاود الفتى التجديف بقوة ، ويشعر بشيء ما في معدته ، قلق ، غثيان ، خوف . أنت بمأمن إذًا ، يقول الرجل الهرم . أنا بمأمن من ماذا؟ اِحتفظ بالكتب . الكتب ، ما الداعي لأن أحتفظ بها؟ يستفهم

الفتى وهو يجدف بمزيد من القوة، مقتربًا من اليابسة غريزيًا. لن أمضي أبعد من هذا، يقول كولبين، بنبرة انتصار تقريبًا، قبل أن يضيف، أنا أنتمي إلى البحر.

الفتى: لا أحد ينتمي إلى البحر باستثناء السمك. وأنت لست سمكة.

كولبين: ما أنا إذًا؟

أنت إنسان، يقول الفتى ويتوقف عن التجديف. إنسان! اسمع فقط ما تقوله. أنا وغد أعمى، حطام عاجز، لا أحد يجب أن يعيش هكذا. ولا أحد ينتمي إلى البحر، يكرر الفتى.

كولبين: أنتمي، كما لو أن أي أحد ينتمي إلى أي مكان! أنا وأنت لا ننتمي إلى أي مكان، هذا سبق أن رُتب. تعامل برفق مع الكتب، كلها لك، باستثناء كتاب واحد. أي كتاب؟ يسأل الفتى تلقائيًا؛ كتاب واحد يجعله فجأة ينسى الحياة والموت. أنت، من بين كل الناس يجب أن تعرف أي كتاب، إنه معي تحت معطفي. وأمنعك من أن تحاول أي شيء. امنحني شرف المغادرة بكرامة. لا هياج، لا صراخ، ولا هستيريا لعينة. عشت مدة طويلة عيشة وأنا أكثر الرجال تعاسة؛ ولا داعي لأن أموت على هذا المنوال. لكن، يقول الفتى، لكن يبدأ الفتى. لا لكن هناك، يقاطعه كولبين، ليس بعد الآن، وصلت إلى النقطة التي لا منطق فيها. ينهض، يقف على قدميه في القارب المتأرجح، يقف مستقيمًا مثل رجل فيه بقايا من احترام النفس، بقايا من الكرامة. والريح شرعت في تقطيع البحر، والماء يتطاير فوقهما وينهال عليهما، وكولبين يقف بسرعة ولكن بعزيمة لا تعرف اللين، غير هيّاب مطلقًا، يرفع ذراعه اليمنى، ربما كإشارة وداع، وإذا

بالفتى ينهض أيضًا ويقول شيئًا يشبه الصلاة ، صلاة إلحاد أو محاولة إقناع تصل إلى مسامع كولبين الذي يحتد فجأة وبسرعة يرفع إحدى قدميه ، وفي نيَّته مغادرة القارب ، والنزول إلى قاع البحر ، حيث سيعطيه الموت عينين جديدتين . عيناه اللتان تستقران في رأسه لا فائدة ترجى منهما ، بل هما في الحقيقة عديمتا الفائدة تمامًا إلى درجة أنهما تجعلانه يخطئ في حساباته ، يُخفق في رفع رجله مسافة كافية ، وهي مسألة بضعة سنتمترات فقط ، ثم إن اهتزاز القارب بذلك العنف يجعل حساب أي شيء صعبًا ، وبالتالي ما يفعله هو أنه يضع قدمه في المكان غير المناسب ، ليس في البحر ولكن على شفير القارب ، فيفقدان توازنهما معًا ، وينقلب القارب ويصبحان في البحر . رجلان لا يتقنان السباحة ، يصيحان ويشتمان . أين الكرامة الآن ، أليس لها وجود ، لا في الحياة ولا في الموت؟

١٢

عندما يكون المرء في البحر ، هو في البحر . حقيقة بسيطة تغني عن البيان بحيث يجب ألّا يصيغها أحد بالكلمات . لكن طبعًا ليس هناك ما يغني عن البيان والمرء في البحر ولا يعرف مطلقًا كيف يسبح ، هذا إضافة إلى خوفه من الغرق ومن أعماق البحر بقدر ما يمكن أن يتذكر . يجد نفسه بلا أي سابق إنذار وسط الأمواج الثائرة ، بينما كان في طريقه نحو هدف الحياة ، أو ربما هو طريق الافتقار إلى الهدف ، ثم ينتهي به المآل في البحر بدلًا من ذلك ، فزعًا يتخبط ، يبصق ، ويشتم ، والبحر يجذبه نحو القاع حيث ينتهي كل شيء ، حيث تتغير الأيدي وتصبح قناديل بحر باردة . ليس بعيدًا كثيرًا عن الفتى يتخبط شيطان أعمى ، جثة متحللة ، وتحت معطفه كتاب قيِّم ، وهذا الكتاب سيفسُد الآن ، الكلمات تتحمل البحر أما الكتب فلا . من غير أي تحذير سقطا في البحر الذي استقبلهما كما يستقبل أي أحجار أخرى ، أي قطرات مطر ، سقطا بشكل مفاجئ جدًا إلى درجة أن الربان الهرم كان على حافة الرغبة في الحياة مجدّدًا ، تلك القمامة ، ذلك الوحش الفظّ ، ولهذا يغرق وهو يكيل الشتائم ويبصق

لعنات سوداء، إنما ربما أيضًا لأنه ساهم أيضًا في إغراق الفتى الذي ساقته الحياة إلى دار غيرترود، هذا الفتى، مسكن الأحلام هذا، مسكن الحزن والأسف، صوت دخل حياة السِّلَّوْر جالبًا معه أخبارًا عن الموت والشِّعر، صوت كان مثل ذكرى شيء لم يعشه كولبين قط، ومع ذلك ما زال يفتقده، بقدر ما في ذلك من سخف. آيًا ما كان، سواء كان أسفًا أو غباءً، هما معًا في طريقهما إلى قاع البحر، سِلَّوْر أعمى وطاعن في السِّن، تحت معطفه كتاب، شعر انبثق من الظلام بنور عظيم. النور الذي أطفأ باردور وأوقد كل ما قصصناه هنا، كل ما قعقعنا به كي نغيِّر العالم، كي نسعى إلى القدير، إلى النسيان، إلى شاطئ جديد وجوارب جافة. كم من المناسب أن يغرق هذا الكتاب في البحر البارد. في مطلع شهر آب، تحت وابل مطر، يغرق في صمت البحر مع هاتين الروحين اللتَين جذبتهما قوة غامضة إلى الكلمات، أليس هناك جمال وتناغم في هذه المأساة؟ نعم، هذا مناسب، فيه جمال وتناغم. وأربع أيد تتلمس، عشرون إصبعًا، وصياح ولعنات وعيون شاخصة، ذكريات تغرق وتتحول بسرعة إلى ظلام، تدخل في حفرة سوداء أخرى. نعم. لعل ذلك مناسب، على الرغم من أنه مشين، ولا يطاق، لأن، على سبيل المثال لماذا لا يتاح لهذا الفتى أن يعيش حياة أطول؟ لماذا لا يتاح له أن يكبر في السن وهو طافح بالأحلام، يتحدّى نفسه، بل حتى يصبح شيئًا ويغيِّر بيئته بالأحلام، بتوقه إلى الجمال، بالعينين اللتين لديه، العينين اللتين كتبت عنهما شتاينان من سليتوري في مفكرتها أن «سيكون من الصعب نسيانهما»؟

يرفرف بذراعيه، لن تُكتب له الحياة، لا بالتأكيد، يركل بقدميه. هكذا مات أبي إذًا، يفكر، وأنا راحل بالطريقة نفسها. لكنني لا أريد أن

أموت ، لا أريد أن تصبح يداي قناديل بحر ، لا يمكن أن يطيّب المرء خاطر أحد بمثل هاتين اليدين ؛ أمّي! أين أنتِ ، ساعديني!

يصيح كولبين بكلام ما في اتجاه الفتى الذي يصرخ ، ماذا؟! اللعنة على الجحيم! يزعق النكد الهرم ، مع أنه لا يكاد يظهر من خلال ماء البحر الذي يتدفق إلى فمه حالما يفتحه ، ليس جيدًا أن يموت المرء وهو يصيح بألفاظ بذيئة ، يفكر الفتى وهو يحاول أن يخبط بذراعيه ليصل إلى الرجل الهرم ، ربما ليخفّف من وحدته ، لأن موت المرء وحده في منتهى القسوة ، لكن الأمواج تكنسهما هنا وهناك ، من غير أن تلقي بالًا على خوفهما وشعورهما بالوحدة . أنا آسف! يصيح الرجل المسن أو يبدو أنه يصيح ؛ أنا آسف ، تصيح هذه القشرة المهترئة ، هذا المخلوق النكد ، على الأقل ذلك ما يظن الفتى أنه يسمعه . يأمل أن سمعه لم يخنه ، وأن كولبين يصيح «أنا آسف ،» وليس «آه ، سحقًا .» يصيح كولبين أنا آسف والعالم يصبح فجأة جميلًا ، تتضاءل الوحشة ، يرد الفتى صائحًا بكلام ما يبدو مثل «شكرًا» و «وداعًا» ، يحاول أن يبقي رأسه فوق الماء ، لكن محاولاته تزداد صعوبة ، وقريبًا ستصبح أشدّ وأشدّ صعوبة بكثير ، بيد أنه ما زال قادرًا على إبقاء جسمه عائمًا ، يزعق مردّدًا اسم كولبين عدة مرات ولا يتلقى جوابًا . يتخبط ، يبكي قليلًا وأخيرًا يصيح للسماء ، لا شيء في نظري حلو من دونك! يصيح ثلاث مرات ، بكل ما أوتي من قوة ، يرسل صياحه إلى الأعلى مثل شعلة استنجاد ، مثل وداع ، مثل إعلان حب ، أو مجرد شيء يخلّفه وراءه ، لأنه لن يلبث أن يختفي ، يختفي نهائيًا ، وحينها لن يكون هناك إلا البحر بأمواجه ، والمطر الذي يقرع سطح البحر ، والأرض الراسخة القريبة وفي الوقت نفسه البعيدة جدًا . يطبق عينيه ،

يخبط بذراعيه بقوة تتضاءل ، ومع ذلك يستمر في خبط ذراعيه لأن واجبنا أن نحارب الموت ما دمنا قادرين ، أو حتى من الأفضل أن نحاربه مدة أطول مما نملكه من قدرة ، أولئك الذين يرحلون لا يعودون أبدًا ، نفقدهم ونفقد كل ما كان لديهم ، عيونهم ، ابتساماتهم ، حركات الأصابع ، كيف ناموا ، كيف حدَّقوا بِحَيرة في الفضاء ، كيف بكوا وقبّلوا ولمسوا ، كيف وُجدوا ، هذا كله يتلاشى حالما يمسّنا الموت . يختفي ولا يعود مطلقًا . مثل هذين الرجلين المتناقضين ، كولبين والفتى ، يختفيان ولا يبقى بعدهما شيء ما عدا سطح البحر ، وقارب مقلوب ، وريح تهبُّ ، ومطر ينهمر . ما كان حلوًا ذهب ؛ أين أنت يا حياة ، وأين اختفيت يا رحمة؟

في النهاية كلنا نتحول إلى صمت .

كينونتنا هي

أكثر ما نفتقد

كينونتنا هي أكثر ما نفتقد . ما نسينا كيف كان شعورنا وشرارة الحياة تتقد في صدورنا . تلك هي الأعجوبة الأعظم التي ما عرفنا مثلها قط ؛ من أين تأتي تلك القوة ، ذلك النور الباهر؟ النجوم تومض فوقنا ، الطيور تطير خلالنا ، ونحن قد قصصنا عليكم الآن حياة بأكملها . استرجعنا الكلمات من هاوية الموت ، من رحابة الحياة ، فخفقت القلوب وتفتّقت الجراح ، تذكرنا كيف جرى ذلك كله ، أو كيف لم يجرِ ، شددنا الرحال بعيدًا جدًا سعيًا وراء الكلمات بحيث لم يتبقَّ منا شيء . نحن الآن صمت تقريبًا . لكن ، لا حكاية يمكن أبدًا أن تُروى كاملة ، أو ، إن جاز لنا القول ؛ يستنشق الناس الهواء في القرن التاسع عشر ويزفرونه في القرن الحادي والعشرين . الوقت وهم ؛ وحدة القياس الوحيدة الصالحة للاستخدام هي الحياة . الناس لا يتغيرون أبدًا ، بغضّ النظر عن مرور الوقت ، ما نسمّيه السنين ؛ الأساليب تتغير ، أما البشرية فلا . إلا أن أكثر ما يؤلمنا هو أنه ما عاد لنا وجود ، إلا في هذه الكلمات . وهي قريبة من الحياة بقدر ما يمكننا الاقتراب منها . يحتفظ قاع البحر بأولئك الذين كان يفترض يعيشوا ؛ يغوص الفتى ببطء إلى هناك ، بأحلامه الكبيرة ، بالشّعر يخضخض في عروقه ، بالحيرة التي أسبغت عليه الجمال ، بالعينين اللتين كانتا أحيانًا جراحًا مفتوحة ، يغوص بكل هذا ، يغرق ، يخبط بذراعيه ، يفلح بشِق النفس في الصعود إلى السطح حيث يستقبله الجو الماطر . تلك كانت المرة الثانية ، أنا الآن أغرق للمرة الثالثة ، يفكر وهو يشعر بالبحر يجذبه إلى الأسفل ، ينظر حواليه لآخر مرة في حياته ، ينادي كولبين ولا يتلقى أي رد ما عدا صفير الريح . ويبكي . يبكي موت كولبين ، يبكي موته ، يغرق باكيًا ، وفيه يعتمل الحزن وتوق للحياة ،

لكن لا خوف . أولئك الذين لم يخونوا الحياة قط لا يخشون الموت . ثم ينتهي ذلك كله . ولن نقول المزيد . قريبًا سيُشغّل شخص ما صندوق الموسيقى ، وحينها ربما نسمع نغمات الخلود الخافتة .

أين ينتهي الموت

إن لم يكن في قبلة؟

تبًا ، يقول الفتى وهو يتهوّع .

في لحظة كان في البحر ، ويوشك أن يغوص إلى القاع للمرة الثالثة ، وفي اللحظة التالية يربض على يديه ورجليه ، يتقيأ ماء البحر والدهشة والحزن وقاع البحر . جلس وظهره على شيء قاس وخشن ، يغمض عينيه ويفكر ، أهذه هي الأبدية؟ أهي بهذه الظلمة البالغة ، بهذا البرد وأنا أتقيأ رابضًا؟ لا ، لا ريب في أنه ما زال ينازع ، هذا فقط يستغرق وقتًا أطول وأصعب بكثير مما توقّع . يُستحسن أن يطبق جفنيه . وهذا ما يفعله ، ويغوص مجدّدًا . لا ، لا أريد أن أغرق ، يفكر ، يبدأ في رفرفة ذراعيه ، فتضرب إحداهما وجه امرأة جاثمة أمامه ، لا تضع إلا القليل من الثياب ، وشعرها الأحمر يقطر ماءً . يكفُّ عن المقاومة ويقول ، ظننت أن الغرق سيكون مختلفًا ، أهذا هو الموت إذًا؟

يتهوّع مرة أخرى .

هذه المرة لا يخرج من جوفه إلا القليل ؛ ما عدا عصارة مرارة ودهشة . هل أنت حيّة فعلًا؟ يسأل . لماذا؟ يسأل ويعجز عن قول المزيد ، يجلس ثانية وظهره إلى السطح الصلب الخشن . وهي أيضًا ترتعش مثله . كولبين! يحاول الفتى النهوض على قدميه ولا يستطيع ، لم تتبق لديه طاقة كافية في العالم ليقف مستقيمًا . كولبين ، يقول بصوت واهن . أعرف ، تقول ، كنتما اثنين في القارب ، لكن لم أعثر في البحر على أحد غيرك ، الآخر اختفى . كولبين ، يقول الفتى ، وليس الآخر ، اسمه كولبين ، هو أعمى وكبير في السن وبائس . أو كان ، لا أدري . كان يجب أن أنقذه ، كان يجب أن أعرف لماذا أراد مرافقتي . يغلق عينيه ، يسمع البحر والريح ، وهما ليسا بعيدين عنهما . أين هما ، ولماذا هناك ما يواريهما . كيف وصل إلى هنا ،

وماذا تفعل هي هنا ، هل غرق كلاهما؟ يفتح عينيه ويسأل عن كل هذا . أنت بلا شك تطرح قدرًا هائلًا من الأسئلة ، تقول هي ، تلك التي سبحت لتنقذ الفتى ثم سبحت ثانية لتنقذ الآخر ، الآخر الذي اسمه كولبين ، أو مَن كان اسمه كولبين ، ولم تعثر على أحد . أمواج عاتية فقط . وكل ما استطاعت أن تفعله بعد ذلك هو العودة إلى هنا . إلى هنا ، يستفسر ، يستفسر ليهرب من التفكير في كولبين ، ليخنق دموعه ، هنا؟ أين نحن؟ ولماذا أنتِ هنا؟ وكيف تأتّى لكِ أن تتقني السباحة؟

علّمها السباحة رجل راشد ، هذا كان قبل فترة طويلة من قدومها إلى سليتوري . ذاك الرجل سبح أحيانًا في الأيام المشمسة الهادئة في الماء الضحل ، وطلب منه أناس كثيرون أن يعلّمهم السباحة ، لكنه رفض دائمًا ، وخزّن إتقانه السباحة كأنه كنز لا يمكن أن يلمسه أحد . ومع ذلك علّمكِ؟ نعم ، ولم يسامحني قط . لماذا؟ ظنَّ أنه إن فعل سأريه نهدي ، بل حتى ما هو أكثر ، اضطررت مرات عديدة إلى مقاومته ، الرجال وحوش . أنا رجل . أأنتَ كذلك؟ لا أدري . في هذه الحالة ما كنت لأسبح كي أنقذك . لماذا أردتِ أن تتعلّمي السباحة ، أنتِ لست بحارًا؟ إنه غباء رهيب أن تعيش في جزيرة ولا تتقن السباحة ، وعرفت أن ذلك سيفيدني في يوم ما ، ولذلك تجشمت عناء تعلُّمها على يد ذاك التيس القذر . وهو لم يسامحني قط .

أولًا لأني لم أسمح له بالحصول على ما يريد ، ثم ، وهذا أشعل فتيل كراهيته أكثر ، لأنني علّمت الآخرين السباحة ، فبدأ ينشر الإشاعات عنّي بأنها ، أي أنا ، سمحتُ له أن ينال وطره منّي ، وأن هذا ديدنها ، مجنونة

وفاجرة ، نهمة لمعاشرة الرجال ، الشبان والشيوخ على حدّ سواء ، وما كان يدخر أي جهد في الإسهاب . بعد وقت قصير أصبحت حاملًا ، وهذا على ما يبدو برهن للناس أن الرجل محقّ في اتهاماته . أصبحتِ حاملًا ، يقول الفتى . نعم ، حملتُ بسالفر ، تقول . كان ابن مزارع علّمته السباحة . شاب وسيم بقدر ما يمكن أن يكون عليه الرجال ، بذراعين مفتولتين يؤمَن جانبهما ، وصوت لطيف وكلام معسول . نوى تحمّل مسؤولية الجنين طبعًا ، إلا أن هذا كان قبل أن يتحدث مع ذويه ، وعندئذ أنكر كل شيء ، وتبيّن في النهاية أنه لم يكن قويًا . يعتقد الرجال أن حصولهم على أذرع قوية وكلمات صلبة كافٍ ليقال عنهم أنهم أقوياء . طُلب منها التخلي عن مكان إقامتها ، أو بالأحرى نُفيت إلى مسافة بعيدة مناسبة ، إلى الشمال ، إلى سليتوري . لكن الأمر كان يستحق ، ذلك الهراء كله ، الخيانة والكلمات السّامّة والذُّلّ ، إذ من دون سالفر ستكون حياتها لا شيء .

ثم لولا ذلك لكنتَ غرقت .

بعثت له الرسائل بسبب نزوة جامحة تقريبًا . ولعلها كانت تستدعيه ، لترى إن كان يتجرأ على الرد ، أو ، بعبارة أخرى ليتجرأ على المجيء . ولهذا خرجت في أوقات عديدة من اليوم ، لتترقب ، تجاهلت تأنيب ثورديس وتوبيخها على تسكعها اللعين ذاك . كانت تنحدر إلى الشاطئ ، تحدق نحو البحر كأنها تتوقع شيئًا ، مثل المغفلة لأن لا أحد جاء ، ليس من أجلها . ثم كفّت عن النزول إلى الشاطئ والوقوف هناك مكشوفة أمام الأعين ، وقررت الذهاب إلى ما بعد القرية ، وفي ذلك العصر بالذات خرجت إلى المطر ، شعرت أنه يتحتم عليها أن تذهب ، من غير طلب إذن بالخروج ، كانت عظامها قلقة ، ومشت مسافة طويلة ثم رأت القارب ، لمحت كولبين

يقف، لحته أولًا ثم لحت الفتى. رأتهما يسقطان في الماء. بلا تفكير قفزت وغاصت. نزعت معطفها قبل أن تدرك، طارت في الهواء قبل أن تدرك، وبينما هي تهبط فكرت، أوه، عسى ألّا أحطَّ على كتلة صخرية. كان ذلك في الواقع وشيكًا، احتكت بشيء، وخدشت نفسها. استغرق العثور عليه وقتًا، فالبحر كبير جدًا، والإنسان صغير جدًا، ثم سمعته يصيح، لكن ليس طلبًا للنجدة، بل كأنه يتلو شيئًا. أنحن في كهف؟ نعم، تقول. كهف بحري؟ نعم، تقول. ونحن محاصران؟ يسأل الفتى، بعد الاستماع عدة لحظات إلى هدير البحر في الخارج. نعم. ألا يمكنكِ أن تسبحي وتأتي بالنجدة؟ ليس في هذه الأمواج، إنها عاتية جدًا هنا. وأنتِ غطست من قمة منحدر؟ نعم.

حولهما عتمة جزئية، وظلام على مسافة أبعد في أعماق الكهف، ورطوبة وبرد. في الخارج تمزق الريح المطر، تشق البحر، والآن أولئك الذين في فيك قلقون، وربما هم واقفون عند الشاطئ، غيرترود وهيلغا بل حتى جفيندور، يدققون في البحر ولا يلمحون شيئًا خلال المطر. ما زالت جاثمة أمامه، ترتعش قليلًا، شعرها يقطر ماءً، خضله البحر، غطست من حافة منحدر وكادت تقتل نفسها على كتلة صخرية كي تنقذه. خرجَت من البيت يوميًا، عدة مرات في اليوم أحيانًا، لتترقب مجيئه. وماذا عن النرويجي؟ وماذا عن ينز؟ هذين الرجلين العتيدين. ترتعش. ليته فقط يتجرأ على وضع ذراعيه حول هذه الفتاة، هذه المرأة. لكنه في حالة ضياع. رائحة القيء ليست جيدة، وهو بدأ يجتاحه شعور رهيب بالبرد؛ كم يستغرق الوقت ليموت المرء في كهف بحري؟ لدى ألفايدر طفلة، والناس يجب ألّا يموتوا ويتركوا أطفالهم وحدهم، هذا أسوأ شيء في العالم، ولهذا

يقولها ، يقول إنها يجب ألّا تموت ، أنه محرَّم عليها أن تموت وتترك طفلتها وحدها ، يصيغها هكذا ، أن الموت محرّم عليها . يقول هذا الارتعاش من البرد ، والارتعاش كذلك من شيء آخر ، فقدنا ، نحن الذين أصبحنا تقريبًا صمتًا ، الكلمات التي تشير إليه . وهي ترفع رأسها ، تنظر إليه .

رائحة القيء ليست بوجه خاص محببة ، تقول .

هو : لا .

هي : يبدو أنك تناولت الكثير من الطعام أمس .

هو : نعم الكثير منه . كان هناك حفل زفاف .

هي : أتساءل ما إذا كان الزواج طريفًا . أكانا سعيدَين؟

لا ، يقول . أنا لست على يقين من أن هناك سعادة كافية لهذا العالم ، لأن الكثير من الناس يعيشون من دونها . لا أحب استنشاق رائحة القيء ، يضيف ، ولهذا السبب يتحركان مسافة أبعد في داخل الكهف ، هذا ممكن بتحسّس جدرانه ، معرّضين جسديهما لشيء من الكشط . داخل الكهف ظلام ، ظلام الأرض . الأرض تحتهما طرية ، وما فوقهما واطئ جدًا بحيث يكاد يكون من المستحيل أن يجلسا . سنستلقي ، تقول . نعم ، يقول وهو يستلقي .

هي : نحن مشبعان بالماء حتى العظام .

هو : ثمة سبب لهذا .

هي : أنتَ ترتعش .

هو : وأنتِ أيضًا .

إنه ليس البرد فقط ، تقول . ويقول هو ، أعرف . فتقول ، علينا أن ننزع ثيابنا ، إنها رطبة جدًا ، تقول ، نحن في قلب الأرض ، في باطن تجويف

منحدر، في الظلام، ما فائدة ثياب لا تحمينا من أي شيء؟ لا أدري، يقول. لنتخلَّص منها إذًا، تقول. وهذا ما يفعلانه، في الفسحة الضيقة، ثم يستلقيان عاريين، يرتعشان من البرد والحياة، بينما يسمعان جيشان الأمواج بوضوح عظيم، جيشان الموت. العالم الآن بعيد جدًّا. نعم، يقول، بقدر ما يبعد كوكب المشتري. وكم يبعد؟ ستمئة مليون كيلومتر. كوكب المشتري، تقول. نعم، يقول. ثم فجأة يبدأ في إخبارها عن رسائل أمه. ما سبق له قط أن أخبر أحدًا عنها. ولا حتى باردور. إلا أنه أيضًا ما سبق له أن استلقى عاريًا في حنايا ظلام الأرض، يرتعش من البرد، والبحر في الخارج، وكولبين قد غرق، وهو نفسه سيموت قريبًا. يحكي وتستمع. ثم تقول، الجو بارد، وتقترب منه أكثر، تضع ذراعيها حوله، ويفعل هو الشيء نفسه؛ لأن هذا ما تطلبه الحياة، هذا ما نطلبه، هذا ما يطلبه دمه. يقول الدم ضع ذراعيك حولها. فيضع ذراعيه حولها ويحدث شيء ما عدنا نعرف كيف نصفه. يخبرها كل شيء، تتدفق حياته منه، كما لو أنه يتمنى أن يضمِّنها في الكلمات قبل أن يفوت الأوان، قبل أن يسكته البرد وتعبه. ماتوا كلهم، يقول. ينز، يقول، كتبتِ أنه نجح في قطع الطريق كلها إلى بيته، كيف لكِ أن تعرفي؟ عندئذ تقول، أو تهمس، فهُما متلاصقين والهمس يكفي، متلاصقين جدًّا إلى درجة أن التنفُّس لا الهمس يكفي تقريبًا. تتنفَّس هذا عن ينز، أنه قام بزيارة سالفر.

توقَّف هناك ليلة واحدة وهو في طريق عودته إلى بيته. كانت سالفر قد نامت نومًا مضطربًا في الأيام السابقة؛ إذ كان يجب أن يأتي ينز قبل فترة طويلة. ولعل العاصفة التي اهتاجت هي ما أخَّره، لكن ليس إلى هذه

الدرجة . لربّما أودت العاصفة بحياته ، أو ، أسوأ حتى ، لعله لم يتجاسر على العودة إليها ، لقد باحت بالكثير جدًا آخر مرة ، قالت كلمات بدا لها أنها ما وُجدت قط في اللغة ، ناهيك عن كونها بين رجل وامرأة . وتساءلت ماذا لو أنها نفّرته وجعلته يلوذ بالفرار؟ أيقظها هياج الكلاب ، خرجت ، وأمعنت النظر ، ورأت على مسافة قصيرة من المزرعة حصانين ورجل على أحدهما . أجئتَ لتقبّلني؟ سألته سالفر . لا ، قال ينز ، فأطرقت لأن حياتها كلها مُلئت بخيبات الأمل ، ولم يكن مؤكدًا ، لم يكن مؤكدًا مطلقًا من أنها يمكن أن تتحمل المزيد من تلك الخيبات . جئت لآخذكِ معي ، قال ، متجاسرًا أخيرًا على قولها . كان يتحتم عليه أم يمرّ بكل ما مرّ فيه ليتحلى بالجسارة .

كيف تعرفين هذا؟ يسأل الفتى ، ويدرك الجواب في الوقت نفسه ؛ ابنتكِ ، يقول . نعم ، تقول . اسمها سالفر ، تيمّنًا باسم جدتها؟! نعم ، تقول ، نعم تجيب ألفايدر التي سبق أن تلقّت رسالة من أمها تخبرها فيها أنه «لم يأتِ ليقبّلني ، بل جاء ليعيش معي . خافت أخته كثيرًا جدًا عندما رأتني وهربت واختبأت . إلا أنها تتجاوز ذلك تلك الغالية .» لهذا سألِتني عن يدي ينز ، وهل يمكن أن تؤذيا أحدًا . نعم ، تقول . إنهما لا تؤذيان أحدًا . أعرف . أهو في حالة سيئة؟ فقد إصبعَي قدم ، وإصبع يد ، لكنه فاز بامرأة ، وهذه ليست صفقة سيئة . لا حتمًا ، يقول ، لكن يبدو أن البحر يقترب منا ، يضيف الفتى لأن هدير الأمواج تعاظم . نعم ، الكهف سيفيض بالماء عندما يرتفع المد ، كما يحدث الآن . هل سيغرقه الماء بالكامل؟ المرء لا يعرف أبدًا . يمكنكِ أن تنقذي نفسك . ربما ولو أن ذلك غير محتمل

في هذا الجو. لا تحاولي إنقاذي، يجب ألّا تموتي وتتركي ابنتك، يجب ألّا تموتي وتتركي أمك؛ اكتبي إلى غيرترود وأخبريها كيف انتهى هذا. ومتى ينتهي هذا؟ تسأله قبل أن تقبّله فجأة، تقبّله والشعور بذلك جيد، بل أجود من جيد بكثير في الواقع. تمسد وجنته برؤوس أصابعها، تمسدها كما لو أن أصابعها كانت تستظهر وجهه. يضطجعان ملتحمين والبحر يتسلل إلى الكهف رويدًا رويدًا ليغمره بمائه، ويفكر الفتى بكل ذاك الذي اختبره، يتذكره بحذافيره، يتكوم كله على اللحظات التي كان خلالها في داخلها، وجميع من ماتوا جاءوا إليه، كل ما فقده وأسف عليه، وخارجًا في جوف البحر، يتقلب جسد كولبين ويضطرب، الربان الذي صاح أنا آسف، صاح بتلك الكلمة الجميلة، الكلمة المحزنة، ثم غرق ومعه تحت معطفه مجلّد شِعر عن الحياة والموت. صاح مناديًا الفتى، وربما مناديًا الحياة أيضًا، ونحن نفعل مثله، نصيح ونقول للحياة نحن آسفون، نقولها للسماء، لما لا نفهمه، وهما مستلقيان ملتحمين والفتى يبكي، غير قادر على منع نفسه، تسيل الدموع وتشربها شفتاها، ذلك السمك الشفّاف، عقد اللؤلؤ البرّاق ذاك والذي بوساطته نسحب أنفسنا ونصعد، نصعد من الأعماق الغامضة نحو ما نأمل أنه أكبر من كل شيء آخر، نرفع أنفسنا عاليًا ونخلّف الكلمات وراءنا في الموت. أشكركَ لأنك بكيت، تقول. أنا الآن مستعد للموت، يقول وهو يسمع البحر يسعى إليهما، يسمعه يندفع مقتحمًا الأرض المظلمة، كما يفعل الموت، ككل ما لا نفهمه، ككل ما استيعابه مستحيل. قبّلني ثانية فحسب، تقول، والكهف سيتوقف عن الفيضان. نعم، يقول، إذ، من أين تبدأ الحياة، وأين ينتهي الموت إن لم يكن في قبلة؟

هذا الكتاب:

تأخذ رواية «قلب الرجل» بيد الفتى وتقوده نحو البوتقة التي تاق إلى الانصهار فيها، بعد أن بلغ ذروة الإدراك الذي لا شيء بعده سوى الصمت. نجا من غضب البحر والثلج وعاد تتنازعه مشاعر مبهمة إلى البلدة الساحلية ليرسخ قدميه فيها وسط تناقضاتها وكل ما تعج به من فضيلة ورذيلة. بلدة تسوطها الرياح ويلسعها الصقيع تعتاش من البحر وتموت فيه. يستمد أهلها صلابتهم من الجبال العتيدة وتتسلل الرقة إلى قلوبهم من مروجها الخضراء التي تخترق الصخر كأنها الأحلام.

هذا الكتاب رحلة استكشاف جوهري للحياة والحب والرغبة والشهوة وتحدٍّ للموت. يجمع بين التسامي والبساطة، وتنبع كلماته من فؤاد شاعر وبصيرة فيلسوف.

قلب الرجل، مقطوعة موسيقية من جزيرة نائية تعزفها أوتار الحياة.

ISBN 978-91-87333-80-4

دار المنى